شاكر نوري

خاتون بغداد

بطور

شاكر نوري

خاتونْ بَغداد

رواية

*الغلاف للرَّسام العِراقي المُقيم في كَندا: مَحمود فَهمي عَبّود.

إلى رَجاء... التي أهدتني ثمارَ السَّماء: كِنان ورِكان وأُرجُوان....

*"يمكنُ للتاريخِ أن يأخذَنا إلى أيّ مكانٍ، شَريطةَ أن نَخرجَ مِنْه. "

كلود ليفي شتراوس

"الواجبُ الوحيدُ المُترتّبُ علينا حيالَ التاريخِ هو إعادةُ كتابتِه"

أوسكار وايلد

"التاريخُ بحركاتِه وحُروبِه وثوراتِه المُضادَّة وهزائمِه الوطنيَّةِ لا يَهمُّ الرِّوائي بوصفِه مَوضوعًا للوصْفِ والتّشهيرِ والتَّفسيرِ، فالرِّوائيُّ ليسَ خادمًا للمُؤرّخين، وإذا كان التاريخُ يَسحرُه، فذلك لأنَّه مثلُ مِصباحٍ كَشّافٍ يدورُ حولَ الوُجودِ الإنسانِي ويُلقي ضياءَهُ عليه، وعلى إمكاناتِه غيرِ المُتوَقَّعة التي لا تَتَحقَّقُ وتظَلُّ غيرَ مَرئيَّةٍ ومَجهُولةٍ في الفتراتِ الرَّاكدَة، عندما يَكونُ التاريخُ ساكنًا".

ميلان كونديرا

*"يُمكنكُم أنْ تَعتمدُوا على شيءٍ واحدٍ.. لن أُشاركَ أبدًا في صُنعِ مُلوكٍ مرّةً أُخرى. إنَّه ضَغطٌ أكبرُ مِنَ الّلازمِ".

مِسْ بيل

1

---

11 مارس 1917

السيدةُ الإنجليزيَّةُ بحذائِها ذي الكعبِ العالي

مرّتْ مئةُ عامٍ، هذه الدورةُ الكونيَّةُ المُخيفةُ مِن الزّمنِ على دخولِ الآنسة الإنجليزية، بحذائِها ذي الكعبِ العالي وقُبَّعتِها العَريضةِ، وأزيائِها الباريسيَّةِ، ومِشيتِها المُتبختِرةِ إلى بَغداد، مُنتصرةً ومُظفرةً وفائزةً، وقد ألهبتْ خيالَ البغداديّين ولا تزالُ تُثيرُ ظمأَ فُضولِهم، وهي ترى أمامَ عينيْها قِطعاتِ الجَيشِ الإمبراطوري البريطاني تحُلُّ في الأرضِ التي طالَما حَلمتْ بها: بلادُ الرافدَيْن. وهي تَلفظُ كلمةَ مِيسوبُوتاميَا بكلِّ شغفٍ وحَماسٍ كأنَّها قائدُ أوركسترا يعزفُ لحنًا خالدًا لِهذه المدينةِ، أنغامُ نوطاتٍ مُعطرّةٍ بشمسِ بَغداد، عسى أن تُذيبَ بعضَ ثلوجِ لندن المُتجمِّدةِ في أعماقِها. كانتْ على مَوعدٍ مع هذهِ المدينةِ، تَلفحُ جَسدَها الطَّبشُوري الأبيضَ، وعيونُ العِراقيّين تَنفتحُ على وُسعِها، وهي تنظرُ ببُرودٍ إلى غَرائزِهم البِدائيَّةِ التي تَتدفَّقُ مِنْ مَساماتِ جُلودِهم وكأنَّهم حيواناتٌ لم تعدْ تُسيطرُ على نَزواتِها. هل مِسْ بيل إلَهٌ أم نصفُ إلَه؟ احتارَ أهالي بغداد بها وهم يُحاولون استعادةَ هالتِها البيضاء التي أصابتْهم بعَمى الألوان، ولم يَعودُوا يُفرِّقون بين هذه المرأةِ وبين الآلِهةِ التي سكنتْ مَعابدَهم ردحًا مِنَ الزَّمن.

لم يَتمكَّنْ قرنٌ كاملٌ مِن مَحوِ آثارِها، ولم يُزعْزِعْ لمَساتِها على التاريخِ وبصورةٍ أقلَّ على الجُغرافيا، تَنقيباتٌ هامتْ بها هُنا وهُناك. ولا يزالُ مَنظرُها يَلتصقُ في أذهانِ الكبارِ والصِّغارِ. يتذكّرُ الشُّيوخُ والعَجائزُ صورتَها المُضحِكةَ وهي تَتعثَّرُ بحذائِها ذي الكعبِ العالي، بِأحجارِ الطَّريقِ المُبعثرَةِ، وتَكادُ تَسقُطُ على وجهِهَا وتَتكسَّرُ أسنانُها البيضاءُ الصغيرةُ. هل كانتْ تلكَ المِشيةُ باستقامةٍ واعْتدادٍ نوعًا مِن التَّحدِّي أم النَّزوةِ أمْ الغوايةِ؟ حاولَ العِراقيّون طرحَ السُّؤالَ بشتَّى الطُّرقِ ليَتوصَّلوا إلى الإجابةِ لكنَّ طعمَ العلْقمِ لا يزالُ يَسمِّمُ حُلوقَهم ويُصيبُهم بالغصَّةِ. مِسْ بيل، يا فاتنةَ الغربِ، ماذا تَفعلينَ وسطَ خرائبِنا؟

جعلتْ تلكَ الطلّةُ النساءَ العِراقياتِ اللّاتي يَحبسْن أنفاسَهنّ وراءَ أبوابِ بُيوتِهن، والمتُلفعَّاتِ بعباءاتِهنّ السوداءِ الكالحةِ، يُحمْلقن بهذهِ المرأةِ النَّحيلةِ القَوامِ مِنْ ثُقبِ الأقفالِ في بوَّاباتِ مَنازلِهنّ، ومِنهنّ مَنْ تجرّأتْ على فتحِ البابِ لتُلقي نظرةً فُضوليةً على هذه السيَّدةِ، وهي تَتعثَّرُ بالحِجارةِ المُنتشرةِ في أزقّةِ أحيائِهنّ البغداديَّة، وعلاماتُ تعجُّبٍ واستفهامٍ ترتسم على وُجوهِهنّ مِنْ اكتشافِ كائنٍ غريبٍ غَزا كوكبَهُنّ دونَ إنذارٍ، وهُنّ يَحصُرْن ضحكاتِهنّ وقهقهاتِهنّ ودهشَتِهنّ في صُدورِهنّ، ويُبادِرن إلى إشعالِ أعوادِ البَخورِ والحَرملِ مِنْ أجلِ طردِ أشباحِ الأرْواحِ الشرِّيرةِ، وبالذَّاتِ روحُ هذه الجِنيَّةِ خشيةَ أن تَدخلَ روحُها إلى بُيوتِهنّ، ولا تَخرجَ مِنْها، تلكَ الحشمةُ التي راكَمَها الأتراكُ العُثمانيُّون على مرِّ خمسةِ قرونٍ في نفوسِهنَ أصبحتْ قدرَهُنَّ. أهيَ تجنُّبُ شُرورِ الغَريزةِ في أجْسادِهنّ أمْ رُسوخُ المُعتقَداتِ في أعماقِهنّ؟ وبدَأنَ بالتَّساؤُلِ: هلْ هذه المرأةُ الأجنبيَّةُ القادمةُ مع الجُيوشِ البريطانيَّةِ طيفُ شُؤمٍ في سمائِهنّ؟

يا إلهي! تقولُ إحداهُنّ للأُخرى:

انظرِي كيفَ تَسيرُ هذه الإنجليزيَّةُ بحذائِها ذي الكعبِ العالي؟

وأُخرى تُجيبُها:

انتظري قليلاً، سَتَتعثَّرُ بحَجرةٍ وتسقط على وَجهِها.

وتُضيفُ أُخرى:

إذا لم تَسقطْ، فَستطيرُ إلى السماءِ بِهذا الكعبِ العالي.

كنَّ يَضعْنَ أيديهِنّ على أفواهِهنّ في عَلامةٍ على هَوْلِ الدَّهشةِ والتَّعجُّبِ والذُّهولِ، وردِّ فعلٍ غريزيٍّ ضدَّ كلِّ غريبٍ يَطأُ محلَّتَهنّ.

لماذا لا تُلقِي على رأسِها سَطلَ ماءٍ مِن السُّطوحِ؟

قَهْقَهَتْ النساءُ، لكنَّ امرأةً حكيمةً بينَهنَّ، أجابتْها:

هل مِنْ شِيَمِ البغداديَّات أن يُعاملْنَ الغُرباءَ هكذا؟

وانزوَيْنَ وراءَ أبوابِ بُيوتِهنّ يَقرأْنَ الفاتحةَ علَّها تَطردُ الأرواحَ الشَّريرَةَ عنْ بُيوتِهنّ، هذا آخرُ زمانٍ أن نَرى الجِنيّةَ الإنجليزيَّة! أمَّا الرّجالُ الجالسُون في المَقاهي أو الّذين يقِفُون أمامَ الدَّكاكينِ أو يَتسَكَّعُون في الأزِقَّةِ، فأبْدُوا إعجابَهُم بحذائِها ذي الكعبِ العالي، وقبّعتِها العريضَةِ، وفُستانِها الضَيّقِ، لكنَّهم لم يُعجَبوا أبدًا بقوامِها الرّشيقِ. إنَّها مثلُ قصبةٍ يا جَماعَة! لم تَكنْ مغريةً في نظرِهم، فالأجسادُ البدينةُ، المُمتلئةُ، ذاتُ الأردافِ العريضةِ، هي وحدَها التي تحرِّكُ مُخيِّلَتَهم وغرائِزَهم، وتُسيلُ لعُابَهم، وتَبعثُ ثرثراتِهم الطويلةَ.

أيُّ جمالٍ يمنحُهُ الحذاءُ ذو الكعبِ العالي إلى ساقَيْ الأُنثى؟

جمالٌ لا نهايةَ له، هل هي إحدى حُورِ العِينِ التي ضلَّتْ طريقَها إلينا؟

لكنَّهم لم يَنتقلُوا بعدُ إلى الجنّةِ، هم ما يَزالُون على الأرضِ.

يا رجلْ... هذه المرأةُ الإنجليزيَّةُ جاءتْ مع جُنودِ الاحتلالِ، رُبّما تكونَ هي قائدتهَمُ، مَنْ يدري؟

نحن لا نعرفُ الحذاءَ ذا الكعبِ العالي، رُبّما هو سرٌّ مِن أسرارِها، يُقالُ إنَّ الرِّجالَ الإنجليزَ لا يَتعلَّقون بالمَرأةِ إلا إذا كانتْ تلبسُ حذاءً بالكعبِ العالي، حتى شوارعُهم تسمحُ بذلك، فهي ليستْ مثلَ شوارِعنا المليئةِ بالحَصى والأحْجار.

يا رجلْ. الكعبُ العالي سِحرٌ، لا يجعلَ المرأةَ أكثرَ طولاً وجمالاً ورشاقةً بلْ أكثرَ غُموضًا وسِحرًا.

بل وأكثرَ إغراءً وشَهوانيَّةً.

تَبدُو مثلَ إحدى المُحارباتِ الفارسيّاتِ اللّاتي جِئْنَ على صَهوةِ جوادٍ إلَيْنا عبرَ الحدودِ. هكذا يَبدُو الكعبُ العالي على شكلِ خِنجرٍ أو وتَدٍ أو مثلَ أحذيةِ رُعاةِ البقرِ، ساقان مَحمولتانِ على الكعبِ العالي، وهي تُدوِّرُ عجيزتَها أثناءَ السَّيرِ، لكنَّها لم تُثِر أيَّةَ غرائزَ عند هؤلاء الرجالِ المَكبوتين على مرِّ القُرون، لأنَّها لم تكُنْ المرأةَ المُغريةَ التي تزورُ العِراقيّين في أحلامِهم وخَيالِهم لأنَّهم التصَقُوا بالنساءِ البَدِيناتِ كما يَظهرْنَ في لوحاتِ القرنِ التاسعِ عشرِ في نُسخِها المُزيَّفةِ التي ملأتْ أسواقَ الخُردةِ في بَغداد بعدَ دُخولِ الإنجليز.

الأفنديَّةُ يَتحصَّنون بأفكارِهم بعيدًا عن الناسِ، لكنّ ثرثراتِهم لم تتوقَّفْ عن هذهِ السيِّدةِ الإنجليزيَّةِ التي لم تَتردَّدْ في زيارتِهم إلى مَقاهِيهم البغداديَّةِ في شارعِ الرَّشيد. فيما الرجالُ الشَعبيُّون يُردِّدُون: ماذا نفعلُ بهذهِ المرأةِ النَّحيلةِ في ليالِي بغداد الباردةِ؟

يا رجلْ، هههههه، إنها تُزيدُكَ بردًا في الفراش.

يا جَماعةْ، هذه السيّدةُ ضابطةٌ مُهمّةٌ تَحملُ رُتبةَ مِيجور في الجيشِ البريطانيّ، هل أنتُم مَجانينُ لِتَتحدَّثوا عنها كامرأةِ ليلِ؟

مَنْ يَدري؟

رَبَّما تُلقي بكُم في السِّجنِ فردًا فردًا... اضْبُطوا ألسِنتَكم يا أفنديَّةَ بَغداد.

الأقوالُ تتردَّدُ إنَّ فخامةَ ونستون تشرشِلْ هو الذي عيَّنَها في هذا المَنصِبِ، وأعطاها مَفاتيحَ بَغداد.

أيُّ مَنصِبِ؟ هههههه.

هل أنتُم نائِمون؟

مِسْ بيل في مَنصبِ السّكرتيرةِ الشَّرقيةِ للمَندوبِ السَّامي السّير بِيرسي كُوكسْ؟

يا حَبيبي، يَعني سِكرتيرة حاكِمِ بغداد الجديدِ.

طبعًا وبِالتّأكيد.

يعني: العُثمانيُّون.. باي.. باي.

نعم. باي باي ونُصٌّ.

لم يَتمكَّنْ خليل باشا بِكرشِه المُتدلِّي أن يأخذَ حتى نساءَه معَه، وهو يَجرُّ ذُيولَ الهزيمةِ إلى إسطنْبول. الإنجليزُ حرَّرُوا النساءَ يا حبيبي....

يعني لم يُسعفْهُ كلُّ هذا المكرِ والدَّهاءِ في تَهريبِ نسائِه.. اللّعنةُ عليه.. هذا ليسَ رجلًا...

مَنْ كانَ يَتصوَّرُ أن يأتي هذا اليومُ، يا رجل؟

هذه هي الأمورُ تريدُ أن تفهمَ أو لا تفهم... الإمبراطوريَّاتُ تصعدُ وتنهارُ منذُ فجرِ.. والتاريخُ ما هو إلا قُصورٌ مِن الرمالِ. جُنودٌ يَرحلون وآخرون يَأتون.... مَنْ منكُم يتصوَّرُ أنَّ وراءَ انهيارِ الإمبراطوريَّةِ العُثمانيةِ هذه السيِّدةَ بحذائِها ذي الكعبِ العالي، وقُبَّعتِها العريضةِ؟ لا أحدَ وربِّ الكَعبةِ... هكذا يقولون. واللهُ أعلمُ. انظروا كيف يتكاثرُ البريطانيُّون يومًا بعدَ آخرَ، وهم يَغزُون شوارعِ بغداد ويتنزَّهُون بِسروايلِهم القَصيرةِ ولا يَحتشِمُون من نسائِنا. راحتْ القيَم، يا أخي العزيز... الاحتلالُ يُطلقُ أوَّلَ رَصاصاتِه على القيَمِ.. فإذا نجحَ في ذلك تَبقى مَهمَّة قتلِ الرّجالِ هي مِن أسهلِ المَهمَّاتِ... ومتى كانَ المُحتلُّون يُدافعون عنِ القِيَمِ التي يُحاربونَها، يا أُستاذ؟ هههههه. النَّادلُ النَّحيلُ، الواقفُ بجوارِ سَماوَراتِ الشاي الذهبيَّةِ في المَقهى ينتظرُ إشارةً مِنَ الأفنديَّةِ ليُقدِّمَ أستكانةَ شايٍ عِراقي ثقيلٍ للسيّدةِ الإنجليزيَّةِ التي جاءَتْ تزورُنا هُنا. انظرْ إلى النَّادلِ، وهو ينظرُ إليْها بطَرفِ عينِه اليُسرى، ويسألُها: شاي لُو حامُضْ أغاتِي، تاجْ راسِي؟

انتظرتْ قليلاً وسألتْه: ما هوَ الحامِضُ؟

أغرتْها الأستكانةُ بلَونِها الذَّهبيّ.

أجابَها أحدُ الأفنديَّة:

الحامضُ، يا مِسْ بيل، عصيرُ اللَّيمون البَصْري المُجفّفِ الذي يتناولُه البغداديُّون بعدَ الخُروجِ مِن الحمّاماتِ البُخاريَّةِ.

هههههه. دعْنِي أجرِّبُ مَذاقَ الحامِضِ إذا كان يَختلفُ عن الشّاي العِراقي.

خاتون لا يوجُد لديْنا شايٌ عراقيّ.. إنَّه يأتينا مِنْ سِيلانِ الهندِ عن طريقِ ميناءِ البَصْرة، والتجَّارُ يَخلطونَهُ ويُطلقون عليه اسمَ شاي عِراقي.

ابتسمتْ الخاتون:

العراقيُّون بارِعُون في هذهِ الخَلطةِ، أليسَ كذلك؟

نَحنُ مثل الشاي السيلاني، مثل خلطةُ التاريخِ. نَحنُ نتنفسُ التراجيديا، لم يتمكَّنْ العُثمانيُّون التُّركُمانُ، الّذين تزوَّجُوا مِنْ عِراقيَّاتٍ، مِنَ اللّحاقِ بقُطعَاتِ جُيوشِهم المنُهزِمَةِ إلى إسطنْبول، يُردِّدُون

بصوتٍ عالٍ:

"أمانْ.. أمانْ.. انْكلِشْ ويَمان.. خاتون.. مِسْ بيل.. كْوينْ إليزابيث هزَمتْ خليل باشا... الله يَستُرُ مِن هذهِ المرأةِ؟

ينفُثُ الرجالُ في المَقاهي دُخانَ سَجائِرِهم بِحسْرةٍ كبيرةٍ. لا أحدَ يعرفُ هل لِزَوالِ الأتراكِ العُثمانيّين أم يَندبُون حُظوظَهُم التَّعيسةَ في النساءِ؟

السّيِر بِيرسي كُوكسْ... الثعلبُ الماكرُ

تعرَّفتُ على اللّيدي كُوكسْ، زوجةِ المَندوبِ السَّامي في بغداد، ونزلتُ ضيفةً عندَها، وقدَّمتْ لي العَونَ وهي تقولُ لي:

هذه غرفتُكِ يا عزيزتي مِسْ بيل، أتمنَّى أن تكونَ مُريحة.

كانتْ غرفةَ نومٍ إضافيَّةً في البيتِ. هكذا بدأتُ وَظيفتِي كَسِكرتيرةٍ شرقيَّةٍ للمَندوبِ السَّامي مِنْ دونِ مَكتبٍ، ومِنَ المُضحكِ أنَّني باشرتُ عَملي في غُرفةِ نومِ الكُولونيلِ المَسؤُولِ عن الاستِخباراتِ العَسكريَّةِ حتى أنَّني كنتُ أخشى أن يتصوَّرَ الآخرُون أنَّني عشيقةُ هذا الكولونيلِ الأبْلَه.

يا إلهي! تنتطرُ أن أدُسَّ أنْفي فيها.

كنتُ بِحَاجةٍ إلى مَنْ يُنظّمُها لي أولاً، ومِنْ ثَمَّ قُمتُ بتَوظيفِ صَبيٍّ عِراقيٍّ اسمُه ميخائيل للعَملِ خادمًا مَعي، لأنَّني كنتُ بحاجةٍ إليه، لكنَّني تساءلتُ:

هل يمكنُ لي العملُ وسطَ هذهِ الأجْواءِ؟

الرّقابَةُ في أشدِّ حالاتِها، والتَّضييقُ على خُروجِ المَعلوماتِ هوسٌ دائمٌ في نظرِ الكُولونيل الذي كنتُ أعملُ في غُرفةِ نَومِه، البُلَهاءُ يُراقْبون كلَّ شيءٍ حتى الرَّسائلَ التي أبعثُها إلى أهلِي، يقْلِبون مَضامينَها ويستجْلون الغرضَ مِنْها، ومُرافقي يسيرُ مَعي مثلَ ظِلّي الذي يُلازمُني أينما قصدتُ حتى للِقاءِ الأفنديَّةْ في مَقاهي بغداد، بِحُجَّةِ الحفاظِ على حياتي التي لم تكَنْ مُهدَّدةً مِن قِبلِ العِراقيّين أبدًا. مَلاكِي هي اللّيدي كُوكسْ، تعُاملُني بكلِّ لُطفٍ ورِقَّة، وتُخفِّفُ عنّي أعباءَ الضُّغوطاتِ الإداريَّةِ، وكنتُ أبادلُها المَشاعرَ ذاتَها، دونَ أن أنوي إزعاجَها في بيتِها، أتصرَّفُ كَضيْفةٍ خَفيفةِ الظِّلِّ. ولكي لا أُثقلَ عليْها كنتُ أذهبُ إلى قاعةِ طعامِ الضبَّاطِ لكي أتناولَ وجبةَ غَدائِي، رغمَ إلحاحِها على تَناوُلِه معاً في بيتِها. وعندَما عادَ زوجُها مِن سَفرتِه، ابتهجَ لقُدومِي مِنَ البَصْرة، وتحمّسَ لامْتثالِي للعملِ، وظلَّ ضاحكًا طوالَ الوقتِ، وقامَ بتكريمي في حفلةِ عشاءٍ كبيرةٍ على شَرفِي، دَعا إليْها كلاً مِنْ هُوغارثْ ولُورنسْ، هذان العِملاقانِ اللّذان كنتُ أحلمُ برُؤيتِهما ومُشاركتِهما مائدةَ العشاءِ لأنَّ الكلامَ معهُما يزيدُ مِنْ الشهيّةِ ويجعلُ مِنْها وجبةً استثنائيةً لا تُنسى. لم أكَنْ أتخيّلُ يومًا أن أجلسَ مع اثنيْن من أفضلِ مَنْ عرفَ العربُ، رغمَ أنَّ شكلَ لُورنسْ كانَ أشْبهَ بالبَهلوَان المُهَرِّجِ الذي لا يتوقَّفُ عن إضحاكِنا طوالَ الوقتِ رغمَ انتِقاداتِهِ اللّاذعَةِ التي تكشفُ عن خُبثٍ داخلي دَفينٍ لا يعرفُه مَنْ يَلتقي به لأوَّلِ مرَّةٍ، ولا بُدَّ أن يكونَ المرءُ إنجليزيًا ليَكتشفَ ذلكَ لأنَّهُ يَستخدمُ الكلماتِ وظلالَها بطريقةٍ تُشبهُ نفْثَ السُمِّ إلى الخارجِ من فمِ أفْعى الكُوبْرا. يا إلهي! كم الكلماتُ الأنجليزيَّةُ خادعةٌ وتَحتَملُ أكثرَ مِنْ مَعنى بلْ أكثرَ

مِنْ مَعانٍ عديدةٍ. لذا تحوَّلتُ طاولتُنا إلى ما يُشبهُ ساحةَ مُباراةٍ في المَعلُوماتِ عن الفَوارِقِ الجَوهريَّةِ بين مُسلِمِي الهِندِ والبَدْوِ العربِ في السُّلوكِ والعِبادةِ والمُعتقداتِ. وكانَ عليَّ أن أُظهرَ مَهاراتِي وأكشفَ عن قِراءاتي وأثبتَ جَدارتِي في هذا الامتحانِ الذي سَيُقرِّرُ مَصيري فيما بعدُ لا مَحالة، لأنَّ الإدارةِ الإنجليزيَّةَ تستمعُ إلى آراءْ هذيْن الشَّخصيْن وتعتبرُهما إلَهيْن يتحكَّمان بِمَصيرِ الإمبراطوريَّةِ، ولم أكنْ آنذاك في نظرِها سوى تلكَ السيِّدةِ المُتطفِّلةِ على أُمورِهم العَسكريَّةِ والاسْتخباراتيَّةِ. ولكنَّني كنتُ أفكِّرُ برَدِّ الصَّاعِ صاعيْن، وأتتكّبُ أسلحَتِي السّريَّةَ في ساعةِ الوَغى، فلا يمتلكُ الجُنديُّ في مثلِ هذا الظّرفِ سوى سلاحِه المُعلنِ والخَفيّ وإلا سيكونُ الرَّفضُ مَصيرِي في هذه المَهمَّةِ. وفكَّرتُ في نفسي: كيفَ لي أن أنتصرَ على رَجُليْن بهذا الوزنِ؟ كلٌّ منَّا لهُ مَعلوماتُه الخاصَّةُ، بلا شكٍّ، ولكنَّ المَسألةَ أعمقُ مِنْ ذلك، بل يتعلَّقُ الأمرُ بكَيفيَّةِ تَسويقِ هذه المَعلوماتِ والطَّريقة التي تُقدّمُ بها.

كان السِّير بيرسي كُوكسْ يَستمعُ إلى نِقاشاتِنا، ويهزُّ رأسَه، مَدهوشًا بما يَجري من حديثٍ، وبدا مُفتخرًا في تَقديمي إلى هذيْن الرَّجُليْن اللّذين اكتسبا ثقةَ الإمبراطوريَّةِ وخَاضا مَعاركَها الفِكريَّةَ كَجُنديّيْن مِقدامَيْن. ووجدَ أنَّني أصلُحُ لهذه الوظيفةِ التي أسندَها إليّ، السّكرتيرة الشرقية له. ومنذُ تلكَ اللحظةِ، بدأتُ عَملِي الشاقَّ في عَقدِ لقاءاتٍ بين المَندوبِ السَّامي وبين شُيوخ العَشائرِ ورُؤساءِ القَبائلِ، رغمَ صُعوبةِ التَّفاهُم واختلافِ الأمزجةِ وتنوُّعِ الأفكارِ، لأنَّ المرءَ بحاجةٍ إلى التَّسلُّحِ بكلِّ علومِ الكونِ لكي يفهمَ ما يختلجُ في نُفوسِ هؤلاءِ البَدو. وعادةً لا يبذلُ الإنجليزيُّ أقصَى جُهودِه ليَفهمَ الآخرَ، رُبَّما يعودُ ذلكَ إلى اسْتعلائيَّةِ النَّزعةِ الاسْتعماريَّةِ التي تَنظرُ إلى الآخَرين نَظرةً دُونيّةً لم أكُنْ أُوافقُ عليها أو أستسيغُها. لذا كنتُ أبحثُ في أعماقِي عن قُدرةِ الفَهمِ المُنزَويةِ في مكانٍ ما في نفْسي، لكي أفهمَ الإشاراتِ والمَلامحَ والانفعالاتِ التي ترتسمُ وراءَ الوُجوه. وبدأتُ أعملُ على كتابةِ التَقاريرِ المُوجزةِ عن أسماءِ شُيوخِ العَشائرِ ورُؤساءِ القَبائلِ، ومَناطقِهم والأمورِ التي يُريدون التحدُّثَ بها، مِنْ أجلِ تَسهيلِ المَهمَّةِ على المَندوبِ السَّامي في لقاءاتِه معهم.

لكنَّني لم أرتَحْ كثيرًا لسَكنِي، وكنتُ أحلمُ بمَنزلٍ مِنْ نوعٍ آخرَ، شيءٌ يشبهُ الجنائنَ المُعلَّقةَ على نهرِ دِجلةَ أو فيلّا مُغطّاةً بالبساتين أو كوخًا في الصّحراءِ مُحاطًا بالخِيَمِ والجِمالِ، فكيفَ لي أن أتقبّلَ هذا البيتَ البائسَ الذي خصّصَهُ لي المَندوبُ السَّامي؟ كان البيتُ مكانًا تَضيقُ به النَّفسُ، خاليًا من الأثاثِ، قابعًا في زقاقٍ قذرٍ مِنْ أزقَّةِ بغداد، وقلتُ في نفسي: ألم يفكرْ هذا العبقريُّ كيفَ سأنامُ في هذا البيتِ الفارغِ؟ الحمدُ للهِ لا يزالُ عندي بعضُ العفْشِ الذي لم يُفرّغْ مِن الباخرةِ بعدُ، فِرشِي وحمّامي السفريَّيْن، اضطررتُ أن أفتحَ الصُّندوقَ، المُبلَّلَ بمياهِ دِجلة، وأنشرَ مَلابسي وأثوابي على السِّياجِ الحَجريِّ لتَجفيفِها. بحثتُ عن كُرسيٍّ أضعُ عليه لَوازِمي ولم أجدْه، وعندما أردتُ الاغتسالَ، اضطررتُ لفَتحِ البابِ وطَلَبِ المُساعدةِ مِنْ أهالِي الزُّقاقِ. وبعدَ أن رتّبتُ بيتي، ذهبتُ لتناولِ العشاءِ مع السِّيرِ بيرسي كوكسْ، شرحتُ له أوضاعَ بيتي، ووعدَني بإيجادِ بيتٍ آخرَ لي في أقربِ فُرصةٍ. كنتُ معجبةً بحنكتِه وذكائِه رغمَ قلَّةِ مَعرفتِه بتاريخِ الشُّعوبِ، ذلك شأنُ غالبيَّةِ العَسكريّين الَّذين أرسلتْهم بريطانيا في حملتِها على الشرقِ. وقلتُ في نفسي: لو كان يفهمُ في كلِّ الأمورِ لما أسندُوا إليّ وظيفتي. سألني ذاتَ مرَّةٍ: كيفَ تُفكِّرين بهؤلاءِ العِراقيّين؟

قلتُ له:

يا صاحبَ السَّعادةِ، لا تنخدعْ برِقَّتِهم الظاهريَّةِ لأنَّهم أشدّاءُ مِنَ الدّاخلِ، لا نعرفُ متى يهدؤون كالحِملانِ الوديعةِ ولا ومتى يَهيجُون كالثِّيرانِ الوحشيَّةِ، إن تمرَّدَ أرواحِهم يشبهُ فَيضانَ نهرَيْهم الخالدَيْن دِجلةَ والفُرات.

هّز السِّير بيرسي كُوكسْ رأسَه، مُتخوّفًا: هؤلاء بشرٌ خَطيرون... إذًا يجبُ أن نحترسَ منهم.

ثم سألَني:

وما هو اختلافُهم عن الأتراكِ؟

اختلافٌ كبيرٌ يا سعادةَ المَندوبِ السَّامي، الأتراكُ رُؤوسُهم مَحشوّةٌ بالمُعتقداتِ والعِراقيّون رُؤوسُهم مَحشوّةٌ بالأوهامِ.

وبعدَ انتهاءِ العشاءِ، عدتُ إلى بَيتِي، ولم يَمضِ وقتٌ طويلٌ حتى سمعتُ طَرقاتٍ على البابِ، وإذا بمَاري تدخلُ عليّ، فصرختُ بفَرحٍ طُفولي: وأخيرًا جاءَ من يُهيِّء لي أستكانةَ الشاي في الصَّباح.

كان عليّ أن أزورَ شُيوخَ العَشائرِ لأنَّهم يَحكُمون هذا البلدَ مِنَ الدَّاخلِ، هم في الكَواليسِ المُظلمةِ لكنَّهم يُمسكون بخُيوطِ اللُّعبةِ، وكثيرٌ من جَماعتِنا لا يُدركون ذلكَ، بل لا يُدركون أنَّ هذا المُجتمعَ عشائريٌّ في باطنِه ومَدنيٌّ في ظاهرِه، نحن على فوهةِ بركانٍ لا نعرفُ متى ينفجرُ. كانتْ الإمبراطوريَّةُ بأمسِّ الحاجةِ إليهم، ولا أحدَ ينفذُ إليهم غيري، هذا هو قَدري ورُبَّما قَدرُ الإمبراطوريَّةِ التي تبحثُ لها عن مَوطئ قدمٍ على أرضِ الرافديْن. وكما الرزُّ بحاجةٍ إلى سَقي الماءِ الوَفيرِ، نحن أيضًا بحاجةٍ إلى المَعلوماتِ. ضحكَ المَندوبُ السَّامي لتَشبيهي هذا. ثم شرحتُ له: إنَّنا أمامَ شَعبٍ جبّارٍ.. رُبَّما يستعدُّ أن يلجأَ إلى أساطيرِه ذاتَ يومٍ كالمَارِدِ الذي ينهضُ مِن كَبوتِه.

الكُوليرا والجنرال مُودْ

كنتُ في البَصْرةِ عندما اهتزَّتْ بغدادُ إثرَ انفجارِ إحدى بوّاباتِها القديمةِ، بابُ الطَّلسمِ، وقضى فيها الكثيرُ مِن الأهالي بين انفلاقِ القنابلِ وأزيزِ الرَّصاصِ والعَواصفِ التُّرابيَّةِ. كان الجنرالُ ستانلي مود غاضبًا لأنَّ الأتراكَ نَسفوا العتادَ المَخزونَ، وخرَّبوا مَحطَّةَ اللّاسلكي في الوَشاش، ونَهبوا سِجلَّاتِ "الطابو" المُلكيَّةِ العقاريةَ. واضطرَّ خليل باشا إلى إخلاءِ بَغدادَ دُون مُقاومة، والهربِ عن طَريقِ مَحطَّة قطارِ الكاظميَّة، قاصدًا سامُرّاءَ فجرًا، وهو يَندبُ حظَّهُ التعيسَ بعدَ أن عقدَ مَجلسًا حربيًا مع القادةِ المَيدانيّين في مخفرِ شُرطةِ جسرِ الخّر، واقتنعَ بوُجهةِ نظرِ ضُبّاطِه، لا طريقَ أمامَ جَيشِه سوى الانسحابِ، فأبرقَ إلى اسطنْبول، وجاءتْه المُوافقةُ. لحظةٌ مثيرةٌ في عينَيْ المِسْ بيل، وهي تقرأُ الأخبارَ القادمةَ مِن بغدادَ، لم تكُنْ تتوقعُ ما يقعُ مِنْ أحداث. تتصفحُ التاريخَ في أكسفورد، وتراهُ الآن يتشكّلُ أمامَها خطوةً إثرَ خطوةٍ. في هذا الصّباحِ، دخلَ الجنرالُ ستانلي مود، القائدُ العامُّ للجيشِ البريطاني بغدادَ على ظهرِ باخرةٍ إنجليزيَّةٍ شقَّتْ نهرَ دِجلة، تُرفرفُ عليها ساريةُ التَّاجِ البريطانيّ، مَصحوبًا بهَيئةِ أركانِه، ثُمَّ توجّهَ مُتفاخرًا، يلعبُ بصَولجانِه إلى دارِ الاعتمادِ البريطانيّ في مَحلَّةِ السّنك التي اتخذَها مقرًّا لقيادتِه، ورفعَ العلمَ البريطانيّ في أعلى بنايةِ القَشْلة في جانبِ الرّصافة.

دقَّتْ ساعةُ التَّحريرِ. كم تمنّى العِراقيّون أن يتحرَّرُوا مِنَ الأتراكِ، لكنّها لم تُؤيِّدْ إجراءاتِ القوّاتِ الإنجليزيَّةِ بإلقاءِ القبضِ على المُقاومين، ونفيِهم إلى جزيرةِ هِنجام الهنديَّةِ النَّائيَةِ، أوَّلُ مَنفى يعرفُه العِراقيّون، فيما كان أحدُ الأفنديَّة يمزحُ مع رفاقِه في المَقهى، قائلاً: إذا فتحتَ فمَك ضدَّ الإنجليز، تبعثُكَ المِسْ بيل إلى جَزيرةِ هِنجام؟

وأضافَ آخر:

مَنْ كان يدري أنَّ هذه الآثاريَّةَ المُستكشفةَ التي جاءتْ لدراسةِ القبائلِ تُخفي في أعماقِها كلَّ هذهِ السُّلطة؟

أجابَه آخرٌ:

لا يمكنُ أن تكونَ امرأةٌ رقيقةٌ مثلُها تُحكِمُ قبضتَها على بلادِنا؟

لم تُخفِ مِسْ بيل نظراتِ الإعجابِ بالجيشِ البريطاني، بصُفوفِه المُختلفةِ، وهم يَستعرِضون قطعاتِهم، الإنجليز على صَهوة خُيولِهم في الصّدارة، ثم يَليهم الضُبّاط الهُنودُ مع فَصائِلِهم مِنَ المُشاةِ، بعدَها يأتي الجنودُ المُنحدرون مِنْ جِنسيَّاتٍ وأديانٍ أُخرى، السِّيخُ والكُوركا والبانيان والأفارِقة والمُسلمون ثم "الشبانة"، عشائرُ العَمارةِ أو الآثوريون، الذين دُرِّبَوا تدريبًا عَسكريًا صارمًا، ثم أصبَحُوا مُدرِّبين لأفرادِ الجيشِ العِراقي الوليدِ. لم تكُنْ ساحةُ الطَّيرانِ آنَذاك سوى بُقعةٍ مَهجورةٍ، تنتشرُ فيها الأتربةُ

والحُفرُ والحَصى، يتسكَّعُ فيها قُطّاعُ الطُّرقِ واللُّصوصُ والباعةُ. لكنَّ الجنرالَ مود أصَرَّ أن يُقيمَ استعراضَ جيشِه في هذه المِنطقة. انطلقتْ مِنْ شارعِ الرَّشيدِ إلى بابِ المُعظّمِ الخيّالةُ والمُشاةُ والبِغالُ الأستراليَّةُ الصَّغيرةُ النّادرةُ، بحَوافرِها الكبيرةِ، وشَعرِها الكثيفِ، تَسحبُها عرباتُ الرشّاشاتِ، مُمْتطيةً على ظُهورِها "الفيكرز" أو "اللويس"، ترافقُها الموسيقى العسكريَّةُ، يقودُها لاعبُ الصَّولجانِ بحركاتِه المُتّسقةِ مع الإيقاعاتِ التي أبهرَتْ العراقيّين وأضحكَتْهم في الوقتِ ذاتِه.

انطلقتْ القَهْقَهات، وراحُوا يتنَّدرون:

هههه. هكذا جاءَ إلينا الإنجليزُ ببغالٍ لا نعرفُ أصلَها وفصلَها.

مُتجمهرين على جانبَي الشارعِ يتضاحكون أمامَ الموكبِ المَهيبِ لهذا الاستعراضِ الشَّتوي الذي أنهى مَسيرتَه قربَ الكنيسةِ البريطَانيَّةِ في البابِ الشَّرقي عندَ مَدخلِ شارعِ أبي نُواس. غضبَ العِراقيّون مِنَ الجنرالِ ستانلي مود الذي أُطلقَ اسمُه على الجِسرِ الرَّابطِ بين الرَّصافةِ والكَرْخِ، بعضُهم رفضَ عُبورَه لأنَّه يحملُ الجنرال، بينما تعاطفَ البعضُ الآخرُ معه، وأقاموا له الحفلاتِ التكريميَّةَ لكنَّ فرحةَ البريطانيّين بالنَّصرِ لم تكتملْ، النساءُ صَعدْنَ إلى سُطوحِ المَنازلِ، ورفعْنَ أياديهنَّ إلى السماءِ بالدُّعاءِ والانتقامِ، ووعدْنَ بإطلاقِ الزَّغاريدِ ونثرِ الحلويَّاتِ والوُرودِ إذا ماتَ هذا الجنرالُ. ولم يدُمْ الحالُ طويلاً حتى استجابتْ السماءُ لدُعائِهنَّ. في حفلةِ مَدرسةِ الأليانس اليهوديَّةِ، سقطَ الجنرالُ مود بعدَ دقائقَ مِنْ تناولِهِ الحليبَ مع الشاي، إذْ سرعانَ ما اصفرَّ وجهُه، وشعرَ بالدَّورانِ، وتَهاوى على الأرضِ، وأصابَ الجميعَ هلعٌ كبيرٌ، وراحَ المُحتفلون والحرسُ يتراكضون في كلِّ الاتّجاهاتِ، لا يَعرفون ماذا يَفعلون، وهم يَصرخون:

سُمِّمَ الجنرالُ مود... ماتَ فاتحُ بغداد.

أُصيبتْ المِسْ بيل بالهلَعِ لأنَّها كانتْ تُرافقُهُ، وحاولتْ إسعافَه دُون جدوى.

ماتَ فاتحُ بغداد بالكُوليرا أو الهَيْضةِ أو الزَّوعةِ كما يُسميّها العراقيون.

وبدأتْ العِراقيَّاتُ يَصرُخْنَ:

زاعَتْه زُوعة... أي قتلَتْه الكُوليرا.

وابتهجَ العِراقيّون، مُؤمنين بأنَّ السّماءَ استجابتْ لدُعاءِ نسائِهم. فيما ذَرفتْ المِسْ بيل الدُّموعَ على دَفنِ ستانلي مود، وكتبتْ التقاريرَ والرَّسائلَ حَولَ التَّشييعِ العَسكري المَهيبِ لهُ. ولم تمضِ أيامٌ حتى طالَبَ بعضُ المُنافقين والانتهازيّين بتَخليدِ ذِكراهُ بإقامَةِ تِمثالٍ لهُ وسطَ بغداد، لكنَّ المِسْ بيل أدركتْ المَوضوعَ جيدًا، وقالتْ بالحَرفِ الواحدِ: لا نُريدُ اسْتفزازَ العراقيّين بهذا التِّمثالِ لأنَّ ذلك يَستَعْديهم عليْنا. جاءَ الجنرالُ هُوكر خَلفًا لهُ. فيما أصَرَّ كبارُ المُستثمرين والتُّجارِ على زيارةِ قبرِ الجنرالِ مود ووضْعِ أكاليلِ الزُّهورِ عليه، بل راحَ بعضُهم إلى قراءَةِ الفاتِحةِ على رُوحِه بحُجَّةِ أنَّه خلّصَهم مِنَ الأتراكِ العُثمانيّين. وبادَرَ التجَّارُ اليهودُ إلى تبرُّعِ المالِ بسَخاءٍ إلى جانبِ كبارِ التجَّارِ

النَّصارى والمُسلمين مِنْ أجلِ صُنعِ تِمثالٍ كاملٍ لهُ، وهو يَمتَطي صَهوةَ حصانِه، وينظرُ باتِّجاهِ القِبْلة.

كان أحدُ مَجانينِ المدينةِ يجوبُ الشوارعَ ويُكرِّرُ جملتَه الشهيرةَ:

تفو عليْكُم يا عِراقيّين..

وعندما يسألُه النّاسُ لماذا؟ يُجيبُهم:

تَصنعُون تمثالاً لِستانلي مود، يا قَليلِي الغيرةِ؟

كانوا يُقَهْقِهون لأنَّ المَجانين كانوا يُزيِّنون بغدادَ بالحِكمِ، لكنَّ كلَّ الحِكَمِ لم تمنعْ مِنْ إزاحَةِ السّتارِ عن تمثالِه أمامَ دارِ المَندوبِ السَّامي في منطقةِ الشّواكة بالكَرْخِ وسطَ الزَّغاريدِ والهُتافاتِ وأكاليلِ الزُّهورِ.

ووقفتْ مِسْ بيل تُرسلُ نظراتِها إلى التّمثالِ: هل يَصمدُ هذا التّمثالُ طويلاً في بغداد؟

كلامُك يَعني أنَّهم قد يَهيجُون كالثِّيرانِ الوحشيَّةِ.

أجلْ. يا سعادةَ المَندوب السَّامي. أنتَ فَهمتَ كلّ شيءٍ عنْهم.

التغزُّلُ بذاتِ العُيون الزُرْقْ

لا تزالُ ألسِنةُ الأفنديَّةِ في المَقاهي تردّدُ بشَبقٍ:

ماذا تفعلُ ظبْيةٌ شريدةٌ في شوارعِ بغدادَ؟ امرأةٌ بِدُون عَباءةٍ سوداءَ، ذاتُ قامةٍ فارعةٍ، نحيفةٌ، وطويلةٌ، تضعُ نظّارتَها الشّمسيَّةَ الغامقةَ تَجنُّبًا لشمسِ بغدادَ الحارقةِ، وقبَّعتُها العريضةُ تَتسدلُ على وجهِها، شَدّتْها إلى الخلفِ بخُيوطٍ حتى لا تتطايرَ مع الرِّياحِ، لا يُرافقُها سوى خادمِها، وهي تحملُ مِلفّاتِها وأضابيرَها تحتَ إبطِها، وتَشقُّ الطُّرقاتِ المُتربَةِ كالقَوسِ والنشّاب، وتَعبُرُ نَظراتِ الآخَرين الحائرَةَ، وهي تُردّدُ بالإشاراتِ: ماذا يُوجدَ في هذه المِلفّاتِ والأضابيرِ، هل تحملُ في طيّاتِها مصيرَنا الذي صارَ مثلَ قاربٍ يتَرنّحُ بين إمبراطوريَّتيْن؟

أحدُهم قالَ بسُخريَّة:

لماذا تَرَكتْ قصرَها الفِكتوري الفاخرَ وجاءتْ إلينْا، هل تُريدُ أن تُلطِّخَ أثوابَها الباريسيَّةَ الأنيقةَ بِوُحولِ بغدادَ. هل هذه المرأةُ مصابةٌ بالجُنونِ يا تُرى؟

بعضُ الشُّعراء الذين يُمضون نهاراتِهم جالسِين في المَقاهي وقَعُوا في حَبائلِ حُبِّها العُذريّ، وغاصُوا في مَدحِ مَفاتنِها السّاحِرةِ تارةً في العَلَنِ، وتارةً أُخرى في السِرِّ، بين الخَوفِ والجُرأةِ، والتردُّدِ والإقدامِ، إنَّها غزالُ لندن/ ذاتُ العُيون الزُّرقِ. هكذا غازلَها الشّاعرُ جميل صدقي الزهَّاوي لكنَّه ارْتعدَ وانزوى في غُرفتِه عنْدما وصلتْ قصيدتُه إلى سَمعِها، بل وأنكرَ تأليفَها على الفورِ، وأقسمَ بأغلظِ الأَيْمان أنَّه لا يقصُدُ المِسْ بيل، فيما تعَالتْ دَردشاتُ الأفنديَّةِ في المَقاهي: هذا شاعرٌ جبانٌ يخافُ من سُلطةِ امرأةٍ، تبًّا له ولِشِعرِه.

ياجماعَة. يَعني الشَّاعرُ الشُّجاعُ يَجبُ أن ينامَ في سِجنِ القَشْلة، هو حُرٌّ، يتبنَّى قَصيدتَه أو يُنكِرُها، الزمنُ تغيّرَ الآن والإنجليز لم يَعودوا على بُعْدِ آلافِ الكيلومتراتِ منَّا بل هُم في عُقْرِ دارِنا يَحكُمون مَفاصلَ الدَّولةِ التي تَسعُون لِتأسيسِها. وفي نهايةِ المَطافِ، الشُّعراءُ مَساكينُ، مَخانيثُ، صَعاليكُ، مُتسَكِّعون. ماذا تُريدون مِنْهم أكثرَ مِنْ قولِ الشِّعر؟ أنتُم مجانينُ كي تبحَثُوا عن صُورةِ البُطولةِ في الشَّاعرِ، أنتُم واهِمُون تَتَعلّقُون بأوهامِ المُفرداتِ الرنّانَةِ والأبياتِ المَوْزونةِ. لا تَنسُوا يا جماعَةْ، إنَّه يُغازلُ الخاتون، ومَنْ هي برأيِكُم الخاتون؟ إنَّها السِّكرتيرةُ الشَّرقيةُ لِلمَندوبِ السَّامي بيرسي كُوكسْ، حاكمِ بغداد بأمرِ التاَّجِ البريطانيّ، ومَنْ يفتحْ فمَهُ ويَتفوَّهُ ضِدَّ الخاتون مَصيرُه مَعروفٌ. يا رجُلْ، يَقُولون إنَّها ستُصبحُ الملكَةَ غيرَ المُتوَّجةِ على العراق. وسرعانَ ما وصلتْ القصيدةُ إليْها، قالُوا لها: هُناك شعراءٌ يَتغزّلون بعُيونِك الزُّرقِ، يا خاتون. انطلقتْ بالضَّحكِ وقالتْ: مَنْ هو هذا الشاعرُ الذي يَتغزّلُ بيّ؟

جميل صدقي الزهَّاوي.

أينَ هو الآن؟

يَخشى التردُّدَ على المَقاهي خِشيةَ أن يُلقى عليْه القبضُ.

ضحكتْ الخاتون مِنْ أعماقِها: ماذا يقولُ في أشعارِه؟

يُقسِمُ أن رُباعيّاتِه الشعريةَ لا علاقةَ لها بكِ، ويقولُ فيها:

وافتْ إلينا مِسْ بيل/ راكبَةً طُرُمبيل/ تُحاكي البُدورَ وجهًا/ وشَعرُها يُحاكي اللّيل/ تَرنو غزالَ نجدٍ/ وتَشرئِبُّ كالخِيل/ فما رأتْها عينٌ/ إلاّ وقالتْ: كيل كيل/ عرّجْ علينا نقضي/ عشيةً في الأوتيل.

لا يوجدُ امرأةٌ تَغضبُ من شِعر الغزلِ.

هل ستُلقون القبضَ على الزهَّاوي يا خاتون؟

وأطلقتْ ضحكةً مُدوِّيةً:

نحن خصَّصْنا لهُ مئةً وخمسين روبيّة منحةً شهريَّةً، يُسلّمُها له الأبُ انستاس الكَرملي، كيفَ نُلقي القبضَ عليْه؟

رُبَّما يأتي بعدَ قليلٍ، حاملًا مَجلَّةَ "العرب".

وهناك، يا خاتون، شاعرٌ آخر يَهجُوكِ؟

مَنْ هو؟

مُحمَّد مَهدي الجَواهري.

هههههههه... وماذا يقولُ:

قلْ للمِسْ المَوفورةِ العِرضِ التي/ لبستْ لحُكمِ النّاسِ خيرَ لباسِ/ لي قيلةٌ تُلقى عليك بمَسمعٍ/ وبمَحضرٍ مِنْ زُمرةِ السَّواسِ/ إن كان سَرَّكِ في العِراقِ بأن تَرَيْ/ ناسًا له مَضرُوبةً بأُناسِ/ فَلَكِ التَّعزّي في سياستِكِ التي/ عادتْ عليكِ بصَفقةِ الإفلاسِ/ خُطَطٌ وقَفْتِ لها حياتَكِ أصبحَتْ/ شؤمًا عليكِ وأنتِ في الأرْماسِ.

وماذا يعني بالأرْماسِ؟

الرَّمْسُ.. القبرُ مُستويًا مع وجهِ الأرضِ.

الشعراءُ أحرارٌ في كلامِهم.

ونحن نقولُ: الشُّعراءُ يتبعُهم الغاوُون. أُعجبَ الشُّعراءُ بفُستانِ المُوسلين الذي كانتْ مِسْ بيل تَرتديه، فهو يُغريهم بالِكتابةِ عن قوامِها وأناقتِها وسِحرِها، وهي تتنقّلُ بين مَقاهي بغداد وخيامِ شُيوخِ العشائرِ ورُؤساءِ القبائلِ، تَقطعُ الصَّحراءَ والفَيافي، وتُقلّبُ أشِعّةَ الشمسِ وضوءَ القمرِ، لا تُبالي بما قد يَحصلُ لها، ولا تَخشى اللُّصوصَ وقُطّاعَ الطرقِ أو الدَّورياتِ التُّركيةَ على الحُدود، مع خادمِها فَتوح.

عن ماذا كانتْ تَبحثُ، يا تُرى؟

تَساءلَ الأفنديَّةُ بِحَيْرةٍ.

قالَ أحدُهم:

إنَّها تَبحثُ عن شيءٍ مُختبئٍ في نُفوسِ العِراقيّين، في دواخِلِهم العَميقةِ، في آبارِهِم الغامِضةِ.

وأجابَه آخرُ:

رُبَّما تبحثُ عن سِيرةِ دماءِ المَغولِ والأتراكِ في أرحامِ النِّساءِ العِراقيّاتِ.

وأضافَ:

إنَّها تبحثُ بلا شكٍّ عن سِراجِ حصانِ جَنكيزخانْ، المَنسوجِ بخيوطِ الذَّهبِ والفضَّةِ الذي لم ينسَهُ العِراقيّون على مَرِّ الزَّمنِ، ومضةٌ ترَسَّختْ في أذهانِهم مَرَّةً واحدةً وإلى الأبدِ، وأصابَهُم سيفُهُ البتّارُ بالعجزِ والخَرَسِ والتعجُّبِ والذُّهولِ، فتغيرَّتْ مَلامحُ وُجوهِهِم وأصبحَ نِصفُها مَغوليًا ونِصفُها الآخرُ عربيًا، وضاعُوا بين هذيْن المَلْمَحيْن، دماءٌ مغوليةٌ تسرّبَتْ إلى أرْحامِ نسائِهم، وكلماتُ الكُتبِ المُحترقَةِ تَبلورَتْ في رُؤوسِهم.

أجابَ آخرُ بغضبٍ، رافعًا نبرةَ صوتِه:

كفاكمْ هذيانًا، البلدُ مُحتلٌّ، وأنتُم تَعيشُون في الأوْهامِ، كلُّ شيءٍ مُباحٌ فيه حتى خيالاتُكُم أصبحَتْ مريضةً. نحن في مَهَبِّ الرّيح، وأنتم غارقُون في الفَصاحَةِ والبلاغَةِ؟

رغمَ ذلك، يردِّدُ الأفنديَّةُ في زَوايا المَقاهي المُظلمةَ، اسْمَ الخاتون ويُبجِّلونَها، ويُطلقون عليْها المرأةَ الفريدةَ، ويَكرهُون تَسميتَها المُخبِرةَ أو الضّابطةَ أو الجاسُوسَة.

يا جماعَة، هذا كلامُ الأتراكِ والأعداءِ.

لا تقومُ لنا قائمةٌ بدُونِ أبِي ناجي.

يعني: الاستعمارُ البريطانِي.

على الأقلِّ هي مُخلصةٌ لِتراثِنا وأرضِنا، ألا يَكفي أنها تُريدُ تأسيسَ مُتحفٍ لنا ومَكتبةٍ؟ هل تَتَخيّلون أنَّها أنقذتْ خانَ مُرجان مِنْ فُؤوسِ أمينِ العاصِمَةِ الأحْمقِ، أرشَدْ العُمري الذي يُريدُ أن يَهدمَ كلّ شيءٍ باسم التَّحديثِ. إنَّها تَعشقُ كُنوزَنا ولكنَّها لا تُريدُ سرقتَها، بل تُحاربُ اللُّصوصَ الفرنسيّينَ والألْمانَ مِنْ سرقَتِها، ألا يَكفي ذلكَ كي نَحنيَ رُؤوسَنا لها، ونُبخّرَ الطريقَ الذي تَسيرُ عليْه؟ هل تُصدِّقون يا جماعَة أنَّها وَقَفتْ ضِدَّ بِلفور وَوَعدِه المَشؤومِ. لكنْ لا تَنسوا أنَّها تلميذةُ اللُّوردْ كرومَرْ، أحدُ أعمدةِ الاستعمارِ في الشَّرق. ذلك لا يَعني شيئًا. نحن نَعرفُ البريطانيّين، إنَّهم هنا لِطَرْدِ العُثمانيّين لا لِلبَقاءِ عندَنا، انظرْ إنَّهم لا يُشيدُون أيَّ شيءٍ للبَقاءِ، حتى ثُكناتُهم العَسكريَّةُ يَبنونَها مِن الصَّفائحِ المَليئةِ بالرِّمالِ. إنَّهم قومٌ يَفتحون المُدنَ ويُغادرونَها لكنَّهم يَتركون في رُؤوسِ أبنائِها لوثتَهُم التي يتعلّقُون بِها إلى الأبدِ، إنَّهم يَصنعُون جُيوشًا نائمةً تَستيقظُ في الوقتِ المُناسبِ عندَما يَحتاجونَها. لكنْ هذه هي خِططُ الشَّيطان... الشَّيطانُ في دَوَاخِلِنا منذُ أن وُلِدْنا وهُم لا دخلَ لهُم بهِ، كلُّ شَعبٍ له شَيطانُه، أليسَ كذلك؟ أجلْ. ويَتّخذُ أسماءَ مُختلفةً.. هُنا وهُناك... والأهمُّ في كلِّ ذلك أنَّ ونِسْتون تشرشِلْ يشيدُ بعظَمتِها، ولا يُصغي إلاّ لآرائِها، فهلْ هُناك أعظمُ مِنْ هذا الرَّجلِ؟

كانتْ دردشةُ الأفنديَّةِ تَتلاشَى مع صَخَبِ كُؤوسِ الشاي ولاعِبي النِّردِ، وبعدَ أن أَمْضُوا النَّهارَ بِكاملِه في احتِساءِ الشاي وقِراءَةِ الصُّحفِ وشَعروا بِصَلابَةِ المَقاعِدِ الخشَبيَّةِ، يَتهيَّؤون لمُغادرةِ المَقهى لِيَتوارُوا كأشباحٍ في أَزِقّة بغدادَ المُظلمةِ، عائدين إلى مَنازِلِهم، وفي رُؤوسِهم تتلاعبُ خَيالاتُ المِسْ بيل وكلماتُها التي لا تَغيبُ عن أذهانِهم، والسّؤالُ السُّرمديُّ الذي يُؤرّقُهم ليلَ نهارَ: مَنْ هي هذه الآنسةُ التي ستُغيّرُ مصيرَ بلادِهم؟ إنَّهم يُحاولون الإجابة عبثًا.

السكرتيرةُ الشرقيَّةُ.. عاشقةُ الزُّهور

لم يكُنْ السّير بيرسي كُوكسْ ثعلبًا ماكرًا فحَسْب، بلْ هو الطّفلُ المُدلّلُ لمَلكةِ بريطانيا العُظمى. لا أدري ما الذي دارَ بينَهما مِنْ حديثٍ في لندن مُؤخرًا. لكنَّ بعضَ الضّباط قالُوا لي: إنَّه وَعَدَ الملكةَ بِاقتلاعِ شَجَرةِ العُثمانيّين من وادي الرافدَيْن.

قرأتُ كثيرًا عن مَناقِبِه كضابطٍ مغوارٍ، شُجاعٍ، وباسلٍ، لكنَّني تَساءلتُ فيما لو يَدعمُني في تَحقيقِ حُلمي، تَحويلُ بغدادَ إلى أكبرِ مركزٍ حَضاريٍّ في الشَّرق. وقلتُ له مِرارًا: يا صاحبَ السعادة، إننا نَعيشُ في مدينةٍ أسطوريةٍ يجبُ أن نَبحثَ عن أرواحِ أبنائِها قبلَ أن نَبحثَ عن آثارِها وكُنوزِها وتُحَفِها وحِكاياتِها، لكنّ الحُكّامَ العُثمانيّين أغرَقُوها في الجَهلِ والتخلُّفِ.. هذه مدينةُ الشُّعراءِ والحُكَماءِ بلا مُنازعٍ، لا تزالُ آثارُ مَنائرِها باقيةً لِحدّ الآن...

لم أهتمّ لِما كان البعضُ يُردّدُه بكلِّ خُبثٍ وضَغينةٍ: إنَّها مُسترجلَةٌ، جريئةٌ وصلفةٌ، وتتكلَّمُ مع الرجالِ بِحرّية.

ولطالما آمنتُ بأنَّنا يُمكنُ أن نَخدمَ الإمبراطورية ونُعلي من شأنِ هذا البلدِ المَظلومِ في آن،

كان ذلك يَنطلِقُ مثلَ سهمٍ في قُلوبهم، فتَجحظُ عيونُهم، ويتطايرُ منها الشَّرَرُ... رغمَ ذلك لم أُغضِبْ أحدًا... كانوا في الخَفاءِ، يُريدون إقصائِي وإبعادِي عن مَركزِ القرارِ بأيِّ ثمنٍ لأنَّهم يَخشوُن تقارُبِي مع المَندوبِ السَّامي، ويُريدون إبعادِي عن حَفلَتِهم الماجِنةِ، وكان حَديثِي معَهم على قَدَمِ المُساواةِ خَرقاً للتَّقاليدِ الإنجليزيَّةِ والقِيَمِ العَسكريَّةِ، لكنَّهم تَراجعُوا مِنَ الضربةِ القاضيةِ التي جاءتْ في وُجوههِم مِن قِبَلِ المَندوبِ السَّامي: مِسْ بيل تُعادلُ عِندي كتيبةً عسكريةً.

انتهى الأمرُ، أصبحتُ بالفعلِ كتيبةً عسكريةً تَجولُ بالزيّ العَسكرِي مِمّا أَلقَمَهم بالحَجَرِ ووضعَ حدًا لمُناوراتِهم ومُؤامراتِهم ضِدِّي. وسرعانَ ما تحوّلتْ سُخريتُهم إلى إعجابٍ. يا مُغيِّرَ الأحوالِ! كلُّ شيءٍ تَغيَّرَ في مئةٍ وثمانين درجة، زالَ عن وُجوهِهم التجهُّمُ والكآبةُ واللُّؤمُ، وبدأوا يُقيمون الحِسابَ لكلّ خُطوةٍ أَخطوها... أيها الملاعينُ.. لا تَعرفون سوى القُوّةِ؟ وأَدْركُوا أنَّ الجِسرَ الذي يَربطُ بينِي وبين المَندوبِ السَّامي لا يُمكنُ كسْرُه أبدًا.

كان يقفُ أمامِي وعَيناه تَبرُقان:

ياصاحبَ السَّعادةِ، لا يوجدُ أسهلُ من سُقوطِ الإمبراطوريَّةِ عندْما تنهارُ الأسبابُ التي قامت مِنْ أجلِها.

هّز رأسَه.

لاذَ العُثمانيُّون بالفرارِ كالجُرذان....

قال بِحزْنٍ:

هل يُمكنُ أن تنهارَ إمبراطوريتُنا ذاتَ يومٍ؟

لم أستطعْ إجابتَه على الفوْرِ ولكنَّ سؤالَهُ ظلَّ يُداعبُ مخيّلَتي. فقدْ أطلقَني إلى أدراجِ السماءِ بالاسْتماعِ إلى كلامِي، ولم يكُنْ يَتّخذُ قرارًا إلاّ بعدَ مَشورتِي، وباركَني العرشُ البريطانِيُّ، ونزلتْ كلماتُه في إطرائِي على رُؤوسِهم كالزِّلزَالِ، وازدادَ شغفًا بِي، وأنا أتحدّثُ إليْه عن أسْفارِي في الجَزيرةِ العربيَّةِ، فظلَّ فاغرَ الفَم:

أنتِ تُنافسِين لورنسَ في رحلاتِكِ؟

لم أكُنْ سعيدةً بالمُقارنَةِ مع ذلك البَهْلوانِ، رغمَ ما يَربطُنا مِنْ أواصِرَ، هو لم يَجدْ سوى الكوفيَّةِ والعقالِ ليُخاطبَ العربَ، مُهمِلاً مُخاطبَةَ عُقولِهم.

حين أبلغتُ وزيرَ المُستعمراتِ بانْضمامِك للعملِ في طاقَمي، وقفَ حائرًا، مُعبِّرًا لي عن خيبةِ أملِه في بادئ الأمرِ خِشْيةَ أن يُشكّلَ ذلك سابقةً في مُطالبةِ سيّداتٍ إنجليزيَّاتٍ أُخرياتٍ بالمَناصِبِ الرَّفيعةِ. وعندَما تَحدَّثنا عن مَهاراتِكِ، أشادَ بكِ وبِتقاريركِ إلى أبعدِ الحُدودِ.

يبدو أنَّ مَنصِبي أثارَ بلبلةً بين النساءِ الأُخرَياتِ، فقلتُ له:

يا صاحبَ السّعادة، ما أمسَّ حاجتَنا لِلمَعلوماتِ لأنَّ هذا البلدَ ثَريدةُ العالَمِ....

ضحكَ المَندوبُ السَّامي، وهّز رأسَه.

ثريدةُ العالَم...

أجلْ. هكذا وصَفَهُم أحدُ المُستشرِقين..

كيفَ لنا أن نَحكمَ هذا الشَّعبَ إذًا؟

لا طريقةَ إلّا بمَعرفةِ أسْرارِ قبائلِه وشُيوخِه.

ضحكَ، قائلاً:

وهل هُناك مَنْ يَعرفُ أسْرارَهم مثلُك؟

أشكرُ ثقتَكَ يا صاحبَ السَّعادة.

ثم أخبرتُه أنَّنا يَنبغِي أن نَحترسَ ولا نُخطئ بحقِّ هذا الشَّعبِ... انظرْ إلى تمثالِ الجِنرال ستانلي مود راكبًا على صَهْوةِ جَوادِه في سَاحاتِ بغداد، ألا يُشكِّلُ ذلك اسْتفزازًا لمَشاعرِهِم؟

ضحكَ من أعماقِه:

ولكنّه فاتحُ بغداد، يا مِسْ بل. ، وخطبتُه تاريخيَّةٌ.

أجلْ يا صاحبَ السَّعادة، لا تزالُ مَقاطعُ مِنْ خُطبتِه تَرِنُّ في أُذني:

لم تأتِ جيوشُنا لتَحكُمَ مُدنَكُم وأراضيكُم كقوّةٍ غازيَةٍ، بل كقوّةٍ مُحرِّرةٍ.

عندَما اجتاحَ القائدُ المَغُولي هولاكو بغدادَ ودمرَّها وعملَ تلالاً مِنْ نصفِ مليونِ جُمجُمةٍ مِنْ جَماجِمِ سُكّانها، خَضعتْ مَدينتُكُم للأغْرابِ الذين دمَّرُوا قُصورَكُم وخرَّبوا بُيوتَكُم وأغْرقُوا حَدائقَكُم بالفَيَضاناتِ، واستمرَّ أجدادُكُم وأنتُم أنفُسَكُم بالعَويلِ والنَّحيبِ، وأُخذَ أبناؤكُم إلى حُروبٍ لم تَختارُوها ونُهبتْ خيراتُكُم....

أن تَنْعمُوا بالازدهارِ كما كُنتُم في الماضِي عندَما كانتْ أراضيكُم خصْبةً، وأسلافُكُم أهلَ ثقافةٍ وحَضارةٍ رائعين، وأصحابَ عِلمٍ رفيعٍ عندَما كانتْ بغدادُ إحدى أهَمِّ عجائبِ العالَم....

قلتُ في نَفسي: خطابٌ مَليءُ البلاغَةِ والفَصاحَةِ، لكنَّه يَحتوي على المُكرِ الإنجليزيّ الخَفي أيضًا. كان البلاشفةُ يُشعلُون ثورتَهُم في روسيا. وهُناك ما هو أخطرُ، وعدُ بلفور الذي يجعلُنا في

عُيونِ العربِ مثلَ الخَنازيرِ، ثُمَّ جاءتْ مُعاهدةُ سايكِسْ بيكو لتنزُلَ مثلَ الزِّلزالِ على رُؤوسِ العربِ.

يا صاحبَ السَّعادةِ، فِلسطينُ ليستْ بلدًا مُناسبًا لليَهودِ لأنَّها بلدٌ فقيرٌ، وأكثرُ مِنْ ثُلثَيْ سُكَّانِه مِنَ المُسلمين، ويَنظرُون إلى اليَهودِ بازْدراءٍ، لكنَّ هذا الغبِيَّ بلفور لا يأبَهُ لأحدٍ.

يا مِسْ بيل، نحن لسْنا سوى خَدمِ الإمبراطوريَّةِ، نُنفِّذُ ما تُريدُه منَّا. أليسَ كذلك؟

أجلْ يا سَعادةَ المَندوبِ السَّامي، أفهمُكَ تمامًا.

لكنّني فكّرتُ في نفسي: إنَّ خَدَمَ الإمبراطوريَّةِ إذا لم يُفكِّروا فَهُم أولُّ مَنْ يَهدمُها... وهكذا بدأتُ أعيشُ في عالمَيْن مُتنافرَيْن.. يُزيدان مِنْ تَمزُّقي الدَّاخليّ يومًا بعدَ آخرَ...

تايغرسْ بالاس

في ساعاتِ الملَلِ مِنْ تَدقيقِ المِلفَّاتِ والأضابيرِ، تُرسلُ نظرَها نحوَ نافذةِ مَكتبِها في فُندقِ تايغرس بالاس، حيثُ يتدفَّقُ نهرُ دِجلةَ، ثُمَّ تخرجُ للتّنزُّهِ في الأسواقِ والمَقاهي وتَلتقي بالناسِ، والكلُّ يُخاطبونَها مُرحِّبين: أهلاً بالخاتون.

أحبّتْ هذا الفُندقِ الذي دارَ بين أروقتِه صراعُ شخصيَّاتِ مَلِكةِ الرِّوايةِ البوليسيَّةِ، أجاثا كريستي، تاركِين بَصَماتِهم وأسرارَهُم على أسرَّتِه وأرائكِه وشُرفاتِه. كان أكثرَ إغراءً مِنْ مَبْنى القَشْلة، مَقرِّ الحُكمِ البريطاني، وجدتْ فيه حرّيتَها في لقاءِ شُيوخِ العَشائرِ ورُؤساءِ القبائلِ متى تشاءُ دُون رقيبٍ أو برُوتوكول...

عليكُم أن تتَذكَّرُوا أنَّ بريطانيا لم تتقدمْ بالبَنادقِ إنَّما بالأفكارِ.

هكذا جذبتْ إليها أنصارَ الإمبراطوريَّةِ مِنْ ضُبَّاطٍ، وقادةٍ، وخيّالةٍ، ومُشاةٍ، وطيَّارينَ، وحُرَّاس وخدمٍ. لكنَّ مِسْ بيل لم تفُكِّرْ يومًا في أن تكونَ بطلةً مِن بطلاتِ الرِّواياتِ العظيمةِ، رغمَ كلِّ تلكَ الحَفاوَةِ التي استُقبلَتْ بها، لكنَّ عزلتَها الداخليَّةَ أبعدتْها عن تلكَ الأفكارِ، ولم تَجدْ رفيقًا لها سوى نهرِ دجلة، المُكلّلِ بالأحزانِ والمَسرَّاتِ، انتشاءً بفَيضِ النهرِ، وقواربِه ونوارسِه وعُزلتِه. ولا تجدُ مُتعتَها إلَّا في كتابةِ رسائِلِها بحروفٍ مُنمقّةٍ، بحبرٍ أزرقَ يتدفَّقُ في شَرايينِها، ويُعمِّدُ الكلماتِ بصلاةٍ وثنيَّةٍ، تنتظرُ زوجةُ أبيها فلورنس عبرَ المانْش رسائلَها التي تجدُ طريقَها إلى صُندوقِها الخشبيّ الآمِنِ في زاويةٍ مِن زوايا منزلِها الفِكتوري في لندن. وهي تكرّرُ: هل أنتِ مُؤرِّخةٌ أم رِوائيَّةٌ يا عزيزتي غيرترود؟

كتبتْ سيرتَها مَمزوجةً بتاريخِ وادي الرافدَيْن، داستْ بقدميْها الأرضَ فظهرتْ الحكاياتُ مِن باطنِها، ولَطالَما غازلتْ هذه الأرضَ المُقدَّسةَ بالآثارِ واللُّقَى والتُّحفِ التي تحكِي تاريخَ البَشريَّةِ منذُ نشوئِها حتى الوقتِ الحاضرِ، فلم تكُنْ تشعرُ بالضَّجرِ أو الملَلِ في وطنِها الثّانِي، السلوَى الأبديَّةُ أن تكونَ على ظهرِ حِصانِها تتنزَّهُ بين أشجارِ اللَّوْزِ وحقولِ الآلهةِ بين بشرٍ غامضين كآلهَتِهم، وأشدَّاءَ كمُلوكِهم، وخَالدين كأساطيرِهم، هكذا هي في مُستَودعِ التاريخِ المليءِ بالأسرارِ والألغازِ.

عن ماذا كانتْ تبحثُ في جُدرانِ المَدينةِ في النَّهارِ، وتنامُ في اللّيلِ كالبَغداديّين على سَطحِ منزلِها، وتحتَمِي بكُلَّةٍ مُشبَّكةٍ، شفَّافةٍ، تُحيطُ بسَريرِها، هربًا من لَسْعاتِ البَعوضِ. تُقابلُ القمرَ وجهًا لوجهٍ، وهي تَستلقي على ظهرِها، ويَرحلُ بها إلى الصَّحراءِ التي قطعتْ مسافاتِها الطَّويلةَ بصَبرٍ وأناةٍ، وقلبُها يئنُّ مِنْ جُرحٍ قديمٍ، وهي تتَأمَّلُ عواصفَ التاريخِ وتقلُّباتِه؟ وفي الصَّباحِ، تنتظرُها خادمتُها الوفيَّةُ، ماري، تحضِّرُ لها أستكانةَ الشاي، هذه سعادةٌ لا تُوصفُ، تحملُ بيدِها صندوقًا يحتوي أنواعَ الشاي السِّيلاني.

لماذا كلُّ هذه الأنواعِ يا ماري، أنتِ تعرفينَ أنَّني أفضِّلُ الشاي العِراقي؟

ضحكَتْ ماري:

لا يوجدُ شايٌ عراقي، يا خاتون، إنَّه خَلطةٌ مِنْ أنواعِ الشَّاي السِّيلاني، لا يعرفُ سِرَّه إلا تجّارُ أسواقِ بغداد.

قالَ لي ذلكَ الأفنديَّةُ في المَقهى، لكنَّها تبدُو خلطةً عجيبةً لا نعثرُ عليها حتى في لندن، ولا يعرفُ هذه الخلطةَ سوى صانعي الشاي الهُنودِ.

في تلك الأثناءِ، تذكَّرتْ كيفَ علَّقَ أبوها صورةَ جدِّها السِّير إسحاق لوثيان، عالمُ الكيمياءِ الشهيرُ على جُدرانِ صالةِ البيتِ، قائلاً:

لا بدّ أن تُصغي إلى جدِّكِ وهو يقولُ: الشَّرقُ كيمياءُ الغربِ.

لكنَّني لا أطمحُ أن أكونَ لا سيّدةَ أعمالٍ مثلَك ولا عالِمةَ كيمياءٍ مثلَ جدِّي.

مِنْ شُرفةِ منزلِها، تنظرُ إلى قمرِ بغداد المُتألّقِ في السماءِ، تتعلَّقُ روحُها بألغازِ وادي الرافدَيْن التي لَطالَما سَهرتْ اللَّيالي في مُحاولةٍ لحلِّ شيفراتِها. وعندَما تنتقلُ إلى السِّياسةِ، تصعدُ إلى مركبٍ مضطربٍ في نهرٍ هائجٍ، تتنازعُها أمواجُ حلمٍ واحدٍ: بناءُ صرْحِ المَلَكيَّة.

يتَمتِمُ الضبَّاطُ والجُنودُ: إنَّها المرأةُ الوحيدةُ التي يستمعُ إليها التّاجُ البريطاني.

كشَّرَ الرجالُ عن أسنانِهم: كيفَ ترتقِي هذه المرأةُ ذروةَ الحكمِ وتفعلُ ما تشاءُ دُون أن تُعير أيَّ اهتمامٍ لرُتبِ الضبَّاطِ وشاراتِهم العسكريّة؟ تتداعى الخرافاتُ، ولا أحدَ قادرٌ على إلغاءِ ذاكرةِ الإمبراطوريّة التي حلّتْ في أرضِ الرافدَيْن.

2

----

9 أبريل 2003

حانةُ الرافدَيْن

ضحكَ فيرناندو بِيا، الخبيرُ الدّولي بشُؤون المَكتبات، في زيارتِه إلى بغدادَ، وهو في مَهمَّةٍ رسميّةٍ لإعدادِ تقريرٍ عن احتراقِ المَكتبة الوطنيّة. حاولَ أن يُبعدَ عن رأسِه تلكَ الخَيالاتِ التي تراكمتْ فيه عن تلك المدينةِ مِن أجلِ أن يتمكَّنَ مِن أداءِ مهمَّتِه الأُمَميّة. لم يَستقبلْه أحدٌ في مَطارِ بَغداد، بل استقلَّ سيّارة تاكسي ووَصلَ إلى فُندقِه ال. "ميرديان" الذي طافتْ شهرتُه العالَمَ أثناءَ دُخولِ القوّات الأمريكيّة إلى بغدادَ. وتذكّرَ كيفَ أسقطتْ الدبّاباتُ الأمريكيّةُ تِمثالَ صَدّام حُسين. وقفَ مذهولاً أمامَ إرادةِ العِراقيّين وهم يَتوقُون إلى الحياةِ في أتعسِ حالاتِهم. رفعَ رأسَه وهو يَسيرُ تحتَ نُصْبِ الحُريّة في ساحةِ التّحرير، مُتأملاً هذا الأثرَ الفنّيَ المُعلّقَ على لوحةٍ خَرَسانيّة، تطفح منه الآلامُ التي تَحملُها وُجوهُ المارَّةِ العِراقيّين، مَكسورين، وخائبين، ويائسين، مُطأطئي الرُّؤوسَ على عَكسِ التّماثيلِ المُعلّقة وكأنَّ ذلك النحّاتَ العظيمَ كان يرسمُ على طريقِ الجُلجُلة ما في دَواخلِ هؤلاء البشر، وهو في الوقتِ ذاتِه يسعى إلى بَعثِ الكِبرياءِ والشُّموخِ والعُنفوان في أرواحِهم. حاولَ أن يَبحثَ عن عَلاقةِ الخلَلِ بين هذا النُّصْب وبين وُجوهِ العِراقيّين التّائِهين مِمّا جَعلَه يُفكرُ مَليًّا بجَدوى مَهمتِّهِ الرسميّة التي جاءَ مِن أجلِها: كتابةُ تقريرِ المَكتبةِ الوطنيّةِ بعدَ الاحتلال الأمريكي. في تلك الأثناء، وتحتَ نُصْبِ الحُريّة، لفتَ نظرَه أحدُ العابرين المُتسكّعين، وهو يتأبَّطُ حزمةً مِن الكُتبِ، ويَرتدي بدلةً أنيقةً ونَظيفةً، ورَبطةَ عُنقٍ ورديّةً، ممّا شجَّعَه على التقرُّبِ منه، والسُّؤالِ عن تلك التَّماثيلِ التي رآها لأوَّلِ مرَّةٍ وأثارتْ إعجابَه، وقبلَ أن يلفظَ أوَّلَ كلمةٍ، باغتَهُ ذلكَ العابرُ بالسُّؤال: هل أنت زائرٌ لبَغداد.

أجل. أقدِّم لك نفسي: فيرناندو بِيا، خبيرٌ دوْلي في شُؤون المَكتبات.

بغداد ترحِّبُ بكَ.

انفتحتْ أساريرُ فيرناندو، قائلاً:

يا سيّد.....

عفوًا لم أقدِّمْ لكَ اسمي... أبو سُقراط...

ابتسمَ فيرناندو مُستبشرًا.

هل يُسَّمي العراقيون أولادَهم سُقراط؟

طبعًا... سُقراط وأفلاطُون وأَبيقور وفيثاغورُس... ووووو أمزحُ معكَ، رُبَّما لا تجدُ غَيري بهذا الاسمِ... لا أريدُ أن أزعجَكَ حتى إنَّ مُوظفَ الأحوالِ المَدنيّة رفضَ أن يُسجِّلَ اسمَ ابني في قيدِ السّجلات، فتحَ فمَه مدهوشًا وكأنَّه ضُربَ على رأسِه، وقالَ لي كالأبلَه: هل هذا اسمٌ عِراقي؟ فقلتُ له:

سُقراط يونانيّ ولكنّه ضيفُ العِراق الدّائم.. صديقُ جَلجامشْ... لكنَّ العِراقيّين لا يتردَّدُون في أن يُسمُّوا أبناءَهم زِبالَة... زِبالَة... افتحْ سِجلَّ النّفوسِ ستَلقى عشراتِ إن لم يكنْ مئاتِ العِراقيّين يَحملون اسمَ زبالَة.... هكذا قلتُ لمُوظّفِ الأَحْوال المدنيَّة.. أنتم تُسجلون اسمَ زبالَة في قَيدِ السّجلاتِ وتَرفضون تَسجيلَ اسمَ سُقراط الفيلسوف؟ وبعدَ أن دسَسْتُ عشرين دولاراً في يدِه، ابتسمَ وقالَ: سُقراط أفضلُ مِنْ زبالَة طبعًا... فقلتُ له سُقراط تاجُ رأسِكم.. فضَحكَ ببَلاهة. لو كان عندَنا كاتبٌ عظيمٌ لألّفَ روايةً عن مُوظَّف الأحوالِ المدنيّة هذا!

صرخَ فيرناندو: رائعٌ وعَظيم. يا أبا سُقراط. أنا سعيدٌ باللّقاءِ بكَ.

وأنا أيضًا.

هل أنتَ إسبانيّ؟

كلّا، فينزْويلي...

آه.. مِن بلدِ هُوغو شافيز...

أجلْ..

للأسفِ الشّديد، لا نعرفُ عن بلدِكم الكثيرَ.

أردتُ أن أسألَكَ عن هذه الأيقونَةِ العزيزةِ التي فوقَ رُؤوسِنا.

هّز أبو سُقراط رأسَه.

أجلْ. وأيقوناتٍ أخرى...

أنتَ تسألُ، يا سيّد فيرناندو، عن أعزِّ الأيقونات إلى نفسي. العِراقيُّون مَشغولون بهذه الأيقونَة منذُ نصفِ قرْن، يحاولون أن يُنجزوا ربعًا مِنها في حياتِهم دُون جدوى... حتى الوقتِ الحاضر. يا زائرَنا العزيزَ الحديثُ يطولُ عن هذه الأيقونة.. وأنا لديَّ مَوعدٌ مع أصدقائي في الحانَة.

آسف رُبَّما شغلتُك.

لا أبدًا.. هم أيضًا مَعنيُّون بهذه الأيقونَة. ولا بدَّ لي مِن الالتحاقِ بيُونس ونُعمان وهاشمَ ومَنصور الذين ينتظرونني، ما رأيُك لو دعوتُك إلى حانَةِ الرافدَيْن؟

بكلِّ سُرور. يا لها مِن مصادفةٍ جميلة أن ألتقي بكَ.. إذْ إن جزءًا من عملي أن ألتقي بالنّاسِ المُثقفين... إنَّني مُبتهجٌ بذلك. يا سيّد أبو سُقراط، لقد قرأتُ الكثيرَ عن بلدِكم، يُقالُ أنتم أوّلُ بلدٍ عَرِفَ الحانَة.

أجل الحانَةُ هي البشرُ الذين فيها...

كانت كُتلُ الظلام تُخيّمُ على حانَة الرافدَيْن، والمارَّةُ يَعبرون المساءَ الكئيبَ تحتَ نُصبِ الحريَّة، بخُطوات وجِلةٍ، مُتردِّدَةٍ، مُشوَّشي الذهنِ والعقلِ، يَطوُون هَذياناتِهم في عُقولِهم، ويَمنحون أنفسَهم هدنةً مُؤقتة، باحثين عن طُمأنينَةِ الأمكنة.

انظرْ يا سيِّد فيرناندو إلى هذه الأسوارِ الشّاهقةِ، إنَّها المَقبرةُ البريطانيَّةُ المُهدَّمةُ منذُ ما يقربُ مِنْ مئةِ عام.

أتذكّرُ ذلك، هم جاؤوا هنا لطَرْدِ فُلولِ الأتراكِ العُثمانيّين...

هكذا ادَّعوا ثم تربَّعوا على العَرش.

هذا صَحيح...

يستطيعُ العِراقيُّون أن يتخلّوا عن البَرلمان ولكنَّهم لا يَستطيعون التخلّي عن الحانَة..

هههههههه... فكرةٌ مُضحكةٌ وجميلةٌ...

هي مَحجُّهم الأوّلُ والأخيرُ... كَعبتُهم.. وإلَههُم.. ماذا أقولُ لك، يا سيّد فيرناندو... لا تكتملُ سعادةُ العِراقي إلا في كُؤوسِ العَرَقِ والجِعةِ والنَّبيذ... واللّبلبي والجَاجيك

ما هو اللّبلبي؟

الحِمّصْ.

والجاجيك؟

اللبنُ المَمزوجُ بالخِيار.

يعني مثلَ المُقبِّلات اليونانيّة أو التركيّة.

هذا صَحيح.. المُستعمِرُ يسرقُ الطَّبخاتِ دائمًا... هل سمعتَ بأنَّ إسرائيلَ تدَّعي أنها اخترعتْ الفَلافِل...

هههههههه... واخترعوا أشياءَ سيِّئةً أخرى...

المُستعمرون لا يفكِّرون إلا ببُطونِهم.

كلُّ شيءٍ غارقٌ في ظلامٍ حالكٍ في الحانَة، ولا يُنيرُ كُؤوسَ العرَقِ النّاصعةَ البيضاءَ سوى ضوءٍ خافتٍ ينبعثُ مِنْ زوايا الحانَة، مِنْ كُوّاتٍ صغيرةٍ في الجُدران العالية، أضواءٌ تأتي مِنْ مَصدرٍ

آخرَ في الخارج، ولا يحتاجُ الروّادُ إلى كثيرٍ مِن الضِّياءِ ليُبصروا ما أمامَهم، بل يكتفون بالقَليلِ منه، لأنَّهم يَلمسون الأشياءَ لمسًا في الظَّلام، ولا يَحتاجون إلّا لبَريقِ عُيونهم ليَروا أقربَ بُقعةٍ مِنْ أياديهم العارفةِ والمُدرَّبةِ على فُنون الإبصار واللّمسِ، تلك البُقعةُ التي يَجلسون فيها، تحوَّلتْ إلى مَسرحٍ للأشباحِ أو للدُّمى تغورُ في أنفاقٍ، تبدو على وُجوهِهم آثارُ التوتُّرِ والقلقِ والألمِ في ساعاتِ النهار، فيَحتمونَ بتَعاويذِ الخمْرةِ وأرواحِها الغائبة، لا يَعتريهم أيُّ خوفٍ مِنْ هُجومٍ مُفاجئٍ لدَوريَّاتٍ حُكومية أو مِليشياتٍ مُتعصِّبة أو جُيوشٍ صغيرة ضالَّةٍ تجوبُ شوارعَ بَغداد. مُسمَّرون في مَقاعدِهم في الحانَة الأكثرِ طُمأنينةً وأمانًا مِنْ شوارعِ بغداد وساحاتِها، رغمَ انقطاعِ التيار الكَهربائي. وهنا يقطعُ الهدوءَ يونسُ بنُكتة: هل تعلمون أنَّ الولاياتِ المُتَّحدة أطفأتْ مَصابيحَها لدَقيقةٍ في حدادٍ لرحيلِ مُخترعِ الكَهرباء أديسون؟ ولكنَّ بغدادَ لا تزالُ تلتزمُ بالحداد وتطفئُ مَصابيحَها إلى الوقتِ الحاضر.

يتعالى صخبُ الضحِكِ.... ها ها ها ها..

هكذا يَضحكون فيما تُوحي أشكالُهم بأطيافٍ تتعاركُ مع أعمدةِ الدُّخان، تحيطُ جوامعُ وكنائسُ ومَعابدُ بالحانَة، تُنشدُ وترتِّلُ للمُصلّين، وتتسلَّلُ إلى صَخبِ الحانَة، تذكِّرهم بأنَّهم ليسوا وَحيدين بل هناك مَنْ يَحرسُهم. ولا يزالُ هناك بعضُ الروَّادِ يَذرعون شارعَ الرَّشيد، بكيلومتراتِه الطّويلة، سيرًا على الأقدام، مُندفعين نحوَ الحانَة، وهم يسْتنشِقون الغُبارَ الذي تُثيره نِعالُهم الجِلديةُ والمَطّاطيةُ في الطُّرقاتِ الوعِرةِ بسَببِ خرابِ الإسفلتْ فيها.

صاحبُ الحانة جَرجيس يبدُو كَحارسِ مَعبدٍ يُذكِّرُ بالأيَّام الغابرةِ حين كان المعبدُ جزءًا مِن الحانَة، والحانةُ جزءٌ مِن المعبدِ، والصَّلاةُ تُواكبُ رفعَ الأنخابِ إلى الآلِهةِ المَجهولة. يفتحُ ذراعَيْه لرُوَّاد حانتِه، ويحتضنُهم: يُونس ونُعمان وهاشم ومَنصور، بعدَ أن صافحَهم فردًا فردًا، جلسَ هذا الرَّهطُ، بعُيونٍ تَرنو إلى المَسرحِ المُتخيَّلِ في نهاية الصالة تَشي به ستارةٌ سوداءُ تُغطّي الفراغَ الكائنَ خلفَها، كانوا وهُم في هذه الحالِ مِن التَّماهي بين الواقعِ والوهمِ يَنتظرون أن يظهرَ المُمثِّلون، بينما لا يَعرفون أنَّ هذا الفضاءَ في الحانَةِ هو بحدِّ ذاتِه مسرحيةٌ سُوريالِيَّةٌ هُم أبطالُها.

بدأَ الواحدُ بعدَ الآخرِ يمُدُّ يدَه لمُصافحةِ صاحبِ الحانَة، وهو سارعَ إلى إحضارِ كُرسيَّيْن إضافيَّيْن، قائلاً:

أهلاً أبو سقراط.... هذا المقعدُ الوثيرُ لضَيفِنا الأجنبي.

أجابَه فيرناندو:

كلُّنا أجانبُ في برجِ بابِل.

هههههههه...

هذا سيُصبحُ أجنبيًا يريدُ الذَّهابَ إلى كَنَدا.

يتركُ شمسَ بغدادَ ويذهبُ إلى ثُلوجِ كَنَدا؟

أجلْ.. العِراقيُّون لم يعودوا يَفكِّرون بشَمسِهم ولا بقَمرِهم..

هذا شيءٌ مُؤسفٌ. وضحكَ فيرناندو.

وبعدَ أن رحّبَ جَرجيس بالضَّيف، قال:

أنتَ سعيدٌ يا سيِّد فيرناندو أن تلتقي بأبي سُقراط، فهو مِفتاحُ الحَكي في بغداد.

أنا محظوظٌ أيضًا بالتعرُّفِ على أصدقائِك أنتَ والجَماعة..

بالتَّأكيد تحدَّثَ إليكَ اللعينُ أبو سُقراط عنَّا وأفشى جميعَ أسرارِنا.

جَرجيس يمزحُ لا تُوجدُ لدينا أيَّةُ أسرار.

كيفَ لا توجدُ لديكم أسرارٌ وأنتُم حلقةُ الشُّعراءِ المَجانينِ في بَغداد.

انطلقتْ القَهْقَهات.

سأُقدِّمُهم إليكَ هؤلاء الشُّعراءَ المجانينَ، كلٌّ على انفراد:

يُونس، كاتبُ سيناريو عاطلٌ عن العمل.

نُعمان مُخرجٌ سينمائّي عائدٌ مِنْ باريس.

هاشم مُشغِّلٌ قديمٌ لآلةِ العَرضِ في سِينما غِرناطَة التي أغلقتْ أبوابَها.

مَنصور حارسُ مَقبرةِ الخاتون مِسْ بيل.

ابتسمَ فيرناندو، قائلاً:

وأنتَ هل نسيتَ أن تُقدِّمَ نفسَك؟

أنا أبو سُقراط.. هذا كلُّ ما في الأمر.

رفعَ فيرناندو كأسَ العرقِ نخبَ أصدقاءِ أبو سُقراط المُتحلِّقين حولَ طاولةٍ كبيرة.

صرخَ أبو سُقراط:

اضرُبوا الكُؤوسَ ببعضِها أقوى حتى نسمعَ الرَّنينَ، لكَي لا تزعلَ الأُذن.

فيرناندو:

وماذا بعدَ رَنينِ الكُؤوس؟

لا شيءَ بعدَه سوى تعاويذِ الخَمرة وخيالاتِها البعيدة.

كان فيرناندو شاردَ الذِّهنِ، كما لو كان يتأمَّلُ وُجوهَ الجالسين: يا إلهي! ما الذي يجمعُ بين نُعمان الأستاذ الأكاديمِيّ الذي درسَ الإخراجَ السينمائِيّ في باريسَ وبين هاشمَ مُشغِّلِ صالةِ سينما غرناطة؟ لا شيءَ في الظاهر ولكنَّ أربعين سنةً في تَشغيلِ آلةِ عَرضِ الأفلامِ تكشفُ عن سِرَّ هذه العلاقة.

قطعَ أبو سقراط تأمُّلَه بقَولِه:

انظرْ إلى هاشم.. هذا الرجلُ يتمكَّنُ مِنْ سردِ أحداثِ الأفلامِ التي شاهدَها عن ظهرِ قلبٍ مثلَ "زِدْ وساكُو وفانزيتِي وحالةُ حِصار ومَدافعُ نافارون وزُوربا والأخوَة كرامازوفْ" وغيرِها مِن الأفلام، وكذلك سرْدِ حياةِ مُخرجيها وأبطالِها وبَطلاتِها وأذواقِهم وأزيائِهم وسلوكِهم...

ثم شردَ فيرناندو بعدَ أن تناولَ الكأسَ الأوَّلَ، صارخًا: هذا العَرَقُ قويٌّ جدًا.

أجابَه أبو سقراط، يُسمُّونَه عندَنا أبو الكَلَبْجَةْ أي أبو الأصْفاد.

وما مَعنى ذلك؟

يعني مَنْ يشربْ العرقَ يذهبْ إلى السِّجن.

يا ستَّار. لكنَّني لا أريدُ الذهابَ إلى السِّجن بل إلى فُندقي مِيرديان.

نحن نمزحُ يا سيّد فيرناندو... إنَّه مثلُ الويسكي.

ثم شردَ فيرناندو ثانيةً، يفكِّرُ:

وما هي علاقةُ كاتبِ سِيناريو مثلِ يُونس أنهى أكاديميَّةَ الفُنون الجميلة مع حارسِ المَقبرةِ الإنجليزيَّةِ مَنصور؟...

قاطَعَه أبو سقراط:

انظرْ إلى مَنصور.. إنَّه حارسُ مقبرةِ أهمِّ شخصيَّةٍ مرَّتْ على العِراق: المِسْ بيل... يتقاضى راتبَه مِن الكومُنويلث بالجُنيه الأسترليني. هل سمعتُم بمِسْ بيل؟

يا رجل.. مَنْ لا يعرفُ هذه المرأة؟

انظرْ إلى يُونس... هذا الرجلُ كتبَ سيناريو عنْها، ويفكِّرُ بتَصوير فيلمٍ عنها قبلَ هوليود...

قالَ مَنصور:

يا سيِّد فيرناندو، هل ترغبُ بزِيارة قبرِ المِسْ بيل؟

لمَ لا؟

ثمَّ قالَ يُونس:

هل تعلمون ماذا يفعلُ مَنصور حين يَختلي مع المِسْ بيل؟ لا يَستأنسُ إلا عندما يضعُ كأسَ العَرقِ على سطحِ قبرِها الإسمَنتي ويتبادلُ الأنخابَ معها، حتى إنَّ زوجتَه العجوز شعرتْ بالغيرةِ، وهو يتصارَخُ معها: كَيفَ يمكنُ أن تشعُري بالغيرةِ مِنْ امرأةٍ مَيْتة، هل يمكنُ أن تكون الزوجةُ غيورةً مِنْ نَجمةٍ سينمائية يُحبُّها زوجُها، أيَّتُها الحَمقاءُ؟ هل تُريدين أن أطردَكِ مِن المَقبرة؟ إلى أين ستَذهبين لو خرجتِ مِنْ المَقبرة؟

يبدأُ الجميعُ بالضّحكِ على قِصصِ مِنصور وقصَّةِ غيرةِ زوجتِه.

تقولُ زوجتُه: لا يُبارحُ اسمُ مِسْ بيل لِسانَه ليلَ نهار، يستيقظُ على اسمِها وينامُ عليه، هذا الأبلَهُ، وطوالَ الوقتِ يَعتني بتَنظيفِ قَبرِها وكأنَّها ستستيقظُ بعدَ قليلٍ لتَتناولَ أستكانةَ الشاي.

قالَ هاشم:

آنَذاك يَحلُو له أن يَدعوَنا إلى حفلتِه بعدَ أن تُقفلَ الحانةُ أبوابَها.

هههههههه.

دعُونا نواصلُ الحفلَةَ في مقبرةِ الخاتون.

قالَ فرناندو:

أصبحَ الوقتُ مُتأخرًا.. علَّني أذهبُ إلى فُندقي.

كما تشاء.

يتحدَّثون عن اختِطافِ الأجانبِ.

لكنَّ شكلَكَ لا يُوحي بأنَّكَ أجنبِيّ.

لكنَّني يجبُ أن أذهبَ. يمكنُ أن أزورَ قبرَ مِسْ بيل غدًا.

بكلِّ سُرور.

عليّ أن أرافقَكَ إلى الفُندق.

دويُّ الانفجاراتِ في الكُؤوس

في اليومِ التالي، جاء فيرناندو إلى حانَةِ الرافدَيْن على المَوعدِ تمامًا.

وباشَرَ كلامَه مع أبي سُقراط:

هل سمعتُم بأخبارِ الانفجارات؟

أجابَه أبو سُقراط:

دويُّ الانفجاراتِ في الكُؤوس يا صديقي.

أنتَ على حقّ، عرفنا الحربَ في أوروبَّا قبلَكم.

الانفجاراتُ يا صديقي أصبحتْ مثلَ الخَميرةِ أو الخيمياء في رُؤوِسنا.

كان الطريقُ إلى المقبرةِ مُوحشًا. قبرٌ أنيقٌ، مَشيدٌ مِن الطَّابوقِ على شكلِ مُستطيلٍ، وله شاهدةٌ، مَنحوتٌ عليها اسمُها بحُروفٍ كبيرة.. غيرترود بيل أو مِسْ بيل أو الخاتون، ثلاثةُ أسماءٍ نحن بحَاجةٍ إلى اسم رابعٍ نُطلقُه عليها ولكنَّنا لم نجدْه بعد.

ضحكَ الجميعُ.

يا إلهي!

مَنصور يشربُ العَرَقَ على قَبرِ صانعةِ المُلوك؟

آه، لو يعلمُ الكومُونوِيلث بذلك، لطَردوكَ مِنْ وظيفتِك؟

لماذا؟

هذه إهانةٌ إلى التَّاجِ البريطانِيّ.

لا تنسَ أنتَ في أرضٍ بريطانيَّةٍ حتى الحُكومةُ العِراقيَّةُ لا تستطيعُ أن تدخلَ إليها إلّا بتَأشيرة، بفِيزا، هههههه.

بل إنَّها نُفوسُ المَوتى تستريحُ هُنا، أرواحُ الحَجر، لا أحدَ يُناجيهم إلّا النُصُبُ والتَّماثيلُ والدُّمى.

قالَ أبو سُقراط:

يا جماعة، هذه المرأةُ تَتماهى مع آمالِ الإمبراطوريَّةِ مِثلَما يَتماهى القدِّيسُون بمَعبوداتِهم.

نظرَ إليه فيرناندو:

أنتَ تُواصلُ احتساءَ العَرَقِ كأنَّك تشربُ ماءَ دِجلة، تصبُّ في مَعدتِك الصَّغيرةِ هذه الكيلوغراماتِ مِن التُّمورِ المَعصورة، والمُنصهرة بأشِعَّة الشمسِ، وفوقَ ذلك كلِّه، لا تَتناولُ طعامًا.

هذا أنا يا فيرناندو. ما عَسانا أن نفعلَ طوالَ الليلِ سوى شربِ الخَمر؟ لا يَحلُو لنا الحَكي إلّا عندَما نسكبُ في جوفِنا قَناني العَرَقِ والبِيرة والنَّبيذ مثلَ مَلايين العِراقيّين، كلُّهم رُواةٌ يَتلذَّذون بالثَّرثَرة والحَكي والفَضْفَضةِ حتى لو كانوا يتحدَّثون عن الإذلالِ والخِذلانِ والخَسارة، هم أبطالٌ وأبطالٌ مُضادُّون قادِمون مِنْ بُطون الأساطير، يَرفعون رُؤوسَهم بخُيَلاءَ وكِبرياءَ وكأنَّهم يُراهنون على تاريخِهم الذي أفُلَ وضاعَ... يَلتقون تحتَ نُصبِ الحريَّةِ كالغُرباءِ، لا وُجوهَ لهم ولا مَلامحَ، كأنَّهم خارِجُون مِن الماضي، يَستعيدُون تَفاصيلَ التاريخ، وهم يَسْتنسِخُون أنفسَهم إلى عشرةِ أو مِئةِ أو ألفِ أو مئةِ ألفِ أو مِليون أو مَلايينَ مِن الرُّواة. هل تَتخَيَّلُ ضجَّةَ الحِكاياتِ عندَما تخرجُ من النُّفوسُ إلى الخارج؟

يا لها مِنْ ساحةٍ جميلةٍ، ولكنْ لماذا هجرَها عُشَّاقُها؟

بلَى يا صديقي فيرناندو، المكانُ مليءٌ بالأيقُوناتِ، والرُّموزِ، والرَّوائحِ، والتظاهُراتِ، والخُمورِ، والعاهرات....

هههههه.

يَعني: فردوسٌ مَفقودٌ أو جنَّةٌ ضائِعةٌ، عابِرون تُراودُهم أحاسيسُ مُزدوِجةٌ، مِن الحُبِّ والكَراهيَةِ، مِن التمرُّدِ والانصِياعِ، مِن الوفاءِ والخِيانةِ، مِن الشَّجاعَةِ والجُبْنِ، أليسَ هذا هو سِحرُ العِراقِي الذي استوحى رُوحُه مِنْ أرواحِ الآلِهة المُحصّنَةِ في أبراجِ الزقُّوراتِ الشامِخة؟

الكائنُ العِراقيُّ يمكنُ أن ينشطرَ إلى مَلايين!

هههههههه.

أجلْ مَلايينُ الشّذراتِ النفسيةِ المُحطَّمةِ في هذه الكَينونَةِ التي نُطلقُ عليها الحياة.

هل كان ذلك منذُ الأزل؟

رُبَّما منذُ عُثورِه على نَبتةِ الخُلودِ التي سرقَها الثُّعبان الماكِر؟

هل تقصدُ جَلجامِشْ؟

لذا ظلَّ كائنًا مَلعونًا ومُباركًا في آنٍ واحدٍ.

هل تريدُ أكثرَ، يا فيرناندو؟ أصدقائِي يَحتسون كُؤوسَ العَرَقِ مع الأساطيرِ كلَّ يوم. نحن خمسةُ أصدقاءٍ وأنت سادسُنا.

هذا شرفٌ كبيرٌ لي.

نحن بحَاجةٍ إليكَ، يا فيرناندو، لنُكملَ شخصيَّاتِ بيراندييللو.

هههههههههه برافو عليكَ، أصبحتَ عُضوًا في حلقةِ الشُّعراءِ المَجانين في بغداد. يا لكُم مِنْ شعبٍ عظيمٍ، تَحلمون ببِيراندييللو وتُدردِشون مع جَلجامِشْ.

لسنا نحن بلْ بيراندييللو. أفراحُنا بسيطةٌ للغاية. العملُ والتنزُّهُ، وتناولُ أستكانةِ شاي أو فُنجانِ قهوة، والاسترخاءً في قَيلولَةِ الظَّهيرةِ، وقراءةِ كتابٍ، ثُمَّ الخروجُ مساءً لتَناولِ كأسٍ مِن العَرَقِ أو النَّبيذِ أو البِيرة في الحانَةِ العَتيدة.

هههههههه.

يا صديقي الحانَةُ هي المَعبَد.. وفيها كلُّ شيءٍ مُباح... ليسَ الآنَ بلْ في زمنِ المَعابد، حيثُ كانتْ المرأةُ لا تشعرُ بالعَارِ مِنْ مُضاجَعةِ الرِّجالِ لأنَّ العهرَ في وادي الرافدَيْن كان جزءًا مِن العِبادة.

ما الذي تغيَّرَ الآن إذًا؟

لا شيءَ سوى أنَّ نساءَ الماضي كنَّ أكثرَ حُريَّةً مع أجسادِهنَّ.

الجسدُ مُقدَّس، ولكن أينَ ذهبَ؟

أصبحَ الرجلُ الشَّهمُ هو الذي يُقدِمُ على قَطعِ رأسِ المرأة الزَّانيَة، انتقامًا للشرفِ الضائِع وغَسلاً للعار، الذي خلقَه بنفسه وانتقمَ مِنه في الآنِ ذاتِه، وهو لا يتردَّدُ في أن يَرمي كلَّ ما يملكُ مِنْ دَنانيرَ في جيبِه على راقصةٍ بلْهاءَ في مَرقصٍ ليليّ، ومُستعدٌّ أن ينتقمَ مِنْ أيِّ غريمٍ يعترضُ طريقَه، ويغارُ على عاهرتِه أكثرَ مِمّا يَغارُ على زوجتِه! التاريخُ زريبةٌ يتصارعُ فيها الفاسدون والمُتديِّنون، تفوحُ مِنْ أجسادِهم روائحُ الحَيواناتِ المَنويّة الحامِضةُ مثلَ رائحةِ بقايا سمكٍ مُجفَّف، أو رائحةُ قنواتِ الصَّرف الصِّحي المَكسورة، أو مزيجٌ مِنْ هذه الرَّوائح كلّها، ويفوقُ رائحةَ غرونوي، هذا ليس ضفدعًا باللُغة الفرنسية بل هو بطلُ رِوايةِ باتريك زوسكند، أجلْ. أجلْ.

هل قرأتَ روايةَ "العطر" لهذا الكاتبِ السُّويدي؟

طبعًا وشاهدتُ الفيلمَ الذي استُوحِيَ مِنها.

تنتجُ بلادُ الرافدَيْن مَلايينَ مِنْ كائنِ الغرونوي، بحَاسَّتِهم الخارقَة في الشمِّ، ولكنَّهم لا يَشمُّون الرائِحَةَ القَذرة.

لا تكنْ قاسيًا على أبناءِ جِلدتِك، يا رجلْ.

ابحثْ عن الأعذارِ لأخطائِهم.

سادَ صمتٌ طويلٌ بينَهما.

ما رأيُك، يا فيرناندو، بتَناوُلِ عشاءِ "الباجةْ" معنا؟

الباجةْ؟

هل هي طبقٌ مَحلي؟

أولًا نلفظُها بالجيم المُضخَّمة، أكْلةٌ عِراقيةٌ مُكوَّنةٌ مِن أرجلِ ورأسِ وأحشاءِ وحَوايا الخَروف المَسلوقة والمَحشيَّة بالرُزّ وقِطعٍ صغيرة مِن اللَّحم، أو مِن العُجولِ أو البقرِ، رأسُ خَروفٍ، بِلُحومِ الوجهِ واللسانِ والمُخ".. يَغلي النهارَ بكامِلِه، مَمزوجٌ بأرغِفةِ الخُبز المَنقوعة، وباقةٍ مِن البَصلِ الأخضرِ، وحزمةٍ مِن الفِجلِ الأحمرِ، واللّيمونِ البِصْريّ الجافّ. وفيها الليمونُ البِصْريّ والبهاراتُ والهيلُ والقِرفةُ، مع قطعِ الخُبز في شُوربة مرقِ اللَّحم، وأمعاءُ الخَروف يتمُّ تنظيفُها بالماء والخَلّ وتُحشى بالأرُزِّ المَخلوطِ مع قِطعِ اللَّحم الصغيرةِ فيما يُسَّمى المِمْبار، بالإضافةِ إلى كُرشَة الخَروف.

ولكنِّي أعرفُ باجة مَدينة بُرتغاليَّة، كانتْ أندلُسيَّة أي باجة الأندَلُس.

وأقولُ لك إنَّ ابنَ باجة، أبو بكر محمد بن يحيى بن الصَّائِغ بن باجة التجيبي أبرز الفلاسفة العرب في الفلسفة والطب والرياضيات والفلك والأدب والموسيقى، لكن العراقيين لا يعرفون سوى أنها أشهرُ طبخةٍ عراقية يتلذّذُ بها السكارى وعمّالُ البناء عند الفجر، إن كان الواحد ذاهباً إلى الفراش أم إلى العمل. لا عليك سنتذوّقها معًا... بعد أن نذهبَ إلى الحانةِ ونرى الأصدقاءَ ونخرجَ مِنها. هكذا هم العِراقيّون لا تعرفُهم إلّا في الليل، لهم طُقوسُهم بعدَ السُّكْر، يجدون مُتعتَهم في التبوُّل على الجُدران، بعدَ التسكّع، والنظرِ بسُخرية إلى الشِّعار المكتوبِ على الجُدران "التبوّل للحَمير"... لكنَّهم يتبوَّلون ويَضحكون... وكأنَّ الأمرَ لا يخصُّهم. بعدَ حفلةِ السُّكْر، يذهبُ العِراقي إلى البيتِ مَخمورًا، يستمعُ إلى آذانِ الفجرِ ورأسُه مليءٌ بضَجيجِ الحانة، يردِّدُ مع المُؤذِّن بعضَ الآيات، ويستغفرُ ربَّه، يحاولُ مُضاجعةَ زوجتِه، برَائحة الخَمر، المَمزوجة برَائحة البصَلِ والفِجل والثُّوم والباجَة...

ها ها ها... لا يمكنُ أن أفهمَ العِراقي بدُونكَ يا صديقي.

هل تعلمُ يا فيرناندو، كلُّنا ابتهجنا بالثورة وقائدِها، وكلُّنا بكى مصيرَ الملك وعائلتِه، يمكنُ للعراقي أن يكونَ يمينيًا في النهار ويساريًا في الليل، مُؤمنٌ في النهار، ومُلحدٌ في الليل، يرتادُ المسجدَ والحانَة، يدافعُ عن الشَّرف ويَزني، لا يأنَفُ مِنْ ارتداءِ بالاتِ اللَّنكة، الملابسِ المستعملة، العابقةِ

برائحة البحارِ والخنازير، التي ضلّت طريقَها مِنْ أفريقيا إلى مِيناء البَصْرة، ولا يتردَّدُ في شراءِ شهادة دُكتوراه مُزيَّفة، بمرتبةِ الشَّرف الأولى. وأن يقومَ بكلِّ المَفاسد؟ في ساحةِ التَّحرير التي لم يبقَ لها مِن التَّحرير سوى أكداسِ القاذوراتِ التي تملأُ شوارعَها.. آلافُ البشرِ هنا، نهارًا وليلاً، أجناسٌ وأقوامٌ ومِللٌ ونِحل، يَسيرون كالعُميان، يتوقَّفون أمامَ نُصب الحريَّة، ويتجمَّدُون أمامَها في صورةٍ ثابتةٍ بالأسودِ والأبيضِ كما في أجواء فيلمٍ بوليسي. لا يوقِفُ صداعَ رُؤوسِهم إلا الخَمر. يُباركون المُحتلَّ في النهارِ ويلعنونَه في اللَّيل، يُكافحون ضدَّه ويَعملون مُترجِمين وأدلّاءَ معه، قذَفَ الرجالُ العُثمانيُّون شراسةَ المَني في فُروجِ أمَّهاتِهم، فتحوَّلتْ جِيناتُهم إلى جيناتٍ هَجينة، لا يأبَهون بضربةِ الشَّمسِ والكُوليرا التي هَزمتْ الإنجليزَ، بينَما هربَ الأمريكان بنُعوشِ مَوتاهم إلى خارجِ الحُدود، وأجملُ ما نفتخرُ به أنَّنا حافظْنا على قبرِ الخاتون منذُ مِئة عامٍ، ولم يُقدِم أيُّ عِراقي على هدمِه أو تدميرِه.

أنتَ رجلٌ لامعٌ، إنَّني أسمعُ كلامًا لم أقرأْهُ في الكُتب. ، هل يمكنُ أن نُكملَ حديثَنا أثناءَ تَناوُلِ الفُطور صباحَ الغد؟

للأسفِ لا أستيقظُ إلا ظُهرًا.

والمَكتبة؟

يمكنُ أن نذهبَ إليها بعدَ الظُهر.

المكتبةُ الوطنيَّة

وقفْنا أمامَ المكتبةِ الوطنيَّة بحُزن.

قالَ لي فيرناندو: هل تعلمُ أنَّني شاهدتُ فيلمَ فيديو كيفَ تلتهمُ ألسِنةُ النِّيران الكتبَ والمَخطوطاتِ؟

نعم. أعرفُ هذا الفيديو الذي صوَّرَه هاوٍ وانتشرَ في العالَم وهو يُباعُ ببِضعة دولاراتٍ في ساحةِ التَّحرير تحتَ نُصبِ الحُرية.

إنَّهم مَسؤولون عمَّا حدثَ لمَكتبتِكم الوطنيَّة..

نعم لم يفعلوا شيئًا للحِفاظِ عليها باستثناء وزارةِ النَّفط.

هههههههه.

جميعُ البُلدان شهدتْ الحُروب ولكنَّ مَكتباتِها لم تُحرقْ.

ارتعشَ قلبِي. أخذَني فيرناندو إلى مُوظَّفة المكتبة، ذاتِ العينَيْن الواسعتَيْن، الفتاةُ الدمثةُ، والصَّابرة، والمَشغولة دائمًا بتَنظيفِ أغلفةِ الكُتبِ بقماشة قطنية، بأناملها الطويلة، وأظافرها المتناسقة، المصبوغة باللَّون الوردِي، أينَ هي الآنَ يا تُرى؟

قالَ لي:

أبو سُقراط، ماذا بِك؟ لماذا شَردت؟

لا شيءَ تذكَّرتُ أنَّ مِسْ بيل التي يلعنُها بعضُ العِراقيّين هي التي أسّستْ هذه المكتبةَ وأطلقتْ عليها اسمَ مكتبة السَّلام؟

هّز فيرناندو رأسَه.

توغَّلنا داخلَ المكتبة، نُفتّش عن الكُتبِ المُحترقة، سمحَ لنا ضوءُ النهارِ الباهتُ أن نَرى أعماقَ المكتبةِ وكَواليسَها، قطعُ أثاثٍ تناثرتْ وبُقرتْ بُطونُها وبُعجتْ مَساندُها، أو خُلعتْ أرجلُها، مع آلافِ الأوراقِ والكُتب المُمزَّقة والمُحترقة، أرفُفُ المكتبات، والخزائنُ الخَشبيَّة الصغيرةُ، بطاقاتُ التعريفِ بالكُتبِ، كلها خُرّبَتْ ودُمِّرتْ مِنْ دُون رَحمة، وكلَّما توغَّلنا إلى قلبِ المَبنى، ازدادَ المشهدُ سوءًا، تسدُّ أبصارَنا كتلٌ مِنْ رمادِ الكتبِ، ورائحةُ الاحتراقِ، والورقُ والمَطابعُ الأولى كأنَّنا في آخرةِ

الكُتب إذا كان لها آخرةٌ مثلنا، لكنَّ الآخرةَ لم تتكلَّمْ عن مصيرِ الكتبِ ولا عن مصيرِ العقلِ الإنساني، بل تحدثتْ فقط عن مصيرِ الأجسادِ في الجَحيم، كيف تُكوَى وتُشوَى، تحوّلتْ العقولُ العِراقيَّةُ إلى رَماد، وهي تجتازُ الجَحيمَ إلى الفِردَوس.

إنَّها الكارثةُ، يا صديقي فيرناندو... أن نرى مَخطوطاتٍ نادرةً وثمينةً يعودُ بعضُها إلى الخِلافةِ الإسلاميَّةِ والعصرِ الذَّهبي، مثلَ مَخطوطاتِ ابن سينا ومُراسلاتِ الشَّريف حسين، ومُؤلَّفاتِ عمر الخيام وأطرُوحاتِ ابن رُشد والكَندي والفارابي.

تحترقُ أمامَ أعيُينا ونحن عاجزين عن فعلِ أيّ شيء. ولا زِلنا نتساءِلُ مَنْ الذي فعلَ ذلك؟ حشدٌ مِنْ غَوغاءِ الضَّواحي جاء وتوغَّلَ داخلَ مَبنى المكتبة، جرى النَّهبُ الأوّلي برَصانةٍ وفِطنة وتَدبير، وبسُرعةٍ خارقة، وبطَريقة فَوضويَّة وسَفيهَة ووَقِحة، أطفالٌ ونساءٌ وشبابٌ وكهولٌ قاموا بسَرقة الكتبِ تجوَّلوا في المكتبةِ كأنَّهم يَختارون مُشترياتِهم في أحدِ الأسواق. والعَجيبُ أنَّ مَوجاتِ النَّاهبين كانوا يَعرفون مَكان المَخطوطاتِ النادرةَ والأكثرَ نُدرةً، فسَارعوا إلى حَملها، يتراكضون في كلِّ الأزقَّة والطُرقاتِ إلى مَكان مَجهول، ولم يَستثنوا أجهزةَ الاسْتِنساخِ، والحَواسيب، والطِّباعَة، والأثاثِ، والمُعدَّات. وكنتُ أتساءلُ: هل يتكرَّرُ احتراقُ مكتبةِ الإسكندريَّة؟

يا صديقي فيرناندو، بلغَ الدَّمارَ حدَّ أنَّ مَجموعةَ أشخاصٍ وصلتْ إلى المكتبةِ الوطنيَّة، لا يَحملون أيَّةَ صِفة رَسميَّة في حافلاتٍ صغيرةٍ زرقاءَ، رشُّوا الوُقودَ في دَواليبِ الكتبِ قبلَ أن يُشعلوا النارَ فيها، واستخدموا كُتبًا مُبعثرة كحَطبٍ، يُضرمُ النِّيرانَ ويَستعرُ الحَريقُ، هل تتخيَّلُ المَشهد؟

هل كانوا عِراقيين أمْ جاؤوا مِنْ وراءِ الحُدود؟

لا أحدَ يعرفُ بالضَّبط، المُهمُّ أنَّ أكثرَ مِنْ مِليون كتابٍ ووَثيقةٍ ومَخطوطةٍ أصبحَ طعامًا للنِّيران، ثم انتقلتْ بعضُ الكتبِ إلى شارعِ المُتنبّي لتُباعَ بأثمانَ زهيدةٍ، وأخرى رحلتْ إلى خارجِ الحُدود. وقد عثرتُ بنفسي على جزءٍ مِنْ دائرةِ مَعارف "إنسكلوبيديا" عربيَّة تحملُ ختمَ المكتبةِ الوطنيَّة، حاولَ السَّارقُ مسحَ الخِتم مِنْ دُون نَجاح، وكذلك كتابٌ نادرٌ "مشخاف رش" أي "الكتاب الأسود" عن الثقافة اليَزيديَّة، وطبعات قديمة لألف ليلة وليلة، وغيرها عن الحضارة السومرية، ولم يكتفوا بذلك بل سرقوا الرُقم الطينية، والنماذج الأولى للكتابة على الأرض.

هل هي المكتبةُ الوحيدةُ التي احترقتْ؟

لم يقتصرْ الأمرُ على ذلك بلْ احترقتْ أكثرُ مِنْ سَبعِمائة مَخطوطةٍ قديمة في مكتبتَيْ الأوقافُ وبيتُ الحكمة.

ألم يحاولْ المُثقفون إنقاذ هذه الكتب؟

حاولَ البعضُ إنقاذَ عددٍ مِنْها بعدَ نقلِها إلى أماكنَ سرِّية أو إلى أقسام غيرِ مَطروقةٍ مِنْ المكتبة ولكنْ دُون جدوى.

يا إلهي! كيفَ يتجرَّأُ الغربُ على تَدميرِ البلدِ الذي علّمَنا القِراءةَ والكِتابة.

إنَّها قيامةُ الكتبِ يا صديقي.

هل تعلمُ أنَّنا لا نزالُ نقرأُ في ألفِ ليلة وليلة، وسيرةِ عنترة، وسيف بن ذي يَزَن... عبارةُ "قال الراوي" التي تبعثُ فينا حالةَ السِّحر والنَّشوة؟

شرَدَ فيرناندو قليلاً ثم خاطبَني.

إنَّك راوٍ عظيمٌ، يا أبو سُقراط.

العراقيّون كلُّهم رُواة منذُ فجرِ التاريخ. ما إنْ تَلتقي بأحدِهم حتى يفتحَ لك سَراديبَ التاريخ.

وأنتُم العِراقيّين ما زلتُم تُصرّون على أنَّ حِكاياتِ شهرزادَ لا تَنتهي..

أجلْ مثلُ بغداد التي تَحترقُ وتعودُ مثلَ طائرِ الفِينيق.

هزَّ فيرناندو رأسَه.

أيْقونات في مهبِّ الرِّيح

لم أكنْ أعلمُ أنَّ مِسْ بيل أسّستْ مكتبةَ السَّلام.

أجلْ هي نواةُ المكتبةِ الوطنية.

شيءٌ عظيمٌ، الناسُ حتى عندَنا يَختصرونها بالجاسُوسَة.

شيءٌ مُؤسف.

هذه هي نظرةُ العامَّة.

بإمْكانكَ أن تقرأَ الصُحفَ الصادرةَ آنَذاك أثناءَ دفنِ المِسْ بيل في المَقبرةِ البريطانيَّة، فهي تُعطي فكرةً واضحةً لما كانتْ عليه هذه المرأةُ المُبجَّلة. ففي يومِ رحيلِها، خرجَ الأفنديَّةُ إلى الشوارعِ والساحاتِ يَرفعون اللَّافتات، بِوُجوهٍ مُغبرَّة، ولِحىً طويلةٍ، وأثوابٍ مُهملة، وبقلوبٍ حَزينةٍ، يَتظاهرُون ضدَّ الإمبراطوريَّة العَتيدة، وهم يَغلُون كالمِرجَل الذي قد يَنفجِرُ في أيَّةِ لحظة. هم ليسوا بمَلائِكة ولا قدِّيسين، يثورون أو لا يثورون، أرواحُهم تَتأرجحُ بين الطِّيبة والعُنف، بين الحبِّ والكَراهيَة، بين الانبِهارِ والاحتِقار.

رُبَّما تسألُني: هل كانتْ الخاتونُ على حقّ؟

أقولُ لكَ إنَّها كانتْ تتصوَّرُ أنَّ الطَّيِّبين لا يثورون، بينما العكسُ هو الصحيحُ، وثورتهُم أكثرُ صخبًا وعدالة. ورُبَّما الخطأُ الذي اقترفتْه مِسْ بيل أنَّها لم ترَ سوى سِحرِ دِجلة في رومانسيَّتِها، ونسيتْ فَيضاناتِه ودمارَه، العِراقيُّ كائنٌ جُبلَ على هوى هذا النهر، في هُدوئِه وهَيجانِه. لذا فهو يشبهُ نهرَه يفكِّرُ بالهُدوءِ والهَيجان في آنٍ واحد، أرواحٌ لا تُروَّضُ أو تُدجَّن. وعزاؤنا أنَّ هذه المرأةَ كانتْ صديقةً وفيَّةً لهم، تنغمسُ في شُؤونِهم، وتشاركُهم في قَضاياهم، حتى عندَما صدمَها أحدُهم بقولِه: اسمَعي، يا خاتون، هل نحن نُشبهُ الساحرَ فاوستْ الذي باعَ رُوحَه للشيطانِ مِنْ أجلِ الحُصولِ على المَعرفَة، وأنتم بُعتُم أرواحَكم مِنْ أجلِ الحُصولِ على الثروة؟

ارتبكتْ الخاتون، ولم تعرفْ بماذا تجيبُه، لكنَّها أُعجِبتْ بعَقلِ هذا الأفندي، وقالتْ له:

هل تعلمُ لماذا أنا أحبُّكم؟

هّز الأفنديُّ رأسَه دُون إجابَة.

لأنَّكم شعبٌ يقرأُ ويتألَّم.

وبعدَ مُرورِ ثمانين عامًا، تتجسَّدُ صورةُ القراءةِ والألمِ، ويهجمُ على البلدِ الجُبناءُ والعاطلُون والمُتسكِّعون ويقومُ أَحدُ رُؤساءِ تَحريرِ الصُّحفِ بتَوزيعِ صُحفِه مِنْ على ظُهورِ الدبَّاباتِ الأمريكيَّةِ في بَغداد.

أحدُ المارَّةِ صَرخَ غاضبًا:

هذا رجلٌ ديُّوثْ.

ماذا تَعني هذه الكلمةُ؟

تقولُ القَواميسُ: رَجُلٌ لا يَغارُ على زوجتِه ولا يَخْجَلُ مِنْ أن يرى أحدًا ينكحُها أمامَه... هل تدري أنَّ ابنَ الدِّكتاتور نكحَ زوجتَه. هههههه. هذه ليستْ شائِعة، إنَّها حقيقَة. مُعظمُ العِراقيَّات يفضِّلنَ مُضاجعَة أيِّ سِكّيرٍ مُتسكِّعٍ في الشارعِ ويرفُضْنَ مُضاجعَةَ ابنِ الدِّكتاتور الأبلَهْ، ألا يَكفي أنَّ كبارَ الأباطرةِ والطُّغاةِ عَجزوا عنْ إرضاءِ زوجاتِهم، فنبتتْ لهم قُرونُ الخِيانة.... هاها ها ها.. أليسَ ذلك مُضحكًا. الجنسُ هو البحرُ الوحيدُ الذي يَغرقُ فيه العِراقيُّون. هذا ما يُطلقون عليه شيطانُ المُتعة، ذلك الوَميضُ المُرتعشُ الذي تَراه في عُيونِ العِراقيّين عندَما يَنظرون إلى المرأةِ وكأنَّ العراقيَّ ينكحُ المرأةَ مِنْ عينَيْها، وهو يَتباهى بطُول قَضيبِه، وأحدُ المَجانين كانَ يصرخُ في طُرقاتِ بَغداد: أنتم تَملِكون عينَيْن وهو يملكُ عينًا واحدة. الكلُّ اعتقدَ أنَّه الرجلُ الأعورُ، لكنَّ ذلكَ المَجنونَ صدمَهم بقولِه: القضيبُ هو ذو العيْنِ الواحدة. هاها ها ها ها... الجنسُ هو الخُضوعُ.. هكذا يرى العراقيُّ الجنسَ، وبدُون هذا الخُضوعِ لا يوجدُ شيءٌ اسمُه الجِنس.

هل كنتُم تُطلقون صِفةَ الأبلَهْ على ابنِ الدِّكتاتور؟

ليسَ جميعُنا، الأغلبيَّةُ كانتْ تُطلقُ عليه الأُستاذ، وأنا مِنها.

لماذا وأنتَ الوَاعي والمُثقَّف؟

إنَّه الخوفُ على رِقابِنا يا صديقي فيرناندو، فلا تَندهشْ مِن ازدِواجيَّةِ العِراقي.

أكملْ لي القصَّة.

نعم. كانَ الجُنودُ الأمريكيُّون يَرمون صُحفَ هذا الديُّوثِ مِنْ على ظُهورِ دبَّاباتِهم إلى الجُمهورِ المُتعطِّشِ إلى المانشيتاتِ المُثيرةِ التي نسيَها في ظلِّ الدِّكتاتوريَّة. مِنْ هنا مَرُّوا بجِوارِ أسوارِ المَقبرة البريطانيَّة، وحطَّموا جزءًا مِنها، ولم يفكِّرْ هؤلاء الضبَّاطُ والجُنودُ والمُرتزقَةُ بأنَّ أسلافَهم الإنجليزَ مَدفونون في هذه المقبرةِ التي حافظتْ على عظامِ مَوتاهم طيلةَ قرنٍ كاملٍ.

ها ها ها.... فيرناندو ونحن نحتفلُ بمُرورِ مئةِ عامٍ على دُخولِ مِسْ بيل إلى بَغداد، زيارتُكَ لي تمنحُني دفقةَ أوكسِجين بعدَ اختناقٍ طويل، وتُذكِّرُني بالأيقوناتِ التي أعتزُّ بها: نُصبُ الحُريَّة، جِدرايَّةُ فائق حسن، قاعةُ الفنِّ الحديثِ، سينما غرناطة، نُصبُ الحِصانِ بمَوقع النَّافورة، ومطعمُ كُبَّة

فتَّاح، سوقُ البالاتِ، مَحلَّاتُ بيعِ التُحفِ القديمة، مَلهى زُهور حسين، و"ملهى الجَواهري" وغيرُها. لولاكَ لَما كنتُ أراها وكأنَّ عُيونَنا أُطبقَ عليها الظلامَ أو كنَّا نَرتدي نظَّاراتٍ قاتمة.

صديقي فيرناندو، أنتَ تُرجعُني إلى الماضي حيثُ عرباتُ النَّقل، تجرُّها الخُيولُ، ونُسمِّيها "الرَّبلات" تملأُ هذه الساحةَ التي تُخرِّبُها الدبَّابات الأمريكيَّةُ، عمَّالُ المَسطر، ساحةُ الطَّيران... أشهرُ مَكانٍ لبيعِ العملِ، تعرَّضَ إلى عشراتِ التفجيراتِ بالسيَّاراتِ المُفخَّخةِ والعبواتِ الناسفَة، أكثرُها بَشاعةً حين تجمَّعَ الأفرادُ حولَ صاحبِ السيَّارةِ الكبيرةِ طالبًا أكثرَ مِنْ خَمسين عاملاً وبعدَ أنْ اكتملَ العددُ المَطلوبُ للمَوتِ فجَّرَها فيهم، وفي اليومِ التَّالي، يَنتشرون هنا مِنْ جديدٍ للالتِحاقِ بوُرشِ البِناءِ في الضَّواحي وكأنَّ شيئًا لم يقعْ، ولا زالوا مصرِّين على الحُصولِ على أرزاقِهم تحتَ نُصبِ الحُريَّة، بقَوسِه الكُونكريتي الشاهقِ. تكتظُّ على اليَمينِ مُحالُّ التصويرِ وعلى اليَسارِ حديقةُ المَلكِ غازي – حديقةَ الأمَّةِ فيما بعدَ الثورة، وفي مُروجِها الخُضر، يجدُ المارَّةُ أنفسَهم وجهًا لوجْهٍ أمامَ جِداريَّة الفنَّانِ فائِق حسن، صنعَها مِن المُوزاييك بأُسلوبِه التَّكعيبي لكَي يُحاكي رُوحَ بيكاسو، ويَربطَ بين نهرَيْ دِجلة والسِين، ويَمتحنَ النفسَ البشريَّةَ، ويَتماهى مع الحَجرِ مِنْ أجلِ التوغُّلِ في رُوحِ العِراقيِّ ويَمنحَه دفقةَ حياةٍ جديدة.

وهذا النُصبُ المُحطَّمُ، هل له اسم؟

طبعًا.

شهدتْ الساحةَ إعدامَ أربعةِ طيَّارين شاركوا في حركةِ رَشيد عالي الكيلانِي، وحُكموا بالإعدامِ هنا، وقد أقامتْ لهم الثورةُ نُصبًا إلى أن جاءَ الأمريكيُّون، فوجدَ اللُّصوصُ فرصتَهم الذهبيَّةَ في هذه الفوضى، سَرقوا التماثيلَ وصَهروا البُرونز، وباعوه بالكيلواغرامات، ولهذا ترى هذا الفراغَ وبقايا النُصبِ المُحطَّمِ يَبدو كامرأةٍ مُغتصبة، بلا شَعرٍ ولا مَلامح. وبمُرورِ الزَّمن، نَسيَ الناسُ قصَّةَ إعدامِ الطَّيارين الأربعَة مع زوالِ تَماثيلِهم ونُصُبِهم، وبدأَ الشُّعراءُ يُكتبون لهم المَرثيَّاتِ تلوَ الأُخرى، هل هي ازدِواجيَّةُ العِراقيّ أن يُبدعَ ويَسرقَ في آنٍ واحد؟

لأوَّلِ مرَّة أسمعُ أنَّ اللُّصوصَ يَسرقون التَّماثيلَ البرُونزية ويَصهرونَها ويَبيعونَها بالكيلوغرامات.

يا رجلْ. سَرقوا حتى أسلاكَ الكَهرباء أيامَ الحِصار.

ولم يتردَّدْ البعضُ أن نادوا بإقامةِ تِمثالٍ لجَلّادِهم جورجْ بُوش على غرارِ التمثالِ الذي أقامتْه فرنسا لفرانكلين روزفلتْ وإطلاقِ اسمِه على شارعٍ في قلبِ باريس لأنَّه ساهمَ في قَهرِ ألمانيا النَّازية.

سمعتُ أنَّهم أزالوا صورةَ جورجْ بوشْ التي حفرَها الرسَّامون والنحَّاتون العِراقيُّون على مَدخلِ فُندقِ الرَّشيد.

كان رئيسُنا يريدُ أن يَسخرَ مِن الرَّئيسِ الأمريكِي إذْ أمرَ برَسمِ صُورتِه على أرضيَّةْ مَدخلِ

الفُندق حيثُ لا خيارَ للدَّاخلِ إلى الفُندق والخارجِ مِنْه إلّا أن يَدوسَ بقَدمَيْه على رأسِ الأفْعى كما وصفَه في خطابِه.

هل تعتقدُ أنَّ الأمريكان انتقموا لذلك؟

رُبَّما... وأوَّلُ ما قامَ به الجُنودُ الأمريكيُّون عندَما دخلوا بغدادَ، قاموا بشَدِّ تِمثالِ الرَّئيسِ مِنْ قاعدتِه الصَخريَّة بالحِبالِ إلى دبَّاباتِهم في ساحةِ الفِردوس، وكانوا يَصرخون كالذئابِ الهائِجَة، وهم يَقتلعونَه، لكنَّهم لم يَقتلعوا الدِّكتاتور الكامنَ في نفُوسِ العِراقيّين، حتى لو بَصقوا عليه وداسُوا تمثالَه بأقدامِهم وضَربوه بنعلِهم، انتقامًا وثأرًا لكرامتِهم، إنَّه الجُنونُ الجَماعي، الشِّفاهُ التي تُمزّقُ وتأكلُ، هي الضَّواري، تُذكِّرُ بالصَّيدِ الوَحشي والتهامِ الضَّحية.

كلامُكَ بحَاجة إلى إضاءةٍ نفسيَّةٍ سِيكولوجيَّة.

نحن لا نَنسى الدِّكتاتوريّين حتى في نومِنا، لأنَّ الأجسادَ النائمةَ تَستعيدُ الصورةَ التي لا يُمكنُ رُؤيتُها. والسَّعي لنشرِ التماثيلِ في بَغدادَ هي الرغبةُ غيرُ القابلةِ للتدمير.

ألم تُفكروا بتَشييدِ تمثالٍ للخاتون؟

إنَّ عودةَ شَعبٍ مُستنيرٍ إلى البَربَريَّة أسهلُ بكَثيرٍ مِن التقدُّمِ نحوَ الاستنارة، لذلك لافائدةَ مِنْ صُنعِ التماثيلِ التي يُزيلُها العراقيّون متى شاؤوا.

هذا ما قالَه الفيلسوفُ الفرنسي ديدرو.

لا أتذكَّرُ مَنْ قالَ ذلك، تَختلطُ أفكارُ الفلاسفَة في رأسي بطريقةٍ أصبحُ معها عاجزًا عن التفريقِ بين ما أقولُه وبين ما قالُوه.

كانتْ الأفكارُ ولا تَزالُ ملكَ البشريَّة.

هل نلتحقُ بحلقةِ الشُّعراءِ المَجانين في الحانَة؟

ليلُ بغدادَ طويلٌ ولا يَنقضي إلا هكذا.

أنتَ على حقّ.

أريدُ مَعرفةَ المَزيدِ عن حياةِ مِس بيل في بَغداد.

رُبَّما تمكنُ قراءةُ سيناريو يُونس الذي كَتبَ على لسانِها سيرةَ حياتِها كما تَراها هي لا كما يَراها الباحثون الغَربيُّون.

أجلْ كما تَرويها هي.

3

---

18 حزيران 1892

مونولوج

اضطررتُ أن أحضرَ حفلاتِ الزواجِ التي لا تختلفُ عن عُروضِ أزياءٍ غبيَّة، دُون آمالٍ كبيرة، فالرجلُ آخرُ هُمومي، لكنَّ الأعرافَ البريطانيَّة تَقتضي أن أخوضَ هذه التجربةَ في ثلاثِ حفلاتٍ مَتتاليَة، وأنضمَّ إلى سُوقِ الزَّواجِ في أجواء غريبة عليّ، وأتنقلَ مِنْ حفلةٍ إلى أخرى بين أصنافِ الرّجالِ في صفٍّ طَويل جنبًا إلى جنبْ مع الشابَّاتِ الأُخرَيات المُتلهِّفاتِ للِقاء الرَّجالِ في انتِظارِ مَنْ يَطلبُ منهنَّ الرقصَ، مِفتاحُ التَّعارف الأوَّل، لكنَّني كَرِهتُ فكرةَ انتظارِ الرجلِ الذي يَعرضُ عليّ الرقص، اعتبرتُها إهانةً كبيرةً لي، أكثرُهم لا يَعرفونَني ولا يُقدِّرون عَقلي، بل يَنجذبون إلى شكلي فقط، في حلبَة تَنافسٍ مع نِساء أُخرَيات، لا يَحسِبون أيَّ حِسابٍ إلى ما أعتزُّ به، ولا أحدَ منهم يعرفُ لا شَخصيَّتي ولا ثقافَتي ولا مَواهبي الأخرى، ورغمَ ذلك حاولتُ أن أكونَ مَرحةً في الظاهر، مُخفيَةً مَشاعري الباطنيَّة، رغمَ انعكاسِها على سُلوكي، وجدتُ أسلحَتي مُتهالكة أمامَ الأُخرَيات مثلَ جُندي فقدَ سِلاحَه في المعركة، فالإغراءُ لم يعدْ مِهنتي. قلَّةٌ مِنْ هؤلاء الرِّجال والشُبَّان الذين حَضروا إلى البلاطِ لاختيار شريكاتِ حياتهم كانوا أذكياءَ، سواءٌ درسُوا في كَمبردجْ أو أكسفورد أو سافرُوا مِثلي إلى الشرقِ أو كانوا يَمتلكون فُضولَ العِلم لم أجدْ مَنْ يتوافقُ مع مُؤهِّلاتي، والأكثرُ إيلامًا وحزنًا أنَّ قلَّةً مِنهم سيَرغبُ بالزَّواج بِي، ومع ذلك استمتعتُ برِفقتِهم، رُبَّما لِساني الحادُّ يُسيءُ إلى كِبريائِهم، ويجرحُ أُبَّهتَهم، ويُهينُ رُجولتَهم، وثقافتِي إن لم تكنْ تَتجاوزُهم، فهي تُغطِّي على مَعارفِهم المُتواضعَة، مِمّا جعلنِي في مَوقعٍ آخرَ أمامَهم، وأشْعرتُهم بالحَرجِ، وأنا أبحثُ في عُيونِهم عن شيءٍ مَفقود، ومضةُ فكر، ألقٌ، نورٌ، وهْجٌ، يضيءُ أعماقي.

كنتُ أعودُ إلى البيتِ خاليةَ الوِفاض مِنْ تلك الحفلاتِ السَّاخرة، أقفُ أمامَ المِرآة، أُحدِّقُ بجَسدي النَّحيلِ، وأقولُ في نفسِي: هل يمكنُ أن أكونَ الأُنثى التي يبحثُ عنها الرَّجل؟

سُؤالٌ مُريبٌ قد يُزحزِحُ ثقتي بنفسي منذُ سنواتِ المُراهقة، يومَ احتفلَ أصدقائي، صاخبين بعيدِ ميلادي، واضِعين على الحَلوى الإنجليزيَّةِ، إحدى وعشرين شَمعة، أطفأتُها بنفخةٍ مُرتعشة، مُتردِّدة، باهتةٍ، صورةٌ لازمتْني طِوالَ حياتي. وفي قَرارة نفسي، كنتُ أُودِّعُ عامًا آخر، يهربُ أمامي بسُرعة فائقَةٍ كغَزالٍ مَرعوبٍ في البَراري. والكلُّ مِنْ حَولي يتحدَّثُ عن اقترابي مِنْ سِنِّ الزَّواج، لكنَّني لم أكنْ أبدًا مُتهالكةً عليه. عندي الكثيرُ مِمّا أفعلُه قبلَ أن يضعَني الرجلُ في قفصِه الذهبي ويُسدلَ على حياتي الستارَ لأنَّني كنتُ مثلَ حِصانٍ يرغبُ في العدْوِ في الصحراء بدُون لِجام. وفي تَجليَّات المِرآةِ العاكِسة ظهرتْ امرأةٌ ناضجةٌ، وأنوثةٌ طرِّية، أصبحتُ أكبرَ مِنْ مُعظمِ الشابَّاتِ اللَّاتي دخلْنَ المُجتمعَ الإنجليزيَّ بثَلاثةِ أعوامٍ عبرَ حفلاتِ الزَّواج التي أمقُتُها لكنَّها فَتحتْ أمامي طريقَ مَعرفةِ نُفوسِ الرِّجال المُزهوِّين في بدلاتْهم الأنيقة وربطاتِ أعناقِهم المُلونة، ومِشيتِهم المُتعالية، وفُحولتِهم الجامِحة، أكثرَ مِمّا هم مَزهوِّين بعُقولِهم، مُتخرِّجون جُددٌ يَطمحون إلى بِناء حياةٍ عائليَّة مِنْ بين صَفٍّ مِن الفَتياتِ اللاتي يرتجفْنَ تحتَ نظراتِهم، وهم يُحاولون إخفاءَ غرائزِهم المُلتهبَة تحتَ جُلودِهم، ويُهذّبون هَيجانَها،

ويَكبحون جِماحَها أمامَ صُورة الجنتِلمانْ الإنجليزي، الرجلُ المضطربُ الذي يهتمُّ ببَياضِ ياقةِ قَميصِه أكثرَ مِمّا يهتمُّ برائِحة فمِه الكريهة.

ورغمَ كلِّ الإغراءاتِ، رفضتُ الانحناءَ لهم أو البقاءَ صامتةً، دُون الانخراطِ في النِّقاش، أو القَبولِ بأيّ شيءٍ يَقولونَه لكي أتلاءَمَ مع هذا الجنتلْمانْ أو ذاك. لا أريدُ أن أكونَ شَهرزادَ الغاويَة في مُجتمعِ ألفِ ليلةٍ وليلة الإنجليزي، المُبرقعِ بتَقاليدِ الفُروسيَّة الآيلَةِ للزَّوال في حفلةِ زَواج تشبهُ سوقَ المُوضة الغبيّ الذي تَتهافتُ عليه الفَتياتُ لَلفَوز بالجنتلْمان اللطيفِ، ذي البذلَةِ الأنيقة.

قطارُ الشرقِ السَّريع

مرَّتْ ثلاثةُ أعوام على لُعبة العُثور على زَوجٍ في حفلاتِ الزَّواج المُنظمة. خالتي العزيزةُ، أختُ زوجة أبي فلورنسْ أوليف، المُتزوِّجة مِن السِّير فَرانك لاسلز، الدبلوماسي المَرموق في طهران، شجَّعتْني على زيارة بيتِها هناك، وفتحتْ لي حدائقَ مَنزِلِها بكلِّ أشجارِها ونَخيلِها وزُهورِها. كان ذلك صورةً مِنْ مُجازفاتِ الصِّبا ومُغامراتِ الطُّفولة. في ذروةِ قَوتي وجَأشي، حياةٌ كاملةٌ تنتظرُني خارجَ أقفاصِ هذا الجنتلمان أو ذاك الذي سوفَ يختارُني، ويضعُني في شِباكِه. إنَّها حياةُ الصَّحراء التي طالَما جذبتْني كأنَّني أطارِدُ فيها الظِّباءَ والغُزلانَ والأفاعي والسَّحالي والقَنافذَ الهاربةَ التي تُشبهُني لا ألتفتُ إلى الوراء كأنَّ جناحَيْن نَبتا على كتفَيَّ، وقلبي يخفقُ كطائرٍ يتوقُ إلى الطَّيران. بعيدًا عن أجواءِ حفلاتِ الزَّواج الخانِقة. سرعانَ ما وجدتُ نفسي في بلادِ فارسَ، فانكببتُ على تعلُّم اللُّغة الفارسيَّة، أقلِّبُ مُفرداتِها وأُعاينُ ألفاظَها، وأدقّقُ مَخارجَ كلماتِها، وأقرأُ الشِّعرَ المَكتوبَ بها، الذي أخذَ يُلهبُ أعماقي وينيرُ طريقي مثلَ وهجِ الشمسِ انفجَرَ، فاسحًا الطريقَ أمامي. وأنا أودِّعُ نِصفي في لندن الضَّباب، وأذهبُ مع نِصفي الآخر إلى طهرانَ الشمس. حذّروني مِنْ هُبوبِ العَواصفِ الرَّملية الحَمراء، لكنَّني كنتُ مليئةً بالأملِ للوُصول إلى عليَّةِ القوم، دِبلوماسيّون وأُسرٌ مالكةٌ ورجالُ أعمالٍ وشعراءُ وفنَّانون سافروا على مَتنِ قطارِ الشرقِ السريع، وظلّت أسماؤهم في خيالِ المُسافرين: غراهام غرين وآجاثا كريستي وليو تولستوي ومارلين ديتريش ولورنس. أتعلّقُ بعرباتِه المُخملية التي تطيرُ فوقَ المُدن والغاباتِ والأنهار، بكلِّ المُغامرين مِنْ كل أصقاع الأرض، دخانٌ وتغريدةٌ يتصاعدان في السماء ليبدّدا وحشة البراري التي يقطعها ذلك القطارُ العجيبُ في الليل الحزين.

وكم كنتُ فرحةً وأنا أتسلَّقُ درجاتِ السّلالِم المُؤدّية إلى مَقطوراتِه الإمبراطورية الفخمة مِنْ باريس إلى إسطنبول، ثم التوجّهُ إلى بلادِ فارس عن طريق البحر.

ما أكبرَ المَساحاتِ الشاسعةَ التي تمتدُّ عبرَ العالَم؟ قطارُ الشرقِ السريع ظلّ أيقونةُ روحيةُ لا تغيبُ عن بالي مثلَ صحراءَ مَجهولة، قلّبتُ رمالَها الحارقةَ بين أصابِعي، ووضَعتُ حفنةً منها على وجهي لكي أتحسّسَ الحَريق. أينُها الصحراءُ، كم اشتقتُ لتذوُّقِ رِمالك؟ تُردّدُ الجبالُ والوديانُ والسهولُ والأنهارُ ذلك الصدى الذي رنَّ في أذُني ذاتَ مرَّة، وظلَّ يرنُّ على الدَّوام، دُون توقُّف. أيُّها الصدى لا تذهبْ، فإنَّني بحَاجة إليكَ لأنَّك تُنعشُ رُوحي؟ هل تركتَ عُشاقَك في مُنتصفِ الطريق، مُشتَّتين، حَائرين، بلا بُوصلة؟ لا فرقَ بين أميرٍ وشحَّاذ، لا فرقَ بين سيّدٍ وعبد، لا فرقَ بين حاكمٍ ومَحكومٍ في هذه الصَّحراء، السيّدُ الوحيدُ هو الصَّحراء، يَتساوى في رمالِها اللهُ والإنسانُ ويَتوحَّدان في جُبَّة واحدة: الخلْق. يَرتدي الأميرُ أثوابَه الحريريةَ وهو يبتهجُ بها، ويلتحِفُ الشحّاذُ بأسْمالِه الباليةِ وهو فخورٌ بها. وترنُّ في عَقلي تلكَ الحكمةُ: مِن السّهلِ أن ترشوَ أميرًا ولكنْ مِن الصَّعبِ أن ترشوَ شحاذًا. وفكّرتُ أنّ نزواتِ الشحّاذين أعظمُ مِنْ نزواتِ الملوك.

في ليالي لندن الباردَة، كنتُ أقلّبُ تلكَ الأفكارَ ذاتَ يوم، وأنا أرتجفُ أمامَ المَوقد الحَجريّ في مَنزلِنا الفِكتوري الباذخِ بزَخارفِه ونُقوشِه، وأفكّرُ بهذا الشرق.

هل هو حقًا الشرقُ الذي حلمتُ به؟ لا أدري!

سعيدةٌ بلقاء اللّيدي لاسِلز التي كانتْ تَحرصُ على دَعوتي إلى العَواصِم التي يعملُ فيها زوجُها الدِّبلوماسي، مَانحةً لي فرصةَ زيارةِ طهران، كأنَّها جنّةُ عدنٍ بالمُقارنة مع لندن، بأشجارِها وظِلالِها وحدائِقها، وزُهورِها المَوسميَّة التي تَتسلَّقُ الجُدران، وسطَ هالةٍ مِنْ بَهرجَة الضِّياء، مَزيجٌ مِن الألوان الأصفرُ والأبيضُ والأحمرُ، وتسكبُها في أحواض مِنْ زُهور الكرنْبِ الحُمرِ المائلةِ إلى السّواد، فتَبدو حديقةُ المُفوضية وحشيةً، بريّةً، وفوضوية.

لم أكنْ أتخيّلُ طهرانَ هكذا، فقد تُهتُ في شوارعها وأزقتها. ما إن تنتهي نُزهتي حتى أعودَ لأُكملَها في داخل المَنزل الحَجري عبرَ رُواقٍ طويلٍ، وسطَ احتفاءِ الجميع بي، يَنحني لي الخَدمُ بأزيائِهم المُطرزةِ بالألوان البرَّاقة، احترامًا وتبجيلًا مُضاعفًا للمرأة. وفي الفَناء الواسع، تمتدُّ غرفُ البِلياردو والنومِ والصالونات، ولا يخلو شبرٌ واحدٌ من عبقِ الزهور المَمزوجِ بغِناء العَنادلِ. وفي اللّيل، تسبحُ النُّجوم في فُلك السماء ودهاليزِها المفتوحةِ بسُرمدية مُطلقة. أعودُ بكل كَسَلي المُتثاقلِ إلى حُجرتي العُلوية أو إلى بُرجي العاجي كما تُطلقُ عليها زوجةُ خالي، عالَمُ الشَّغف مع الكُتبِ والأوراق والأحْبار، بل يُمكنُني أن أبقى وحيدةً ومَعزولةً هنا دهرًا كاملاً إذا لم يخترقْ عالمي أحدٌ، ويخرجُني منه، لعلّي هنا كنتُ أنتظرُ ذلك الفارسَ الذي يأخذُ بيدي ويغلقُ بوَّابةَ صَمتي الكبير.

انقضى شهرٌ مِن الأحلام بلَمح البَصر، وسطَ تَرحيبِ أفرادِ المُفوضية ومُوظفيها واحتفائِهم بي، ومِنْ بينِهم استرعى انتباهي شابٌّ دِبلوماسي اسمُه هنري كادوغان اهتمَّ بي أكثرَ مِن الآخرين، وهو يقتربُ منّي بلا خوفٍ أو وجلٍ، فقلتُ في نفسي ألا يكونُ هذا هو الفارس الذي يريدُ إخراجي مِن بُرجي العاجي؟ وضحكتُ في سِرّي، قائلة: يا فتاة، يبدُو أنَّ الحظَّ يبتسمُ لكِ بعدَ حفلاتِ الزَّواج البائسة؟

مَنْ هو هذا الرجلُ الوسيمُ الذي تقاطعَ طريقُه مع طريقي، أهو القدرُ أم العنايةُ الإلهية؟ لا أدري ماذا أفعل، وكُلّي حيرةٌ مِنْ أمري؟ هل أستسلمُ له أمْ أبقى في بُرجي العاجيّ؟ شابٌّ ألمعيٌّ تبرقُ عيناه بكلِّ هَواجسِ العقل والخيال والعِشق. جاءَني مثلَ جوادٍ يخبُّ مِنْ بعيد، حاملاً أسرارَ الشّرقِ في أعماقِه، استفزَّ عطرُه غرائزي، وأثارَ نوازعي، وبعثَ تأمُّلاتي بجَسدي الذي أهملتُه طوالَ هذا الوقت.

يا إلهي! لم ينتبْني شعورٌ كهذا مِنْ قَبل، لم أشمّْ عطرَ أي رجلٍ قبلَه في حفلاتِ الزَّواج التي حضرتهُا، ولم أرَ سوى غطرسةِ الشبابِ وخداعِهم، لكنَّني فشلتُ في امتحانِ الرّقص، والتقرُّب مِنهم. لم أكنْ تلكَ الغبيَّةَ التي تبتسمُ للرّجالِ على الدَّوام، كما تفعلُ الفتياتُ المسكيناتُ الحالماتُ بزوجٍ جنتلمان، لكنَّني أمامَ عبابِ بحرٍ مجهولٍ. وبعدَ تردّدٍ قصيرٍ، استمعتُ إلى نصيحةِ خالتي: يجبُ على المرأة أن تتبع خُطى قلبِها وتتركَ عقلَها قليلاً.

تلك هي نيرانُ الحبِّ التي لا نَرى اشتعالهَا في الدّاخل إلا عندَما تحاصرُنا مِنْ جميع

الجِهات، أعلمُ أنْ لا مَعنى للمَدينة بدُون الحبّ، وطهرانُ تمتصُّ حَيويةَ الشجرة مِنْ جُذورها وتَسقينا بها، فتتورّدَ خدودُنا، وتطفح شراييُنا بالدِّماء، هل هي دورةُ المِياه في الجنةِ أم جريانُ لبنِ الأمِّ مِن اليَنابيع إلى المِصبّ؟ كان عقلي يسبقُني في كلّ شيء، ولكنَّني هذه المرة سأُصغي إلى نصيحةِ خالتي، وأستمعُ إلى قلبي الذي يدلُّني إلى الطّريق وسطَ النُّجوم في اللّيل، علَّني أعثرُ على ارتعاشةٍ أجدُ فيها لذّةَ الوُجود. استقبلَني هنري، مرحِّبًا بي: لي الشرفُ أن أتعرَّفَ عليكِ يا مِسْ بيل.

شعرتُ بأنَّه يَعرفُني منذُ زمنٍ طويل، فقلتُ له مازحةً:

هل تعرفُني؟

مَنْ لا يعرفُك، يا مِسْ بيل، اسمُك ساطعٌ في سماء المُستعمرات كلّها؟!

كان قد سمعَ بي وقرأَ عنّي، ولديه فكرةٌ عن سمعتي الجامعية. لم أتمكّنْ مِن الوُقوفِ بلا مُبالاة أمامَ كلماتِ الإطراءِ التي أطربتْ دَواخلي، كأنّ هذا الرجلَ ألقى بحَجرةٍ صغيرةٍ في بحيرةِ نفسي وحرّكَ المياهَ الساكنةَ فيها. ولحسنِ الحظّ، لم يكنْ هنري موظفًا عاديًا أو دبلوماسيًا تقليديًا، لأنَّ ماجذبَني إليه شغفُه بالشِّعرِ والقراءةِ والسفرِ. وبدأ هذا الشابُّ الوسيمُ يتقدّمُ رويداً رويداً في هدمِ القِلاع التي تفصلُ بين قلبي وعقلي بخطواتٍ سريعةٍ كأنَّ ريحًا قوية هزّتْني ونقلتْني إلى عالَمِ الحلمِ الذي طالما راودَني في أحلامي. فقلتُ في نفسي: يبدو أنَّ هذا اللّعينَ بارعٌ في صيدِ النّساءِ إذْ دخلَ قلبي مِنْ بوَّابته الواسِعة، مُداعبًا خيالي بقِراءة قصائدِ حافظ الشيرازي ورُباعيات الخيّام، الشاعرَيْن المُحبّبَيْن إلى نفسي، وجعلَني أهيمُ في إيقاعاتِهما الرُومانسية وإذا به ينتشلُني مِنْ دوخةِ الأوراق والوثائق إلى قلبِ الشِّعر، وشتّانَ ما بينَهما. كان يبدُو عليه أنَّه مُثْقلٌ بمَهامّ الإمبراطوريَّة الجِسام التي لا تعرفُ التهاوُنَ أو التباطُؤَ أو الكَسلَ. أجادَ في التغلْغُلِ إلى نِقاط ضَعفي، باعثًا سِحرَ الكلماتِ في أعماقي، فاستسلمتُ له، رافعةً رايتي البيضاء.

هل يُعقلُ أن يكونَ هذا هو الحبُّ الذي قرأتُ عنه في بُطون الكُتب والرِّوايات؟

وبدأ يدرّبُني على تعلُّم اللغة الفارسية عبرَ الشاعرَيْن اللذيْن أحبَّهما. أوقعَني هذا الدِبلوماسي الصُعلوكُ في غرامِه، ولهَولِ المُفاجأة، لم ينتظرْ طويلاً لكي يحدّثَني عن الخُطوبة، أفزعَني بتمرُّدِه الظاهرِ وانفلاتِ سُلوكه أحيانًا. لم أكنْ أتوقعُ أن تنطلقَ خطواتُنا في دُروب الحبّ بهذه السرعة لكنَّني كنتُ أؤمنُ أنّ الحبَّ عبارةٌ عن شرارةٍ أو ومضةِ برقٍ تأتي مرةً واحدةً. وهذا ما كان.

هل يُعقل أن يُكلّمَني عن الخُطوبة بهذه العُجالة؟

شَهرَزاد تُغري هنري
بِقراءَة قَصائدِ الشيرازي

رغم تردُّدي كان لا بدَّ لي مِن الكتابة إلى أبي وزوجتِه فلورنس، وأزفّ إليهما النبأ السارَّ، وكانا قد سَمعا به، وسرعانَ ما أجاباني بأنَّهما يعرفان السيد هنري كادوغان، لكنَّ مَعرفتَهما به لم تسرَّني لأنَّهما تحدّثا إليّ عن رجلٍ مُثقلٍ بالدِّيون، وذي طباعٍ صَعبة، ولا يُبشّرُ مُستقبلُه بخير، فطلبا مني الانتظارَ، والانتظارَ ثانيةً، ومع صلابة رأيِهما، تذوّقتُ طَعمَ الصَّبر، لكنَّني في نهاية المَطاف، لا بدَّ أن أنصاعَ لطلبِهما في العودة إلى لندن للتّباحثِ في مصيري مع هنري. وكتبتُ لهما من هناك: إنّ هذا الرّجلَ بَهرني، بصفاته الغزيرة التي يجهلانها: إنّه ذكيّ، لمّاحٌ، سريعُ البديهة، لاعبُ تنسٍ وبلياردو ماهرٌ، ومُهتمٌّ بركوبِ الخيل، وسيمٌ وطويلُ القامة وقارئٌ جيّدٌ لكلّ ما يستحقُّ القراءةَ بالفرنسية والألمانية والإنكليزية.

وأكّدتُ لهما: هل يمكن أن تتخيَّلا أن تجتمعَ كلّ هذه الصفات في رجلٍ واحد؟ ماذا تريدون أكثر من هذا الإنسان الذي يراني مثلَ ملاكٍ يسير على الأرض؟ ألا يكفيكما فخرًا أن يفكر رجل بابنتكما بهذا الشكل؟

لم أجد هذه الصفات في الرّجال الذين قابلتُهم في حفلات الزواج التي أكتظّت بشبّان من ذوي الياقاتِ البيضاء، والبدلات الأنيقة، والقبّعات الحريريّة، ولكنّهم بلا روح، لا يتمتّعون بربعِ صفاتِ هنري الذي يقرأ حافظَ الشيرازي وعمرَ الخيّام بلغتهما الأصليّة بطلاقة. لم أكنْ أحملُ من هؤلاء سوى الغثيانِ والتقيؤ والاشمئزار، وغباؤهم يصل إلى أنّ واحدَهم لا يجيدُ تعدادَ ملوك إنجلترا!

وأدركتُ أن هنري هو كنزي الذي قطعتُ من أجله المسافاتِ الطويلةَ دون أن أتأسّفَ على ذلك. فلا يمكنُ أن تجدَ إنسانًا يمنحُكَ جُلَّ وقتِه دون مقابل، بل ويسعى دائمًا لإسعاد قلوبنا بشتّى الوسائل والطرق، يجلبُ كلابَه عند زيارته لنا، ويُرينا أشياءَ جميلةً في الأسواق، يتواجدُ في المكان عندما نكون في حاجة إليه، ولا يتواجدُ عندما لا نحتاجُه، أليست هذه اللطافةُ لُغزَ الرّجال وسحرَهم الغامض؟ عندما أختلي مع نفسي، يُداهمُني الحزنُ وتَملؤني الكآبةُ، أهو شيءٌ طبيعي أم استثنائي؟

هذا ما حدثَ لي، لكنَّ ما يعتصرُ قلبي أن أفكّرَ بأنَّ السعادةَ يمكنُ أن تتبخّرَ في أيَّة لحظة، آنذاك لا أجدُ ملاذًا سوى عُزلتي. ويبدُو أنَّني لستُ مثلَ النساء اللاتي يَقدرْنَ على تقرير مَصائرهنّ، لا أريدَ أن أظهرَ بمظهر الفتاة التي تعصي أوامرَ أبويها، ولا تجدُ سبيلاً إلى قلبِها سوى ينابيعِ الحكمة، أردّدُ في نفسي:

الزمنُ ليس في صالحي، بل يكشّرُ لي عن أنيابه، ويقيمُ السّدودَ بين قلبي وعقلي، وغيومُ

الحزن تمرُّ مِنْ سماء طهران، وتُبشّرُ بهُطول المطر بعيدًا عن قلبي. لا أدري، لماذا وقفَ أهلي ضدّ هذا الرجلِ الذي أحببتُه مِنْ قلبي؟ رُبَّما لو جلستُ معهما وجهًا لوجه لتغيّرَ موقفُهما أثناء تَبادل النظرات، وخجلِ العيون.

كانتْ نافذةُ غُرفتي تُدخِلُ رذاذَ الضوء المتدفِّق مِن المَصابيح البَعيدة. ارتسمَ وجهُ هنري على زُجاج النافذةِ مع انعكاسِ ضوءِ القمر، وهو يبحثُ عن مكانٍ آمنٍ، مثلي تمامًا، لجأتُ إلى الكهفِ المَنحوتِ في داخلي، الكِبرياء والزّهو يعيشان في داخلي رغمَ كلِّ شيء. أسعى إلى طردِ تلك الظُّلمة التي تسرَّبتْ إلى داخلي. وقد لاحظَ الجميعُ في المُفوضية تغيّرَ سُلوكي، رغم مُحاولاتي تغطيةَ كلّ ما هو ظاهرٌ، لجأتُ إلى تَمثيل الصَّلابة والقُوة، لكي تبدو الأمورُ طبيعية. حاولتُ أن لا أُحرِجَ هنري، رغم وساوسي. داهمَني الفراغُ. وفكّرتُ أن لقائي بوالديّ يمنحُني فرصةَ الكشفِ عمّا يُفكِّران به بعدَ أن يئستُ مِنْ إقناعهما برسائِلي العديدة، كما لو أنَّ كلماتي فقدتْ مَعانيها ولم تعدْ تحملُ أيةَ قيمة. قلتُ: يا أبتي العزيز، تصوّرْ أنَّ هنري قالَ لي: لولا النساءُ الشهيراتُ لما كانتْ إنجلترا تَكسَبُ أيّةَ مَعركة مِنْ مَعاركِها. إنَّه كلامُ عاشقٍ كبير، لا ينطقُ بالكلمات بل يعزفُ على آلَةٍ ذَهبية، تُضيءُ العتمةَ في داخلي، وتمنحُني الثقةَ الصَّلابة والأملَ والاعتِداد. فالإنسانُ لا يمكنُ أن يكونَ كاملاً، مهما سعى في هذا الكون، لأنّ صورةَ الإله تهيمنُ عليه، وتخنقُ أنفاسَه، بل وتغرقُه بإشاراتِها الإلهية الطَّاغية، يكونُ البشرُ في ظلالِها مَساكين وبائِسين وعاجِزين. لكنَّني لستُ عاجزةً أبدًا، وأفكّر بالمُستقبل جيدًا، وأفعلُ كلَّ ما في وُسعي لأقفَ في وجه هُبوب الرّياحِ العاتية، أسمعُ أهازيجَ البحَّارة أو ضَجيجَ الغابةِ أو شدْوَ العَصافير. رومانسيةٌ لا تتوافقُ مع حياتي، بعيدةٌ عني، كلُّ شيءٍ هادئٌ في حديقتي الخلفية، ولا شيءَ يعكّرُ صفوَها، رغمَ عصْفِ الفوضى العارمَة في داخلي، تتراءى لي عفويةُ الفراشةِ وخبطُ أجنحتِها الرَّقيقة، والصَّحراءُ وحدَها تفتحُ لي صدرَها وتضمُّني إليها وقتَ الضّجَر. هكذا كنتُ أنزلُ إلى حديقةِ المُفوضيَّة لكي أبدّدَ الظَّلام، وأشمَّ عطرَ زهرةِ الأكاسيا، وأديرَ ظهري إلى الماضي، وأتجنَّبَ ارتكابَ الجُنونِ بين رفضِ والديّ وإصرارِ هنري، سأحتاجُ إلى التَّحليق بعيدًا، وألجأُ إلى قراءة قَصائدِ حافظ شيرازي وعمر الخيام، لأنَّهما يمدّانَني بالصَّبر والتأمُّل. هكذا حاولَ والداي أن يَجعلاني، رغمَ أنفي، أدخلُ نفقَ الأحزانِ بعدَ أن بدأتُ أطرقُ أبوابَ الأمل، بل ونَجحا في جعْلِ هنري ظلًّا أركضُ وراءَه ولا أستطيعُ اللَّحاق به. ورحتُ أسهرُ اللّيالي، وأفكّرُ بقرارِ والديّ المُجحِفِ: لماذا يرفُضان الرّجلَ الذي أحببَت؟ لا أدري بالضَّبط، وضعاني بقصدٍ أو بغيرهِ في مَتاهة الأحاسيس، وباتَ واضحًا أن لا حلَّ في الأفُقِ سوى أن أقطعَ آلافَ الكيلومترات إلى لندن لكي أتفاهمَ معهما، ورُبَّما تسوءُ علاقتي بهما أثناءَ الحديثِ والجَدل، وبدأتُ أشكُّ في أنَّهما يعَرفان العدْلَ والإنصافَ، لم تشفعْ لهما احتفالاتُهما بِعِيدِ ميلادي، وإغراقي بالهدايا، ومُعاملةُ زوجةِ أبي فلورنس، أمّي، اللطيفة، وجَلْبُها الشُّموعَ الأصليَّةَ مِنْ أفخرِ مَحلّاتِ لندن، والحَلوى النادرةَ والباهظةَ التي تَشتهيها صديقاتي اللاتي يَحتفينَ بي كأميرة. هل أنا طائِشةٌ، يا تُرى؟ لماذا يَعترضان على رجلٍ يحاولُ أن يمنحَني الأملَ؟

لم تفارقْني وخزةُ الألمِ منذُ استلامي رفضهما في رسالتهما الأولى، مِنْ دُون أن يَعلَما أنّ هنري فتحَ أمامي أبوابَ الحرّية، وأعطاني مفهومًا آخرَ للوطن وذلك لا يمكنُ أن يتزعْزعَ أمامي لكنّ عنادَهما في وجهي كان دُون مَنطق. في تلك الليلة، كنتُ غاضبةً، وقلتُ في نفسي: هل أستسلمُ لإرادتِهما، وأتخلّى عن قلبي؟ وكيفَ لي ذلك؟ لم أفهمْ منهما شيئًا، ولم أكنْ أدري بماذا أواجهُهما. حتى

الكلماتُ فقدتْ قدرتَها على أن تكونَ وسيلةَ تَخاطُبٍ بيننا كأنَّ ألسنتَنا أُصيبَتْ بالخَرس. لم يفهما أنَّ ثمّةَ قوّةً داخليةً سحريةً تجذبُني إلى هنري يومًا بعدَ آخر، ولا يمكنُ أن أتملّصَ منه بعدَ أن أدخلَني في نَفَقِ الغُموض والسِّحر والشِّعر والحبِّ. وأصابَني الشّرودُ لدرجة كنتُ فيها أثناءَ لَعبِ الورقِ مع زوجِ خالتي القنصل وأصدقائه أضيعُ في ضبطِ الحساب، وأفقدُ التركيزَ وأخسرُ الرّهانَ. ولأنَّني ضيفةٌ، كنتُ أضطرُّ للابتسام طوالَ الوقت حتى إنّ زوجةَ خالي قالتْ لي بعدَ انتهاءِ اللعبة:

عزيزتي غيرترود، لا تَكوني رُومانسية ومِثالية وسَريعةَ العطبِ لأنّ الحبَّ قبلَ كلّ شيء هو عالمٌ شهوانيٌّ، وجريءٌ، ومُغامرٌ، لا تَخسري أسلحتَكِ الفتّاكةَ، ولا تُضيعيها هباءً ولا تَستسلمي أمامَ خَسارةِ أوّلِ معركةٍ لأنّ حربَ الرّجلِ مع المرأة طويلةٌ. ارفَعي رأسَك ولا تَخجلي، أنتِ زبدةُ النّساء الإنجليزيات، وشأنُك سيَكونُ كبيرًا، لا تكوني مُتواضعةً، ولرَبَّما يُسيءُ الآخرون فهمَك.

قلتُ في نفسي:

لكنّ والديّ يَجعلانني أخسرُ هنري، فارسَ أحلامي.

كنتُ أتقلّبُ في سريري، وأتخيّلُ هنري يأتيني في تلك اللحظة، ولا يفارقُ مُخيّلتي ليلَ نهار، ورحتُ أتردّدُ على الحمّام الشرقي وأغتسلُ في حوضِ الماء السَّاخن، لأنظّفَ بَشَرتي، لأزيلَ عنها كلَّ شوائبِ لندن، كلَّ ما عَلقَ بجَسدي المِسكينِ الذي ظلَّ سجينَ أفكاري وأفكارِ الآخرين، كدتُ أختنقُ لأوَّل مرة، فلم أرَ شيئًا إثرَ الضَّباب أمامي، كأنَّني دخلتُ المنطقة الرمادية، التي أجهلُ فيها نفسي، ومِن حولي نساءٌ يتعرّيْنَ ويتجوّلْنَ، ويفرِكْنَ ظُهورَ بعضِهنَّ، وسطَ دَهشتي وذُهولي، ولو رأى أهالي لندن ذلكَ المشهدَ المُلتهبَ لأطلقُوا عليه حمَّامَ الشاذّات جنسيًا، ولكنَّه لا يُوحي بأيِّ شيءٍ مِنْ ذلك، فالنساءُ يتعاملنَ مع أجسادِ بعضهن البعض بلا أيِّ تفكيرٍ جاهز، ويَبدو هذا أمرًا طبيعيًا لهُنَّ، وكلُّ ما يميزُهنَّ أنَّهنَّ أكثرُ جُرأةً مِنّا في التعاملِ مع أجسادِهنّ نحن الغربيّات. ثمَّةَ تواطؤٌ أنثوي بينهنَّ، ولا أسرارَ بين أجسادِهنَّ وأرواحِهن، وهو نادرٌ بين النساء الإنجليزيات، نساءُ الحمّام يتحركْنَ كالملائكة بأجنحتِهنَّ، ويحلّقنَ في السماء. هكذا يَطُفن في الضَّباب الأبيض، لذائذُ يتذوقنَها في هذا المكان، سديمٌ لانهائي مِن الكون. ضاعَ جَسدي بين أجسادِهنَّ، ولم أعدْ أفرّقُ بين الماء والضوء، وبين الضباب والأنفاس، وبين الحقيقة والخيال. جسدي طواهُ النّسيان، كائنٌ حيّ يتغذَّى على الماء والشمس، لا اهتمامَ بجَسدي، ينسكبُ عليه الماءُ بكلِّ خجلٍ، لا أدلّكُه، ولا أسمحُ لأحدٍ أن يُمسّدَه أو يلمَسَه، لكنَّني لستُ ملاكًا أو قدّيسةً بل أُنثى مِنْ لحمٍ ودَم. هكذا كنتُ أراقبُ نساءَ الحَمّام، يُمشِّطْنَ شعورَهن، ويمسِّدن أجسادَهن بزيتِ الزيتون، ويرطِّبنه بنُعومة، في امتزاجِه بالطبيعة، ومياهِ الينابيع، والنَّار، والغَليان، والكَون. النساءُ كائناتٌ مُلهِماتٌ للرَّجل. تغلَّبتُ على لوني الشاحب وأخذتْ الشمس تلفحُ وجهي الذي بدتْ عليه السُّمرة، كما لو أنَّ أشعَّةَ هذا الكائنِ الذي يبثُّ لنا الدفءَ تسرَّبتْ إلى خلايا جَسدي وسكَنَتْها، امتلاءٌ بالشمس، بالضِّياء، بالتجلّي، بالحرارة كأنَّ هذه الشمسَ قرَّرتْ طردَ ذلك البَياض الباردِ الذي حوّلني إلى قطعةِ جليدٍ بيضاء، ناصِعة، إلى كائنٍ آخر، وكأنهَّ يريدُ أن يجعلَني واحدةً مِنْ نساء الرافدَيْن، وأيُّ شرَف هذا الذي أكسبُه، أن يعودَ إليّ وجهي الذي طالَما أحببتُه أن يكون أسمرَ، مُشبعًا بعَطاء هذا الكون الخالد. تحسَّستُ جَسدي أكثرَ في سُمرته وأصبحَ أكثرَ استعدادًا

للرَّغبةِ، للجِنس، للآخر. وجعلَني كذلك أكثرَ قُربًا مِنْ نزوات الشُّعراء وغواياتِهم. أيقنتُ حينَها أنَّ الحبَّ لم يعدْ خُرافة، بل عطرٌ يأتي مِن الأرض، كلماتٌ ورُؤى وحياةٌ أتلمّسُ تلكَ العناصر. لكنَّها تهربُ مِنْ بين أصابعي، رغم ذلك هدمتُ الأسوارَ التي كانتْ تُحيط بجَسدي، بدأتُ أتمتُّع أكثر بالوِسادات الحريريَّة، والمَناديل الرَّقيقة، والسَّجاجيدِ المُزخرفة، أتقلّبُ عليها ويتمرّغُ بها جَسدي الذي بدأ يطالبُني بالانطلاق، ، ولكن مِنْ أيِّ شيء، لا أدري... أطيرُ في الشوارع والأزِقَّة أثناءَ خُروجي مِن الحمَّام، خفّةُ جسدي تفتحُ مَسامات رُوحي، وتصبو إليه، مَنْ هو يا تُرى، لا أدري بعد. في البدْءِ، كنتُ أرفضُ التجميلَ والمَساحيقَ والأصْباغ، إيمانًا منّي بأنَّني لم أعدْ تلك المُراهقةَ، المَهمومةَ بالبحثِ عن رجلٍ نَموذجيّ، فارسُ أحلامي يأتي مِنْ سَديم الضباب راكبًا على حِصان، ويُغريني بالصُّعود وقَطعِ المَسافاتِ الطويلةَ على خبَبَ أنفاسِنا ولُهاثِ الحِصان، في البَراري البعيدة، نتوارى عن الأنظار، هناكَ وراءَ الغُيوم المُختفية هي الأخرى وراء الجبالِ الشَّاهقة. منذُ الآن غدا الأمرُ مُختلفًا، رُوح هنري تقتربُ منّي أكثرَ فأكثر، كأنَّني أستعيدُ ما كان مفقودًا في أعماقي، تلكَ اللؤلؤةُ التي لم أكنْ أراها في ظلامِ اليأس، وأصبحَ الحبُّ لُعبةً تُضافُ إلى لُعبي الحزينة، وما كان عليّ سوى ردمِ الهُوّة التي تَفصلُ بين عقلي وجَسدي، لم أكنْ أتخيّلُها بتلك المَسافة البعيدة، إنَّها سهلةٌ في الألفاظ ولكنَّها عسيرةٌ عندَما أريدُ تطبيقَها، بين العقلِ والجَسد برازخُ وبرازخُ عليّ طيُّها لكي أصبحَ أُنثى مِنْ جَديد بين أناملِه التي تتصفّحُ نقاطَ النّمَشِ في وجهي، بإعجابٍ ودهْشة، وهو يبصُمُ وجنتيّ بقُبلاتٍ ساخنةٍ، طاردًا الخوفَ والخجلَ مِنْ رُوحي بل جَسدي.

الفستان الإيراني المزركش

كنت أحملُ مرآةً صغيرةً في حقيبتي مثلَ سائرِ النساء، وأُلقي بين الحين والآخر نظرةً على البُثور والحُبوب التي انتشرَتْ على وجهي في نقاطٍ سوداءَ بارزة، وأعبث بها، وأحاولُ استئْصالَها بقُوةٍ، لكنَّني سرعانَ ما أنتبهُ لحَركاتي العَبثيَّة، وأقولُ في نفسي أنَّ هنري يُحبُّها فلماذا أقلقُ منها؟ لا أدري هل كنتُ فتاةً شقيّة أم مِسكينة، صورتي القديمةُ تكشفُ عن ذلك، لأنَّني الآن امرأةٌ بكلّ مَعنى الكلمة، ويَنبغي عليّ أن ألعبَ دوري تمامًا، بعيدًا عن فَلك الخجلِ ومَتاهاتِه المُربِكة، وعليَّ أن أتجاوزَ إمكانيّاتي المَعقولة، وأنا محظوظةٌ مع هذا الرّجل. هكذا وجدتُ نفسي في عالَم التَّحدي لذاتي وللآخرين في آن، رافضةً أن أُصبحَ دُميةً بيَد رجلٍ عادي، يا لها مِنْ خيبة مُضاعفة، أي أن أسيرَ في ظلِّه، وأتبعَ خطواتِه أينما حلّ، لكنَّني لطالما فضّلتُ الرّجلَ الذي يقودُني إلى مكانٍ غامضٍ، إلى ذاتي، ذلك البئرُ الذي لا يتجرَّأُ أحدٌ على الاقترابِ منه، الهاويةُ التي أعيشُ فيها، مجتمعٌ ضيّقٌ مِن البُرجوازيين المتعلّقين بوَظائفِ السِّلك الدبلوماسي، يَجهلون اهتماماتي، ولا يعبَؤون بالتاريخِ والآثارِ والتنقيبِ والترجمة، على عكسِ هنري بنَظراتِه الثاقبة والمُتفائلة، هو وحدَه الذي أخذَ حِكايَتي على مَحمَل الجدِّ، وبدأ يخاطبُني باحترامٍ كأنَّه يعرفُني منذُ زمنٍ طويلٍ، بل وأكثرَ من ذلك، راحَ يتحدّثُ عن أسفاري وكُتبي ومَشاريعي، وفي كلِّ مرَّة يردّدُ: أليسَ كذلكَ يا غيرترود؟

أفرحَني أن يُناديني باسمي: غيرترود. ولأوَّل مرَّة أشعرُ بأن لاسمي نغماً خاصاً في قلبه. وقد صارحَني بأنَّه يحبُّ النساءَ الحالمات. وكنتُ على وشك القول: هل كنتُ حالمةً حقًا أم تائِهة؟ أردتُ أن أقولَ له إنَّ الرّجالَ يكرهون صوتي الحادَّ أثناء الحديث، لأنَّهم لا يُريدون المرأةَ التي تناقشُهم، فأجابَني: الثقةُ في النفس، يا غيرترود هي جوهرُ الإنسان. فقلتُ: في أعماقِ كلّ منّا بعضُ الهُشاشة التي يحاول أن يُغطّيها قدرَ الإمكان، ويعوّضَها بالدَّهشة، يجبُ أن لا يجتاحَنا شعورُ الرِّضى والارتياح سريعًا، لأنَّ ذلك يُجهضُ ذواتَنا، ويجعلُنا تابعين، نرى ذواتَنا في عالَم تُعزَلُ فيه النساءُ ويُهمّشن يومًا بعد آخر، وهو ما يصيبُهنَّ بالجُنون في مُجتمع رجَّالي قاسٍ. ظلَّ هنري ينظرُ إليّ بعين الإعجاب، ويهزُّ رأسَه بمُوافقة آرائي.

ورغم ذلك، كنتُ أخشى أن تنهارَ أحلامي بعدَ أن جلستُ أنسجُها مثلَ غشاء هشٍّ تغزلُه عنكبوتةٌ يائسة، وتخشى عليه مِن التمزّق مِنْ أوّلِ ريحٍ تهبّ، أنوثةٌ مختبئةٌ، مرتعشةٌ، متوترةٌ تستقرُّ في قاعٍ عميق. أليست الأنوثةُ مرآةً للغيب؟ لكنَّني سرعانَ ما انتبهتُ إلى أن الرجلَ يريدُ أن أقدّم له أُنوثتي على طبقٍ كوعاءٍ فارغٍ يملأه أيُّ عابرِ سبيلٍ بالمُتعة مثلَ قارورةٍ مَملوءة بالنَّبيذ يمكنُ أن تَتدلقَ في أيَّة لحظة إن لم يكنْ الغِطاءُ مُغلقًا بأمان. لولا هنري لما كان لطَهرانَ هذا الطعمُ وهذا المذاقُ، مدينةٌ جميلةٌ في الليل. والناسُ هنا يَحترمون البشرَ كما هم بأرواحِهم الحقيقية، فتولّدتْ في أعماقي مدنٌ أخرى: كاشان وأصفهان، أرى فيها المظاهرَ المُختفية، رجالٌ يرتدون الأثوابَ الخضراء والبيضاء والبُنيَّة، ونساءٌ يغطّينَ عيونَهنَّ الواسعةَ المُغريةَ بالحِجاب لإخفاء دموعهنَّ، وقد لاحظَ هنري معي ذلك،

قائلاً لي: هذه ملاحظاتُ روائيةٍ أو شاعرةٍ لا باحثةَ آثار. ضحكتُ كثيرًا، أمازحُه: يا حبيبي أنا كلُّ هذه الأشياء في امرأةٍ واحدة. فيُسارعُ إلى ضَمّي إلى أحضانِه الدافئة، ويعانقُني ويقبّلُني لدرجة أكادُ معها أغيبُ عن الوعي، فقلتُ في نفسي: الحمدُ لله أنَّ شيئًا ما يتحرّكُ في أعماقي تخيّلتُه ميتًا! يجبُ أن أجرؤَ على أن أكونَ نفسِي أمامَ رجلٍ لطيفٍ وكيّسٍ، يركبُ الخيلَ معنا، ويرتّبُ لنا أمتعتَنا، ويُرينا الأشياءَ الجَميلة في بازاراتِ طَهران وأزقّتِها الضيّقة. وعندما أرادَ أن يُشعرَني بأنُوثتي، لمَسَ أصابعَ يدي بلَمْسةٍ ناعمةٍ، وضغطَ عليها، باعثًا شحنةً ملتهبةً في جَسدي، ارتعاشةُ اللّذة التي طالما قرأتُ عنها في بُطون الكتبِ. ورغم كلّ تردُّداتي، بدأتُ أضعُ الأصباغَ والمساحيقَ على وجهي لإزالةِ بقايا شُحوبِ السَّهر من التّفكيرِ والقراءة والكِتابة. هل أتى ذلك مِن الافتِتانِ بهذا الرّجلِ من أعماقي الأُنثويّة وأنا على حافّة لُعبةِ الحبّ؟ غيرترود الصَّغيرة والمُشاكسة والعاطفيَّة مَوجودةٌ في داخلي، مُنزويةٌ في أحدِ أركانِه المُظلمة، متأهّبةٌ للخُروج، لا بدَّ من إنقاذِها قبلَ فواتِ الأوان. كفى أن أكونَ تلكَ المرأةَ الغريبةَ التي يَغمزُ بها الجَميعُ، خالتي الليدي لاسلز تقولُ إنَّني جميلةٌ بالفُستان الإيرانيّ المُزركش الذي جلَبَهُ لي هنري من أحدِ أسواقِ طهران، ونصحتْني أن أطلقَ شَعْري، لكي يتلاءَمَ مع ذلك الفُستان، وهي تقولُ: لا رجلَ يجرؤ على القولِ أنَّه لمسَ يدَك، ولكنَّكِ لستِ قدِّيسة، حتى هنَّ يحلمْنَ بالرِّجال أثناءَ صَلاتِهنَّ، لا يفكِّرْنَ بالرّب فقط، فلماذا كلُّ هذا التشدُّد، يا عزيزتي غيرترود؟ هنري فرصتُك الذَّهبية هنا، لأنَّه لا يخافُ مثلَ الرِّجالِ الآخرين مِن المرأة المُثقّفة، عاشقٌ رُومانسي كبير، وباقتُه مِن الوَرد السّاحرةُ عربونُ حبٍّ وعشقٍ لكِ. أنصحُك أن لا تتركي الوُرودَ تذبلُ. سينتهزُ هنري الفرصة لكي يرقصَ معكِ، إنَّها الخطوةُ الأولى، طهران مكانٌ للحبِّ يا غيرترود.. انظُري إلى بشرةِ وجهِك كيفَ تغيَّرتْ بعدَ ذهابِكِ إلى الحمَّام الشرقي، ألا تشعرين بالخِفّة؟ بالطَّبع، يا خالتي، أشعُرُ بأنَّني أطيرُ وسطَ البُخار.

ثم ضحكتْ قائلة: يا غبيَّة. أنصحُكِ بالبَقاء في طهران، وهنري شابٌّ يستحقُّ كلَّ العِناية والاهتِمام،

خجلتُ رغمَ فَرحي الداخلي، واكتفيتُ بهَزِّ رأسي. عشرةُ سنواتٍ تفصلُ بين عمرَيْنا، لكنَّني كنتُ أبحثُ عن ذلك النُضجَ منذُ زمن. هنري يُكلِّمُني باللُّغة الفارسيَّة، لُغة الحبِّ والعِشقِ والصوفيَّة، وهو الرِّياضي البارعُ في لُعبة "البيزيك"، ورق الشدَّة، والبيلياردو والتّنس، وراكبُ خيلٍ مِن الطِّراز الأوَّل. كنَّا نركبُ الخيلَ في جميع أنحاءِ شيرمان في أسفلَ جبار الورز، ونقصِدُ جميع المَضايق التي شكّلتْها جداولُ الماء الصافيةُ عبرَ الثلوج، نتناولُ الشاي أو نذهبُ في رحلةٍ ليلية إلى الحدائقِ الجميلة التي كانتْ أبوابُها مفتوحةً للزوّار الأجانب، وهو من نمطِ الرِّجالِ الإنجليز الذين يكرِّسون أوقاتَهم للقراءَة والمُوسيقى والنِّقاش، لا يتردّدُ في أخذِ يدي بخفّة وسرّية للجُلوسِ على سِياج الحديقة، ويقرأُ لي الأشعارَ، كنتُ أحلّقُ معه مثلَ طائرٍ غريبٍ في سماءٍ صافية. تبًا لهؤلاء السِّياسيّين والدِبلوماسيّين. لا عملَ لهم سوى مراقبتِنا في حفلاتِ المُفوضية، يُثرثرون ويُتحدَّثون عن الشرفِ والأخلاق، ولكنَّني لم أُعِرْ اهتمامًا لأقوالِهم، يبدُو أن حُبَّ كائنَيْن يثيرُ الغيرةَ والحسَدَ في نُفوس الآخرين على الدَّوام.

تناولْنا الشاي مع مَدام لاسلز، نُدَرْدشُ، وراحتْ مُضيفتي تتحدّثُ إليّ عن النساء الفارسيَّات اللاتي يَقصُدن الأئِمّةَ والشيوخَ والسّحَرةَ الراقدين في التّكيّات والأضرحَة مِنْ أجلِ أن يُطالعنَ حظّهنَّ في

الحبِّ، ويتبصّرنَ مَصيرَهنَّ مع الرِّجالِ، إنَّهن هنا ينظُرنَ إلى الحبِّ كدَرَجٍ في سلّمِ دينِهنَّ، ويصلُ هَوَسُهن إلى الوُقوفِ على تلك العتَباتِ واستجداءِ الفألِ الطيّبِ مِن السماء، ويتوسّلنَ المَوتى بالتدخُّلِ في حياتهنَّ ومَصيرهنَّ، أما نحن النساء الغربيَّات فلا نعرفُ أيَّ شيءٍ عن ذلك، بل نتركُ مصيرَنا إلى الغيبِ أو المَجهول.

هل تعلمين أنَّ أكثرَ النساء الفارسيَّات يُغامرنَ بحياتِهنَّ مِنْ أجلِ الحُصولِ على رجل؟

لا شيءَ مُحرّمٌ أو مَمنوعٌ في الحبِّ، بل هو البحثُ عن المقدّس، والتَّسامي والتجلّي، هكذا يفهمنَ الحبَّ. ولا يعثَرنَ عليه إلا بعدَ مشقّة وتَخطيط لأنَّ الرَّجلَ في نظرِهنَّ مُنزَّلٌ مِن السماء، وهو الذي يقرأُ مصيرَ المرأة، ولا يمكنُها الوصولُ إلى عرشِ الرَّجل ما لم تُقدِّمْ القرابين تلوَ الأخرى، أولّها دمُ عذريتِها واهتزازُ جسدِها تحتَ رعشةِ اللذَّةِ الجِنسيَّة التي تتذكَّرُها طالَما حيَتْ على هذه الأرض، وتنفّستْ مِنْ غُبارها، ألا يكفي أنَّها تلِدُ له الابنَ والبنتَ، الشبيهَ والشبيهةَ، الذين يخلّدونَه إلى الأبد، هل تَعلمين ذلك؟

ألا ترين أنَّ نساءَنا مُصاباتٌ بقلقٍ دائمٍ مثلَ سَحَابة لا تنقشعُ فوقَ رؤوسِهنَّ، لأنَّهنَّ ينظُرنَ إلى الزَّواج كمَسألة دُنيَوية، بينما في نظرِ الفارسيَّاتِ محفوفةٌ بالقَدَرِ والغُموض والقُدسية؟ هكذا ألهبَتْ خالتي أحاسيسي في تلك الليلة، وهكذا تغيّرتْ نظرتي إلى هنري، وبدأتُ أنظرُ إليه كلُغزٍ، وسِرٍّ، ونصفِ إله، ورُجولي وخارقٍ ومرآتي الأخرى مبعوثِ الرّب لخلاصي وانبعاثِ جسدي الميت، هل تكفي صَلواتي لإدامة حبي؟

لم يمضِ يومٌ إلا وفكّرتْ خالتي بمَصيري كأنَّني تائهةٌ في مهبِّ الريح، ولطالما حرصتْ أن تعبّرَ لي عن ذلك التعاطُفِ الودّي معي. وكم مرَّة، انفجرتُ بالبكاء، لأنَّني تذكَّرتُ إصرارَ والديّ على تركِ الرَّجلِ الذي أحبّني مِنْ أعماقِه، ذرفتُ الدموعَ حارةً، ساخنةً، وحارقَة.

لا يمكنُني أن أتخيَّلَ أنَّني سأفقدُ هنري بمُباركةِ والديّ؟ فقد قطعَ لي العهدَ بالارتباطِ بي مهما كلّفَ الأمر، جمعَ لي باقةً مْن الورود البريَة وقدّمَها إليّ، ووضَعها بين يديّ. وتألّقتْ عيناه بوَمضة غمرتْني، وجعلتْني أسترخي، وأعبرُ إلى ضفتِه الأخرى وأتحرّرُ مِن صَرامة التقاليد الغبيَّة. يا خالتي العزيزة، كلماتُك جميلةٌ تهزُّ مَشاعري، وتجعلُني في منزلَةِ العاشقَة، ألا تُلاحظين ذلك؟

اللعنة! الكل هنا ينظرُ إلينا ككائنَيْن غريبَيْن، كما لو أنَّه لا يحقُّ لنا أن نُطلَّ على عتبةِ الحبِّ المَمنوع، لذا اضطرّ هنري إلى أن يُمثّلَ دورَ اللامُبالي مِنْ أجلِ إبعادِ نظراتِ الآخرين الفُضولية ليتركونا بسَلام. لكنَّه أطلقَ لوثةَ الحبِّ في أعماقي، وفتحَ عينيّ على فلسفةٍ خلاصتُها أنّ الحبَّ أقصرُ الطّرقِ للوُصول إلى الله، ربِّ السمواتِ والأرض، بعَقلي وبجَسدي، وأزيلُ أدرانَ المُحرَّمات الإنجليزية مِنْ أعماقي.

هل يرتبطُ الحبُّ بالله؟ لا أدري! هل تَعلمين، ماذا قالَ الشيرازي عن الشاعر؟ هو الكائنُ الذي يَسكبُ الضوءَ في كأسٍ، ثم يرفعُه ليَسقي به ظمأ الشفاهِ المُقدّسة، ويرتقي بعِشقِه مِن الأرضِ إلى السماء، ويمزجُ الحبَّ بالفلسفة، ويغمسُهما في ضَوء الشمس. كنتُ ذلك الكائنَ، دفعَني هنري إلى

ترجمةِ أشعارِ الشيرازي إلى الإنجليزية، غصتُ في أعماقي لأجرّبَ أحاسيسَ الشاعرِ التي تتناثرُ مثلَ ومَضاتٍ أبحثُ عنها لكي أسقيها بالماء قبلَ أن تجفَّ النبتةُ، وأسألُ نفسي: هل هذا البحرُ الذي أُوشِكُ أن أغرقَ فيه هو ما كان الشيرازي يتحدثُ عنه؟ أرتجفُ حين ألمسُ كلماتِه الصوفيةَ في قصيدتِه "ألا أيُّها الساقي": "فلا أجنِي بِعزِّ النفسِ إلا أقذَعَ الذِّكرَى/ ولا الأسرَار تُخفِيهَا شِفَاهٌ إن تُثَقِّلْهَا/ فَإن رُمتَ الحُضورَ اليومَ لا تُغفِلْهُ يا حَافِظ/ متَى ما تلقَ من تَهوَى دَع الدُّنيَا وأهمِلْهَا".

بعد قراءتي هذه القصيدة، وجدتُ الليل حالكًا، تضيئُه النجوم اللمّاعة، فلم تَعُدْ غريبةً عليّ، لأنني بدأتُ أراها كل ليلة، بعدَ أن أهملتُ رؤيتَها سنواتٍ طويلة، والقدرةُ على الشعور هو ما يميّزُ الكائنَ البشري عن غيره. وهكذا كلّما قرأتُ أشعارَ الشيرازي، أعودُ إلى ذاتي التي أغرقتُها في الدراسة والسّهر، وأهملتُ التأمّل مثلَ مَتعبّدٍ يمضي في صلواتِه مئة عام دُون أن يتوقفَ لحظةً واحدة، ويتساءلَ عن جدوى صَلاتِه. جسدي يطالبُني بالانعتاقِ والتحرُّرِ مِنْ قُيود العصرِ الفكتوري الأليمِ الذي سنَّ قوانينَه في براري رُوحي، وألقى بنا في بئرٍ عميقة، وعيّنَ على هذه البئرِ حارسًا مُتوحشًا، طاغيًا، ولئيمًا، لا يعرفُ سوى القوانينِ الصَّارمة. فما عَساي أن أفعلَ إذْ أكتشفتُ أنَّ للجسدِ إمبراطوريتَه، كما للبريطانيّين إمبراطوريتُهم؟ لقيتُ مَنْ أهوى، فما عليّ فعلُه، يا تُرى، هل أذهبُ لمُصارحتِه وينتهي الأمر؟ يا إلهي! أقتلُ جسدي وأسحقُ مَشاعري ضِمن قوانينِ الإمبراطوريَّة والأبوَّة، فهل سيُفيداننني في كآبتي هذه؟

حزنتْ ليدي لاسلز، كما حزنتُ أنا، إنَّها تعرفُ بماذا يفكّرُ والداي، يا ليتهَما يقرأان ما كتبَ الشاعر الشيرازي، ويفهمانه جيدًا، لعلّهما يُجيبان على تساؤلاتي.

استعدنا بعدَ فُطور الصَّباح بعضَ أجزاء حديثِنا، مَقاطعُ مُلتهبةٌ تمزجُ مصيرَ حياتي في هذا الأفُقِ في حديقةِ القُنصليَّة الوارفة الظِّلال، العابقةِ بروائِح الأشجار والتُّربة والشَّمس. شعرتُ لأوّل مرَّة أنَّ ثدييَّ مثلُ كوكبَيْن يُجبرانَني على اكتشافِ الكواكبِ الأخرى. أترَيْن ماذا فعلتْ بي أحاديثُك الليلية، يا صديقتي؟

أنتِ أصغرُ مِنَّا عمرًا لكنَّكِ أكبرُ مِنَّا عقلاً. تخيّلي لو تحدثتُ مع زوجي بهذه الأمورِ لظلَّ يضحكُ منِّي أسابيعَ كاملة، ولقالَ لي: الأفضلُ أن أعتني بالصغار، وأتركَ هذه التُّرهات. يا غيرترود، لم أكنْ أعلمُ بأنَّ بذورَ الفلسفة تسري في شرايينِك، وأنَّ للحبِّ إمبراطوريتَه.

لا تعرفُ خالتي أنَّني أشعرُ بالنَّدم لأنَّني أهملتُ ذاتي سنواتٍ طويلة، وعليّ الآن استردادُها قبلَ أن تذبُل مثلَ شجرة ضائعة في البراري. لم أكنْ أرغبُ في تخريبِ عائلةِ خالتي العزيزة، فهي مُستقرَّةٌ، وأفكارٌ كهذه قد تقودُ عائلتَها إلى الهاوية.

فقلتُ لها: يا خالتي، أنتِ مستقرةٌ مع عائلتِك، لكنّي أبحثُ عن ذاتي في هذه الفوضى. إنَّ لكلِّ إنسان فوضاه يا عزيزتي.

انطلقَ صوتُ هنري، يُنشدُ لي الأشعارَ، باحثًا عمّن يُصغي إليه. فيما كانت خالتي تحثُّني على نِسيان عُزلتي، وتدعوني إلى الخُروج واللقاء بالناس، كأنّني عروسٌ عذراءُ صغيرةٌ تغرقُ في بحرٍ

مِن الإحباطِ والحزنِ والخجل.

هكذا هم الرجالُ، قالتْ خالتي، لهم مشاعرُ مُختلفة لا بدَّ مِنْ سبْرِ أغوارِها.

هل تعلمين، يا خالتي، أنَّ هنري ينُشدُ لي تلك الأشعارَ ويُغنّيها بلَحنٍ حزينٍ، لدَرجةٍ يجعلُني أشعرُ كأنَّ جناحَيْن ينبُتان لي بين الكتفَيْن، ويرفعانَني إلى أدراجِ السماء وسطَ النُّجوم الصَّامتة.

أغبطُكِ، يا غيرترود، أنتِ غارقةٌ في الرومانسيَّة، ونحن غارقون في العمل. وشتَّان بين الاثنَيْن.

هنري يشّجعُني على ترجمةِ أشعارِ حافظ الشيرازي، ويقولُ لي: في الترجمةِ يجبُ أن تتراقصَ الكلماتُ على أوتارِ قلبِك وإلاّ تَخرُجُ الترجمةُ مثلَ رغيفٍ يابس. إنَّه على حقّ، يجبُ أن نُروِّضَ لُغة شكسبير لتحملَ كلمات الشيرازي، ونملأَ لُغةَ المُعلِّم الباردةِ والمُنطقيَّة بشيءٍ من لَهيبِ كلماتِ المُعلِّم الفارسِي وهَذيانه، آنَذاك تستقيمُ الترجمةُ، وهذا يتطلّبُ التقليلَ مِن الفَصاحةِ والبلاغةِ الإنجليزيّتَيْن وشحنَها بكثيرٍ مِن النَّار الفارسيَّة التي يعبدونَها ويَصقلونَها برياحِ تَعاويذِهم اللانهائيَّة. كان عليّ أن أحافظَ على الرُوح الفارسيَّة والجَسدِ الإنجليزي، وأصبَّها في وجدانِ القرّاء الّذين لم يَعتادوا على الذهابِ بالعاطفةِ الشِّعريَّة إلى أبعدِ مَكان فيها، حتى لو كانتْ على تُخومِ الصَّحراء، بل وأكثرُ مِنْ ذلك كان عليّ أن أُمسّدَ كلماتِ الشيرازي بقُدّاسِ زرادشت وقافلةِ العاشقين ومَصيرِهما الذي يتأرجحُ في ميزانِ الوُجودِ والعَدم.

جميلٌ، أيتُها الفيلسوفة.

الشعرُ لا يُترجمُ بالكلماتِ إنَّما بالرُّوح، ويبقى أن نبحثَ عن الرُّوح في الكلمات.

يا لك من مُفكّرة؟

الفردوس المُوحش

كنتُ أنتظرُ اللقاءَ بهنري على أحرِّ مِن الجَمْر بعدَ الانتهاءِ مِن عملِه في المُفوضيَّة، وكان لقاؤنا حزينًا مثلَ مَصيرِ العُشَّاقِ الذين يَجهلون مَصائرَهم، وهم كالفَراشات التي تقطعُ المِليمترَ الأخيرَ مِنْ حياتِها وسطَ حديقةِ الزُّهور التي لا أرغبُ في اختِزال المَسافة فيها لكي أصلَ إليه، وهو يترقّبُ ظُهوري مِنْ بين الأشجار كأنَّني أقطعُ برزخًا طويلاً يمتدُّ مِن السماءِ إلى الأرضِ أو العَكس، مَحفوفًا بالجَنائِن المُعلّقة، التي يَتراءى فيها وَجهانا، كأنَّها مُغطَّاةٌ بقِطعِ مِرآة كبيرة، تستفزُّ مُخيِّلتي، وتثيرُ تأمُّلاتي. عندَما يمسكُ بيَدي، تنطلقُ أَبَرُه لتَنغرزَ في جِلدي الميتِ وتُوقظَ حَواسّي التي دخلتْ في فَترة سُباتٍ عميقٍ منذُ زَمن المُراهقة، وراحتْ تتأرجَحُ ما بين التَّعبير والتكتُّم، ما بين الكلام والصَّمت، وما بين الشَّجاعة والخَجل. وكنتُ أتساءَلُ: يا إلهي! مَنْ يكونُ هذا الرّجلُ الذي يسعى إلى إنقاذِ حياتي مِن الرَّتابة والملَلِ والجَفاف بين الأوراق والمِلفّات المُغبرَّة بآلافِ القضايا التي لا حلَّ لها إلا بعَمليَّاتٍ قَيصريَّة حاذقَة. كان نبيلاً ليسَ بأصلِه وجُذورِه وطَبقتِه بل في حواسِّه وسُلوكه وتَواضُعه، لم يتوانَ عن رفعِ أغصانِ الأشجار والأشواك عن وجهي خشيةَ أن تخدُشَني، وكأنَّها تخدشُ وجهَه، وتتركُ تلك الذكرى جرحًا لا يَندملُ، كما لو أنَّه خِدْشٌ يُصيبُ رُوحي، فهل توجدُ رومانسيةٌ أكثرَ مِنْ ذلك؟ فإذا كان للرومانسيةِ مدرسةٌ فإنَّ أستاذَها سيَكون هنري بلا شكّ. ولو كان لها تلميذةٌ نجيبةٌ، فهي أنا، وكنتُ أُمازحُه: أنتَ أرستقراطيٌّ حقًا. وكان يجيبُني بسُخرية لاذعة: أرستقراطيٌّ مُفلسٌ. وكنتُ أرُدُّ عليه: أفضلُ مِن أرستقراطيٍّ مُتغطرس. ونغوصُ في ضحكٍ لامبالٍ في ذلك الفِردوس المُوحش كأنَّنا نريدُ أن نعيدَه إلى البشر الذين يَعيشون خارجَ أسوارِه، لأنَّ العيشَ في الفَراديس له قوانينُه التي يَجهلُها مُعظمُ العُشّاق لأنَّهم ما إن يعيشوا فيها حتى ينطفِئوا على الفَور، لأنَّ العيشَ خارجَه يمنحُهم تلكَ الحَيويةَ في الشَّوق للعَيش فيه، لأنَّ الفراديسَ تَقضي على طُموح العُشّاق، وأكثرُ مِنْ ذلك تَقضي على حَيويّة أرواحَهم، فماذا يُوجدُ بعدَ جفافِ الأرواح؟ لا شيءَ سوى الصَّحارى الخاليةِ مِن الواحات.

في تلك الأثناء، كان يقفُ مذهولاً، وتتسمّرُ نظراتُه على ثَوبي الطويلِ الذي تلامسُ ذيولُه الأرضَ، وهو يَنحني لكي يرفعَه، خشيةَ أن يتلوّث بالتُّراب وكأنَّنا نأنفُ التفكيرَ بأنَّ أجسادَنا لو أردْنا تكريمَها غَمسْناها في هذا التُّراب. كان فارِسيْ وكنتُ أميرتَه، كما في ألفِ ليلةٍ وليلة، يَستوي الواقعُ والخيالُ، وتنهدمُ بينَهما الأسوارُ. ماذا أرى؟ إنَّه يضعُ على رأسي تاجًا، مُزركشًا بالزُّهور والأكَاليل، غافلَني ونسجتْه يداه أثناءَ سيرِنا مُقتطِفًا زهرةَ إثرَ زهرةٍ، عُشبةً إثرَ عُشبة، خيطًا إثرَ خَيط، في أفقٍ لا نِهائي مِن الحديقة، باعثًا في أعماقي مَدائحَ الحبِّ وآياتِ الغَرامِ والكلامَ المَعسولَ والنَّظراتِ الشَّبِقة، ليُكرّمَ أنُوثتي بل ويَستفزُّها ويُخرجُها مِنْ خَجلها الأبدي. وكنتُ أقولُ في نفسِي: هل يُعقلُ أن يتصرّفَ هذا الشابُّ الدِّبلوماسيُّ بكلِّ هذه الكَياسَة واللَّياقة؟ بل وأكثرُ مِنْ ذلك، فهو يقطرُ انتباهًا وفِطنةً، ولا يُبالي بشَيءٍ آخرَ سوى أن يُداعبَ طمأنينة أنُوثتي التي نامتْ بعدَ سَفر طويل، وآنَ لها أن تستيقظَ وتُعلنَ عن نفسِها دُون خوفٍ أو خجلٍ أو رَعشةٍ تحتَ قُبّة الإمبراطوريَّة وثقلِ الأخلاقِ الإنجليزية

والأعرافِ المَلكية، غابتْ عنّي تلك الأنُوثةُ منذُ زمنٍ طويل. فماذا يفعلُ لي هذا الرَّجلُ؟ هل كان عليه أن يُصبحَ مُهرّجًا يَرتدي قُلنسوةَ البُلَهاءِ لكي يُضحكَني ويُدخلَ السُّرورَ إلى نفسِي؟ لكن شاءَتْ طُقوسُه الدبلوماسيةُ أن تجعلَه يقفُ بين الأشجار كأنَّه على المَسرحِ ويبدأَ بإلقاءِ قَصائدِ كبارِ الشُّعراء في الحبِّ والغَرام والهيامِ باللُّغة الفارسيَّة وأنغام المُوسيقى التي تضبطُ ايقاعاتِها. وعندَما يرى آثارَ الضَّجر تتسرَّبُ إلى نفسِي، يبدأُ بسَرد النُّكَتِ والحِكايات الغريبةِ كأنَّني أفلُتُ مِنْ يدِه إذا صَمتَ هو الآخر. ولم يكنْ يتردَّدُ في فَتح أبوابِ الجنّة المُغلقةِ في سِلسِلة بوّاباتِها مِن أجلِ الوُصولِ إلى الذَروة المَنشودة في السماءِ السابعة. قبلَ لِقائي به، كان طريقُ الحبِّ وعرًا ومُوحشًا وبعيدًا، لكنَّه فَرَشَهُ لي بالسجّاد الفارسِي، المُزركشِ بآلام النساءِ وقلقِهنَّ وصَبرِهنَّ، وهنَّ يقهرْنَ الزَّمنَ في مُواجهة النَّسج اليَومي الدَّقيق، ويتناولنَ أستكاناتِ الشاي البلّوريَّةَ التي تُلامسُ شفاهَهنَّ، وتخفّفُ مِنْ ضَجرهنَّ. أمَّا هو فيُزيّنُ عالمَ الحبِّ بالأطيافِ السماويَّة، قائلاً لي بجُرأتِه المَعهودة والمَمزوجة بفُكاهةٍ عاليَة: لم نعدْ بحَاجةٍ إلى أقنعَةٍ بعدَ اليَوم، ما هو رأيُك؟

هل نحن نَرتدي الأقنعةَ أيضًا مثلَ الدبلوماسيّين الذين صُنعوا في مَصنع الدُّمى؟

وصلَ إلى درجة أنَّه كان يزيلُ قناعَهُ في لقاءاتِنا مع الدبلوماسيّين والضُبَّاطِ والسِّياسيّين في المُفوضيَّة ليَتمرّدَ أكثرَ على ذلك الجُمود الذي أصابَ عقولَهم. أجل. يا حبيبَتي. الدبلوماسيُّون لا يَفقهون شيئًا مِمّا نحن فيه. إنَّهم كالحَرس الفِكتوريّينِ يَحملون شاراتِهم السِّرية. ها ها ها.. عندما يملأُ الحبُّ قلوبنَا لا نخافُ مِنْ أحد. أراهُ يَمتَطي صهوة حصانٍ ويقطعُ البَوادي إلى اللامَكان. نحن في اللامَكان، هو وأنا، بَعيدون عن عالمِنا المُحاطِ بسَلاسلَ مِن المَراتب والطَّبقات والمَراسم، حُثالةُ المُجتمع الإنجليزي في قعرِ الكأس، تبقى آثارُها حتى بعدَ تَنظيفِه. يا إلهي! لا يفكّرُ حُثالةُ الدبلوماسيّين إلا بعَوالمِهم المُزريَة. يا له مِنْ جرّاحٍ عَظيم، أناملُه لا تَتحركُ عبثًا إلا إذا أرادتْ أن تُداعبَني. مِنْ حُسنِ الحظِّ أنَّ خالتي ليدي لاسلز وزوجَها يَفهمان وضعي. كنتُ أخطّطُ في قَرارة نفسي أن أضعَ نهايةً للصِّراع مع الرَّجل، وأتساءلُ في نفسي: أليسَ الشَّيطانُ مَنْ كان يُغذّي صِراعي اللامُجدي معه؟ أيتُها الغبيةُ، هذه فرصتُك الذهبيَّةُ لأنَّ طريقَك هو طريقُ العُنوسة. تذكرتُ ما قالتْه خالتي عن النساء الشرقيات وتَعاويذِهنَّ في كسْبِ الرِّجال. وعندَ لقائِي بهنري، ازددتُ زهوًا بنفسي، وكنتُ أرى ذاتي في هذا الرَّجل، فالحبُّ كان على الدَّوام، امتحاناً لرُوحي ولجَسدي، إذْ لم أعُدْ تلكَ المرأةَ القُرويَّةَ، رغمَ حياة أكسفورد، لأنَّنا، نحن الإنجليزَ، لم نتخلَّص بعدُ مِنْ تلك الأخلاق حتى لو كناَّ رُوادَ الثورةِ الصِّناعية.

في حفلةِ المُفوضيَّة، جَمعتْنا رقصةُ التانغو، الرَّقصةُ الوحيدةُ التي يَحتاجُ فيها الرَّقصُ إلى اثنَيْن، تلك اللوحةُ التي يُشاركُ في رسمِها رجلٌ أنيقٌ بَبدلتِه السَّوداء، وامرأةٌ في ثوبِها الأحمر. كان كلُّ شيءٍ مُثيراً لي، الصَّالون الأرستقراطيّ الفَخمُ، وثُريّاتُه المُرصّعةُ بالكريستالاتِ والمُتدليّةُ مِن السَّقفِ الشَّاهق بسَلاسلَ مُذهبّةٍ، تُضيءُ رقصتَنا على إيقاعِ مُوسيقى التانغو، بحَركاتِها والتواءاتِها وَوقفاتِها كأنَّنا نَروي قِصصًا بعيدةً عاشَها هؤلاء الرَّاقصون، واختزنوها في ذاكرتِهم، بخِفَّة ولَباقة وراءَ الأضواء، ويتوارون لسِرقةِ قُبلةٍ في الظلام، وهم يَتهيَّؤون لإسدالِ السِّتار على إيقاعِ الرَّقصة الأخير. كانتْ عَينا هنري تَلمعان وتَتوهَّجان، وهو يُراقصُني، ويَضمُّني إلى صدرِه، ويغمزُ لي في تواطُؤٍ واضحٍ بينَنا،

ويذهبُ لمُراقصة امرأة أخرى، مِنْ أجلِ أن يخدعَ الآخرين بأن لا وُجودَ لعلاقةٍ حَميمية بينَنا بعدَ أن أطلقَ مُوظفُو القُنصلية شُكوكَهم البَغيضة، وهو يعمَدُ إلى مُراقصةِ نساء أُخريات، بلا استثناء وبخِفةٍ ظاهرة مِنْ أجلِ إبعادِ الشُّبهة عنّي وكأنَّنا نَقترفُ جَريمة. يا إلهيّ! كنتُ أرى في عينَيْه الوَمضةَ السِّحريةَ التي لا تعُبّرُ إلّا عن جَوهرِ ذاتِه، لحظاتٌ لا تُنسى، وعطرٌ لا يمكنُ أن يَتبخرَ في أدراجِ الرِّياح بسُهولة. رغمَ سَعادتي الغامرة، كنتُ مُحرجةً، فقد لاحظَ الدبلوماسيُّون أنَّ شيئًا قويًا يَشدُّني إلى هنري، ولا يقوى أيٌّ منَّا على إخفاء دَواخلِه أو التَّحايُلِ عليها، رُبَّما فضحتْنا رقصةُ التانغو إذ لم يكنْ التصاقُ جَسديْنا بريئًا أبدًا، بل أثارَ فضيحةً مِنْ خِلال تَشابُك ساقَيْنا على السّجادة الفارسيَّة. كرهتُ نظراتِ أفرادِ السّلك الدبلوماسي الشَّبقةَ والشَّهوانيةَ والغَريزيةَ التي كانتْ تنطلقُ مثلَ سهامٍ جارحةٍ تنفذُ إلى أعماقي، ممّا جعلَ هنري يُخفّفُ مِن اندفاعِه نحوي، ضاغطًا على كوابحِ عجلتِه، لكي لا يثيرَ الشُّبهات، وهو يُراقصُني ويَلفُّ يدي ويَسحبُني نحوَ صدرِه، وأنا أتنشّقُ أنفاسَه ورائحتَه، لكنَّ السّائدَ أنَّه كان لا يحقُّ لغَير المَخطوبين أن يتَعاملا بجَسديْهما بهذه الحُرية، يبدو أنَّ شَراراتِ المُحرّمات الفِكتورية انطلقتْ مِنْ عُيون مُوظَّفي المُفوضيَّة ولم يتمكَّنوا مِن السَّيطرة عليها. وعندَما بلغْنا الفجرَ، بَدأ المَدعوُّون يَنسحبُون الواحدَ تلوَ الآخر، وانطفأتْ المَصابيحُ الخافتةُ، واضطرّ هنري الخَجولُ إلى الانسحابِ مِن السَّهرة بدُوني، ليُوحي للدبلوماسيّين أن لا علاقةَ له بي، تاركًا مَذاقَ رقصةٍ يَتيمة في جَسدي، لكنَّها مَليئةٌ بالإيحاءاتِ مِنْ أجلِ الحفاظِ على سُمعتي. وعندَما بدأ النهارُ يشقُّ طريقَه إلى الغُرفِ والصَّالة، طاردًا آخرَ ذُيول الظلام، بدأ الخدمُ يقُدّمون أستكاناتِ الشاي، وانتشرتْ التعليقاتُ على السَّهرة، ولا يريدُ الحاضرون الافتراقَ، بينما لاحظتْ خالتي الليدي لاسلز أنَّ نظراتِ هنري لي كانتْ فاضحةً طوالَ السهرة واهتمامَه بي لم يكنْ عاديًا. لكنَّ المُؤلمَ أنَّني لم أتمكَّنْ مِنْ مُغادرة مَنزلِ خالتي ومُرافقتِه إلى منزلِه، لأنَّ اللياقةَ الإنجليزية والسُّلوكَ الصَّحيحَ والسُّمعةَ الدبلوماسيةَ تفترضُ أن لا نفعلَ ذلك، بل أن نسيرَ ضدَّ رغبتَيْنا لنُرضي أذواقَ الآخَرين. اللَّعنة!

برجُ الصَّمت الأبيض

سهرةُ الليلةِ الماضية. كانتْ نُزهةً في البَراري المُوحشة، بعدَ أن ربطْنا حصانَيْنا، امتدَّتْ أمامَنا واحاتُ الصَّحراء، وجمالُها السَّاحر: أوه.. تمتدُّ الصَّحراءُ حولَ طَهرانَ أميالاً وأميالاً، لا شيءَ ينبُتُ فيها، تحيطُ بها جبالٌ جَرداءُ مُتوّجةٌ بالثلُوجِ، وطرقُها مُتغضّنَة، جافةٌ، وصلبةٌ، كثبانٌ مَلساءُ تغيِّرُ الرياحُ أشكالَها متى تَغضب، وتهّبُّ في وجهي حبأَتُ رمالِها، حمّامٌ شمسِي يطردُ بردَ لندن مِنْ عِظامي. الناسُ يَردِّدون هنا كان الإلهُ عبارةً عن رملٍ لأنَّه يتشكّلُ كما يُريدُ ومتى يشاء، لا عجبَ أن ظهرَ الأنبياءُ جميعَهم مِن الصَّحراء، وبَعثوا برَسائلِهم إلى المَعمورة، وبَسطوا سُلطتَهم، وخدَّروا حواسَّهم، وأعادوهم إلى الرِّمال والضِّياء، والفِتنة، والمَهد، والحَرير، والطُّهر، والصَّفاء، والبَيداء، والفَراديس، والرِّياض، والجِنان، والعِطر، والبَهاء. هذا هو الفِردوس الرَّملي. إنَّني سَجينةُ الصَّحراء، أتطلعُ إلى رُؤية الواحاتِ وسَرابِها، وأرى الكَهنةَ يُصلّون في صَوامعِهم، ويُناجون كثبانَ رمليَّة تتَراقصُ على ايقاعِ مُوسيقى الرِّياح. لا حُصونَ ولا أكواخَ ولا مِظلّاتٍ تأوينا، ولا نَحتسي سوى أقداحِ الشاي، طعمٌ مُسكرٌ، مزيجٌ مِنْ خلطةِ أعشابٍ خضراء وأشجارِ تُفاح وأَلوانِ القمر، مِنْ أين جاء هذا اللَونُ، يا تُرى؟

الصَّحراءُ تُضيءُ رُوحي الهائمةَ في المَسالكِ في ظِلالِ تدرُّجاتِ الألوان: الأسودُ يَميلُ إلى الزُّرقة، اللَّيلكي، أو الضاربُ نحوَ اللَّون البنفسجي في تلك الليلة المُقمرة. كيف جاءتْ؟

أجابَني أحدُ السَّابلة: أيتُها السيِّدةُ المُبجلَّة، عندَما يَبتهجُ القمرُ ويَنتشي يستنبطُ ألوانَ الطّيف الشمسي جميعَها ويختزُنها في النهارِ لكي يُخرجَها في اللَّيل، لذلك تزَيْن وجهَك مَصبوغًا بهذه الألوانِ كلَّما نظرتِ إلى نفسِك في المرآة.

يا إلهي! كم تَستعصي هذه الصَّحراءُ على الوصفِ، هامَ فيها الفلاسفةُ والكُهّانُ والشعراءُ دُون أن يَعثروا على ضالّتِهم المَنشودة، ويَبقى منظرُها خدّاعاً ومُغرياً، سرابٌ في سراب، وميضٌ وبريقٌ، اشتعالٌ وانطفاء. أليستْ هذه فكرةَ الإله أينَما تَوجَّهَ في الصَّحراء؟ فكرةٌ عبَرَتْ ذِهني وأوحَتْ إليَّ بها الطبيعةُ الخلّابةُ التي قضتْ ذاتَ يومٍ على الأديانِ عندَ المَساكين، ولا يزالُ الفلاسفةُ والنسّاكُ والمُتصوِّفةُ والمَعزولون والخائِفون والعاشِقون يُكافحون ضدَّها عبثًا. تعلّمتُ الصبرَ منكِ أيتُها الصَّحراءُ حين عبرتُ إلى حائِلَ، أغوتْني رمالُك، مَوطنُ الحُسْنِ والجمالِ وجنّاتِ عدْن، والكُنوزِ المَدفونة، وواحاتِ الاسترخاء، والقمرِ المُنير، والخِيام المُشرعة والصُّقورِ والغُزلان والحَبارى. تأمَّلتُ رمالَ حتى أيقظَني هنري مِن تلك الإغفاءة، لامسَ كَتفي بيدَيْه الناعمتَيْن، فارتعشَ جَسدي، وهو يهمسُ في أذني: إلى أين شردَ ذهنُك، يا غيرترود؟

كنتُ أخجلُ أن أقولَ له إنَّني شاردةٌ في حبِّكَ الأزلي. ثم واصلْنا جولتَنا إلى مُعسكر الشاه. يا إلهي! ما هذا الجمال؟ كلُّ شبرٍ مِن الطريقِ مُعبدٌ بالزُّهور، والحديقةُ مَليئةٌ بالحيواناتِ الوحشيَّة،

يتوسَّطُها قصرُ سيدات العائلة المالكة. وعندَما فتحَ لنا البُستانيُّ البابَ، دخلْنا القصرَ ووَجدْنا أنفسَنا وسطَ الليالي العربية الساحرة، وجداولِ الماء المنسابة، وانعكاساتِ المياه المتراقصة تتشابك مع قِطع المرايا الصغيرة التي تزيّن السقف. أدورُ في هذا الفناء النّاصعِ البَياض، المُمتلئ بالضَّوء، وهو يقرأُ لي القَصائدَ الفارسيَّة الغامضَةَ، ويَحوطُني بذراعَيْه القويتَيْن، كلَّما تأثرتُ، وهو يجرُّ خطواتي الوئيدةَ لرُؤية بُرجِ الصَّمت الأبيضِ حيثُ عَجائبُ القِيامَة. يا إلهي! لم أرَ هذا المَشهدَ أمامي ولم أتخيّلْ أنَّني سأراهُ في حياتي ذاتَ يوم. ما الخَبر؟ وماذا يحدثُ هنا؟ هل قامتْ القِيامَة؟ هل هو يومُ الحِساب؟ أم يومُ الرُّعبِ الكوْني؟ الزَرادشتيُّون جاؤوا إلى هنا، إلى هذا المكان الذي أتنزَّهُ فيه مع هنري، وبَدؤوا يلقون بأمواتِهم في العَراءِ تاركين إيَّاهم طُعمًا جاهزًا للطُّيور الجارحة التي ما إن شمَّتْ رائحَتَها حتى انقضَّتْ على أجسادِها نهشًا، وحوَّلتْها إلى رُكامٍ مِن العِظام، وهي تتلذَّذُ بتَمزيقِ لحمِها الأحمرِ بمَخالبِها الشرِّيرة.

امتطيَنا حِصانَيْنا برُوح رومانسيَّةٍ عبرَ صَحراء كافير على طولِ الروافدِ المائية لنَهر اللار، نعبرُ إلى البُرج الأبيض الذي ظلَّ راسخًا في ذِهني ولا يريدُ مُبارحتَه، إذ يُلقي الزَرادشتيُّون موتاهم إلى الشّيطان الجَشع ليَفترسَهم. كان ذلك المنظُر فظيعًا يَستخدمون أبراجًا دائرية لدَفنِ الموتى، ويُسمّونها "دخمَه"، وهي في العادة على قِمَّة تلَّةٍ بعيدةٍ عن طَهران، وتُشرفُ عليها مَجموعةٌ مِن الكَهنَة، ولا يدخلُها أحدٌ سواهم. ثمَّةَ مَنْ يحملُ جُثثَ الموتى ويَصفُّها بتَرتيبٍ دائري، الأطفالُ فى الوسَط، والنساءُ فى الدائرة الوُسطى، ثم الرجالُ فى الدائرة الخارجية. وما إن يبتعدْ الكَهنَةُ قليلاً عن هذا المنظرِ حتى تنقضَّ العقبانُ الجارحةُ على الجُثث التي اعتادتْ أن تأكلَ لحومَها وتتلذّذَ بطَعمِها المالح. ثم يقومُ الكَهنةُ بجَمعِ العِظام ويحشرونَها في تَجاويفَ بالبُرج، ثم يصبُّون عليها الجيرَ، ويُصبحُ الموتى جزءًا مِنْ بناءِ أحجارِ بُرج الصّمت إلى الأبد.

قالَ لي هنري، مُنتبهًا: هل تشعُرين بالخوف؟

كيفَ لا أشعرُ وأنا أرى الموتَ بعَيني؟

هل يمكنُ أن يلتقي الخوفُ مع الحبّ؟

نحن لسنا سوى كتلةٍ مِن الخوف.

لأنَّ حبَّنا طالَما ارتبطَ بالخوفِ مِنْ أنفُسِنا ومِن الآخرين.

كانَ قلبي يخفقُ بالخوفِ تارةً وبالحبِّ تارةً أخرى. وأنصتُ إلى حكاية الصُّقور الجبّارة مع طُيورِ السّمان الهالكَةِ منذُ الخَليقة حتى الوقتِ الحاضر، القَويُّ يأكلُ الضَّعيفَ. يا إلهي! هل كان هؤلاء بشراً مِنْ لحمٍ ودمٍ ذاتَ يوم؟ هل كانوا كائناتٍ بشريَّةً يدبُّون على هذه الأرض مثلَنا، مَعبَّئين بالآمالِ والأحلامِ والعِشق؟ وهل مِن المَعقولِ أن ينتهي مصيرُهم المأساويّ في بُرجِ الموتِ والخَلاص حيثُ تجدُ آمالُ البشرِ وأحلامُهم مَحطتَها الأخيرة، ولكنَّهم يَنتظرون حياةً أُخرى تبدأُ في الآخرة بعدَ أن تُمزّقَ النّسورُ أجسادَهم إيماناً مِنهم بزَوالِ الجَسدِ وبَقاءِ الرُّوح، وفاتَهم أنَّهما يَعيشان في كَينونَة واحدة. ارتجفتُ خوفًا وهلعًا من المَشهد المُريع، فأمسكَ هنري بيَدي، ثم سارَ بي ليُبعدَني عن هذا المُشهد إلى رُؤية الصَّيد بالصُّقور، والخدمُ يُطلقون طيورَ السُمّان إلى السماء، ويُراقبون ارتجافَ أجنحتِها بين

أنيابِ الصُّقور، بعدَ أن تُحكِمَ مخالبَها المُدبَّبَةَ في رِقابِها الرقيقَة. يا له مِن مَنظرٍ مُريع هو الآخر؟

تخيَّلتُ أنَّ الأصدقاءَ يَتداولون الأحاديثَ حولَ نُزهتِنا هذه، بعدَ أن رَويتُها إلى الرِّياح، ولا أعرفُ كيفَ وصلتْ إليهم، تبيّنَ أنَّهم يتَعقَّبون سِرَّ نُزهتنا في هذا السَّفر الصَّحراوي الرَّهيبِ يَسردون قصَّتَنا على لِسانِهم كأنَّنا مِنْ أبطالِ الصَّحراء وعُشاقِها المُتفرِّدين. ولكي أستمتعَ بجَولتي مع هنري، أبعدتُ عن ذِهني أيَّ تفكيرٍ فَلسفي لأنَّ قدرَ الحبِّ أقصرُ مِنْ عُمر الفَراشات، لذا يجبُ أن أتمتَّعَ بكلِّ لحظةٍ ولا أجعلُها تمُرُّ سريعًا. نصَبْنا خيمةً، وتزوَّدْنا بالمَؤونة، وتَناهى إلى سَمعِنا عزفٌ لفِرقةٍ موسيقيَّةٍ في الحديقة، لم نكنْ نتحسّسُ الآخرين، فعالَمُ العُشّاقِ واحدٌ لا يشاركُهم فيه أحد، ولذلك جعلَتْنا أبراجُ الصَّمتِ المُنتشرةُ أكثرَ قُربًا مِنْ بَعضنا لأنَّ الإحساسَ بالجَسدِ يتضاءَلُ في هذه البُقعة، ويَطغى الموتُ بأشباحِه الرَّهيبة. استلقَينا على الحَشائِش تحتَ الأشجار، مُؤرجحَيْن أصابعَ أقدامِنا في جَدولِ ماءٍ صغير، وتبادَلنا القُبلاتِ، ونحن نتأمَّلُ تغيُّرَ ضِياء الشمسِ على قِمَمِ الجبالِ المَكسوَّة بالثلُوج. رَكبْنا الخيلَ في جميعِ أنحاءِ شيرمان في أسفلِ جبالِ ألبورز، وقُمنا بزيارة كلِّ مَضيقٍ تشكّلُه الجَداولُ الصَّافية عبرَ الثُّلُوج، وقطَعنا مسافاتٍ طويلةً، مُنحدرِيَنْ مِنْ ضِفافِ النهر، ثم اختبأْنا تحتَ الأغطيَةِ تفاديًا لتَناثرِ المِياه، وتَناولنا الخُبزَ والزُّبدةَ ومُربّى التوتِ بشَهيةٍ ولذَّة مع أقداحِ الشاي، فيما تَغمرُ عُيونَنا أضواءُ الجبالِ الثلجيَّة وأنغامُ الموسيقى. ولم يعكّرْ صفوَ هذا اللّقاء الحَميمي سوى أنباءِ مَرضِ الكُوليرا الذي انتشرَ في سائرِ أرجاءِ بلادِ فارس، وحَصَدَ الألوفَ مِن الأرواح. انتابَني تأنيبُ الضّمير وأنا أحتفلُ بالحياة مع هنري بجوارِ الموت الذي يقرعُ أبوابَ الآخرين: نقرأُ معًا شاعرَ الرُّومان، غايوس ڤاليريوس كاتولّوس، وقَصائدَ براوننغ وكيبلينغ، ورُباعيَّاتِ الخيَّام وحافظَ الشيرازي وقصصَ هنري جيمس. لكنَّ الحلمَ لم يَدُمْ طويلاً، مضى كالبَرق، فالجنَّةُ كما يبدُو غيرُ دائمةٍ والعذابُ وحدَه دائم. هكذا تمتمتُ مع نفسِي مِن دُون أن يسمعَني أحدٌ.

حكاياتٌ شرقيَّة

في تلك الظَّهيرة، بدأنا نُخطّطُ لحياتِنا المُستقبليَّة معًا، ونَسعى لتَحسين ظروفِ حياتِنا، فقد كان بإمكانِ هنري كدِبلوماسي أن يُعيَّنَ في أيِّ مَكان في العالَم بشُروطٍ أفضل، وقد جرَّبَ السّفرَ إلى أمريكا الجَنوبيَّة لكنَّهُ لم يحبَّها، واتفقنا على أنَّ الشرقَ هو المكانُ المُفضّلُ لنا للعَيش. وهكذا تخيّلتُ نفسي أصبحُ مثلَ خالتي الليدي لاسلز، تمتلكُ دولابًا مليئًا بالأزياء، وتُسافرُ على مَتْن سُفنٍ بُخارية مرّفَّهة، وقِطاراتٍ سريعةٍ فخمَة، وتقابلُ دِبلوماسيّين ورُؤساءَ وزاراتٍ ومُلوكاً وأباطرَة. ولمَ لا؟ ألاَ أستحقُّ هذه الحياةَ بعدَ كلِّ ما قُمتُ به في حياتي؟ لكنَّ شبحَ إصرارِ أبي وأمّي على رأيهما كان يُهدّدُ أحلامي، ويَجعلُها تتبخّر. لذلك قمتُ بكِتابةِ الرسائلَ إليهما مِنْ جَديد، أطالبُهُما بالمُوافقةِ على زواجِنا الذي تهيَّأنا له وجهَّزنا أنفسَنا لإنجازِه. وعندَما لم يأتِ الرَدُّ بعدَ مُرور أسبوعَيْن، كتبتُ إليهما ثانيةً، وأقنعتُ نفسي أنَّ أبي سيَحتاجُ وقتًا للتأكُّدِ من مُؤهِّلاتِ هنري وقُدراتِه، لكنَّ الانتظارَ الطويلَ أصبحَ مُملاً بل وجعلَني أدورُ في حلقةٍ مُفرغة لا أدري كيفَ أتخلّصُ منها أو أن أعثرَ على مَنفذٍ منها. وكان اعتقادي أنَّ مِن واجبِ والديّ الاهتمامَ بالرَّجلِ الذي سأتزوَّجُه، وهو قد لا يتلاءَمُ تمامًا مع تقاليدِ عائلتي، لأنَّ والدي كان يتوقَّعُ لي زوجًا غنيًا، ونافذًا، وذا جاه، وهنري، الابنَ الأكبرَ للنَّبيلِ فردريك كادوغان لم يكنْ قد ورثَ مِنْ عائلتِه شيئًا، وراتبُه كَدِبلوماسي مِن الدَّرجة الثانية لم يكنْ كافيًا للإنفاقِ عليّ، ولجَعلِ الأمورِ أسوأ، كان مُولعًا بلَعبِ القِمار، وعلى كاهلِه دُيونٌ كثيرة. لكنَّني لم أكنْ أعيرُ أيَّ اهتمامٍ لذلك، رُبَّما الحبُّ حجبَ عنّي كلَّ الحقائِق، وكنتُ أرى الحياة ورديةً معه. وقبلَ وصولِ جوابِ أبي، كتبتُ لوَالدتي مسز فلورنس عن رفضِه منحَ مُوافقتِه على خُطوبتي مِنْ هنري، ولكنَّها كما يبدو كانتْ شريكتَه في الرَّأي دُون أن تُفصحَ عنه صراحةً، فما كانَ علينا إلّا البقاء في طَهران والأملُ في ترقيتِه إلى وظيفةٍ أعلى كأنْ تُعهدَ إليه درجةُ سفيرٍ أو وظيفةٌ أخرى أرقى، وحينَها سيَكونُ الانتظارُ مُجديًا. انتظرنا إلى شهرِ سبتمبر، إذ وصلتْ رسالةُ أبي لتؤكّد رفضَه، فاشتّدَ بي الحزنُ، كسيرةَ الفؤاد، وفي حيرةٍ مِن أمري، عاجلتُ في الكتابة إلى فلورنس ثانية، التي طالَما فهمتْ أعماقي وآرائي، لكنَّها قدّمتْ لي أقصى ما في العزاء والمُواساة، وقد صدمتْني لأنها تضامَنَتْ مع أبي في رفضِه لزَواجي، وقلتُ لها: إنَّني لا أخشى أن أكون فقيرةً أو أُضطرّ للانتظار، بل أريدُ مُوافقتكما فقط، وسنتدبرُ نحن حياتَنا بأيَّة طريقة كانت، لأنَّنا قادرَيْن على العملِ والعيشِ معًا، ولن نُكلّفَكما شيئًا. لكنَّ القدرَ كان يسيرُ على طريقٍ آخرَ غيرَ طريقي. ويبدو أنَّ قرارَهما شبهُ نهائي ولا عودةَ فيه، رغم ما في دَواخلنا من عزيمةٍ صلبةٍ وعاطفةٍ مُلتهبّة، مِمّا جعلَنا نبدأ بالابتعادِ عن بعضِنا شيئًا فشيئًا. بل أكثرُ من ذلك، قد يُحرَّمُ علينا اللقاءُ بعدَ ذلك، ولكنَّني ظلَلتُ أتعلّقُ بالأملِ وأتوسَّلُ أبي أن يفهمَ هنري وأوضاعَه، إذ لم أعدْ أحتملُ ما يفكّرُ به عن خَطيبي، وكيفَ يحطُّ من قيمتِه بهذا الشكل، ويعتبرُه أقلَّ مِنْ حقيقتِه، دُون الاهتمامِ به كنَبيلٍ وطيّبٍ وذي أخلاقٍ عالية، وهو الجانبُ المحبّبُ إلى نفسي، فكلُّ شيءٍ أفكّرُ فيه أو أكتبُه، يجعلُني أستعيدُ كلماتِه وعباراتِه التي تخترقُ صدري كمَسامِيرَ حادةٍ تمزِّقُ أحشائي. ورغم ذلك، أصرّيتُ على رأيي، وأخبرتُهما بأنَّني سأختارُ أن أعيدَ الكرّةَ ثانية، لأنَّ هنري رجلٌ نادرٌ، ولا يمكنُ أن

يُعوّضَ أبدًا، وطريقُ الحياة بدتْ لي ضيِّقةً بدُونه، بل لا يمكنُ أن أنعزلَ عنه أبدًا. في تلك الأثناء، وفي قمَّةِ ابتهاجي، كنتُ أُوافي أبي بكلِّ تحرُّكاتي، وذلك ما أقلقَه كثيرًا حتى قرَّرَ أن يأتي هو وأمّي إلى طَهران لكي يُعيداني إلى لندن، كأنَّني اقترفتُ ذنبًا لا ذنبَ بعده. لكنَّ حلَّ البَرلمان، كما يبدو، مَنعَهما مِن القُدوم. لذا كان بإمكاني أن أبقى أربعةَ أشهرٍ أخرى برِفقة هنري لنتفاهمَ أكثر، ونتدبّرَ أمورَنا، ولكن انتشارَ الكوليرا بثَّ الرعبَ في مُحيطِنا، وتكاثَرَ الموتى مِن الفُرسِ والأوروبيّين مِن حولنا. كنتُ أنتظرُ أن يغيِّرَ أبي رأيَه بخُطوبتي مِنْ هنري، لكنَّ ردودَ أفعالِه كانتْ ناعمةً وقاتلةً في الوقتِ نفسِه، ولم تعجبْني كلمتُه التي يقولُ فيها إنَّ هنري دبلوماسي خالي الوِفاض، وعاجزٌ عن مَنحي السعادة. بينما كانا يجهلان سَعادتي معه، ولكي يزيدا الطّينَ بلةً طلبا منِّي العودة إلى المنزل، فيما تُكرِّرُ فلورنس مُواساتي، أمّا هنري فلم يكنْ لديه أحدٌ ليُواسيه إلا أمّه التي رحلتْ قبلَ سنوات. ولم تُنقذْني رسائِلي اليائسةُ إلى أصدقائي وصديقاتي، وكلُّ الوساطاتِ التي قمتُ بها عندَ أبي العنيدِ والمُصرِّ على فراقِنا المأساوي.

بُحيرةُ "لار" جمَّدتْ قلبي أيضًا

عدتُ إلى الوطن بخَيبةِ أملٍ كبيرة عبرَ القِسطنطينيَّة بالقاربِ عبرَ بحر الكاسبين، أبحرْنا واختفى المكانُ الغافي وراءَ بُحيراته الضَّحلة، حيثُ الغيومُ تُغلّفُ جبالَه، تلاشى سحرُ المكان شيئاً فشيئاً حتى اختفى قصرُ الشّاه مِن الأفُق، واختفتْ معه الذكرياتُ الغامضةُ بألَم. كتبتُ لصَديقتي ومَوضعِ ثِقتي، دومينول شيرول، مِنْ على السفينة التي عدتُ علي مَتنها، لأكشفَ عن حجمِ ألمي واضطرابي: أعتقدُ أنَّكِ تعرفين شيئًاعن شؤوني وغُموضها، إنَّها سيئةٌ جدًا، ومِن المُحزنِ أن يفقدَ المرءُ الأمل، والسيد هنري فقيرٌ جدًا، ووالدُه مُفلسٌ ووالدي سيعملُ أيَّ شيءٍ مِنْ أجلي، ولكنَّه غيرُ قادرٍ على الإنفاقِ على منزلٍ آخر، وهو كما يَبدو ما سنُطالبُه به إذا تزوَّجنا. هذه هي حالتي يا صديقتي العزيزة.

وعندَما التقينا، تفرّستُ في وجهِ صديقتي، بدأتْ دُموعها تسيلُ على خُدودها، وكأنَّها عاجزةٌ عن تقديمِ أيّ عَونٍ لي. ها هي لندن وصلتُها بعد غيبةٍ طويلة، والتقيتُ بوالدي أخيرًا وتحدثتُ معه، وأقنعَني أن هنري لَيس بالزَّوج المُناسب، ورغمَ ذلك لم أقتنعْ بما قالَ، وتحمّلتُ ثمانيةَ أشهرٍ أخرى في الانتظار عبثًا. في هذه الأثناء، شجّعتْني فلورنس على إنجازِ كتابي "صورٌ فارسية" حولَ تجربتي هناك، وكان هنري شاخصًا في ثنايا تلك الصور.

وفي عُزلتي، كان قلبي يخفقُ كلما وصلتْني رسالةٌ عليها طابعٌ مِنْ بلاد فارس، ووجدتُ نفسي أفقدُ رجلاً فريدًا مِنْ نوعه، وأتساءلُ: ألا يحقُ للفقراء أن يتزوَّجوا؟ ورحتُ أطمئنُ نفسي بأقوالِ أبي: إنَّه رجلٌ لا يصلُحُ لي، لكنَّ ذلك هراءٌ في هراء، وأبي لا يعرفُ ما يدورُ في قلبي ووجداني. ويجهلُ أيضًا أنَّ فرصةَ الحبِّ لا تأتي إلا لمرَّة واحدة في الحياة، لكنَّني تعلقتُ بالأملِ الذي تنشُدُه كلُّ امرأةٍ على وجه الأرض. لم أكنْ أتصوَّرُ أنَّ الأمورَ يمكنُ أن تسيرَ إلى أسوأ من ذلك. فقد رُوّعتُ في ذلك النهار مِنْ برقيَّةٍ وصلتني من طهران، وكنتُ أكرهُ البَرقيات لأنَّها عاجلةٌ وتحملُ في طيَّاتها فألَ شرّ، ولم أصدِّقْ عينيّ، وأنا ألتهمُ حروفَها الزرقاء، الشاحبَة، والمُتشققة، والباردة، كلماتٌ موجزة تقولُ: كان هنري يَصيدُ السَّمك عندما انزلقَ إلى المِياه المُتجمّدة في نهر "لار"، لا نعلمُ إن كان الأمرُ حادثًا أو متعمدًا – لقد تجمَّدَ كليًا حتى العظم. نحن متأسِّفون لإعلامِكم أنَّ هنري.....

وبدأتْ الكلماتُ تتغوشُ ولا تُقرأ، فصرختُ: يا إلهيّ ما الذي حصلَ لهنري؟ وسرعان ما فتحتُ عينيَّ لأرى بطرفِ عيني ما تبقَّى من كلمات البرقيَّة: ..... أنَّ هنري قد فارقَ الحياة. يا إلهي! وفي بُحيرة "لار"..... اقتحمتْ كلماتُ البرقية كالنَّصل الحادّ رأسي فصرختُ: ماتَ هنري. وأنا أردِّدُ: لو كنتُ معه لأنقذتُه من الانزلاقِ في بُحيرة الموت أو لكُنَّا نتجمَّدُ يا للهول! لقد تجمَّدَ القلبُ الذي كان يفيضُ حبًّا لي. ماذا أفعلُ الآن، يا إلهي؟ مزَّقني تأنيبُ الضَّمير عن مُغادرتي طهران، فهل أعودُ إليها؟ ولكن ما الذي سأجدُه هناك: طهران لا معنى لها بدُون هنري. لم أذُقْ النوم أيامًا ولياليَ، وأنا أفكّرُ بالبحيرة التي كان يأخذُني إليها ويقرأ لي أشعارَ الشيرازي، ومع رحيلِه أسدلتُ الستارَ على مرحلةٍ

عاصفةٍ مِنْ حياتي، وقلتُ وداعًا للبُحيرة التي جمعتْ روحَيْنا في مكانٍ واحدٍ ذاتَ يوم، وتجمَّدَ قلبي هو الآخر، وجفَّ، ولم أعدْ أملكُ شيئًا مِنْ هنري سوى ذكرى عابرة. واليومَ بعدَ مضِيّ الزمن، يقتربُ ذلك الظلُّ منّي.. أفكِّرُ به كثيرًا في الليل. وأتساءَلُ: هل يرتجفُ قلبي ثانية لرَجلٍ كما ارتجفَ لهنري ذاتَ يوم؟ سؤالٌ ظلَّ يؤرِّقُني لفَترة مِن الزمن.

الجُندي القادمُ مِنْ القسطنطينيَّة

لا أدري ماذا أفعلُ بعدَ أن طوى الموتُ هنري في قَبره الثّلجي، هل أبدأ حياتي ثانية؟

في صَخَبِ عواطفي وفوضى الحياة، استحالتْ الدنيا إلى ظلامٍ مُطبق، وانتشرتْ الحواجزُ أمامي غليظةً وضخمةً مثلَ أعمدةِ الطِّراز الفكتوري، وأنباءُ الحربِ تملأُ مانشيتات الصُّحف، رعبًا وهلعًا. قرأتُ عن نجمِ الحربِ آنذاك المِيجور ريتشارد داوتي وايلي، لكنَّني كنتُ في حيرةٍ وارتباك، وأمرُّ في فترةِ نقاهةٍ هادئة، تُهيمنُ عليّ أفكارٌ سَوداوية لعينة، إضافةً إلى انشغالي بتأليفِ كتابي عن قصر الأَخيْضِر، ومِن بين الأخبار الجيدة أنَّ الإمبراطورية العُثمانية بدأتْ تتَقهقَرُ أمام قوّاتنا. تعلّمتُ الكثير مِمَّا كتبَه ريتشارد، الذي يعيش في القسطنطينيّة، وكنّا نتراسلُ وكذلك مع زوجتِه جوديت حولَ صُدور كُتبي. كنتُ مُنبهرةً بشجاعتِه ورُجولتِه في إيقافِ مَجازر الأرْمَن في أدَنَه، وقد التقيتُ بهذا الرَّجل مرَّتيْن في لندن، وكنتُ أنسّقُ معه الحملاتِ الخيريّة للصَّليب الأحمر على الأراضي التركية. وأثناء زيارتِه إلى لندن، التقيتُ به بصُحبةِ زوجتِه، وتناولنا الشاي معاً، وكان يُبهرُني في تَمثيلِ الإمبراطورية كجُندي مِقدام ومُوظَّفٍ كبير، مزيَّنٍ بشارات الشجاعة، وهو بالإضافة إلى ذلك، رجلٌ شفافٌ ويحبّ قراءةَ الشّعر أيضًا. ولقائي به كان جزءًا من التفكير بمَصيرِ الحرب. وكنتُ أدعوه الى يوركشاير، فيأتي لرُؤيتي، ويحلُّ ضيفًا في دار والديّ في راونتِن، فهو ذلك الجُندي الشابُّ الساحرُ الذي خاطبَ عقلي أولاً، ولكنَّه ولا أدري كيفَ بدأ يتسلّلُ إلى قلبي رويدًا رويدًا. وبدأتُ أتساءَلُ: هل يمكنُ له أن يعوِّضَني عن هنري؟

أغرتْني أوسمتُه وافتخارُه بنفسه، وتصوّرتُ أنَّه الرَّجلُ القادرُ على إخراجي من عُزلتي القاتلة وحُزني الكئيب. كنتُ بأمسِّ الحاجة إلى العَزاء والمُواساة في تلك اللّحظاتِ القاتمة مِنْ حياتي. لكنَّ ما حصلَ ولم أكنْ أتوقّعُه عندما خرجتُ لأخذِ بريدي المُعتاد أن دعتني زوجتُه جوديت الى تناوُلِ طعام الغداء في حديقة منزلِهما، ولما عادَ رآني، فتغيّرت ملامحُ وجهِه لدرجة أنَّ زوجتَه تضايقتْ من فرطِ اهتمامِه بي، مُشيدًا بكتابي "الصحراء والبذار"، وهو جزءٌ مِن اهتمام الكثيرين مِن الرحّالة واللُّغويّين والكُتّاب الذين حاولوا التعرُّفَ عليّ في تلك الفترة. وقلتُ في نفسي: يا إلهيّ! مَنْ الذي وضعَ هذا الرَّجلَ في طريقي، هل يمكنُ أن يتكرّرَ الحبُّ في حياتي؟

كان ريتشارد نجمَ الحرب يُقاتل في هازارا، وشيراك، وكريت، والنيل، ويحصدُ الميداليّات والنّياشين أينَما حلّ، وتعرّضَ لجُروح خطيرة في حربِ البُوير، وحصلَ على ميدالية المَلكةِ وثلاثةِ نَياشينَ في تينتسين أثناء الثورة الصِّينية. ومِن الطَّريف أنّه كان بنفسِ عُمري، بل يصغَرُني بتسعة أيام، بينَما كان هنري أكبرَ منّي بعشرة أعوام. فكّرتُ كثيرًا، هل يمكنُ أن يكونَ هذا الرَّجلُ لي؟ وسرعان ما تذكّرتُ أنّه متزوجٌ من جوديت، ابنة السيد جون وايلي من منطقة "وستكلف"، وكانت فيما مضى أرملةَ المُلازم هنري آدمز ويلي، وهذا أمرٌ شائكٌ ومُعقد. لكنّ كلَّ ذلك، لم يمنعْ انبهاري ببسالتِه

في مُطاردةِ المُتمرِّدين الأتراك، وإنقاذِ حياةِ المئاتِ ورُبّما الآلاف مِن الجُنود في القسطنطينية. ومِن شدّة إعجابي به، قمتُ بدعوتِه إلى منزلِنا في رَوانتن، جاء بمُفردِه، ولم تكنْ تصحبُه زوجتُه، وشجّعتْني رسائلُه إلى التقرُّب منه، وأرادني أن أكتبَ إليه على عنوان شقَّتِه التي كان يشغلهُا أيّامَ العُزوبة في لندن: اكتُبي لي هناك ويمكنُنا أن نكونُ لوحدِنا. هل هي دعوةٌ للحبّ؟ لكنَّه عادَ وكتبَ إليّ: عزيزتي سيذهبُ هذا الكلام إليكِ ليُعطيك حبّي وقبلاتي كأنّي طفلٌ وكأنّك طفلةٌ.. زوجتي تعرفُك جيدًا، ولا أريدُ أن أُخفي أيّ شيءٍ عنها. وقلتُ في نفسي: ماذا يمكنُ أن يقولَ لها، إنّه يحبُّ امرأةً أخرى؟

هذا هو الجُنون بعينِه. لم أكنْ أرغبُ أن أقفَ عائقًا أمام سعادة زوجتِه، وفي الوقت ذاتِه، لم أكنْ قادرةً على الوقوفِ جامدةً أمام كلماتِه الدافئة التي يخاطبُني بها: وأنتِ ستبقين المرأةَ الرّائعةَ والحكيمةَ كما أنتِ دائمًا.

فأجبتُه: ولكن يا عزيزي، الخوفُ شيءٌ مُريع، فلا تدَعْني أعيشُ في ظلالِه. الساعةُ الآن الواحدة مِن صباحِ يوم الأحد، وأنتَ وحدَك تقفُ بيني وبين الطّمأنينة التي لا أشعرُ بها إلا بين ذراعيْك، وأنا أشتعلُ وأتلاشى، ولا يمكنُ أن أعيشَ هكذا، هل عليّ أن أشجّعَك وأدفعَك لتأخذَ بيدك زمامَ أمرك. أيُّها الجنديّ المَحبوب، ضُمّني إليك إلى الأبد، وهذا ما يجبُ عليك عملُه، استرجِعْني إليك، من دُون القبولِ بأيّة أعذار نهائية، وإنّني مُستعدّةٌ للقيامِ بأيّ شيء، حتى بإمكاني إخفاءُ وهج تلك النار، والغيرةُ تقفُ في طريقِنا. سيقفُ النهار بالضّوء وسيمُدُّكَ الليلُ بالمجدِ، إذا ما ظننتَ أنَّ الحبَّ هو الإخلاصُ، فهذا مِن شأنِ تفكيرِك، مِن الجميلِ أن نحتفظَ بالإخلاصِّ مع الحب. والآن أصغِ إليّ، لن أكتبَ إليكَ ثانية هكذا، احتفظ بكلماتي في مكانٍ ما قربَ قلبِك لعلّها تجدُ طريقَها إليك مع تسرّبِ أمطارِ الشتاء إلى خَيمتك العسكريةِ في هذه الحربِ التي لا أرى نهايةً لها، وكأنّها حربٌ سُرمدية، لعنةُ الآلهة، وليستْ من حماقاتِ البشر، وإذا أحببتَني، اقبَلْني كما أنا، وإذا رغبتَ بي لساعةٍ واحدة فقط، فخُذني إليك لساعة، وأقبلُ بها، وسأقبلُ بها، لكنَّك يجبُ أن تتحمّلَ النتائج، وإذا متُّ، انتظرني ولن أخافَ العُبور إليك، إلى الدنيا الخالدة. أعرفُ أنَّ كلامي عن المُستقبلِ البعيدِ يخيفُك، لكنّني أتّفقُ معك، إذْ علينا السيرُ في دُروب الحياة الوَعرة، كما قلتَ في عبارتِك التي أعجبتْني، ذلك الجنونُ السماويُّ للآلهة والشُّعراء وليسَ لنا إلا أحلامُنا الجميلة، ولكن يا صديقي الحياةُ ليستْ أحلامًا فقط.

وكتبتُ له أيضًا:

عزيزي أمنحُك أعوامَ حياتي كلَّها هديةً خالصةً لك. املأ لي كأسي قبلَ أن يطفحَ بأحزاني. عندما تخبرُني أنّك تحبُّني وأنّك لا زلتَ تريدُني، يبدأ قلبي بالغناء، وبعد ذلك يبكي متطلّعًا بشغفٍ لأن يكونَ معكَ في كلّ مكان ترغبُ أن تتواجدَ فيه. لا تذهبْ إلى غاليبولي حتى لو كان في ذلك تعظيمٌ للإمبراطورية العزيزة. إذا ما ظننتَ أنَّه الإخلاصُ، فاحتفظْ به مع الحبّ. والآن أصغِ إليّ، لن أكتبَ لك ثانية كما اعتدت، احتفظْ بهذه الرسالة في مكان ما قربَ قلبك لعلّ الحقيقةَ تجدُ طريقَها إليك في أتون هذه الحرب التي لا أرى نهاية لها. أكرّرُ: الخوفُ شيءٌ رهيب، فلا تدعْني أعيشُ في ظلالِه في هذاالوقت. هل تريدَ أن تتهرّبَ منّي عبرَ كلماتك التي تقولُ فيها: لديّ يا مليكتي الغالية، بعضُ

الذكريات عن حبِّكِ وقبلاتِكِ وشجاعتِكِ. سأعيدُ لكِ بعضًا مِنْ هذه الرسائل، فهي قطراتٌ مِنْ دم ينزفُ به قلبي. عزيزتي لا تفعلي ما تكلّمتِ عنه، من المُفزع أن أفكّرَ به، وهذا ما دفعني للحديث عن زوجتي وتهديدها بالانتحار. لا تفعلي أيّ شيء لا يليقُ بروحِك المُتحفّزة والمُتحرّرة، وما على المرء إلاّ السّير على الطريق إلى آخره. عندما طلبتِ النُّزولَ إلى تلك السفينة، كانتْ فرحتي بها قد تضاءلتْ إلى النِّصف بسببِ ذلك الشيء الذي ذكرتِه، ولا أستطيعُ حتى تسميتَه أو الكلامَ عنه، فهل أستمرُّ بالتفكير به، ونحن نُبحُر تحتَ ظلالِ المَدافعِ في سفينةِ الفحمِ المتعفِّنة؟ لا أهميةَ للوقت، سيمرُّ وسوفَ نجتمعُ معًا ولا يليقُ بنا مطلقًا استعجالُ الأمر. هل كان ما أبقانا مُتفرقيَنْ في لندن هو نوعٌ من المعرفةِ الحاذقة لرُوحَيْنا؟ تساءلتُ بغرابة. رُبّما أشعرُ بالأسى والسعادة أثناءَ ذهابي الآن، لكنّني عمومًا أشعرُ بالابتهاج والرِّضا، فيما كانتْ المُخاطرةُ كبرى بالنسبة لكِ ـ مخاطرةٌ على جسدكِ وعلى طمأنينة روحكِ وكبريائِها.. عليّ الآن أن أتوقّفَ، أعلمُ أثناء كِتابتي إليكِ الآن، أنّكِ لن تفعلي شيئاً بنفسِك، عليكِ السلامُ لأنّه ليس لديكِ سوى السّلام والتفهّم.. وداعًا وسلامًا عليكِ. كما تَعرفين، فإنَّ واحدةً مِنها التي تتصلُ بالموعدِ النِّهائي، فقد قرأتُها يا عزيزتي والله يعلمُ أنّي لا أستطيعُ الكتابةَ عنها. وبخُصوص ما ذكرتِه عن المُستقبل البعيد والأماكن في أحلام امرأة. وعلينا المشي في دروب الحياة ومثلُ ذلك الجُنون السماوي فهو لآلهةٍ ولشُعراءَ في أحلامِنا الجميلة. لم أكنْ أثقُ كثيرًا في وُعوده بطلاقِ زوجتِه، لكنّني لم أنمْ تلك الليلة. يا إلهي! هل يمكنُ أن أبني سعادتي على أنقاضِ بيتٍ مُهدّم؟

إنّني في الثامنةِ والثلاثين، ويسعدُني، بعدَ أن طوى الموتُ هنري في مأواه الأخير، أن أبدأ حياتي ثانية، لكنّ ريتشارد، هذا البطلُ الذي حصلَ على الكثيرِ مِن الأوْسمةِ في حملةِ شرقِ أفريقيا، وازدادَ إعجابي به، على صلةِ قرابةٍ بالرحّالةِ والشّاعرِ ريتشارد مونتاغو داوتي، صاحبِ كتابِ "الصَّحراءُ العَربيّة"، رُبَّما يكونُ وهمًا جميلاً يعوِّضني عن هنري بصورة مُؤقتة، وهذا النوعُ مِن الحبّ يحطّمُ العاشقين، ولا أريدُ أن أخرجَ مِن هذا الحبِّ ذليلةً ومُحطمّةً في ظلّ رجلٍ هشٍّ هو الآخر، لا يجُرؤ على أن يُواجهَ زوجتَه بحبّي، ويريدُ أن يجمعَ حُبَّيْنا في قلبٍ واحد، فهل يمكنُ ذلك؟ أعلمُ أنّ جوديت مُتقلبةُ المزاجِ وطموحة، ولكنّها مُندفعةٌ، وعصبيةٌ، وامتلاكيةٌ. وهذا ما يزيدُ الطيّن بلَّة. ويجعلُ مِن حبِّنا مُستحيلاً. يا إلهي! لماذا أنجذبُ إلى هذا النوع من الرّجال؟

لعلّ أوّلَ ما جذبَني إليه هو كونُه مفتونًا بالشّرق مِثلي، ورُبَّما لهذا غادرَ إلى العملِ الدبلوماسي كقُنصلٍ عسكري في قونيَة، هذه البُقعة التي ارتبطتْ في ذهني باحتضانِ قبرِ جلالِ الدين الرومي، ودراويشِه، عندما نفاه السُّلطان التركي كاراداغ في الجبلِ المَعزول، وظلَّ يعبقُ برائحةِ كلماتِه الصوفيّة ولجوئِه إلى فتنة العِشق والحبِّ الكونيّ للذّات الإنسانية، يكفي أنّه رحلَ عن عالمِنا عاشقًا ربّانيًا، تاركًا وراءَه أمواجَه الروحانية وعشقَه الإلهى: هكذا أودُّ أن أموتَ في العِشق الذي أكنُّه لك كقِطَعِ سَحاب تذوبُ في ضوء الشّمس. كنتُ أرى ضوءَ الشّمس، أثناء خُروجي مِنْ منزلي، وصوتي يملأُه الحزنُ والألم، بينما كان ريتشارد على العكسِ منّي، يكنُّ احترامًا شديدًا للأتراك، وقد اصطحبَ زوجتَه في رحلةٍ الى بَغداد وبابِل والقسطنطينيّة، ولطالما كنتُ أرغبُ في مشاركتِهما تلك الرحلَةَ، حتى برفقَةِ زوجتِه، لكنّني قرَّرتُ العُدولَ عن هذه الفكرة بسبب مرضِ خادمي فُتوح الذي تطلّبَ إدخالَه الى المستشفى في الحال. وعندما ودّعتُهما، أحسَستُ أنّ ثمَّةَ شيئًا يبرقُ في عينيه، ويتسلّلُ الدفءُ الى أحاديثِه مِنْ جديد، فقلتُ في نفسي إنّه لا يزالُ يتعلّق بي. وعندما عادَ إلى لندن، وأقامَ في شقتِه

القديمة في شارع هاف مون كما اعتاد أن يفعلَ دائما حين لا يكونُ برفقةِ زوجتِه. لكنّنا لم نلتقِ سوى مرَّة أو مرتين على مدى خمسِ سنوات. وما زادَ حماستي في اللّقاء به كونُه الجندي المُثقّف، الذّكي، والمتذوّق للموسيقى، والنَهِم في القراءة والميّال إلى الرَّسم، حيث بدأنا نرتادُ مع بعض الأصدقاء العروضَ المَسرحية وحفلاتِ الموسيقى وزيارة المتاحفِ والمعارضِ والأمسِياتِ الأدبيّة. وسُعدتُ كثيرًا بحُضوره إحدى مُحاضراتي، وأشادَ بروحي السّاخرة. ولعلَّ زواجَه غيرَ السّعيد فتحَ لي بوّابة الدخولِ إلى حياتِه، وتذوُّقِ طعمِ الحبّ معه، مغامرةٌ عاطفيةٌ مَحفوفةٌ بالمخاطر. ولم أكتشفْ حبَّه إلا حين دعاني إلى أحدِ مطاعمِ منطقة ويست آند، فبادرَ إلى وضعِ يدِه على كتِفي، ودارتْ بينَنا حواراتٌ عميقة، وفي غَمرة سعادتي، نسيتُ وجودَ زوجتِه، إلا أنَّ سعادتي لم تدمْ طويلاً إذْ انتهتْ بوصولِها الى لندن، وسرعان ما انتصبتْ أمامي الغريمةُ تتنافسُ معي، لكنّني لم أستطعْ كرهَها، وتساءلتُ: هل يوجدُ مكانان في قلبِ ريتشارد؟ أصابَني الإحباطُ واليأس، فغادرتُ إلى يوركشاير وعكفتُ على تعلُّم أصولِ العَمارة وتنسيقِ الحدائقِ المنزليّة، وبدأتُ أُمضي معظمَ أوقاتي في الصّيد، منشغلةً في أيّ شيءٍ لحِين رؤيتِه مرّة أخرى دون أن تغيبَ عن بالي مطالبتُه بتركِ زوجتِه والاقترانِ بي، لكنّ والديّ أخذا يُعارضان ذلك مرَّة أخرى كما حصلَ مع هنري. وفي حالتي، كلَّما مرَّ الزمنُ، وتقدمتْ بي السن، أصبحتْ مُتطلّباتي أصعبَ، يداعبُ خيالي ذلك العاشقُ الأسطوري الذي ينبثقُ مِنْ بين الجبالِ والغابات وليسَ مِن الشّوارع والسّاحات. هل يُمكن أن يكونَ ريتشارد الرجلَ المناسبَ لي؟

في تلك الليلة التي لا أنساها، استقبلتُه في منزلِنا في راونتون لحفلِ عشاءٍ ساهرٍ، وفي آخرِها، أخذَ المدعوّون ينسحبون فُرادى وأزواجًا ويصعدون الى غُرف الضُّيوف، أمّا هو فقد ظلَّ جالسًا معي إلى جانبَ المدفأة المتألّقةِ بالجَمر، نتجاذبُ أطرافَ الحديثِ ونتبادلُ النّظراتِ كأنّنا في حلمٍ رومانسي، وخُيّلَ إليّ أنّني عثرتُ على الرَّجل الذي أحبُّه. لكنَّ مصيرَ الليلة المُقبلةِ كان غامضًا، فذهبتُ إلى النّوم، وبعد أن فردتُ شَعْري، متهيِّئةً للنّوم، تناهى إلى سمعي صوتُ طرقٍ خفيفٍ على الباب، وإذا بريتشارد يريدُ الدخولَ إلى غُرفتي، فسمحتُ له بذلك، وجلسنا قليلاً. وضعَ يديْه حولَ خصري كعاشقٍ ولهان، فأخذَ قلبي يخفقُ بقوة، ثم جلستُ على طرفِّ السرير، غيرَ مُرتاحة، وشرَعْنا نتبادلُ الأحاديثَ التي انخفضتْ الى درجة الهَمْسْ، وعبّرتُ عن سعادتي، لكنَّ الحزنَ سرعان ما داهمَني حين تذكرتُ زوجتَه جوديت، لكنَّه أصرَّ على ضّمي إلى صدرِه بحرارة واضّطجعنا على السرير. فقلتُ له بعد تردّدٍ: أنا عذراء. لكنّه استمرَّ في تقبيلي، وأبدى مشاعره الحميمة. وعندما اقتربَ منّي أكثرَ فأكثر، شعرتُ بالرُّعبِ وهمستُ في أذنه بكلمة: لا. فتوقفَ على الفور، وحاولَ أن يهدّئ مِنْ رَوعي ويوقِفَ انهمارَ دُموعي على خديّ، ثم فتحَ الباب وانصرف. عرفتُ في ما بعد أنه أمضى ذلك النهارَ قلقًا ومُرتبكًا وذهبَ تفكيرُه إلى جبهات القتال. يا إلهيّ! أيّ موقفٍ مُحرج لنا؟ هل استنفدَ الحبَّ مع زوجتِه المِلحاحة والمتطلِّبة؟ هل كان يبحثُ عن زوجةٍ ثانيةٍ أم عن عَشيقة؟ وهل يمكن أن يمتلك امرأتَيْن في آنٍ واحد؟ وهل وهل وهل..... كادتْ زوجتُه تشكُّ في تصرفاتِه عندما كنا نلتقي لولا اقتناعُها بأن ما يجمعُ بيننا هو الكتابُ لا أكثر ولا أقلّ، وهي الحيلةُ التي كان يمارسُها ريتشارد في المراوغةِ والخداعِ مع زوجتِه، ومعي أيضًا، فيما كنتُ أخاطبُه من بعيد: فكّر أيُّها الكولونيل، أيّهما تحبُّ زوجتَك أم عشيقتَك؟

كان حائرًا مثلي كأنّ القدرَ نصبَ لي شِباكَ الامتحانِ في عواطفي، ورُبّما كبحتُ غرائزي

بالقراءةِ والمُطالعة والسّفر. وعندما احتضنَني في آخر زيارة إلى لندن، لمستُ مُسدّسَه المَربوطَ إلى خاصرتِه بحِزام، وتخيّلتُه يفكّرُ بي بكل بسالةٍ حتى على جبهاتِ القتال. ولطالما انبهرتُ بالرِّجالِ الشّجعانِ الذين يدافعون عن أوطانِهم، فنحن نعيشُ في قَرن مكسورٍ، منهوكٍ، ومليءٍ بالحُروب، ولا ندري كيف نخرجُ مِن أتونِها. هل ترسمُ لنا هذه الحربُ العودةَ إلى البربريّة البدائيّة؟

المحيطون بنا يحاولون أن يُديروا ظهورَهم إلى المستقبل رُبّما لأنّه كائنٌ غيرُ مَرئي، بينما يعودون إلى الماضي لأنّه مِن السّهلِ أن نرى ما حدثَ فيه. هكذا تمزقتْ أرواحُنا بين الماضي والمُستقبل، بين نورٍ رأيناه وظلامٍ لا يبشّرُ بالخير. يبقى التاريخُ عصيًّا على الفهم عندَ البشرِ لأنّهم لا يرون ما يصنعونَه، ولا يرون نتائجَه إلا بعدَ مُرور عقودٍ من الزمن. لم تكنْ الحربُ تخلو مِن المُفاجآت، ولا الحبُّ يخلو مِن الطّمأنينة. هل يفكّرُ بي الآنَ في الجبهة وهو ينظرُ إلى القمرِ كأيّ عاشقٍ إنجليزي؟ هل كان يفكّرُ بي أم بزوجتِه، يا تُرى؟ هل يجعلُه الحبُّ قريبًا مِن الموتِ أم مِن الحياة؟ كيف يمكنُ لضابطٍ مغوارٍ مثله أن يَهاب امرأة أو يتراجعَ أمامَها؟ ألم يكن الأجدرُ به أن يُصارحَ زوجتَه بحبّه لي؟ ألا يخشى أن ننعتَه أنا أو زوجتُه بالجُبنْ؟ أسئلةٌ عذّبتني. عدتُ إلى تلك الليلة التي حاولَ فيها أن يُقيم علاقةً معي، ومَلامسةَ جسدي العُذري، المُرتعشِ، الخائفِ، تاركًا بصماتِه: هل كان عليّ أن أخوضَ تلكَ التجربَة معه؟ وماذا كان يقصدُ حين قالَ لي: أنتِ لستِ جسدًا بقدر ما أنتِ عقلٌ. هل إنّني لستُ أنثى بل مجردُ فأرة بنظارات طبيّة سميكة؟ وكيف يمكنُ لضابطٍ أن يتزوَّجَ مِن مُثقفةٍ لا همّ لها سوى القراءةِ والكتابةِ والسّفرِ والتّنقيباتِ الأثريّة والاهتمامِ بالتاريخ والسّياسة؟

في اليوم التالي، لم أتمكّنْ مِن الحديثِ إليه قبلَ مُغادرتِه، فعثرتُ على رسالة شكرٍ تركَها لي في قاعةِ الاستقبال، فالتقطتُها، مسرعةً الى غرفتي لأقرأها على انفراد: عزيزتي غيرترود: أشعرُ بسعادةٍ غامرةٍ أن دعوتِني الى راونتون حيثُ استمتعتُ بالمكانِ والناسِ والحديقةِ والغاباتِ وكلِّ شيء، إنّنا جميعًا نعيشُ في حالة من الوحدة، وأشعرُ بحاجةٍ لكتابةِ شيءٍ لك يبرهنُ على أنّني فخورٌ بأن أكونَ صديقًا لكِ، وأرغبُ في رُؤيتك لأطوَلِ وقتٍ مُمكن.. حظًا سعيدًا.

المُخلصُ لك دائمًا. ريتشارد.

قرأتُ الرسالة مراتٍ ومرات، وأخذتُ أعصرُ كلماتِها حتى آخر معنى ممكن فيها، شعرتُ بالإهانةِ لبرودتِها، وحاولتُ التركيزَ على جملتِه اللّافتة: إنّنا جميعًا نعيشُ في حالةٍ من الوحدة. لا بدّ أنّ تلك الكلمات تعكسُ عدمَ رضاه عن زواجِه، لكنّ هذا ليس بالأمرِ الجديد. عندما عاد الى لندن، بعثتُ له مجموعةً مِن الرَّسائل، ورُبّما هذا ما أثار الغرورَ في نفسه، ولم يكن كما يبدو، راغبًا في خسارة صداقتي، لكنّ ردودَه لم تُفصحْ عن أيّ التزامٍ واضح، ثم جاءتْني الصدمةُ في رسالةٍ ثانية من ألبانيا. رُبّما كتبَ لي من منطلقِ الشّفقةِ والعطْف. وهذا ما كنتُ أكرهُه. كنتُ أقرأُ رسائلَه الواحدة تلو الأخرى حتى أحفظَها عن ظهرِ قلب. ورُبّما استغلَّ تعبيري عن بُؤسي، ليُبادرَ إلى تهدئَتي بكلماتِ الغزلِ والحبِّ، ورُبّما ارتكبتُ خطأً بإظهار عواطفي تجاهَه في وقتٍ مُبكر، وألحَحْتُ عليه بالانفصالِ عن زوجتِه. وفي هذا الاضطراب، كتبَ لي أنّه سيقومُ بحرقِ رسائلي، قائلاً بكل بُرود وقَسوة: لأنّ الفردَ قد يموتُ في أيّة لحظة، أعتبرُ أنّ هذه الرسائلَ تخصُّني وحدي..

وحينَها أدركتُ أن علاقتنَا تنتظرُ رصاصةَ الرحمة. ثم جاءتني رسالةٌ أخرى، وهي القشّةُ التي قصَمتْ ظهر البَعير، كما يقولُ المثلُ العربي: إنَّه لن يتمكَّنَ مِن الكتابةِ إليّ بعد اليوم وسيتذكّرُ الأوقات الجميلةَ التي قضيناها معًا، وسيكون صديقًا دائمًا لي. هكذا تبخّرَ أملي الأخيرُ بالسعادة، حين قفلَ هو وزوجتُه ذاهبَيْن الى ألبانيا عندما أُسنِدَ له منصب جديد، حينها بدأتُ أتقبّلُ فكرة التّخلي عن هذه العلاقة. ثم اتصلتُ به مباشرة، وظهرَ لي أنّ متعةَ تلك العلاقة أوشكتْ على النهاية، ولم يعدْ يهمُّني أن أحيا أو أموتَ، أن أحبَّ أو أكرهَ. وعندما شّد الرحيلَ مع قوة غاليبولي في البحر الأبيض المتوسط، كتبتُ له أيضًا: لا أستطيعُ النوم، الساعة الآن الواحدة مِن صباح الأحد، حاولتُ النومَ واستعصى عليّ ليلةً بعد أخرى، وتقفُ أنتَ، وأنتَ وحدك بيني وبين الراحة، ولكن لن أشتعلَ وأتلاشى، ليس بإمكاني أن أعيشَ هكذا وعندما انتهى الأمر، أنا التي يجبُ أن أبثَّ فيك روحَ الشجاعة. حزنتُ وأنا أقرأ: لديّ يا مليكتي الغالية، بعضُ الذكرياتِ عنكِ وعن حبِّكِ الرائِع وقبلاتِك، وشجاعتِكِ، وعن رسائلِكِ التي كتبتِها لي من قلبك وعقلك، لكنّني مضطرٌ لإعادة بعضِها إليك، والتي تمثّلُ لي نقاطًا من الدم. عزيزتي: لا تفعلي ما تكلمتِ عنه، مِن المُفزِع أن أفكرَ به، وهذا ما دعاني إلى الحديثِ لك عن زوجتي، تهديدُها بالانتحار ـ لا تفعلي أيّ شيءٍ لا يليقُ بروحِكِ المتحفزّة، المتحرّرة، والشجاعة.

أكليلٌ مِن الزُّهور على قبرِ ريتشارد

بقيتُ بين ناريْن وعذابيْن، بين الكآبةِ واليأس، يأبى ضميري أن ينصاعَ لنداء العقل، وأشرفتُ على اليأس تمامًا بعد استلامِ ريتشارد أوامر الالتحاقِ بالوحدات المُقاتلة في غاليبولي، جناحَ قلعة الدردنيل، لذا حرصتُ أن أُمضي معه بضعةَ أيام قبلَ سفرِه كما لو أنّني أودِّعُه إلى ساحاتِ القتال التي كتبَ لي مِنها: حزمتُ الليلة كافّةَ رسائلك، يا عزيزتي وعَنْونْتُها إليك. أما عن أخباري، فسأنتقلُ غدًا، إذا ما تحسّنَ الجوّ إلى سفينة وُقود الفحم الحجري "الهالكة" والتي ندعوها سفينة طروادة التي ستنقلُنا من الشّاطئ كيفما اتفقَ مع الخطّة الذكية التي وضعناها.. وإذا ما استطعتُ الوصولَ إلى الشاطئ، فسوف أستطيعُ المشاركةَ في تخطّي صعوبةَ نقل الجُنود الذين سيهاجمون التحصينات، وينزلون على الشاطئ وسوف أتمكّنُ مِن رؤية أهمِّ حدثٍ عسكري تمّ الإعدادُ له والقيامُ به منذ زمن طويل. اخترقتْ كلماتُ رسالتِه كالنّصل صدري، وهي تُنبئُ بمصيرٍ محتوم كما يبدو، مؤكّدًا لي أن أتقبّلَ ذلك برحابة صدرٍ وأن لا أفكّرَ بأيّة حماقةٍ مِن بعده، تجعلُه أكثرَ حزنًا واضطرابًا، وهو بعيدٌ عنّي ولا يستطيعُ أن يفعلَ شيئًا مِن أجلي. خاطبَ عقلي في رسالته، بينما كان قلبي ينتظرُ الكثيرَ مِن كلماتِه، لكنّه كان بخيلاً بها، ويتحدّثُ معي بلُغة اليائسِ والعاجزِ لا بلُغةِ الضابطِ المِغوارِ الباسلِ ولا العاشق الولهان. وهذا ما أحزنَني وجعلَني في عزلة تامة. فلم أتحمّلْ الإقامةَ في لندن، ولم أذُقْ طعمًا للرّاحة أو النّوم أو السعادة. تضاعفتْ تعاسَتي بوُجود أخي موريس في جبهة فرنسا، وريتشارد في جبهة الدردنيل. كنتُ في حفلِ عشاءٍ مع أصدقائي عندما استلمتُ البرقيّة التي تقولُ سطورُها الأولى: عندما قادَ الكولونيل ريتشارد داوتي ويلي جنودَه في الفيلق 29 من حُطام السفينة "ريفر كلايدر"، قافزًا على ظُهور الجنُود القتلى الذين ماتوا أثناء النّزول على الشاطئ وهجومِهم الأخير على التلّة التركية رقم 141 تحت وابل نيران المدفعية، أصابتْه رصاصةٌ في رأسِه أثناءَ لحظة الانتصار، وجنودُه يهتفون باسمِه وسطَ فرارِ الأتراكِ مِن ساحة الحرب. في عصرِ ذلك اليوم، سقطَ جسدُه على الشّاطئ.....

سقطتْ ورقةُ البرقيّة مِن يدي، ولم أستطعْ إكمالَ قراءتِها، لا أريدُ ذلك. لا أعرفُ تمامًا ما الذي فعلتُه في الدقيقة الأولى لسَماعي هذا الخبر، لكنّني لمحتُ في طرفِ البرقيّة أنّه..... دُفنَ هناك. نعم. وقام الكولونيل وليامز بتلاوةِ الصّلاة على قبرِه وودَّعَه رسميًا.

بعد لحظاتٍ بدا لي أنَّ شيئًا ما قد تمزّقَ حول قلبي، وكنتُ عاجزةً عن التقاطِ خيوطِ حياتي ولمْلمةِ أجزائِها المُتبعثرة، صدمةٌ مرعبةٌ، إنّني أرملةٌ وحيدةٌ لجُندي شجاعٍ عانقَ مصيرَه، مُخضّبًا بالدّماء بزّتَه العسكريّةَ الأنيقة، ونياشينَه المُتوّجة بالنُّجوم والتيجان والسّيوف وشاراتِ النّصر، القَدَرُ رصاصةٌ تائهةٌ لا تُساوي شِلنات، توقَّفَ دماغُه عن التفكير بي، رصاصةٌ بلهاءُ وضعتْ نقطةَ النّهاية لحياتنا، وأطلقتْ طقوسَ الجنازةِ والحُزن، وجعلتْ جنودَه الذين رافقوه في معارْكه يذرفون الدّموع، ويبكون كالنّساء. هكذا نَسَجَ لي القدرُ اختياراتِه، دون أن أسألَ لماذا؟

استبدّتْ بي رغبةٌ عارمةٌ في زيارةِ قبرِه، حتى لو كان ذلك مثلَ اجتيازِ درجاتِ الجَحيم، فاستقلّيتُ الطّائرة، واتجهتُ إلى مقبرةِ غاليبولي. ذلك القبرُ كان ينقصُه إكليلُ زُهوري لكي يبدو في أبهى صورة. وضعتُه على قبرِه بيدٍ مُرتعشة، وأنا أشُمُّ آخرَ عبقٍ لتلك الزهورِ التي ظلّت تُذكّرُني برائحة الموت. لقاؤنا في الحياة الأخرى، في براري الجنَّة، ويا ليتني كنتُ مؤمنةً لكنتُ أوّلَ المُبتهجين بهذا الوهمِ الجميلِ: أن نعيشَ حبَّنا ثانيةً بعيدًا عن زوجتِه في الجنّة. هل يتقبّلُ عقلي الوهمَ الذي ملأ القلوبَ، واستلبَ إرادتَها؟ وكان عزائي الوحيدُ أنّني أحببتُ أشجعَ جنودِ بريطانيا على الإطلاق.

كأنّني امرأةُ القَدَرْ

لا أتخيّلُ أنّ الرّجليْن اللذيْن أحبَبْتهما، وُجِدا على الأرضِ ذاتَ يوم، وهما مِن لحمٍ ودَم، فارسان امتطيا فرسَيْهما ورَحلا إلى غيرِ رجعة، قاطِعَيْن أمواجَ روحي عبر السّهول والوِديان والجِبال والبِحار، لم يُفلحا في حبّي ولم أُفلحْ في نِسيانِهما، وظلَّ دويُّ صوتِهما يرنُّ في أذني مثل أنغامٍ مفقودة، وأنا لا عملَ لي سوى تأمُّلِ جِراحي التي لا يراها أحدٌ سواي، جراحٌ تشبهُ شرخًا عميقًا وعجزًا خانقًا. لم أعترضْ على أقدارِ الزمن، ولم أغضبْ مِنها، ولم ألعنْها، هكذا هو القدرُ أعمى كما يقولون، لكنّنا نمتلكُ العُيون لكي نراه واضحًا أمامنا. مَنْ يتمكّن مِن النّجاة مِن هذا القدر؟ حتى الآلهةُ عجزتْ عن ذلك.

وظهرَ لي أنّ قدري هو طعمُ الشّرق وروحانيتُه، بدّدَ حياتي الروتينيّة، المُملّة والمُضجرة وسطَ الصّخب والبراكين والحكايات، غربٌ يتفاخرُ بانتصاراتِه، وشرقٌ ينزوي مع اخفاقاتِه. تجمّدَ قلبُ هنري في بُحيرة "لار". وأُصيبَ ريتشارد برصَاصةٍ في قلبِه في معركة غاليبولي. مِن هنا بدأتْ مفارقةُ حياتي، أن أموتَ مرَّتيْن، مرّة في الثلج ومرّة في النار، أيّ عذابٍ هذا وأيّ مصير؟ قدَران جبّاران صاغا حياتي مثلما يصوغُ الفرنُ رغيفَ الخبز. وكلّما استيقظتُ مِن النّوم، ارتعدَ جَسدي مِن البردِ والصّقيع، ولا يسعفُني دفءُ الموقدِ ولا نيرانُه المُلتهبة، أستحضرُ الثلجَ والنارَ في خيالي، أنظرُ إلى آلام قلبي، وأصفّفُ ما تبقّى مِن شَعري أمام المرآة، وأنظرُ إلى ذُبولِ جسدي وانهيارِه، أودّعُ بصمات هنري وأنفاس ريتشارد إلى الأبد. أحاولُ أن أجدَ لي عملاً بطوليًا في ذلك الألق المُضئ في قلبي: الغربُ ملاذي، والشرقُ مهدي، وما بينهما تتماوجُ تعاويذُه وخيالاتُه وأساطيرُه. بعد أشهرٍ مِن رحيلِ ريتشارد، طلبَ منّي الكابتن هول، مديرُ الاستخباراتِ البحرية الحضورَ إلى القاهرة، وتنظيمَ القبائِل العربية، قلتُ في نفسي رُبما تلك فرصتي في تأليفِ كتابٍ عنهم، لكنّ المنصبَ الذي كان ينتظرُني ضابطةٌ في الاستخباراتِ أي ميجور في الجيش. يا لسُخرية الزمن. وجدتُ نفسي وجهًا إلى وجه مع حلمِ الإمبراطورية، فزالتْ الحدودُ بيني وبينها، وأصبحنا في بوتقةٍ واحدة. قالوا لي إنّ الإمبراطَورية بحاجةٍ إلي، فصدّقت كلامَهم. كنتُ امرأةَ القدرِ التي تشهدُ على تاريخٍ يتشّكل أمامَها على رمالِ الصَّحراء العربية. ما عساي أن أفعلَ يا إلهي!؟ هل أتخلّفُ عن التاريخ وأنَا الذي درستُ تفاصيلَه على مقاعدِ أكسفورد بكلِّ إغراءاتِه؟ كان علي الإمساكُ بلجامِ صهوةِ جوادي، والانطلاقُ به في براري التاريخ ومَجاهله المُخيفة، فلم أجدْ سوى انفعالاتِ القادةِ الذين ينفخون في هذه القربَة، التي اسمُها التاريخ، فتكبر حتى تنفجر في وجوههم.

4

---

11 أكتوبر 1920

ساندريلا بلاطِ المَندوبِ السَّامي

يا إلهي! لماذا يقفُ هوغارتْ ولورنسْ في طريقي؟ لا أدري. ما الذي فعلتُه لهما؟ كانا يغاران منّي، وقد تنبَّهَ السّير بيرسي كوكسْ إلى ذلك، لكنّه فضّلَ الصّمت. كان يعرفُ أنّني مُنقِّبةُ آثار لكنّني لم أكن أدُسُّ أنفي في السياسة كما يقولُ الصّديقان اللّدودان. ماذا تتخيّلُ نفسَها، أهي ساندريلا تتنزَّهُ في بلاطِ المَندوب السّامي أم الأمُّ التي تبرقُ بنظراتِها القاسية ليَفهمَ الأبناءُ ماذا تريد؟ والألْسُن الخبيثةُ تردّد: كادَ النسيانُ يطويها بين جدران منزلِها الفِكتوري لولا منصبُها هذا. يُخشى أن تصبحَ زعيمة روحيةً للعِراقيّين، وهي مُجرّدُ سكرتيرة شرقية للمَندوب السّامي. كنتُ أسمعُ تلك العباراتِ دُون أن تُؤثّرَ في عملي. رُبَّما انتقالي مِن فُندق تايغرس بالاس إلى القَشلة، مقرّ الحُكم البريطاني، هو ما أشعلَ النار في تلك الحكايات، بل وأكثرُ من ذلك، كان القصدُ منها بثَّ الرّعبِ والخوفِ في نُفوس المُوظفين والقَادة وكِبار الضبّاط أن يروني أدخلُ على المَندوب السّامي مِنْ دُون أن أدقَّ الباب، وهم لا يتجرّؤون على ذلك بل يطلبون منّي موعدًا لزيارتِه. أقوالٌ وحكاياتٌ تتناهى إلى أُذني: جعلتْ هذه المرأةُ المُتسلِّطة مِن المَّندوب السامي كالببّغاء الذي يردِّدُ تقاريرَها حرفيًا، وفي الواقع هي التي تصوغُ القراراتِ على الورق في اللّيل، لينفِّذَها المَندوبُ السّامي في الصباح.

ويضيفُ آخرون بخُبثٍ ومُكر: إنّها عقلُ المَندوب السّامي وروحُه. بل وذهبَ الخيالُ المريضُ للبَعض إلى أنّني أُمضي بعضَ اللّيالي بين ذراعيْه. كان الجميعُ يخافُ أن أقتربَ شيئًا فشيئًا إلى قُلوب العِراقيّين، لكنّني فخورةٌ أن أكون بينَهم وأشُمَّ عبقَ أرضِهم، هؤلاء البشرُ المثقلةُ أرواحُهم بأمجادِ الأسلاف، وهم يُلقون بظلالِهم على وُجودٍ ما الآن، كنتُ أرغبُ في أن يبتَسموا لكي يزُيلوا الكآبة عن وُجوهم، فهم يستحقّون حياةً أفضل، ولا بدَّ للتاريخ أن يبتسمَ لهم ذاتَ يومٍ بعدَ أن كشّرَ عن أنيابِه قرونًا في وُجوهِهم، لأنّهم رفضوا إهانةَ الأتراكِ لهم، التي شتّتَتْ قبائلَهم وعشائرَهم، لكنّهم قادرون على استعادةِ حضارتِهم لو شاؤوا وفَتحوا عيونَهم. ونحن لم ننتصرْ بسيفِ الإمبراطويَّة بل بشُعلةِ الإيمان، وكلُّنا ذاهبٌ في طريقِ تَحقيقِ الهدفِ الأعمى للإمبراطوريَّة التي لا يغيبُ عنها نورُ الشّمس، يحملُ ضبّاطُنا المُتبجِحون بالانتصار صَولَجاناتِهم، ويتطلَّعون بكِبرياء إلى التاجِ البريطاني، وهم لا يرون تلك الجذوةَ التي أراها في عُيونِ الفُرسانِ العِراقيّين، وتساءلتُ في سرّي: هل نحن أسرى الجُغرافيا أمْ مرضى التاريخ؟ لا تزالُ القُرونُ الوسطى تعيشُ في أرواحِنا، نحن البريطانيّين، رغم أنّنا نحملُ شُعلةَ الثورةِ الصّناعيّة ونُهملُ أنّ في التاريخ حَماقاتٍ أكثرُ مِن الحِكَمْ، وكلُّ هذا التاريخ لم يكنْ بحاجةٍ سوى إلى رصاصةِ الرَّحمة مِنْ أجلِ القضاءِ على الإمبراطوريّة العُثمانيّة.

كنتُ أخشى أن يتكرَّرَ التاريخُ لأنَّ الرُّعبَ لا يأتي إلّا مِن أعماقِه. لكنَّ ما يُحزنُني أنَّ البعضَ لا يزالُ ينظرُ إليَّ كامرأةٍ مُتسلِّطةٍ لا أنتَمي إلى التقاليدِ الإنجليزيّة العَظيمة، هكذا آمَنوا بأنَّ الحُكم حكرٌ على الرّجال، ولم يخطرْ على بالِهم أنَّ الآلهةَ يمكنُ أن تكونَ أُنثى! بالنّسبةِ لهم إمّا أن

تكونَ المرأةُ أيقونةً أو عاهرة، يحلمون بالفاحِشةِ كلَّ يوم، وبالدُّمى الجِنسيّة، والغَطرسةِ العاطفيّة. لا زالوا يفكّرون بإسقاطي مِن القَشلة، والاستيلاء على سُلطتي. في زاوية مِن مَكتبي، فكَّرتُ طويلاً بهذا الشّعبِ الذي تركَه لنا الأتراكُ نهبًا لخُرافاتِهم وشَعوذاتِهم. كان الناسُ يتجمْهرون حولَ سيّارةٍ تَمشي على عَجلات، وينظُرون إلى ما تحتَها، ويتساءَلون: هل هي ذكرٌ أم أنثى؟ وآخرون يركِلون التِّليفون ويصرخون إنَّ الشّيطان يكلِّمُهم. ومرضُ الكُوليرا، لقاحُه مُتوفّرٌ في كلّ مكان إلّا هنا، يحصدُ آلافَ الأرواحِ حصدًا، ولا يمتلكُ العِراقيّون سوى أن يتفنَّنوا في إطلاقِ مُختلفِ التّسمياتِ عليه: الزّوعة والتقيُّؤ والطّاعون والهيضَة وغيرُها.

الربُّ أُنثى يا أبي

يمزجُ الفقراءُ المَساكينُ هنا الفضائلَ الإلهيةَ بأرغفَةِ الخُبز اليابسةِ، ويحلمون بالجنّة، والعَسلِ والخمرِ والحَريم. هل ترى أفكاري، يا أبي؟ إنّها عرضةٌ للرُّياح، تصوغها مثلَ الكُثبان الرّملية.

ابنتي العزيزة، إنّني فخورٌ بكِ لأنّكِ تفكّرين بهؤلاءِ المَساكينِ الذين يعقدون آمالاً كبيرةً علينا في طاحونةِ الحرب.

أبي العزيز، ما زالتْ صورةُ ذلك الجُندي العَربي راسخةً في ذِهني، وقد نهضَ ليسألَني مِنْ بين الجَرحى: هل تتقدّمُ ثورةُ الشّريف حسين، يا مِسْ بيل؟

رأيتُ في عينيْه حزنًا لا يمكنُ قياسُ حجمِه بأيّ قِياس، وأجبتُه على الفور: أجل سوفَ ينتصرُ وتتغيّرُ أحوالُكم.

لم يكنْ الانتصارُ سهلاً، يا أبي، كانوا يُؤمنون بنا، ونحن لا نريدُ أن نخيّبَ آمالَهم في إمبراطوريّتِنا العَتيدة.

هل استلمتِ صندوقَ الملابسِ التي أرسلتُها لك عن طريقِ شركةِ تي. كوك وأولاده؟

أجل. يا أبَتي، لكنّ الصُّندوقَ كان خاليًا مِن الفُستان الأسود، بينما القُبّعةُ والرّداءُ موجودان، حمدًا لله. الحرارةُ هنا مُرتفعة. وللتغلُّبِ على حَرِّ الصَّيف، سأصعدُ إلى السَّطح لأنامَ وسطَ الكُلّةِ الشفافّة كما يفعلُ العراقيون. وفي الصّباحِ عليَّ الذهابُ إلى العملِ بين القبائلِ حولَ الفرات. أبي العزيز، لا بدّ لي أن أقولَ لكَ، إنَّ الخطأَ الذي اقترَفناه في حقِّ هؤلاء أنّنا اعتبرنا الجُموعَ البشريّة مُجرّدَ بدوٍ رُحَّل، وكائناتٍ لا تفقهُ شيئًا، لكنّهم أكثرُ مَهارةً وذكاءً واندماجًا مع الطَّبيعة منا، فَمَن العباقرةُ نحن أم هُمْ، يا تُرى؟ نساؤهم البدويّاتُ يَحُكنَ ملابسَ مُلوّنةً مِن صوفِ الماعزِ والخِيامَ مِن وبرِ الجِمال، بأناملَ ماهرةٍ لا يرقى إليها عمّالُنا الصّناعيُّون. ولا تزالُ طوابيرُ القبائلِ والعشائرِ تتدفَّقُ إلى مَنزلي، راغبين في البَوح لي عن اقتراحاتٍ، آراءَ، أفكارٍ، وأشياءَ أخرى. إنّني أقرأُ افكارَهم مِن حركةِ شفاهِهم، ونظراتِ عُيونِهم ومَلامحِ وُجوهِهم.

السّير بيرسي كوكسْ سعيدٌ بعملي، أرى في عينيْه تلكَ الإرستقراطيَّة الأبَويّة، بكلِّ سطوتِها وكرمِها. نحن الإنجليز، نخطئُ في تقديرِ الآخرين لأنّنا أسرى القوالبِ الجاهزة في رُؤوسِنا، وبحَاجةٍ إلى أن نغوصَ أكثرَ في أعماقِنا قبلَ أن نغوصَ في أعماقِ الآخرين، وبذرةُ الحَضارةِ الماديّة التي زرعناها، أخذتْ تصيبُ أشجارَنا الخضراء بالذُبولِ والاصْفرار.

وعندما اختليتُ بنَفسي، بدأتُ أفكُّر في غُرفتي المُظلمة بإيجادِ إيقاعٍ لنِظامٍ سياسِي يتلاءَمُ مع

العِراقيّين، ولا خيارَ لنا مِن دُون النّظام المَلكي الذي يُضفي البَهاءَ والكَمالَ على هذه الأرض الحبلى بالمُفاجآت. كثيرون سيُعارضون مشروعي، ويُخالفونني الرّأي، وخاصّةً مِن العسكرِ الذين يُحيطون بي، ويَسعون إلى خرقِ رَغباتي لكنَّ الذّاكرة تَرعاني ولا تَّتخلى عنّي، طريقٌ وعرةٌ أمامي، وأنا أتساءَلُ في عُزلتي: ماذا لو كان الربّ أُنثى؟

جسدُ المرأةِ أيقونةً يعبدُها الرّجالُ، لا عن طريقِ الشّهواتِ والغرائزِ بل عن طريقِ الإيمان بالخُصوبةِ، كوَرعٍ داخلي عميقٍ في أرضٍ تَزدهرُ بالآلهةِ الأنثى التي تسيرُ على الأرضِ بأقدامٍ حريريّة، هي وحدَها التي تبعثُ الحياةَ في أمّةٍ ميّتةٍ، ما زلتُ أنبهرُ في قراءةِ تُراثِ هذا البلد لكنّ العُثمانيّين استبدَلوا الفلسفةَ بالشّعوذاتِ والخُرافاتِ، وداسُوا أساطيرَ هذا الشّعبِ الخالدِ ببَساطيرِ جُيوشِهم الإنكشاريَّة، ولا تزالُ بقيّتُهم تُردّدُ: انظروا إلى المرأة السّافرة التي تقطعُ أزقَّةَ بَغدادَ بأنَفَة وتكبُّر، وهي الوحيدةُ التي لا ترتدي عباءةَ العِراقيّات، وظّفَها المَندوبُ السّامي لتحلَّ شيفرةَ العِراقيّين وألغازَهم.

يا إلهي! إنّهم يُريدون أن يَصنعوا منّي امرأةً حديديةً، قاسيةً وماكرة. لكنّني لستُ كذلك. شجّعني أبي: أنتِ محظوظةٌ يا ابنتي، أن تتواجدي في بلاد الرافدَيْن.

أجل. محظوظةٌ أن أُصغي لما يَرويه لي أهالي بَغدادَ مِن عَجائبَ وخُرافاتٍ وأساطيرَ، هؤلاء البَغداديُّون مَهووسون بتَقديمِ القَرابين إلى آلهتِهم ولا يَتردَّدون في أن يُقدّموا لها أبناءَهم عندَ الضّرورة. ولا يتصرَّفون إلا بأوامرَ مِن أوليائِهم الصّالحين. صاغوا الأفكارَ والمُعتقداتِ عبرَ التاريخ، وهم يَصنعون الخمرَ في بُيوتِهم، ويَقرؤون آياتٍ وثنيةً مَنحوتةً على قَواريرِهم، ويُباركون مَشروبَّهم السماوي. رياحُ دجلةَ تفتحُ الشهيّةَ ليسَ للطَّعام اللّذيذِ بل للأحاديثِ والحَكي والسّهر. يضربُ حارسي يدًا بيَد، مُعبّرًا عن حزنِه لمَوتِ بعضِ الأشجارِ والزُّهور في حديقةِ منزلي، هذا الذّكي لا يستطيعُ العيشَ بدُوني، كأنّه حارسُ دِير، ينتبهُ إلى دُخولي البيتَ مِن حَفيف ثوبي، ومِن ملامحِ وجهِه أستخرجُ الإجاباتِ على أسئلتي. يذكّرُني على الدّوام بأنّ مِن أهمِّ مَهامِّه أن يدفعَني لتَنظيمِ إيقاعِ الإمبراطوريّة مِن أجلِ أن لا يَتقهقرَ الشّرق. العِراقيُّون ليسوا بمَلائكةٍ ولا شَياطينَ، بل هم بشرٌ مرّوا في قُرنِ التاريخ الذي صاغَهم مثلَ كائناتٍ غريبةٍ تطرحُ الأسئلةَ أكثرَ مِمّا تجيبُ عليها. وداعًا أبي العزيز، في خِتام رسالتي: لا تنسَ أن الربَّ يمكنُ أن يكونَ أُنثى.

المَلكيّة على صَفيحٍ ساخن

كنتُ مع العملاقَيْن السّير بيرسي كوكسْ والمِستر جون فيلبي، مِفتاحيْ الشّرق المليءِ بالألغازِ والأسرارِ، نشكّلُ جوقةً واحدةً، كلٌّ منّا يعزفُ نوتَتَه على آلتِه، فيما ترقصُ بغدادُ على إيقاعاتٍ أخرى نجهلُها لكنَّ مستر جون فيلبي عبثَ بخُططِنا عندَما شقَّ عصا الطّاعة، مُطالبًا بإقامةِ جُمهورية.

يا للهَول! لم نكنْ نتوقَّعُ ذلك لا أنا ولا السّير بيرسي كوكسْ.

ووضعَ أمامَنا على الخريطةِ طالب باشا النقيب ليكونَ تحدّيًا في مُواجهةِ خيارِنا: الأميرُ فَيصل الأول.

يا إلهي! لم أذُقْ النَّوم في تلكَ اللّيلة، أحدُ عناصرِنا يهدِّدُنا فكيفَ بالأعداء؟

ماذا نفعلُ بالأميرِ فَيصل الذي وعدناه بالحُكم؟

قلتُ للمَندوبِ السّامي:

لو انتصرتْ فكرةُ جون فيلبي يتغيّرُ مصيرُ الإمبراطوريّة.

هل تعتقدين أنّ فُلولَ العُثمانيّين تتمكّنُ مِن ليّ عُنقِ الثّوار العَرب؟

الأتراكُ، يا سعادةَ المَندوبِ السّامي، ماكرون وخُبثاءُ، ويمكنُ أن تتوقَّعَ كلَّ شيءٍ منهم. وأخطرُ ما في العُثمانيّين أنّهم يروِّجون بأنّهم مُسلمون ونحن كُفّار، وأكثرُ مِن ذلك أنّهم يلعبون على جُذورِ عائلتِك اليَهوديّة للإساءَةِ إلى سُمعتك.

أفهمُ ذلك، ولكنْ هل تعتقدين أنّ العربَ يمكنُ أن يتحوّلوا مِن ضَحايا إلى جلّادين؟

لا خيارَ لنا سوى تأليفِ حُكومةٍ عِراقيّة، سُلطتُها بيدِ المُستشارين الإنجليز.

ضحكَ السّير بيرسي كوكسْ:

أنتِ امرأةٌ ناعمةٌ لكنّ عزيمتَك مثلُ عزيمةِ الفيَلة.

آمنتُ أنْ لا فائدةَ مِن أن نتصارعَ فوقَ جُثّة العِراق مثلَ نُسورٍ وغُربان. لقد قاتلَ العِراقيُّون الإمبراطويّةَ العُثمانيَّةَ بالأمسِ، والآن يفكّرون بمُحاربتِنا. وهذا الرّجلُ يقودُ الحَملةَ ضدَّ المَلكية، وهو ليس بائعَ لُعبِ أطفال كما كان يدّعي، ولطالَما سحَرَنا بطرائِفِه في استخدامِ القرودِ الحَبشيّة كحُرّاسٍ له، مُدّعيًا أنّه لا يثقُ بالبشر. وبين عَشيّةٍ وضُحاها، انخرطَ في الإسلامِ وغيّرَ اسمَه إلى الحاجْ عبدَ الله

فيلبي للتَّحايُلِ على نفسِه وعلى الآخرين، يا لهُ مِن داهية؟

هزّ المَندوبُ السّامي رأسَه ضاحكًا:

أعجِبتُ باستخدامِ حُرّاسِه مِن القُرود الحَبشيّة.

ضحكنا معًا. لكنَّ خطرَه كان داهمًا، لأنَّه رجلٌ غامضٌ، وعيناه المتوهّجتان تُخفيان دهاءً كبيرًا، يكفي أنّه اختفى مرّتيْن، وتنكَّرَ في طرقاتِ بغدادَ في زيّ شحّاذٍ عربي، ويتمكّنُ مِن الاختفاءِ في الصَّحراء متى يشاء.

ضحكَ المَندوبُ السّامي مِن أعماقِه على حكاياتِه.

وهكذا كنتُ أفكّرُ بمُعالجةِ هذا الأمرِ إلى أن قابلتُه، وفاجَأني بالقولِ: لا يمكنُ أن نبقى على شِجارٍ مثلَ زوجَيْن ضَجِريْن على الدوام.

وبعدَ ذلك، قمتُ بزيارتِه في منزلِه، استقبلتْني زوجتُه مدام فيلبي ببُرودٍ، وقدَّمتْ لي كُوبًا من الشاي، ولإخفاءِ مَعلوماتي عن تسريحِهِ مِن عملِه، قلتُ لها: آسفة لسَماعِ هذا النّبأ. أجابتْني بفَظاظةٍ مُفاجئَة: كلّا، أنتِ غيرُ آسفة. فتدخَّلَ فيلبي نفسُه وهدّأ مِن التوتُّرِ بينَنا.

ولا أنسى ما قالَه: إنّنا مثلُ أغصانِ الأشجارِ نتَساقطُ في ظلِّ الإمبراطوريّة التي تقوى جُذورُها في أعماقِ الأرض.

فقلتُ له: أجلْ. يا مِستر فيلبي، نحن نرتكبُ الخطيئةَ دُون أن نرى آثارَها الشرّيرة على نفوسِنا.

لا أحدَ منّا يتحمّلُ وطأةَ الإمبراطوريّة.

ثم أخبرتُ المَندوبَ السّامي بلقائِي بالسيّدِ الغرائِبيّ جون فيلبي، وقلتُ له:

يا سعادةَ المَندوبِ السّامي، هذا الرّجلُ لغزٌ غامضٌ.

هزَّ المَندوبُ السّامي رأسَه، مُوافقًا على ما قلت.

كثيرون تجاهلوا أنَّ الشمسَ عندَما تغرُبُ عن إمبراطوريَّةٍ ما، فإنّها ستُشرقُ على إمبراطوريّةٍ أخرى، مَن يَدري، إنّ الإمبراطوريّاتِ لا تتداعى إلا عندَما يفقدُ رجالُها الإيمان، وها هم رجالُنا يفقدون الإيمان الواحدُ تلوَ الآخر.

هنا انتبهَ المَندوبُ السّامي، وسألَني:

ماذا تقصدين بذلك، يا مِسْ بيل؟

قصدي أنَّ المَملكةَ كبيرةٌ فهي لا تتَسعُ إلا لمَلكٍ واحد.

هذا صحيح.

لا يمكنُ أن نخشى الملكَ الذي صنعناه بأيدينا؟

أجل، يا مِسْ بيل.

لنتوكّلْ على الله في تأسيِس المَلكيّة.

لكنْ لا بدَّ مِن الحَذرِ مِن أن ندوسَ بأقدامِنا على مَمالكَ عريقةٍ مدفونةٍ بكِبرياء في هذه الأرض.

بغدادُ وُلدتْ مِن رَحمِ امرأة

ماري، هل الفُطورُ جاهز؟

نعم خاتون، كأسٌ مِن عصيرِ البُرتقال، وأستكانةٌ مِن الشاي العِراقي مع الحليب، وشرائحُ مِن الخُبزِ المُحمّص، وقليلٌ مِن العَسل والزُّبدة، هل ترغبين بشيءٍ آخر؟

كلّا يا ماري، هذا يكفي لفتحِ الشهيّة، تعالي لنَفطرَ معًا، ولكن لا نريدُ حليبًا الكوليرا تدقُّ أبوابَ بغداد.

الله يَستر. يا خاتون.

مِن أين جئتِ بهذه الباقةِ مِن الزُّهور؟

مِن حديقةِ المَنزل، خاتون.

بعدَ الفُطور، استرخيتُ على الأريكة في الحديقة، لم تكنْ لديّ رغبةٌ بالذهابِ إلى العملِ رغمَ ما ينتظرُني مِن مِلفّاتٍ، وهالةُ الضّياءِ التي تتدفقُ مِن دِجلة، أشعرتْني بالاسترخاء. مَنْ يتخيّلُ أنَّ دِجلة الوديعَ ابتلعَ المعرفةَ والحبرَ والأوراقَ في لحظةٍ مَغوليّة دامِيَة؟ ورُبّما يبتلعُ الإمبراطوريَّة، وأنصارَها وقادتَها، لحظتان عاصفتان: مَغوليّة وعِراقية. مرآةٌ في نفقِ التاريخ.. لغةُ الانتصارِ ولغةُ الهزيمة، يتعلَّمُ الأسيادُ لغةَ العبيد، ويمارسُ العبيدُ عاداتِ الأسياد. جسدٌ وروحٌ. ربّةُ الأنثى. الشهواتُ والمُجوهراتُ، والفراءُ، والأزياءُ، والكعبُ العالي. تجاوزتْ أسطورةَ الروحِ في جسدِ امرأةٍ سماويةٍ، كونتيسّة، أعجوبَة، بغدادُ أسطورةٌ ساطعةٌ، مَملكةٌ مِعماريّةٌ. جمالٌ ما بعدَه جمال، أبو جعفر المَنصور أمرَ جُنده بحفرِ خنادقَ دائريّة حولَها، وأشعلَ النّيرانَ فيها، أرادَ أن يتفرّجَ على منظرِ النّار والإضاءةِ ولَمعانِ المَشاعل، فخلبَ قلبَه ذلك المنظرُ الليلي، فأمرَ جُنودَه والبنّائين بتَشييد اللّبنة الأولى فيها، فكانتْ بغدادُ التي تتحدى الإمبراطوريّات الكبرى. هنا وُلدَ القائدُ والمِعماريَّ في آن واحد. لا تولدُ المدنُ العظيمةُ إلا في خيالاتِ القادةِ والشُّعراءِ والنُّبلاء، بغدادُ امرأةٌ مَمشوقةُ القوامِ تتراقصُ على النهر، تتطايرُ خُصلاتُ شَعرها مع هُبوبِ الرّيح، وتُغري الأعداءَ بدُخولها حتى بدُون حِصان طِروادة. جَنكيزخانْ فضَّ بكارتَها، بوَحشيّة، اختفى حُرّاسٌ بواباتِها وراءَ الأسوار، وأفشى أحدُ المُخبرين سرَّها، كاشفًا قلعتَها إلى الأعداء، حِصانُ طِروادة يتكرَّرُ والخَوَنةُ أيضًا. كيف اهتدى الجِنرال ستانلي مودْ بسُهولة إلى بوّاباتِ بغداد السّرية. يظلُّ التاريخُ يُنبئُ بالبَرابرة القادمين مِن وراءِ الأسوار، لكي يهدموا ما بنَته سواعدُ عُمّالها وجُندها ونُبلائِها مِن طوبٍ ولِبْنٍ وآجرّ وسُعُف وجذوعِ نخيل. ستَسقط بغداد مرّات ومرّات، حتى لو شادَ حكّامُها المُتعاقبون أضخمَ البوّاباتِ العملاقة، عندما تُصابُ المدنُ بالنّخر مِن الدّاخل، لا تنفعُ الحُصونُ ولا القلاعُ، وأتساءَلُ: هل كانتْ بغدادُ مدينةً أنثويَّةً حتى تُغري الرّجالَ بفضِّ بكارتِها على مرِّ

التاريخ؟

أصابَني الحزنُ هذا الصباح. لا توجدُ مدينةٌ تكرّرُ سُقوطهَا مثلَ بَغداد، ولا تزالُ تُغري أعداءَها باغتصابِها مِن الغُزاة الشهوانيّين المُتربّصين على أبوابِها. هكذا رُبّما أغرتْ جيوشَ الإمبراطوريّة لتعبُرَ البحارَ والجبالَ والسُّهول، وتجرَّ لجامَ المدينةِ كحِصانٍ مُنهك مِن العُثمانيين الأتراك، لتُطلقَ عليها رصاصةَ الرّحمة.

وبدلَ أن أذهبَ، استبدّتْ بي رغبةٌ بزيارة صديقي الحاجْ ناجي في مزرعتِه، بعدَ أن جمعتُ أسئلَتي التي داهمتْني هذا الصّباح، وقلتُ له حالَ وصولي:

ما هو رأيُكَ يا حاج عن بغدادَ التي يتكرّرُ غزوُها عبرَ التاريخ؟

ابتسمَ الحاج ناجي، قائلاً: رُبّما هذا هو قدرُنا، يا خاتون.

مَنْ يصنعُ القدرَ، يا حاج؟

المدنُ تصنعُ قدرَها. وقدرُ بغدادَ أن تكونَ المدينةَ التي تتحوّلُ إلى العنقاء، رُبّما لا يَنقصُنا سوى احتلالِ أمريكا لنا.

خيالُكَ واسعٌ يا حاج ناجي، هذه هي السُّوريالّية التي تدقُّ أبوابَها باريسُ الآن.

هذه كلمةٌ جديدةٌ علينا يا خاتون.

السّوريالّية هو أن نتجاوزَ الواقعَ ونطيرَ حولَه.

ضحكَ الحاج ناجي دونَ أن يفهمَ ما أقولُ له. بغدادُ مثلُكِ يا خاتون، لو لم تأتِ إلى هنا لَما أطلقَ عليك العِراقيُّون لقبَ الخاتون.

لكنّني لا أحبُّ هذا اللّقب.

إنّه مِن ابتكارِ العُثمانيّين. لا دخلَ للتّاج البريطاني. أجلْ يا عزيزتي مِسْ بيل، يرى الناسُ فيكِ الإرستقراطيّة التي جاءتْ إلينا بأحلامٍ كبيرة بعد طردِ العُثمانيّين، لكنّهم لم يروا مِنها شيئًا. هم جعلونا تابعين لهم في الطَّعام والشّراب والعِبادة والعاداتِ والطُّقوس، وأنتم عملتُم الشّيءَ ذاته، هل تتشابهُ أحلامُ الإمبراطوريّات، يا تُرى؟ إنّها تعلّمُنا التذلّلَ، ألا تخشون أن يتحوّلَ العِراقيُّون إلى أنصارِ البَلاشِفة الرُّوس؟

الشيوعيُّون أعداؤنا يا حاج ناجي، وهي ليستْ سوى نزوةٍ في التاريخ.

النَّزواتُ تذهبُ ولكنَّ الشعوبَ باقيةٌ.

أجلْ. يا حاج ناجي، لكنّ الوحشَ قد يَرتدي القفّازاتِ الحريريَّة لإخفاءِ الوبرِ مِن وجهِه.

هزّ الحاج ناجي رأسَه، وابتسمَ، ساخرًا:

المهمُّ بغدادُ لا تنسى مُغتصبيها.

ثم أطبقَ عليهما الصُّمت لبُرهة كما لو أنّهما وصلا إلى طريق مُغلق.

استغرقتْ المِسْ بيل في أفكارها: العراقيُّون بشرٌ غامضون، سّريُّون، ومتهوّرون، كنّا نتصوّرُهم ليسوا كالهُنود الذين نَقودُهم كالنّعاج، انتحاريُّون لا يتوانون عن العبثِ مع قدرِهم ومَصيرِهم، يلعبون بالنار، ولا نعرفُ ما يدورُ في دواخلِهم، باطنيُّون مثلَ مُتصوّفتِهم، وغامضون مثل آلهتِهم، وجانحون مثل قادتِهم. العِراقيّ كائنٌ هُلامي، لا تستطيعُ مَسكَهُ، عجينةٌ غيرُ طيّعَة، فهو يحملُ وجهًا في العَلن، وآخرَ في السّر، كائنٌ لا يفكُّ ألغازَه إلا كبارُ السّحَرة والمُشعوذين، وفي أرواحِهم زوايا مُظلمة، يُخفي البدويّ انتقامَه في خِنجره، والمثقّفُ يطوي أفكارَه في حقيبتِه، أخفقَ العُثمانيُّون بكلِّ مكْرهم وجبروتِهم أن يقضوا على جذوتِهم عبرَ قُرون مِن الظّلام.

ما هذا الشرودُ يا خاتون؟

لا شيءَ، أفكارٌ عابرة.

بعد أن تناولتْ الشاي مع الحاج ناجي عادتْ إلى القَشلة لترى السّير بيرسي كوكسْ يبحثُ عنها، وبادرتْه: لا أعتقدُ أنّ الحاج ناجي صديقٌ لنا مئةً بالمئة.

ضحكَ المَندوبُ السّامي: وهل يوجدُ صديقٌ مئة بالمئة في الكون، يا مِسْ بيل؟

أنتَ على حقّ، يا سعادةَ المَندوبِ السّامي. العِراقيُّون آبارٌ مِن الألغاز...

لكنّهم لم يأتوا بحثًا عنا، بل نحن ذهبنا إليهم.

أنتِ على حقّ. هل أرادتْ الآلهةُ العِراقيّة أن تنتقمَّ منا؟ انظرْ كيف انتقمتْ مِن ستانلي مودْ بكأسٍ مِن الحليب، المَحشوّ بالكُوليرا!

يا مِسْ بيل، دعكِ مِن هذه الأفكار، فلدينا ملفّاتٌ ساخنة.

أنتَ على حقّ، يا سعادةَ المَندوبِ السّامي.

ضحك السير برسي كوكس.

في الليل، انزوتْ في غُرفتِها، تتأمّلُ التاريخَ الذي عجزتْ عن فهمِه في تلك اللحظة، حتى بقِراءة كتبِ أكسفورد: التاريخُ يضمرُ في أعماقِه شيئًا آخرَ غيرَ ما نراه في الظّاهر مثلَ اللّعنة،

والانتقام، والتشفّي والقدر والعَمى. هل قُدّرَ لبغدادَ أن تنتقمَ مِن مُحتلّيها على مرّ العُصور؟ لا نريدُ أن نكونَ مثلَ البَرابرة، نرقصُ على الخَراب، مُبتهجين بانتصارٍ مُزيّف على رجلٍ مريض، مُتهالكٍ، مِسكين، جرَّ ذيولَ الهزيمة، تاركًا لنا عقولاً باليةً وخُرافاتٍ وشعوذاتٍ وأحابيلَ في رؤوسِ العِراقيّين المُنهكين التي امتلأتْ بالقمل، يُجرجرون ذيولَ الخيبةِ واليأس والتّقهقُر إلى إسطنبول. ابتسمَ الجنرال ستانلي في أعماقِه للروح المتدنيّة لأعدائِه، وفرحَ بالانتصار على الضُّعفاء. روّعناهم بالقنابلِ والبارودِ والرّصاص مِن خارجِ الحدود، وحالَ وصولِنا إلى بغداد، هربَ مَنْ هربَ، ومَنْ تبقّى لم يكونوا سوى أجسادٍ بلا أرواح، وعيونٍ بلا بريق، ورؤوسٍ بلا أدمغة، وألسنةٍ بلا لُغات، فكان القضاءُ عليهم أسهلَ مِن خلعِ سنٍّ منخور.

5

---

23 أغسطس 1921

بوصلةٌ تائِهة في الشّرق

لا أخشى العِراقيّين لأنّهم يقدّسون المرأةَ بفروسيّتِهم.

هكذا ردّدتْ مِسْ بيل وهي تذرعُ طرقاتِ بغداد، بكاملْ أناقتْها مْن دُون حَرسٍ أو خدمٍ تحتَ الشمس الّلافحة، في صخبِ الألوان والأصوات.

كان الطريقُ إلى منزل السّير بيرسي كوكسْ محفوفًا بالرّاح والمطر والعواصف، وكان في انتظاري ليحتفلَ بصُدور كتابي الصَّغير "الإدارة المَدنية للعراق"، بصفحاته المئة وسبعٍ وسبعين. ابتهج قائلاً لي وهو يشدُّ على يدي: يُسعدني أن أهنئَكِ بهذا الكتاب الذي حاز على استِحسان لندن. ثم التفتَ إلى أحد القادة، مازحًا بقولِه:

مِسْ بيل... بوصلتُنا في الرّمال المُتحركة.

وهذا ما جعلَ الأنظار تلتفتُ إليّ كما لو أصبحتُ شيفرة أو لُغزًا. ولم يتوقفْ عن إطرائي، وهو يُمسكُ بكتُيبي. وذلك ما أنساني حزني على رحيلِ عمّي السّير فرانك لاسلز.

وفي تلك الأثناء وصلَ أبي إلى بغداد، فقمتُ بمُرافقته إلى الكاظميّة لمُشاهدة مَوكب الشّاه الفارسي في زيارتِه لبَعض الأماكن المُقدسّة، ما أبهرَه اللفّاتُ والأزياءُ المُزركشةُ بالألوان، الخضراءُ والبيضاءُ والزّرقاءُ التي يرتديها الناسُ المُحتفلون. تناولنا أستكاناتِ الشاي مع عُمدة الكاظميّة سيّد جعفر.

ثم التفتَ أبي إليّ قائلاً:

هل تعلمين أنّ لورنسْ العَرب ملأ مَسارحَ بريطانيا ودارَ الأوبرا المَلكيّة صخبًا وجدلاً بمُغامراته العربية؟

جميل.

وجذبتْ عروضُه الدّراميّة في الشّرق أكثرَ مِن مِليون مُشاهدٍ في أشهُر قليلة. وأضافَ بثِقة:

هذا رجلٌ تحوّلَ في عُيون البريطانيّين إلى أسطورة، أتمنَّى أن تسيري على خُطاه.

مِن عاداتي أن أفرحَ لنَجاحاتِ الآخرين، لأنّها جزءٌ مِن نجاحاتي، وقلتُ لأبي: إنّني، بدأتُ مِن الصّفر.... وكل ما أتمناه أن أحقّقَ جزءًا بسيطًا مِمّا أحلمُ به.

كتابُكِ نال استحسانَ التاج البريطاني، يا غيرترود، وهم يعرفون مواهبَكِ.

وعندَما عُدنا إلى البيت، أخبرني بأنّه يريدُ الالتحاق بلَندن بأسرع ما يُمكن، وقبلَ أن نخلدَ إلى النّوم في اللّيلة الأخيرة مِن زيارتِه، أخذَ يتفرّجُ على صورةٍ زيتيّة لرَجلٍ في العْقال والغَترة راكبًا الحصانَ على غلافِ مجلّة "النشرة العربية"، وسألني مَنْ يكونُ هذا الرجلُ ذو الكاريزما القويّة، فقلتُ له: إنّه القائدُ العَربي الذي يأخذُه العربُ على مَحمل الجدّ أكثرَ مِن ابن الرّشيد، عبدُ العزيز ابن سعود، في الأربعين مِن عمره لكنّه يبدو أكبر. حركاتُه الرّشيقة وابتسامتُه الصّغيرة، ونظرتُه الآسرة، هي سرُّ شخصيتِه، وقلّما نجدُ رجلاً بتلك القوّة، رُبّما لأنّه تربىّ في أجواء الصحراء الحارّة، ونشأ على ظُهور الجِمال، ومِن هنا اكتسبَ قوّتَه وصلابتَه وصبرَه، وكقائدٍ لقوّاتٍ غيرِ نظاميّة أثبتَ جُرأتَه وشجاعتَه، جامعًا بين صفاته كجُندي وكسِياسي وكحاكِم وكفارسٍ، نمطُ رجالِ التاريخ التاريخيّين الاستثنائيّين...

إنّه ينتصبُ بقامتِه كما لو أنّه يُصدرُ أوامرَ لجُنده.

هذا صحيحٌ، يا أبي، بناؤه الجَسدي غيرُ مُنسجم مع أجسادِ البدُو النّحيفة، ملامحُ وجهِه قويَّة، وفتحَتا أنفِه مُكتنزتان، وشفتاه ظاهرتان، وذقنُه مُستدّقٌ ينتهي بلِحية كثيفة.

هل تتوقّعين له مستقبلاً؟

طبعًا يا أبي. هذه القارّة أيْ الجزيرة بحاجةٍ إلى قائدٍ مهم.

بعد أن رأيتُ بغداد، فهمتُ سرَّ انجذابِكِ إلى هذه المدينة.

أجل يا أبي. حبّي لها بلا حدود. أهلُها يقدّرونني ويُحبّونني. منذ طفولتي، كنت أحلمُ بالطّيران على بساطِ الرّيح بصُحبة السّندِباد البحري، وأنا ألتحِفُ بالأغطيَة الدّافئة في ليالي لندن الباردة..

ابنتي إنّني فخورٌ بكِ.

تذكّرتُ أقوالَه.

كنتُ أعرفُ أنّ غيرترود سيَكون لها شأنٌ في المستقبل، ها هي ترسمُ حدودَ البلدان وتعيِّنُ المُلوكَ. إنّها مِن ألمعِ طُلاّبه، ولكن هل يقومُ جميعُ طَلَبة أكسفورد برسمِ حدودِ الشّرق؟

أعرفُ كم أنت فخورٌ بي.

أنتِ تنافسين بعقلكِ وموهبتكِ كبارَ الضبّاط ورجالَ السياسة.

لكنّني أطوي صفحةَ أنوثتي في أنفاقِ المآدبِ الدّبلوماسية، وأُهمِلُ روحي على ضِفاف دجلة.

لا أنسى يا ابنَتي، احتفاءَ قاعةِ اللّيدي مارغريت بكِ كأوّل امرأة تنالُ أعلى درجةٍ في التاريخ

الحديث.

لكنّني أعاني من فظاظة التاريخ الآن لا يزالُ طعمُه مرًّا في حلقي.

دهاليزُ التاريخ مليئةٌ بالمِكْرِ والمُؤامراتِ والخدعِ والشّكوكِ والمخاوف.

أجل. أجلسُ إلى جوارِ ملكٍ يسردُ لي تاريخَ مُعاناته هو الآخر تحتَ ضوء القمر، أحدُ أحفادِ الرّسول، والذي شاءتْ الظّروف أن يكون ملكًا على عرشِ العِراق وكأنّ الخِلافةَ تعودُ على يديْه كجَذوة تصارعُ الزمن. كان يطيبُ لي أن أسمعَ الملكَ يُقسمُ بقولِه "بالله وبرأسِك... !" كأنّه يعيدُني إلى زمنٍ غابر أثناء ظُهور الأنبياءِ في الصَّحراء، يرتدون عباءةَ النّور، وبصُحبة موكبٍ مِن الملائكة.

إنّها بغدادُ يا أبي.

أتصفّحُ تاريخَ بغداد التي رسَمها فنّان ماهر، وأطلقَها في خيالي. عصورُ الظّلام أزالتْ عن وجوهِهم الابتسامة، وأخفتْ النساءُ شعورَهنَّ المُنسرحةَ تحتَ وشاحٍ أسود، رجالٌ ونساءٌ كأنّهم يعيشون في مُستعمرة العقاب. ظلَّ حلمي أن أرى زخارفَ بُيوتِها وقِبابِها وأزقَّتْها، ما يؤلمُني أن أقابلَ أناسًا لا يعرفون شيئًا عن ماضيهم كأنّهم بلا ذاكرة.

نظر إليّ بإعجاب أبٍ ينظر إلى طفلته الصغيرة:

التاريخ.. هو ما نتقاسمُه مع البشر يا ابنتي.

عندما عبرتُ إلى الضفّة الأخرى مِن دجلة، كدتُ أضيعُ قُبّعتي، بادرَ الرّبان إلى ربطِها بإحكام برَأسي كي لا تتطايرَ مع الرّياح، قائلاً لي: لن تَجدي مثلَ هذه القبّعة في بَغداد، يا خاتون. إنّني أحبُّ هؤلاء البُسطاء، هم التاريخُ بالنّسبة إليّ.

هّز أبي رأسَه مُوافقًا، وسألَني قائلاً:

نسيتُ أن أسألَكِ ماذا ستَفعلون في القاهرة؟

سأكتبُ لك من هناك.

علي بابا والأربعون حرامٍ

فاجأ ونستون تشِرشِل، وزيرُ المُستعمرات جميعَ المُؤتمرين في صالة فندق سمير أميس الفاخرة في القاهرة، بغَليونه الشّهير وطلّته المَهيبة. وكان قد تأخَّرَ قليلاً، فمدَّ رقبتَه ليُلقي نظرة على الطّاولة المُستديرة التي التفّ حولها مَنْ كانوا يتداولون مُصطلحَ الشّرق الأوسط لأوّل مرة، وأمامَهم الخريطة. وقبل أن يجلسَ تشِرشِل، نهضَ المُجتمعون لتحيّته، وبلَمح البصَر رأى بذُهولٍ امرأةً بين جُموع الرّجال الأربعين الذين حضروا المؤتمرَ. هكذا كتبتْ الصُّحف.

ابتسمَ قائلاً في نفسِه:

هل ستكون هذه المرأةُ مِسْ بيل التي قرأتُ لتوّي تقريرَها الهامّ "الإدارةُ المدنيّة لبلاد الرافدَيْن"؟ ثم جال بنَظره حولَ الصّالة، والتفتَ إلى أحدِ مُرافقيه، مازحًا:

هل هؤلاء علي بابا والأربعون حرامٍ؟

ثم همسَ في أُذن مُرافقه الذي انفجرَ في الضّحك، مُتسائلاً:

مَنْ هو على بابا، يا تُرى، الأميرُ فَيصل أمْ السّير بيرسي كوكس أم مِسْ بيل أم لورنس؟

وقبل أن يجلسَ التقى بالشخصيّات التي يعرفُها جيدًا أمثال: مِسْ بيل، والسّير بيرسي كوكسْ، ولورنسْ، وأرنولد ولسُنْ، والسّير كِنهان كورنواليسْ، وجعفر العَسكري، وساسون حَسقيل، والأمير فَيصل بن الحسين.

ها ها ها... الحفلة كاملة ولا ينقصُها أحدٌ. كأنّه يقولُ ذلك في نفسِه.

ابتهج تشِرشِل بحُضورِ المرأةِ الوحيدة في المُؤتمر التي أفضَتْ جوًا خاصًا، بقُبّعتها الواسعة المُدورة، والمُذيّلة بشريط، وبعِطرها الباريسي الفوّاح الذي ملأ القاعة، وبعثَ على الانشراح والسّرور. وأثناء مُصافحتِه لها، قال:

قرأتُ المشروعَ الطَّموح في كتابِك، أنتِ يا ابنةَ الإمبراطوريّة....

ثم أشادَ برِحلتها الجريئَة إلى حائِل، قائلاً:

العِراقيُّون لا يتوحّدون إلا تحتَ مِظلّة الأسرة الهاشميّة رغمَ تمسُّكِهم بطَوائفهم وقَبائلهم، أتّفقُ معك في هذا.

الأحزابُ الوطنيةُ العِراقيّة، يا مَعالي الوزير، تشكّلُ خطرًا علينا.

هّز تشِرشِل رأسَه، متسائلاً:

أيّة أحزابٍ، يا مِسْ بيل؟

الحزبُ الوطني وحزبُ النّهضة.

وماذا لو كسِبْناهما إلى جانبِنا؟

يبقى تهديدٌ آخرُ هو مبعوثُ مُصطفى كَمال أتاتوركْ إلى راوِندوز واتّصالُه برُؤساء العَشائر الكرديّة مِن أجلِ ضمِّهم وتحريضِهم ضدّنا.

وما هو الحلُّ في نظرِك؟

لا يوجدُ سوى حلٍّ واحد وهو دعمُ فَيصل.

هزّ تشرشِلْ رأسَه، مُوافقًا كما لو أنّه أعطاها الإشارة الخضراء، فاستبشرتْ خيرًا، يتبلورُ مشروعُها أمامَ عينيْها بشَكلٍ مَلموس، ولم تُخفَ نشوةُ النّصر في القاعة التي ضمّتْ كبارَ السّاسة والقادة.

وبعدَ الانتهاء مِن الجلسَة الأولى للمُؤتمر التقى بمِسْ بيل ثانية، فقالَ لها:

أكادُ أجهلُ شخصيّةَ فَيصل فيما عدا أنّ الفرنسيّين طردوه مِن عرشِ سوريا.

معالي الوزير، لديّ جميعُ الوثائِقِ عنه إذا رغبتَ بذلك.... قال لي الأميرُ فَيصل ذاتَ يوم، هل تعلَمين ما ينقُصُ العِراق، يا مِسْ بيل؟ وحدةُ الملّة والدِّين، هؤلاء شَرْذَمة، وساستُه بحاجة إلى الحِكمة والقوّة في آنٍ واحد، وانزلاقُ كلّ مِنهم إلى طائفتِه يعني أنّهم يضعون أنفسَهم في سجنٍ حديدي كبير، السُنّة يَحكمون الشِّيعة والكُوردَ والمَسيحيّين والصابئَة، لكن سرعانَ ما يجدُ كلٌّ واحدٍ مِنهم نفسَه في خَندق، آنذاك لا يبقى لهم سوى إشهارِ كلٍّ مِنهم أسلحتَه في وجه الآخر..... مَنْ يدري، يا مَعالي الوزير، رُبّما تسقُطُ كلُّ مَشاريعنا.

توقّف تشرشِلْ بُرهة:

وما هو الحلُّ في نظرِك؟

تنصيبُ الملك فَيصل على عرشِ العِراق.

ابتسمَ تشرشِلْ، فسلّمتْهُ حزمةً مِن أوراقِها، ولم يتوقّف عن النّقاش معها في اليوم التالي، مُتذكّرًا جميعَ التّفاصيل التي بدأ بقراءتِها:

فارسٌ شجاعٌ وراكبُ خيلٍ وإبلٍ مِن الطّراز الأوّل. اعتبرَه السّلطان عبد الحميد مثلَ ابنِه، حتى خصّصَ له سكنًا في قصر الوالي فؤاد باشا، وبعد زواجِه مِن حَزيمة ابنة عمّه الشّريف ناصر بن علي، غادرَ إلى الأستانة ومكّة المُكرّمة، ثم عيّنَه والدُه شريفًا عليها، واكتملتْ رجولتُه في الحِجاز، ورأى فيه والدُه قائدَ غزوات، أخْضعَ عددًا كبيرًا من القبائِل. وعندما ضَربَ الحلفاءُ حصارًا على مَوانئ تركيا في بداية الحرب، ومَنعوا دُخولَ البواخر إليها، أقبلَ رجالُ الشّام وأعيانُها على فَيصل يدعُونهُ إلى إقناعِ والدِه بإعلانِ الثّورة على الاتّحاديّين وخلْعِ طاعتِهم وإنشاءِ دولةٍ عربيّة، لأنّهم تعمّدوا إذلالَ العربِ وأعدموا مُفكّريهم وأدباءَهم وصفوةَ رجالِهم، ونفَوا أسراهم إلى أقاصي الأناضول، لكنّه تردّدَ في قبول تلك المَهمّة، ونصحَ بالتّأنّي والتروّي، وحاولَ إقناعَ جمال باشا بالعُدولِ عن سياسة الشدّةِ والإرهابِ والبطشِ، واتّباعِ اللّينِ والمُرونة وعدمِ شنْقِ المُفكّرين الأحرار ونفِي الأسرى، فلم يُزدْهُ ذلك الا اندفاعًا في خُطّته الدّموية، فاجتمعَ في المَدينة المُنوّرة بشقيقيْه عليّ وعبدالله وأعلنوا الثورةَ العربيّة، وانتصرَ جيشُهم. كان الفرنسيُّون يقفون بالمِرصاد له، فلم يسمحُوا له بحُضور مُؤتمر الصّلح في باريس، بل بعثوا جيشَهم إلى دِمشق بقِيادة الجنرال غورو، وقوّضوا أركانَ حكومتِه الناشِئة.

أثناء لقائِه بها في اليوم التالي، أخرجَ تشِرشِلْ سيجارَه الغليظَ وسحبَ منه نفسًا طويلاً، وملامحُ الرّضا ترتسمُ على وجهِه، ثم هزَّ رأسَه، فابتهجتْ مِسْ بيل. وفهمتْ الإشارة: تشرشِلْ لا يُمانعُ في ترشيحِ فَيصل الأوّل ملكًا على العراق.

ورغمَ ذلك لم يهدأْ بالُها، فقد ازدادَ المُرشّحون واختلفتْ مَشاربُهم وتطاحَنَت مِللُهم ونِحلُهم. خرجَ لورنسْ عن صمتِه، مردّدًا بخبثٍ ودَهاء:

مِسْ بيل ساحرةٌ كبيرة.

يومُ تتويجِ الملك... بايعناكَ بالمُلوكيّة

انتظرتْ مِسْ بيل وصولَ الأمير فَيصل إلى بَغدادَ على أحرّ مِن الجَمْر إذ لم يتبقَّ على وُصوله إلى البَصرة سوى يومٍ واحد، ورغمَ تحضيراتِ الاستقبال الحارّ في بَغداد إلّا أنّه كان فاترًا في المَحطّات الواقعة بين البَصْرة والحلّة مِمّا جعلَها تُصابُ بالحَيرةِ والارتباك، وتساءلتْ: هل هناك مَنْ يقفُ وراءَ ذلك؟

لا بدّ أن يكون هذا اللّعينُ سَنت جون فيلبي وراءَ عَرْقلةِ المَشروع. ثُمّ وصلتني الأخبارُ بأنّه أصدرَ أوامرَ إلى حُكّام الولايات بعدمِ استقبالِ الأميرِ فَيصل لأنّه مُرشّحٌ مِن قِبَلِنا. ما هذا الهَراء؟ لماذا يتصرّفُ فيلبي بهذه الطّريقة؟ اعتقدَ فيلبي أنّ بريطانيا ترغبُ في انتخابِ فَيصل الأوّل بشكلٍ حُرّ مِن قِبَلِ أبناءِ البلاد، ولم يفهمْ لماذا أقدمتْ بَغدادُ على الاحتفاء باستقبالِه وإقامتِه. عجيبٌ أمرُ فيلبي، هل هو بهذا الغَباء؟ ألم يرَ كيف أنّ البريطانيّين أقاموا حفلاتِ رقصٍ طوالَ أسبوعٍ للاحتِفاء بمَجيئِه؟ كان عليّ أن أذهبَ لمُلاقاة السيّدِ طالب النقيب ووليّ عهدِ إيران في مَحطّة قطارِ بغداد العالميّة، لكنّني عَدلتُ عن هذه الفكرة، وفضّلت حضورَ الحفلةِ التي أقامتْها الليدي كوكسْ في النّادي الرياضي الكائِن في الأعظميّة. أثناء وُصولي، وجدتُ المَدعوّين يرقُصون في الهواء الطّلقِ على البُسُطِ التي فُرشتْ على أرضِ حدائقِ النّادي، ذاتِ العشبِ الأخضر، وتحتَ قمرِ بغداد المُنير، اكتفيتُ بالجُلوس وتجاذُبِ أطرافِ الحديثِ مع بعضِ الحُضور. وبعد تناوُلِ العشاء بصُحبة السّير بيرسي كوكسْ، عدتُ إلى داري في مُنتصفِ اللّيل بصُحبة السّيدِ تودْ وزوجتِه، بينَما واصلتْ الليدي كوكسْ الرّقصَ حتى الرابعة صباحًا. وفي اليوم التالي، اضطرّرتُ لتركِ الكِتابة مِن أجلِ تلبيَةِ دعوةِ عشاءٍ أقامَها شيخُ الجَبايش سالم الخَيّون الذي أرسلَ سيّارتَه الخاصّة الباذخةَ لتنقلَني إلى دارِه المُطلّة على نهر دِجلة. لم يكنْ مُبتهجًا وكأنّه يريدُ أن يُفصِحَ بشيءٍ ما. يا إلهي! ما السّبب؟

حاولتُ أن أعرفَ ما الذي يدورُ في رأسِ هذا الرّجلِ الذي دعاني إلى بيتِه لكّنه حزينٌ ومكتئِبٌ، وسألتُه: ما هو رأيُك بقُدوم فَيصل الأوّل إلى البَصْرة؟وهنا نهضَ مِن مَقعدِه حولَ طاولةِ الطّعام غاضبًا، وهو ما لا يُمكنُ حدوثُه هنا، قائلاً بالحرفِ الواحد: إنّكم تَقترفون أكبرَ خطأٍ في التاريخ لو عيّنتُم فَيصل الأوّل ملكًا على عرشِ العِراق. وبعدَ ذلك خيّمَ الصّمتُ، ولم يَفهمْ الآخرون هذا الغضبَ المَكبوت. وفي الحالِ، فهمتُ أنّ هذا الرّجلَ مِن أنصارِ الجُمهوريّة، وكان طامعًا بمَنصبٍ لا يمكنُ له الحصولُ عليه في ظلِّ المَلَكية. تمكنّتُ من استيعابِ هذا الرّجل العشائِري. وفي الوقتِ نفسِه، حاولتُ أن أفهمَ مُؤامرةَ فيلبي على اختياري، وبقيتُ حائرةً وسطَ هواجسِ الآخرين وشُكوكِهم: يا إلهي! كيفَ أُوفِدَ السّير بيرسي كوكسْ فيلبي لاستقبالِ الأمير فَيصل؟ كان وزيرُ الدّاخلية، مُتحمّسًا للنّظام الجُمهوري، ورُبّما أدخلَ وزيرَ الدّفاعِ في الاستقبال ليُقيمَ نوعًا مِن التّوازن لأنّ الأخيرَ كان مُتحمّسًا للمَلَكيّة؟ ثعلبٌ ماكرٌ في دهائِه، ورجلٌ أقلُّ ما أقولُ فيه إنّه حكيمٌ أرادَ أن يُعطي انطباعًا إلى الجميعّ أن بريطانيا تقفُ على الحِياد!

اكتظّتْ الشّوارعُ والأزقّةُ وسُطوحُ المنازلِ بالنّاس وانتشرتْ الأعلامُ وأقواسُ النّصرِ في بَغدادَ احتفاءً بالأميرِ فَيصل. كنّا ننتظرُه في مَحطّة القطار، ولم تَمضِ دقائقُ حتى أطلَّ بلباسِه العَربي بالكُوفيّة والعْقال، بكلِّ ثقةٍ وكبرياءٍ وتواضُعٍ، وعيناه تَبرُقان بالذّكاء والبَراءة. تقدّمتُ لمُصافَحتِه بحَرارة عندَ نُزولِه، مع مُرافقِه السّير كينهان كورنواليسْ، الشّاب الجَنتلْمان الوَسيم، وقد زُيّنتْ سيارتُه بالأعلامِ والوُرود على رصيفِ المَحطّة في انتظارِه. هرعَ الناسُ لاستقبالِه مِمّا اضطرّ القائمين إلى إدخالِه إلى السيّارة التي انطلقتْ به بصُعوبة بالغَة، وقامتْ الشّرطةُ المُكلّفة بتنظيمِ مَسيرةِ الموكِبِ بفتحِ الطّريق أمامَ سيّارته التي كانتْ تسيرُ ببطءٍ، وهو يرحّبُ بالمُستقبِلين، ويلوّحُ بيدِه على جانبيْ الطّريق، وقطعتْ جسرَ مودْ باتّجاه السّراي.

في اليوم التالي، سارعتُ إلى زيارتِه هناك، وجلستُ معه على الأريكَة، وراحَ يُفضي إليّ بما يَشغُلُ ذهنَه وصدرَه مِن شُكوكٍ وظُنون، لكنّني طمأنتُه إلى مَوقفِ السّير بيرسي كوكسْ، وقد كان مُتردّدًا مِنه لأنّه سمعَ بأخبارِ عدمِ حماستِه لتنصيبِه على العَرش. وسارعتُ هنا لكي أُسدي إليه النّصحَ بعدم السّماحِ لأحدٍ بالرُّكوب إلى جانبِه في السيّارة أثناءَ تنقّلاتِه لأنّ ذلك لا يليقُ بهَيبةِ مَلكٍ سيَكونُ حاكمًا لهذا البلد. ومنذُ ذلك الحين، بدأ شيوخُ العشائرِ ورُؤساءُ القبائلِ يتقاطرون على مَكتبي، رغبةً في لِقاء الملكِ وتَحيّتِه، رغمَ مُعارضةِ البعضِ له. وبعدَ ذلك، أقمْنا للأمير فَيصل دعوةً في حدائقِ مودْ في الصّالحيّة، مع حُضورِ عددٍ من الشّخصيات، وكان في استقبالِه السّير بيرسي كوكسْ وزوجتُه والجنرال هالداين، القائدُ العامّ للقوّات البريطانيّة. ثم تقدّمتُ لمُصافحتِه. وبعد انتهاء تلك المراسِمِ، جلسَ على الأريكة التي أُعِدَّت لجلوسِه وراحَ يكلّمُني باللّغة العربيّة بصِفتي الشّخصَ الأقربَ إليه. وبادرَه القائدُ العامّ بدردشةٍ باللّغة الفرنسيّة، ثم استأذنتُه بتَقديم بعضِ الشخصيّات له وطلبتُ مِنهم البقاءَ قربَه إلى أن يحينَ موعدُ العشاء. وفيما بعد، شكّلَ المَدعوّون حلقةً كبيرةً تحتَ أشجارِ النّخيل، جلسَ فيصلُ في الوسطِ لكنّهم تركوه لِحالِه، لذا سارعتُ لِمُعالجةِ المَوقف، وقمتُ بتَقديم الشخصيّات إليه بكلِّ لياقة. والمُؤسفُ هنا أنّ أحاديثَهم سرعانِ ما تحوّلتْ إلى خُطَبِ رنّانةٍ مما بعثَ الضّجرَ في نفسِه. ومِمّا زادَ الطينَ بلّة، أن بادرَ بعضُ الشُّعراء الحاضرين بإنشادِ قصائدِهم فيه، وانبرى الشّاعرُ أمينْ خليل المُفتي، خاتمًا قصيدتَه بهذيْن البيتيْن: قدْ دعَوناك علينا مَلكًا/ ليسَ نَرضى عنكَ بديلاً.

وتردّدتْ بين الحُضور هتافاتٌ باللّهجة العِراقية "بايَعناكْ بالمُلوكيّة". ثُمّ أنشدَ الشاعرُ جميل صدقي الزّهاوي قصيدةً مطلعُها: إنا مُحيّوكَ فاسلمْ أيُّها الملكُ/ ومُصْطَفوكَ لِعرشٍ شاءَه الفُلُكُ.

وعندما نهضَ الأميرُ فيصل للانْصراف، لم تكُنْ علاماتُ الارتياح باديةً على وجهِه، فاقتربَ منّي قائلاً: كنتُ أحاولُ جُهدي تفادي سَماع الخُطَبِ في سُوريا، لكنّ الأمرَ أصبحَ أكثر سوءًا هنا. في اليوم التالي، قالَ لي المَندوبُ السّامي: إنّ سَنت جون فيلبي لم يَعُدْ شخصًا مُرحبًّا به بيَن صفوفِنا. ولعلَّ سببَ ذلك تقصيرُه في الاحتفاءِ بالأمير فَيصل في البَصْرة وإفراطُه في مَدْح عبد العزيز بن سعود. ومهما يَكُنْ من أمرٍ، فقد أصبحتْ الطريقُ سالكةً أمامَ الأميرِ فيصل لِيَعتليَ عرشَ العراق بسُهولة ويُسْر، مستعيداً هيبتَه بعد أن غَضبَ عليه الفرنسيُّون، لكنّه ظلّ حائرًا ومرتبكًا، خشيةَ وُقوعِ انقلابٍ عليه في اللّحظاتِ الأخيرة لأنّه ببسَاطة يخشى أن تَتكرّرَ مأساةُ تَنحيَتِه عن عرشِ سُوريا مرّةً أخرى، لكنّني طمأنتُه بالصِّيَغ الدّستوريّة في تسجيل النّاخبين. وبعدَ أيامٍ، أقامَ طالبُ النقيبُ مأدبةَ

عشاء على شرفِ الأمير فَيصل، وحضرَ كثيرٌ من الشّخصيّاتِ رغمَ عدمِ اقتناعِهم بالأمير فيصل. قالَ لي عِزّتْ باشا الكَركوكْلي: لماذا جِئتمُونا بهذا الرّجل؟ فقلتُ له: لأنّه أفضلُ العَربِ في زمانِه.

ابتسمَ ووجدَ جَوابي شافيًا.

وكان هذا الرّجلُ قد التقى بالمَلك مُطوّلاً هذا الصّباح في مُحاولة لاستمالتِه إلى قضّية كَركوكْ، اللواء المُتنازَع عليه.

ثم عملتُ على لقاءِ طالب النقيب والأمير فيصل لكي أخفّفَ مِن التوتّر بين أنصارِ المَلَكيّة وأنصارِ الجُمهوريّة، وعندَما سألَني السّير بيرسي كوكس عن ذلك، قلتُ له: إنّ هذا اللّقاء يَهدفُ إلى استقرارِ العِراق. وكان الشاعُر مَعروفُ الرّصافي حاضرًا في هذا اللقاء، ولم يَتمكّن مِن عدمِ قولِ الشّعر، فأنشدَ قصيدتَه: مَدّ النقيبُ إلى الأميرِ/ يدَ المُعاضِدِ والنّصيرِ. فَلْيُخْزَ كلُّ مُشاغبٍ/ في القومِ يَلْهجُ بالسُّرورِ. وليحيَ مولانا النقيبُ/ حياةَ مولانا الأميرِ.

ثم نهضَ الأميرُ فيصل منصرفًا وسطَ عاصفةٍ مِن التّصفيق.

بلادُ الرافدَيْن بحاجة إلى ماردٍ أمْ إلى مَلِك؟

لم يكنْ الأمرُ سهلاً على الأمير فَيصل بين أنصارِه وأعدائِه. ومِن أجلِ أن يكسَبَ ودَّ أهالي الرّمادي، قام بزيارتِهم، فاستقبلونا بحَفاوةٍ كبيرة، وعَقدَ مجلسًا مُصغّرًا، انتشرتْ البُسطُ على الأرض، وامتدّتْ فوقَه أوانٍ مُستديرة مِن الأرُزّ والدّجاج المُحمّر واللّبن الخاثِر في وجبةٍ لذيذة. بعد ذلك، صاحبتُ الأمير فيصل واثنيْن آخريْن بالعُبور إلى الضّفة الأخرى مِن النهر حيثُ كان الشيخُ فَهد بك بن هذال في استقبالنا رغم تهديدات ابن سُعود له مِن مَغبّة تأييدِه لنا حيثُ أقام لنا مأدُبةَ عشاء عامرةً، بأنواعِ الأطايِب والطّعام. وبعدَ الانتهاء، آوَيتُ إلى فراشي الذي أعَدّوه لي فوقَ سطحِ دار المُتصرّف، ونمتُ بأمان تحتَ ظلِّ العَلَم الشّريفي والعَلَم البريطاني، وفي الصّباح، قَفَلْنا عائدين إلى العاصمة.

وفي بغدادَ، حرصَ الأميرُ فيصل أن يزورَ أبناءَ الطائفتَيْن البروتستانتيّة والأرمَنيّة في الكنيسةِ الأرمَنيّة حيثُ أقاموا حفلَ استقبالٍ كبير له، وكان في غاية السُّرور والانشراح. ثُمّ تجوّلنا في المَدائن. ثُمّ أخبرَني نُوري باشا قائلاً: أتمنّى أن تكوني إلى جانبِ الأمير فَيصل في الاجتماعات لأنّ ذلك يُطَمئِن العِراقيّين.

لم يكنْ الأميرُ فيصل واثقًا مِن خُطواته لأنّه يعلمُ أنّ كثيرًا مِن العِراقيّين يُعارضون تنصيبَه على عرشِ العِراق، لذلك كان يَحدجُني بنَظرة مُتوسّلة عندَما كان يريدُ طلبَ العَون منّي، وهو يخرجُ على المَلأ وغيرَ واثقٍ مِن خُطواتِه لأنه ليسَ من أبناء البلد، وأعداؤه كثيرون، كالخلايا النّائمة لا يتورّعون عن الانقضاضِ عليه في أيّة لحظة. ليسَ مِن السّهل أن تُصبحَ ملكًا على قومٍ أنتَ لستَ مِنهم، فما كان عليّ سوى التعبيرِ بإيماءَةِ تشجيعٍ صغيرة إليه ليقودَ خُطواتِه على المَسرحِ بكِبرياءِ المُلوكِ وعَظَمَة سُلالتِهم، وهو يعدّلُ عباءتَه على كتفيه، يُضفي عليه عِرقُه الرّسولي قدسيّةً خاصّةً

يَنحني لها المُؤمنون. ورغم أنَّ مراسمَ التّتويج لم تكنْ كبيرةً أو مُفرطةً، لكنّها أطلقتْ هيبةَ الملك. وفي الواقع، لم تكنْ بلادُ ما بينَ النّهريْن بحاجة إلى ماردٍ بلْ إلى مَلك. ويمكنُ للقفّازاتِ الحريريّة أن تُمسكَ بقوّة وجَدارة زمامَ أمّةٍ خرجتْ مِن بين أنيابِ إمبراطوريّة مُتخلّفة، فهي بأمسِّ الحاجة إلى مَنصبٍ روحيٍّ أكثرَ مِن مَنصبٍ مادّي. وهكذا انزوى رجالُ الدّين صاغرين وراء عَماماتِهم البيضاءِ والسّوداءِ، وانضَووا تحتَ الحُكم المدنِيّ المَلَكيّ بكلِّ سلاسَة. بينما كنتُ أحرصُ أن لا يظهرَ الخلافُ علنًا بين البلاطِ والمَندوبِ السّامي. ولم يكنْ رُؤساءُ العَشائرِ والقَبائلِ يتفهَّمون المِزاجَ الإنجليزي للسّير بيرسي كوكسْ. فقد قالَ لي أحدُ شُيوخ القَبائلِ شاكيًا: عندما حاولنا الاقترابَ مِن فَخامة المَندوبِ السّامي بحبٍّ وطاعة، دفَعَنا جانبًا ولم يستثنِ أحدًا منّا حتى الإخوةَ النّقيب. يا إلهي! هل تصرّف السّير بيرسي كوكسْ هكذا؟

لم أتخيّلْ أنّه يتعاملُ مع الأعيانِ ورُؤساء العَشائر بهذه الطريقة، فهؤلاء مُفرطون في حساسيَّتِهم، كلمةٌ ترُضيهم وكلمةٌ تُغضبُهم. والمَندوبُ السّامي لا يقلُّ سوءًا عن العسكريّين الآخرين، عندَما كان زمامُ الحُكمِ في يدِه، نَفى زعماءَ الحزبِ الوطني وأقفلَ صحيفتَهم وأغلقَ ناديهم، ولا يعرفُ نفوذَ رُؤساء العَشائرِ والقَبائلِ أمثال: فَهد بك بن الهـذال شيخُ مَشايخِ عْنِزَة، وعلي السُّليمان شيخُ الدّليم، وحَسنْ السّهيل شيخُ بني تَميم، والحاجْ ناجي مِن الجادريّة، وجَعفر عطيفَة مِن الكاظميّة، وفائقْ بك مِن الفَحّامة... هؤلاء في كفّة، وكبارُ الضّباط البريطانيّين في كفّةٍ أخرى، ورغم حُبّي لهم، وجدتُ فيهم كلَّ أنواع البَشر: الانتهازي، والمُنافق، والمُتذبذِب، والنَّبيل، والشُجاع، والوُصولي والجَاسوس.

الغالبيةُ تُطالبُ بالمَلَكية الدُّستويّة، ووزارةُ المُستعمرات تُطالبُ بسُلطةِ المَندوبِ السّامي كأعلى سُلطةٍ في البلد، لكنَّ الأميرَ فيصل أصرَّ على استقلاليَّتِه، لذلك كنّا نخشى انفجارَ الأوضاع، وتحوُّلَ الجَماهير إلى العُنف والوحشيّة. شارلز هاردنغ، سفيرُ بريطانيا في باريس قالَ إنّ فرنسا لن تَغفرَ لنا ذلك. والسّير بيرسي كوكسْ عبّرَ بفَراستِه عن شُكوكِه ومَخاوفِه مِن المُستقبل. وفي تلك الأثناء، زارَني طالبُ النقيب، وعادَ يعبّرُ لي عن رَغبتِه ثانيةً أن يكونَ أميرًا للعِراق، لكنّني أخبرتُه على الفَور بأنّ العِراقيّين لا يَعترفون بالمُلوكِ والأمَراء إلا إذا كانوا يَنحدرون مِن أسلافِ النبيّ، وقلتُ له بالحَرفِ الواحد: إنّ العِراقَ لا يُحكمُ بسُهولة لأنّه يتكوّنُ مِن طَوائفَ وأجناسٍ وأعراق. وبعدَ أيّام، اقتنعَ بما قلتُ له، وسارعَ إلى تَقديم استقالتِه، وطلبَ السّفرَ إلى بريطانيا مع أطفالِه لكنّه عادَ بعدَ أيّام. ولم تنتهِ المُشكلة، لذا أبرقَ كوكسْ إلى تشرشِلْ وأخبرَه بمُقابلة النقيب، وشرحَ له ما دارَ بينَهما مِن نِقاش. وأصرّ النّقيبُ على أن لا حقَّ ولا مَطلبَ في العِراق للأمير فَيصل أو عائلةِ الشّريف حُسين. أجابَه كوكسْ: لا أوافقُكَ الرّأي، لكنّ الشّريفَ وعائلتَه قدّموا خدماتٍ جليلةً لحُكومة صاحبَةِ الجَلالة، لذا لن نقفَ في وجه أيٍّ مِن أبنائِه.

فكّرتُ كثيرًا بهؤلاء الذين كانوا يَطمَعون في حُكمِ العِراق دُون أن يكونَ لهم أيُّ سَنَدٍ شعبيّ، هذا هو الشيخُ خَزْعل، حاكمُ المَحمّرة يُنادي مِن بعيدٍ ويريدُ أن يحكمَ العِراق. لقد شعرتُ بالمَللِ مِن هؤلاء وأعملُ على ثنيِهم عن هذا الطّموح لأنّ العِراقَ تلكَ الفُسيفِساءَ الجَميلةُ، هشّةٌ مِن الدّاخل، كأنّها لؤلؤةٌ عندَما يتكاثرُ عليها الجميعُ تُصبحُ أكثرَ ثمنًا وقيمة.

ثم عادَ السّير بيرسي كوكسْ وكتبَ إلى تشرشِلْ، قائلاً له: هل تخوّلُني السّلطةُ أن أنفيَ النقيبَ المُعتقلَ في الفاو إلى سيلان؟ أجابَه تشرشِلْ: يستحقُّ ذلك لأنّ خِطابَه كان تَحريضيًا ومُثيرًا للمَشاكل، ولا بدَّ مِن مُعاقبتِه في السّجن.

هكذا رأيتُ طالبَ النقيبَ يُمضي فترةً طويلةً في السّجن، ثم أُفرجَ عنه، وقضى بقيّةَ عُمرِه يطوفُ في أوروبا لا يعرفُ ماذا يفعل.

يا إلهي! لم تنتهِ الحِكايةُ، بل إنّ أتباعَ تُركيا مِن أمثالِ حِكْمةْ بيك، وساسُون أفندي، وغيرِهما كانوا يُطالبون بالسُّلطة أيضًا.

دوامةٌ كبيرةٌ كنتُ أعيشُها.

تاريخٌ فاصلٌ بين حياتَيْن

نُصِبتْ في ساحة السّراي مِنصّةُ الاحتفالِ، وانتشرَ حولَها المَسؤولون الإنجليزُ والمُوظّفون العَربُ ووُجوهُ البلد والوزراء ووفودُ الألويَة الألفُ وخمسُائة شخصٍ، يتطلّعون إلى مَنْ سَيحكُمُ العراق، وفي قلوبِهم خوفٌ وريبةٌ. وفي المساء، ظهرَ الملكُ ببزّتِه العسكريّة، والسّير بيرسي كوكسْ، ببزّتِه الدِّبلوماسيّة البيضاءِ الرّسميّة، وهما ينزلان درجاتِ السّراي، ويَقطعان المَمَرَّ الطويلَ المفروشَ بالسجّاد، مارّيْن بحرسِ الشّرف، اتّجَها إلى المِنصّة، فوقفَ الجميعُ ثم عاودْنا الجلوسَ احترامًا وتبجيلاً. لم يكنْ لدينا سلامٌ مَلَكي أو نشيدٌ وطني، لذا استعنّا بعزفِ لحنِ "ليحفظْ اللهُ الملك" للمُوسيقى العسكرية. وهكذا انطلقَ العَلَمُ العِراقي يُرفرفُ عاليًا على ساريتِه، مع دُويّ المَدافع. يا لها مِن لحظةٍ مؤثّرة أن أرى الملكَ بهالتِه الوَقورة، التي جعلتْ الذين يقتربُون مِنه، يَحْنون قاماتِهم ويُخفضون عُيونَهم عندَما يتطعلّون إلى وجهِه، كاريزما مؤثّرة ومُوحِية، وهو يَسيرُ مُتبخترًا بين الرّجال الذين يَمتَطون الخُيولَ وفتياتٍ يزيِّنَّ رُؤوسَهنّ بالوُرود، وفُرقِ الكشّافة، بمُعدّاتِها الشّبيهة بمُعدّات الحرب، بالبَنطلون القَصير، والدّشاديشِ الفَضفاضَة، والكلُّ مُنبهرٌ بالملك، بلباسِه العَربي وعقالِه المُقصَّبِ وخِنجرِه الذهبيّ المَعكوفِ، المَشدودِ على الخصرِ، وحذائِه الأسودِ ذي الكعبِ العالي، وحرسِه المَلَكي بأزيائِهم الحمراء الزّاهية، مُتنكِّبين بنادقَهم، وثُلّةٍ من الخدم، وسائقين هُنود يَعتمرون الطّرابيشَ الحمراء. طغى الجوُّ الاحتفالي الباهرُ على كلّ شيء، ولَم يتمكّنْ أيُّ شخصٍ أن يَنعزلَ عن الانغماسِ والتلاحُم.

في تلك الأثناء، نهضَ حُسين أفنان، سكرتير مَجلس الوُزراء، وقرأ بيانَ السّير بيرسي كوكسْ: ستّةٌ وتسعون بالمِئة مِن سُكّان العِراق صوَّتوا على انتخابِ الأمير فَيصل مَلكًا على البلاد. وقفنا لتحيّةِ العَلَمِ الوطني فوق السّارية، وصَدحتْ الموسيقى العسكريّة، وأعقبَ ذلك إطلاقُ إحدى وعشرين طلقةَ مِدفعيّة. قلتُ في نفسي إنّني أشهدُ حقًّا تاريخًا فاصلًا بين حياتَيْن، إذْ لم يعرفْ هذا الشّعبُ طعمَ التّصويت على مدى خمسةِ قرونٍ وظلّ هائمًا في فَلك العُثمانيين وخُرافاتِهم. ها أنا ذا أرى حُلمي يتحقّقُ وسطَ ابتهاجِ الجميع: أصبحَ لِلبلاد ملكٌ. وسكَتَ جميعُ المُطالبين بالحُكمِ وتواروا مِن على المَسرحِ الذي مَلؤوه ضجيجًا وصخبًا لأعوامٍ طويلة، رغم أنّ نظراتِهم تغيّرتْ في تلك اللّحظة الحاسِمة، وتوجّهتْ الأنظارُ إلى رأسِ الهَرم، فالكلُّ طامعٌ بالسُّلطة والجاه كما على مرِّ التاريخ. ولكن لا شيءَ ينجحُ بدُون التّصالح والتّسامح. وبعدَ الانتهاء مِن المَراسِم، ذهبتُ إلى البيت، ووجدتُ ماري تنتظرُني بعد إنهاكِ يومِ عملٍ مضنٍ:

ألفُ مَبروك على التَّتويج، يا خاتون. البلادُ كلُّها مُبتهجةٌ بهذا الحدث.

ما هو رأيُك: أستكانة شاي عِراقي تُعدّلُ الرّأس.

أجل. يا خاتون.

وبعدَ تناوُلِ أستكانة الشاي، كتبتُ إلى فلورنسْ أزفُّ لها الخبرَ الجديدَ: عزيزتي: لا أدري كيفَ سَأستطيعُ انتزاعَ نفسي مِن هذه البلاد؟ شعرتُ بالرّضا عن نفسي لأنّ تعيينَ الملك سيُخفِّفُ مِن أعباءِ الإمبراطوريّة في الحُكمِ، وهناك مَهمّاتٌ كبيرةٌ تنتظرُني: المجلسُ التأسيسيّ، والدُّستورُ وغيرُهما. ماذا أقولُ لك؟ هناك مَن هو مُعجبٌ بالملك وهناك مَن يعارضُه. وهذه مسألةٌ لا يُمكنُ حلُّها بسُهولة لأنّها راسخةٌ في أذْهانِ الناس. لكنّنا نخشى أن يتحوّلَ هؤلاء المُعارضون إلى جيوشٍ تَقلِبُ العرشَ الملكيّ على الرُّؤوس وتُشيعُ العنفَ ذاتَ يوم لا سمحَ الله، وتُغرِقُ البلادَ في الدّماء. الناسُ هنا لا يَعرفون مصالحَهم ولا يُدركون أنّ المَلَكيّة هي الضّمانةُ الوحيدةُ لاستقرار بلادِهم مِن مُغامراتِ العسكريّين المَجانين، من هو رئيسُ الجُمهوريّة؟ إنّه ضابطٌ وخلفَهُ تقفُ ثلّةٌ مِن المُنافقين ببَنادقهم.

وأجابتْني فلورنس: هل أنتِ قلقةٌ مِن أوضاع البلد؟

لم أذكرْ لها أسماءَ هؤلاء لأنّها لا تعرفُهم جيدًا، بل اكتفيتُ بأن أقولَ لها: مِن الصّعب أن نُعيدَ نَسْجَ الفُسيفساء لو انفرطتْ، المُجتمعُ العِراقي مثلُ خليّة النّمل، لو ضربَتْها قدمٌ غادرةٌ وبعثرَتْها لا يُمكنُ أن تتجمّعَ ثانية أبدًا، والعِراقيون صعابُ المِراس، يحتسون الشايَ مع الآلهة، وحكّامُهم يَبحثون عن الخُلود. كتبتْ لي: هل أنتِ خائفةٌ حقًا؟ كتبتُ لها: بصَراحة، أخشى على مَصير المَلَكيّة التي تحيطُ بها الذئاب من كلّ مكان.

الخاتون تتجوّل في القَشْلة

لا يعترفُ العِراقيون إلا بتَسمياتِهم، لذا حوَّلوا القَشلاغ إلى القَشْلة، هذه البنايةُ الباهرةُ، بأروقتِها الطّويلةِ، والمُوحشةِ، والخاليَة، والتي تَتَسرّبُ أشعّة الشّمسِ مِن نوافذِها عبرَ المَدخلِ المقوّسِ على غِرارِ واجهةِ المَعْبدِ الرّوماني، بشُرفاتِه المُسنّنة كقلاعِ الخانات وأروقةِ المَتاحف، لا تَنفُذُ إليها حرارةُ صيفِ بَغدادَ اللّاهب، بفضلِ جُدرانِها السّميكة، وسُقوفِها العاليَة التي تُنظّمُ تسرُّبَ الضّوءِ النّافذِ إلى الداخل مثلَ صمّاماتٍ مُثبّتَةٍ على النّوافذ، حيثُ يَفيضُ اللّون الأبيضُ، ويَمتصُّ ألوانَ الحِجارة التي شُيّدتْ مِنها البناية، فتبدو كأنّها مَصبوغةٌ بفُرشاةِ فنّانٍ ماهرٍ. ما آلمَني أنّ أحدَ الخُبراءْ العِراقيّين قالَ لي: تمَّ بناءُ القشْلة مِن أحجارِ سورِ بَغدادَ العبّاسي. يا إلهي! وقَعَ الخبرُ كالصّاعقة على رأسي، كأن يقولُ لكَ أحدٌ أنّ هذا المُتحفَ تمَّ تَشييدُه مِن سورِ الصّين العظيم! اعتُصِرَ قلبي مرَّة أُخرى على مُفارقات التاريخ.

كان العلمُ البريطاني يُرفرفُ عاليًا فوقَ بُرجِ السّاعة التي كانتْ تُنظّمُ حياةَ البغداديّين، ولا تريدُ مُبارحةَ خيالي، أعجوبةُ زمانِها، ساعةٌ بهذا الحَجْمِ فَوقَ منارةٌ بهذا الارتفاع، وبأربعةِ أوجُهٍ، وفي قِمّتها مُؤشّرٌ حديديّ يُوضّحُ اتّجاهَ الرّيح، وأربعةُ أسْهُمٍ مَكتوبٌ على أطرافِها الحرفُ الاوّلُ للاتّجاهات وباللّغة الإنكليزية S N W E أيْ جَنوب، شَمال، غَرب، شَرق. كلّنا يَعرفُ الاتّجاهات وكلّنا يَجهلُها أحيانًا، إذْ مِن الصّعب أن نُسيطرَ على الزّمن، فقد اعتادَ العِراقيّون أن يُعلّقوا في صُدور سُتراتِهم ساعاتِ الجيوب، المَربوطةِ بسَلاسِل، تيمّنًا بالأناقة الإنجليزية. كانتْ هذه الساعةُ تُنظّم نَبضاتِ قُلوبِنا، لكنّ اللّصّوصَ قرّروا إيقافَ الزّمن لأنّهم سَرقوا أجزاءَها وقِطعَ غِيارِها الواحدةُ تلوَ الأخرى كما لو كانوا يُفكّكون الزّمن، نَزعوا كلّ قطعةٍ مِنها كأنّهم ينتزعون الزّمنَ مِن مَعناه. ورغمَ ذلك، كان العراقيّون يفتخرون بأنّ ملكَ بريطانيا المُعظّم جورج الخامس أهدى إليهم هذه السّاعة، مع كتابة حُروف إهدائه بداخلها، تكريمًا لهم. وقبْلَ أن تلَفُظَ أنفاسَها الأخيرة، وتلاقي مَصيرَها الدّرامي، خرجَ رجلٌ شريفٌ، أقدمُ ساعاتي بغدادي وشمّرَ عن ساعدَيْه لإصلاحها وبثِّ الرّوحِ فيها من جديد، وحاولَ ترَميمَها عبثًا، وكان الحزنُ يَنخُرُ قلبَه وهو يراها مثلَ جُثّة هامدة، مُعلّقة في الهواء، تجمّدَتْ عقاربُها، وكأنها تُعلِنُ عن موتِ زمنِ شعبٍ بكامله. ولا تزالُ الطّيور توكّرُ فوقَ هذا البرُج، وتصنعُ أعشاشَها، بجوارِ تمثالٍ لإعرابيٍّ يَمتطي جملاً، وهو يُفصِحُ عن شخصيّة المُقدّم البريطاني جيرار أفيلين ليجمانْ، الذي طعنَهُ بخِنجرِه الشّيخُ ضاري بن محمود وأولادُه في ثورةِ العِشرين، ماثلاً هناك، رسالةٌ لم يَفهمْها جنرالاتُنا، إذ لا تَزالُ ضعيفةً وعاجزةً مهما أُوتيَتْ مِن جبَروتِ القُوّةِ والسّلاح. حَزنتُ كثيرًا. وأنا أنظُرُ إلى بُرجِ السّاعة، وعَقاربِ السّاعة التي توقّفتْ عن الدّوران.

الإمبراطوريّة التي لا تغيبُ عنها الشّمس

ما يَحزُّ في نفسي أنّنا ارتديْنا قِناعَ العُثمانييّن الّذين حاربناهم، وبدأنا نحكُمُ بأدواتِهم القديمةِ، وفي نُفوسِنا نتأرجحُ بين الانتصار والهَزيمة، بين الفوضى والنّظام، عاجزين عن الرَدِّ على السُّؤال: مَنْ هدَمَ أركانَ الإمبراطوريّة العُثمانية، نحن أم انهيارُهم الدّاخلي؟

عليّ أن أستمعَ إلى جميعِ الأنغامِ وكأنّني أمامَ فرقة أوركسترا، أُدقّقُ في كلّ نَغمةٍ موسيقيّة في الجَوقة، وأحاولُ تمييزَها عن الأخرى، وأضبطُ نغماتِ النّشاز التي تُشوّشُ طبلةَ الأذن، وفي الوقت نفسه، أُخفي لُعبتي عن أعيُن الآخرين، لُعبةُ الإمبراطوريَّة على المَسرح، المَحكومةُ بين إرادتَيْ المَلك والمَندوبِ السّامي. وعليّ التوفيقُ بينَهما قبلَ أن يَنفرطَ عقدُ الطّبخة التي حَملناها معنا. وكلّ واحدٍ مِنهما يُلقي المَسؤوليةَ على كاهلي، ويتردّدُ على مَكتبي، مُرتديًا قِناعَهُ أو بالأحْرى أقنعتَهُ، كلٌّ يعبّرُ عن نزواتِه ونَزقِه وغرائزِه. كان عليّ أن أعتذرَ من أنصارِ الجُمهوريّة وأُداري أنصارَ المَلَكيّة، وأُراوغَ بين الطرفَيْن. وبحُلولِ الصّباح، كان عليّ الذهابُ إلى جَلالَة الملك لأرى بماذا يُفكّر، ثم أشحذُ خَيالي في تَسجيلِ وقائعِ اليوم، وترديدِ أسماءِ أبناءِ القبائلِ والعَشائرِ الذين تقاطروا عليّ، ومُقابلةِ كلِّ واحدٍ مِنهم على حِدة، لإقناعِهم بالحُلولِ أو بأنصافِ الحلولِ، الأعيانُ والوُجَهاءُ يتصرّفون كالأطفالِ الذين لا يتوقّفون عن البُكاء إلا بإعطائِهم الألعاب. فُكاهيّون في أعماقِهم، وجادّون في الظّاهر، لهم وَجهان، يَستقبلون المَندوبَ السّامي ويَنحنون له ويرافقون موكبَه بجِيادهم، ويَحضَرون إلى مقرّ دار الاعتِماد البريطاني بكاملِ أناقتِهم، بدَشاديشِهم البيضاء، وكوفيّاتِهم الحُمْرِ وعُقُلِّهم السود. وكنتُ حائرةً تجاهَهم، هل أكونُ ناعمةً أم قاسيةً معهم؟ يردّدون بأنّني المرأةُ الحديديّة التي يَهابُها الجميعُ، وأضحكُ في نفسي: ألا نحتاجُ إلى هذه الصَّلابة عندما نصنعُ ملوكًا للآخرين؟

إنهم معلّقون بين خيطَيْن سماويَّيْن غامضَيْن هما: القدرُ والحربُ. الآلهةُ صنعتْ مُلوكَهم، وأنا لستُ إلهة، ومَصيري يشتبكُ مع مَصيرِ الأميرِ فيصل بقوّة السّحر والاحترام، إنّه مِن مَخلوقاتي الجميلة، وعليّ الانسجامُ معها. وُلدَتْ البشريةُ هنا وبُعِثَ الأنبياءُ وانطلقتْ سفينةُ نوحٍ بأشرعةِ الخَيال والإيمان، فيما يَجهلُ الجُنودُ القادمون مِن وراء الحُدودِ قيمةَ هذه الأرض، ويَدوسون أرضَها المقدّسةَ بِبَساطيرِهم الثقيلة، دون أن يُفكّرَ أحدٌ منهم بما يَكمُنُ في هذه الأرض مِن كُنوزٍ وآثار، لكنّني أحرصُ على الحِفاظِ عليها مِن اللّصوصِ الألمان والفرنسيّين.

مزاجُها الورديّ وشعرُها الفضيّ

وجدتْ الخاتونُ في كلماتِ الرحّالة ضالّتَها، ومن بينهم الرحالّةُ العربيُّ الأنيقُ الذي عَبَرَ الصّحراءَ لِلِقاءِ عبد العزيز بن سعود لكنّه فضّلَ النُّزولَ في محطَّتِه الأولى في بغداد لِلِقاء الملكِ فيصل في قصرِه. كان ذكيًا لدرجةٍ شَعَرَ بغضبِ الملكِ لأنّه لم يكنْ راضيًا عن شُروطِ المُعاهدةِ الأنجلو ـ عِراقية.

ضحكتْ وهي تُواصلُ قراءةَ ما كتبَه هذا الرحّالةُ في وصفِها:

وجهُها أرستقراطيٌّ، يَميلُ إلى الطّولِ والقُوّة، ولا يَتناسبُ شَعرُها الفضّيُ مع مِزاجِها الورديِّ، لغتُها العربيّةُ ساحرةٌ ولَبِقةٌ، وكلماتُها تَتدفّقُ مثلَ مَوجاتِ النّهر، رشيقةٌ وخفيفةُ الحَركاتِ، تُدخّنُ بشَراهة، لم تتَردّدْ في مُرافَقتي إلى الصّحراء لمُقابلةِ الملك فَيصل الأول. ثُمّ استقبلتْني في منزلِها، وفي مكتبةِ دارِ السّلام التي أسّستْها. ثم طلبتْ منّي البقاءَ أيامًا أخرى، لكنّني كنتُ ذاهبًا إلى البَحرين لِلِقاء عبد العزيز بن سعود، يرُاودُ ذِهني أنّها ابنةُ صِناعيّ عملاقٍ وحفيدةُ أكاديميّ معروفٍ، يَفهمان اندفاعاتِها وأفعالَها الجَريئةَ بين طبقةِ النُّبلاءِ والشُّرَفاء. ولكي تتَغلّبَ على خَجلِها الدّاخلي، تُبادِرُ بالكَلام، وتَفتحُ المَوضوعاتِ تِلوَ الأخرى، بدُون ملَلٍ أو كلَلٍ، وتَحصلُ على ضالّتِها بالنّقاشِ والدِّبلوماسّية، لا بالحَربِ، وتَصفُ رجالَ البلاطِ: إنّهم إقطاعيّون مُتخلِّفون، ومُحافِظون يَنحدرون مِن التّقاليدِ الرّيفيّة. قالتْ لي: أجلْ. الملكُ فَيصل الأوّل غيرُ راضٍ عن البريطانيّين، وعبدُ العزيز بن سعود يَطمحُ أن يكونَ سيّدَ الصّحراء مِن أهوارِ العِراق إلى سُهولِ سُوريا. هؤلاء البشرُ تَعلّموا الصَّمتَ مِن الصّحراء، وتَحصَّنوا في مَمَالكَ صغيرةٍ، دُون أن يُفكّروا بالمَمْلَكةِ الكُبرى التي تَجمعُ شَتاتَهم، ولا أحدَ مُهيَّأٌ لِلتّضحية.

أحبسُ في نَفسي ضحكاتٍ وقَهقَهاتٍ وآلامًا في شُرفةِ مَنزلي وأتلقّى شَكاواهم ليلَ نهار، وأستمعُ إلى أنينِهم الخافتِ لأجعلَ مِنه نشيدًا لهذه المَملكةِ التي يَحلمون بها بعد أن عرفوا المَمالكَ في سُومر وبابِل وآشور..

واستمرَّتْ بالقِراءَة:

لم يكن يُهِمُّها أن يتلطّخَ ثوبُها الباريسيّ بوُحولِ هذه الأرض، لكنّها تُصرُّ على أن تبقى سيّدةَ البلاط، تَتمخترُ في بيتِها المُطلِّ على نهر دجلة، ولا تتذكّرُ مِن نَهر التايمِس سوى الكآبة. التصقتْ بها الهيبةُ والوقارُ، بقامتِها الطّويلة، ووَجهِها الإرستقراطيّ، وشعرِها الفضيّ، ونُطقِها الكلماتِ العَربيّة.

جاء هذا الرّجلُ إلى الشّرق، حاملاً حقائبَه، يبحثُ عن الرُّوح في الوُجوه التي يُقابلُها، يبحثُ عن حقيقةٍ أخرى مُتواريةٍ في هذا المكان، وهو لا يَملُّ مِن لِقاءِ الأُمَراء والمُلوك ويكتبُ عنهم.

وواصلتْ القِراءَة:

إنّها لطيفةٌ ووَاسعةُ المَدارِكِ وحَسَنَةُ التصرُّف، تَتَشبّثُ بأَنَفَتِها وكِبريائِها، لكنْ لا يُمكنُ تبريرُ تصرُّفاتِها المُتناقِضةِ كامرأةٍ تقليديّة اخْتلطَتْ بأعلى الناس مراتبًا، وتَعاملتْ معهم على قَدَمِ المُساواة وعبّرتْ عن خيبةِ أملِها في جَدِّها منذُ صِغرها عندَما حَملَ لَقَبَ بارون، قائلةً له: كم تمنَّيتُ أن يكونَ له الشرفُ دون اللّقب. يكفي أنّها أتقَنَتْ قواعِدَ اللُّعبة، وهزّتْ عرشَ العُثمانيّين، وعزَّزَتْ مكانَتَها بين المُستائين والغاضِبين مِن الاحتلال، هي نحنُ، ونحنُ هي. ولَطالَما اخْتمرَتْ الثوَّرةُ في عُقولِ العِراقيّين ونُفوسِهم في انتظار هذه السيّدة.

وتأملُ وهي تقرأُ كلماتِه:

لم يَتأرجحْ المَنطقُ الاستعماري قيدَ أُنمْلةٍ مِن مكانِه في عُيون هذه المرأة التي تلعبُ بالنّار كَطِفلة لا تعرفُ أنّ اللّهَبَ الأزرقَ رغمَ جمالِه وتألُّقِه، يَحرقُ أصابِعَها أيضًا بقُوَّة اشتعالِه، لكنّ حُضورَها يُعادلُ حُضورَ إمبراطوريّةٍ بكاملِها، وهي بعَثتْ المُعْجزةَ في الأماكِن التي تَزورُها، بَصَماتُها على شوارعِ بَغدادَ وأَزِقَّتِها لا تزولُ، أبهرتْ الأفَنديّة بفَصاحَة كلامِها وبلاغَتِها. كادتْ أن تَتحوّلَ إلى زعيمةٍ روحيّةٍ لهم بجُرأتِها وحَدْسِها وفِطنتِها. تَعاملتْ مع بشرٍ أتقنوا المُواربَة والاختفاء، فتذوّقتْ طَعمَ فَظاظَةِ التاريخ بمَرارة، وهي تسعى لِحِماية المَلكِ من الشّرُور.

أجل يا صَديقي الرحّالة. أصبحَ تَدبيرُ البِلاطِ وتنَظيمُ حياةِ الملكِ واجبًا على عاتقي. لا أَظُنُّ أنّني قادرةٌ على تَحمُّل رُؤية الحُلمِ يَتبَخّرُ أمامي بعدما تركّزَتْ المبادئُ السّاميةُ التي آمن بها الملكُ، رغمَ ظُهورِ الإشاعاتِ الخَبيثةِ مِن حَولِه. إنّه يُصغي بِانتباهٍ إلى رِجالٍ عَمَدوا بالأمسِ إلى إعلامِ الأتْراك أثناءَ الحربِ بِأَسماءِ شخصيّاتٍ عربيةٍ خَدمتْ البريطانيّين، وفي حالَةِ عَودةِ الأتراك لا سمحَ الله، سَيَعْمدُ هؤلاء الوشاةُ إلى فَضْحِ مَنْ خَدمَ الملكَ أيضًا. هل يجبُ على الملكِ أن يَعرفَ كلَّ شيء؟ كانوا يُخفون عنهُ الخَطرَ لِكي يُحسِنَ الظّنَّ فيهم، ويُضَخّمون ذلك، لكي يُعطوا لأنفسِهم أهميّةً. اعْتادَ الملكُ أن يَلتمِسَ النُّصح منّي، لأنّه يَعلمُ أنّ الأخبارَ التي تَصلُ إليه عن طريقي أكثرُ وثوقًا وإخلاصًا، وكذلك مُستشارُه كورنواليسْ والنّقيب كلايتون وتشرشلْ، كنّا نُفكّرُ بإلغاءِ الانتدابِ والاعترافِ باسْتِقلالِ العِراق كما كان يَطمحُ ويُريد.

عاشَ الملكُ وسطَ مَشاعِرِ الغَيرةِ والحَسَدِ في نُفوسِ أفرادِ عائلتِه، لكنّه ظلَّ صامتًا لا يُعبّرُ عمّا يَجولُ في أعماقِه مثلَ بئرٍ لا نرى عُمقَ مياهِها.

مِن كَواليسِ المسْرح المُظلم

كنتُ أتَخيّلُ أُفُقَ الصَّحراء أشكالاً مِن الكائنات التي تتُاديني في البراري والصَّحراء ومِن أعلى قِمَمِ الجبالِ بأعلى صَوتِها. في تلك المَراعي المُمتدّة على مدى النَّظر، تهجعُ ميزوبوتامْيا بِطُمأنينَة بعدَ أن تَخلّتْ عن جَميعِ أسْلِحَتها وغَزَواتها. يتَردّدُ الصّدى ليُضفي على حياتي القلقَ، فأبدو مثلَ بَطَلةٍ تائِهة، أرتدي المُوسلين بألوانِه البرّاقة مثلَ ساموراي يتحدّى الشمسَ بالنّظرِ إليها. كنوزٌ تَسبَحُ في رُوحي الصّامتة، أبُادلُها الحُبَّ السّري، وأتمَنّى أن تَخرُجَ الحضاراتُ العظيمةُ مِن الظلام. لكنّ ما أَقْلَقَني أنّ أَمينَ عاصِمَةِ بغداد، أَرْشَدْ العُمري، يُريدُ أن يَهدمَ خان مُرجان، واستعرَ بي الغَضبُ وأَوْقَفتُه عندَ حُدوده: يا رجُل، كيفَ تَتَجرّأُ أن تَهدِمَ هذا الأثرَ القديمَ؟ وفي الحَالِ، تَراجعَ عن قَرارِه، لكنّه في كلّ مرّة، يتَحيّنُ الفُرصةَ لِحَمْلِ مَعاولِه وتَهديمِ أيَّ شيء. مَنْ يَدري ربّما يَظهرُ بعضُ المُتَوحِّشين يومًا ويُدمّروا كلّ هذه الكُنوزِ والآثارِ ويَعتبرونها أصنامًا؟

أمضيتُ الصّباح في مَكتبي، أُفكّرُ بحُدودِ البلدِ الجَنوبيّة، الصَّحراء التي لا تنتهي مع النّظر، والتي قَطعَها الأباطرةُ ليَهدموا كلّ ما هو صَرْحٌ قائمٌ، ويَذرون أشلاءَها مع الرّياح، وفي وُجوه الحُكّام والسّلاطين.

كانوا يأتون إليّ، ويَقولون لي إنّ خيوطَ مُؤامرة تُحاك ضدّي في الكوَاليس. بينما كنتُ عاجزةً عن فِعْلِ أيّ شيء، ولا أَمتلكُ سوى النّظرِ إلى جَريانِ نَهرِ دِجْلة: أيها النهرُ، يا أعظمَ أنهارِ العالَمِ هدوءًا وهيجانًا وألمًا مثلَ أرْواحِ أبنائِكَ التي لا تَعرفُ الثّباتَ والاستقرارَ، ولا نَعرفُ متى تَهدأُ ومتى تَثور؟ وهذا ما يَجعلُنا ننامُ بقَلَق، ونَستيقظُ بألَم. فَمي جافٌّ، ظامئ لكأسٍ مِن نهر دِجلة.

الذُبُّ الأكْبرُ يُحدّقُ بي مِن السّماء! كان لمَعانُه شديدًا رغمَ تَواجُدِ بدرِ رمضان، وبين النّومِ واليَقظةِ والحَيرة، استحالتْ الدّنيا إلى ظلامٍ دامسٍ، ودُهِشتُ لِرُؤية آخرِ الخُسوفِ يبتلعُ القَمرَ، بينما يتلاشى قِرصُه الذّهبيُّ، ويتحوَّلُ إلى لونٍ نُحاسيٍّ يبعثُ على الكآبة. وتَساءلتُ: هل الشيطانُ هو الذي أَخفى القمرَ أم التهمَهُ الحوتُ؟

يعودُ القمرُ إلى الظُّهورِ بعدَ غيابٍ طويلٍ، وينسحبُ الشّيطانُ على مَهلٍ إلى أسفلَ في حالةِ غضبٍ، ثم يعودُ البدرُ، ويستولي على لمَعَانِ النّجومِ في سماءِ بغداد. صورةٌ احتفظتُ بها منذُ أيّام الطّفولة، ولا أريدُ مُفارقتُها أبدًا. السّماءُ أكثرُ صفاءً والنورُ أكثرُ سُطوعًا، بكلّ ألوانِه وضِيائِه وغرائبيّتِه، ولَيالي بغَدادَ المُقمرةُ، أعجوبةٌ، بهالةِ ضِيائِها التي لَطالما أَغرتْني في الخُروجِ إلى الحَديقة، وتَشْذيبِ أشجارِها في هدْأةِ اللّيل. ومِن شِدّة ارتفاعِ دَرَجاتِ الرّطوبةِ، أصعدُ إلى سطحِ المنزلِ، هربًا مِن حرارةِ الغُرف، لأنامَ مثلَ البغداديّين، على سَريري المُحاطِ بالكُلّة الشفّافةِ التي تَقيني مِن لَسْعاتِ البَعوضِ، ولا تنسى ماري أن تضعَ بجوارِ رأسي قارورةً فخّاريةً مِن الماءِ الباردِ لأطفئَ بها ظمأ اللّيل.

فكّرتُ في تلك الليلةِ، أنّني على مَوعدٍ لزيارةِ المَلكِ في قَصرِه على شاطئ دِجلة مِن الشّرق، ليسَ بعيدًا عن مكانِ إقامَتي، وحَلمتُ أن أذهبَ إليه بزَوْرق، مُختصِرةً الطريقَ البرّي الطويلَ المُمِلّ، على أجنحةِ دِجلة. اعتادَ الملكُ أن يَستقبلَني بذراعيْن مَفتوحيْن عندَ مَدخلِ القصرِ ونَتداولُ الأحاديثَ ويُريدُ أن يعرفَ كيفَ تُفكرُ بريطانيا العُظمى لأنّ بعضَ الألْسُنِ تَناقلتْ سِرًا أخبارًا عن خَرابِ علاقاتِنا. وفي مَجلِسِه الفَخم، مُحاطًا بكبارِ ضُباطِه وقادتِه، قالَ في إطراءٍ أخجلَني:

هذه المرأةٌ مِفتاحُ بريطانيا في الشّرق، ومِفتاحُ الشّرق في بريطانيا.

انتبهَ الآخرون.

نحنُ نخشى هَيَجانَ القبائلِ والعشائرِ أمزجتُهم متقلِّبة، فَهُم أوّلُ مَن غَدرَ بي عندما تخلّتْ عنّي فرنسا.

ضَحِكَ الجميعُ ولكن بحَذر.

نظرَ إليّ الملكُ، قائلاً:

ما هو رأيُكِ، يا خاتون؟

صاحبَ الجَلالة أنتم على حقّ. لذلك نحن نُركّزُ على القَبائِل والعَشائِر، فَهُم لا يُفصِحون عن أفكارِهم بِصَراحة: هم يتأرجَحون بين الوَلاء والخِيانة، الشّجاعة والجُبن، الإقْدام والتردُّد.

يَعني إنّهم بشرٌ متقلبون..

أجلْ يا صاحبَ الجلالة.. نُحاولُ نحن أن نُمسكَ العَصا مِن الوَسَط.

سادَ صمتٌ على القاعة، وقد تَمَلْملَ بعضُ رُؤساء العَشائِرِ الذين كانوا حاضرين المَجلس. ، لكنّه لا يُمكنُ أن نَخدعَ الملكَ بكلامٍ مُزيّفٍ. ورُبّما إصراري على إنشاءِ المَلَكية يعودُ إلى مَحبّتي الكبيرةِ لِلملكِ منذُ أن رأيتُه: بقامتِه الطّويلةِ، وعباءَتِه الفَضْفاضَة، وعِقالِه المُذهّب، وكوفيَّتِه المُدلّاة على الكَتِفيْن بوقارٍ وهَيْبة، وابتسامتِه السّاحرة المُقنِعة، إنّه رجلٌ اختارَه القَدَرُ لِيكونَ زعيمًا، يجمعُ بين الحِنْكةِ والاعتِدالِ والحِكمةِ والكِياسَة، وأناقةِ الفرنسيّين وحِنكةِ الأتْراك، ودَهاءِ الفُرْس. دقيقٌ للغاية، إذا ما سافرَ إلى الصَّحراء، اصطحبَ معه جميعَ أدواتِ المائدةِ والأثاث، ولا يخرجُ إلا بِهِندامِه الأنيق، بِبَدلاتٍ مِن روما وباريس ولندن. وأجملُ ما فيه أنّه لم يكُنْ متدينًا، بل رجلٌ عَلْماني، مُعجبٌ بأفكارِ الكاتبِ الفرنسي أناتولْ فرانسْ الذي التقاهُ بعدَ أن أصبحَ ملكًا، وتبادلَ معه الآراءَ، رجلٌ عَشِقَ البحرَ الأحمرَ، وبحرَ مَرْمَرَة، وما على شواطئِه مِن قُصورٍ عُثمانية. صامتٌ، ونظراتُه تسبُرُ أغوارَ النّفسِ البشريّة.

قال لي: إلى أين ذهبتِ بهذا الشّرود؟

كنتُ مضطّربةً وأُدخّنُ بشراهةٍ سيجارةً تلوَ أخرى، وأُواصلُ الكلامَ بدون رابط، آنذاك هَمَسَ

في أُذني، فانفجرنا في ضحكةٍ صاخبةٍ ملأت القاعة، لم يَتجرّأ أحدٌ أن يسألَ عمّا قالَه لي.

كان الحاضرون جميعهم يَسْتحسِنون وُجودي بينَهم، وعادةَ ما ينشرحُ الملكُ ويُطيلُ في الأحاديثِ بوُجودي، ولم أكُن أُعيرُ اهتمامًا للإتيكيت بوضعِ رِجلٍ على رِجل، دُون أن أُزعجَ أحدًا، حتى إنّ رئيسَ المراسم قال:

إنّ وُجودَ الخاتون يُخفّفُ مِن جُمودِ القَصر.

وأضافَ آخر:

إنّ طاقَمَ المُوظفين والخَدمِ يتحبّبون إليها كثيرًا، ويُقدِّمون لها كلّ ما تحتاجُه دون أن تَطلُبَ منهم.

أظهرَ الملكُ مَواقفَهُ المتصلّبة في تلك الآونَة برِفضِهِ تَوقيعَ المُعاهدة بين إنجلترا والعِراق.

يا إلهي! كلُّ شيءٍ مُهدّدٌ بالانهيار.

وتساءلتُ: لماذا يَتوافدُ القادمون والزّائرون على المَلك، هل جاؤوا مُبشّرين بالوحدة العربيّة، أم لإضرامِ نارِ الثورة علينا؟

كان الملكُ غاضبًا لأنّ المَندوبَ السّامي وقّعَ على اتّفاقية سايكس – بيكو التي نكَثتْ بالالتزام البريطاني بِمنحِ العربِ حقَّ تَقريرِ المَصير بعدَ هزيمةِ العُثمانيّين.

حاولتُ أن أُقلّلَ مِن فَظاظةِ القادةِ والحُكّامِ البريطانيّين في التّعامُلِ مع العربِ لأنّهم يَتَصرّفون أحيانًا بِدُون مَعرفة، وكان عليّ أيضًا أن أبذُلَ جهودًا كبيرة لأُقنِعَ الأعيانَ والوُجَهاءَ العِراقيين بأنّ بريطانيا سَتَبقى مُخلصةً لهم.

الأسودُ.. والأحمر

أثناءَ زيارةِ شاه ايران العِراق فُرشتْ له الطّرقاتُ والأسواقُ بالسَّجاجيدِ احتفاءً به، فيما حَرُصتْ المِسْ بيل أن تُقابلَ رئيسَ تَشريفاتِه وَزيري دوربار في الكاظميّة، تَزدحمُ في قلبِها المَخاوفُ والشّكوكُ: يا إلهي! ماذا نَفعلُ لو تَحالفَ السنّةُ والشيعةُ؟ الدّين، هذا السِّحرُ الأسودُ يَجلبُ لها القلقَ. ولا تَعرفُ أين هي حدودُ الدّين وأين هي حدودُ السِّحر؟ الماكينةُ الصّدئةُ التي تُحرّك الجُموعَ والمَواكبَ التي لا نهايةَ لها مِن الأعظميّة إلى الكاظميّة لِلمُشاركةِ في العَزاء، والشّعراءُ يُلقون القصائدَ في ساحاتِ بَغدادَ وكَربلاء والبَصرة، احتجاجاتٌ عارمةٌ دامتْ عشرةَ أيامٍ. لا أفهم شيئًا مما يَحصل.

هل هؤلاء هم الشّعبُ ذاتُه الذي نتعاملُ معه منذُ سنوات؟ اضطّربَ الجميعُ وفَقَدَ بوصلتَه مِمّا دفعَ فرانك بلفورْ إلى القَبضِ على الشّبابِ المُتمرِّدين، ودقَّ جَرَسَ الإنذار. أنصارُ الشّيعة، وقبيلةُ شُمّر وراءَ هذا الشّغب. كان نجمَ الشّيعة في الكاظميّة السيّدُ مُحمد الصّدر. احتار السّير بيرسي كوكسْ، ولا يعرفُ ماذا يفعلُ، أيّامٌ عاصِفةٌ، الكلُّ هائجٌ ومُتوتِّر، والشّارعُ لا يُطاق، عاشوراء وذكرى استشهادِ الحُسين، والحِدادُ في ذورتِه، ولا يُسمحُ للأوروبيّين الدُّنوّ مِن هذه التّظاهرة لكنّني غامرتُ بالذّهاب، وأنا برفقةِ الملكِ الذي هيّأ له السّيد جعفر عطيفة، رئيسُ البلدية شبهَ مَقصورة في ساحةِ المَسجِد، لمُشاهدة تمثيليّة قَتلِ الحُسين أمامَنا، أقولُ تمثيليّة لأنّ العِراقيّين يُسمّونها التّشابيه:

هجمَ أتباعُ يَزيد، وأشعلوا النّارَ في خِيَمِ أتباعِ الحُسين، وقَطعوا رؤوسَهم، فيما تَتَوالى المواكبُ تلوَ الأخرى على المكان، ظهرَ فدائيّو الحُسين، اللّطّامون على الصُّدور العاريَة، والطبّارون بالقامات على الرُّؤوس، في ومضةٍ سريعة، أدركتُ: لماذا كان الأتراكُ يَتركونَهم يَضربون أنفُسَهم بالقاماتِ والسّيوفِ كما يشاؤون حتى تَسيلَ الدّماءُ من رُؤوسِهم الحَليقةِ، وتظهرَ جلدةُ الرّأسِ، فيَعمَدون إلى تَشريطِها بالقامةِ مرّاتٍ ومرّات حتى يزدادَ النزيفُ وتَتَدّفقَ الدماءُ وتَغمرَ الوجوهَ. يا إلهي! وهنا يرُبّتُ الضّاربُ بيدِه على رأسِ النّازفِ، ويَمسحُها بِصدريَّتِهِ البيضاء، فيُحدِثَ مَظهرًا مُذهلاً مِن التخضُّبِ بالدّم، وتتشبّعُ ملابسُهم بها مِن الخَلْفِ مثلَ دمِ الخِراف، ويَندفعون إلى خارجِ المَسْجِدِ، يُلوِّحوّن بِقاماتِهم وسَكاكينِهم وسُيوفِهم، ويُسارعُ رجالُ الشّرطةِ إلى أخذِها منهم لكي لا يُؤذوا أنفُسَهم في نوبةِ حَماسٍ وهَيَجان. يا إلهي! لم أرَ صورةَ الإسلامِ في ذِهني هكذا أبدًا. تَوحُّشٌ لا مثيلَ لهُ إلى درجةِ أنّ قاتلَ الحُسين في التّشابيه، هَرَبَ واختفى من غَضبِ الجَماهيرِ التي تتَماهى مع دورِه إلى درجة اعتقدوا أنّه القاتلُ الحقيقي، الذين أصبحوا لا يُفَرِّقون بين الواقعِ والخَيالِ، وأرادوا قتلَهُ في السّاحة. هل خرجَ قاتلُ الحُسين مِن على صَهوةِ جوادٍ مِن الزّمن الغابر؟ لمَ يكنْ الإنجليزُ المُرافقون لنا يفهمون شيئًا مِن هذا المشْهدِ الدّامي، حتى سألَني أحدُ القادة: لماذا يَفعلُ الناس بأنفسِهم ذلك؟ أجبتُه لأنّ الحُسينَ ولِيَّهم الصالحَ قُتل. متى قُتل؟ قبلَ ألفٍ وأربعمائة عام. وما زالوا يَتذكّرون ذلك؟ أجل. فيما النساءُ يَلطُمنَ على صُدورِهنَّ ويلطّخنَ رُؤوسَهنَّ بالطّين.

بعد ذلك، قامَ رئيسُ بلديةِ الكاظميّة بدعوتِنا إلى تَناوُلِ الغداء، دخلْنا زقاقًا ضيقًا، مُتوجِّهين إلى بيتِه، نَحتمي بالظلّ، فيما ينتشرُ باعةُ الخبزِ والباقلاء في عَرضِ بضاعتِهم. فقلتُ لهم: عَوافي. فَردّوا عليّ: عافيتَيْن.

وحينما عُدنا إلى مكانِنا بعدَ الغداءِ أوْشكَتْ التّشابيهُ على الانتهاءْ في ساحةِ المسْجدِ، وهَرعَ المُمثّلون يَقودون خيولاً تَكسوها الأقمشةُ المُقصّبةُ وتَعلوها هَوادجُ النساء، الملأى بالأولادِ والبناتِ الصغار مَسرورين لإسهامِهم في التّمثيل، تُرفرفُ أعلامُهم السوداء، يَحملون الجُثثَ الدّاميةَ فوقَ النُّعوشِ، يومُ سوادٍ طاغٍ، كلُّ شيءٍ أسودُ، حتى أفقُ السّماءِ تلبّدَ بالغيومِ السّوداء، وأصبحَ مِزاجُنا أكثرَ اسودادًا من باذنجانةٍ ذَابِلة. آنذاك استبّدتْ بنا رغبةٌ واحدة: أن نعودَ إلى بيوتِنا بأسرع ما يَكونُ والتخلُّصُ مِن الدّماء. كانَ الملكُ في مِزاجٍ حزينٍ لم أرَهُ فيه مِن قبلُ أبدًا. أشارَ بيدِه للحرسِ بالخُروج، وتحرَّكْنا بالسيارة مِن بعدْه، خارجين مِن ذَلك الجوِّ الخانقِ، ولم أَذُقْ طعمَ النّومِ في تلك الليلة. ورحتُ أتساءلُ: هل يَعصفُ الجُنونُ بالمَملكة التي أُريدُ لها أن تَزدهرَ كما كانتْ أيّامَ حَضارتِها العظيمة؟

بلدٌ يَملكُ مِن الثروات ما يَجعلُه أغنى بُلدان العالمِ، لماذا يتصرَّفُ أبناؤه هكذا؟ وهُم يُطلقون على أنفسِهم السّادةَ والأَئِمّةَ بَدَلَ أن يكونوا مُواطنين ورجالاً، مُتوهّمين أنّ تلكَ الطقوسَ والشعائرَ تُعزّزُ من دينِهم بل على العكسِ تجعلُهم أكثرَ فقرًا وعزلة وتهميشًا، ولعبةَ دمى بيدِ أصحابِ العَماماتِ السّوداء. يَحلمون بالجنّة وكانتْ لهم جنّةٌ على الأرض: بابل. خَشيتُ أن يأتيَ يومٌ يُصبحُ فيه العراقث كلّه أسودَ كالحًا، إذا ما استمرَّ الناسُ في هذه التمثيلة الدامية، وهذه الحفلة الماجنة التي يَحضرُها الدّمُ والشيطانُ والسِّحرُ والشعوذاتُ والعَماماتُ السّوداءُ والرّاياتُ المُلطّخةُ بالدّماءِ يا إلهي! لا أَتخيَّلُ لحظةً واحدةً ماذا سيَحصلُ لهذا البلد لو استلمَ هؤلاء النّاسُ السُّلطة ذاتَ يوم؟

قالَ لي صديقي الحاج ناجي:

هؤلاء المساكين لا يَضربون رُؤوسَهم بالسُّيوفِ فقط، بل يَحملون أموالَهم إلى الأَئِمّة: الخُمس.

كنتُ أخشى أن يَتحوّلَ العراقُ إلى خَيمةٍ سوداء، ويَمحوا الضّحكةَ من شِفاهِ الناسِ والأطفالِ، ويُخرِّبوا البلدَ الذي علَّمَنا القراءةَ والكتابةَ، ويجعلونا أُمّيين ولطّامين وعُميان، همجيةٌ آتيةٌ مِن القُرون الوسطى، أولياءُ مِن الأزمنةِ الغابرة، لا يتردّدون في أن يَقتلوا أيَّ مُعارضٍ لمَراسمِهم وطُقوسهم. كم أنا حزينة أن أرى كل ذلك أمامَ عينيّ لا أن أقرأَه في الكُتُب. استغربَ جلالةُ الملكِ وهو المُسلمُ، مِن تلك الطُّقوسِ وانزعجَ منها، وبدا حزينًا لِرُؤيةِ تلك المَشاهدِ القاسيةِ، فكلُّ ما هو مُبهجٌ يُحوّلونَه إلى مَأساة، حتى بَياضُ النهارِ يُحوّلونَه إلى سَوادَ اللّيل، ولا ترى عُيونُهم سوى لونٍ واحدٍ: الأسودُ، الأسودُ، الأسودُ..... إلى ما لا نهاية في درجاتِ الظلام. لكنّ الملكَ، وبِحُكمِ مَنصبِهِ كان عليه أن يُجاملَ أهلَ الشّيعة، والتقرّبُ منهم، حتى اختارَ يومَ الغَدير، يومَ الثّالثِ والعِشرين مِن أغسطس، أي خلافةُ عليّ المُفترضَة للنّبي كما يَتوهَّمُ الشّيعة، يومًا لِتَتويجِه، مع الحِرصِ على تَقديمِ العَونِ الماليّ إلى مَواكِبِهم ودفعِ تكَاليفِ التّعزيةِ على نَفقَتِه في صَحنِ الكاظميّة مِن أجل إرضائِهم. هل يُمكنُ إعادةُ ألفٍ واربعمائة عامٍ إلى الوراء؟ يا صاحبَ الجَلالة، لو نصَّبنا الشّيعة في الحُكمِ لأَصبحَ العراقُ طائفيًا مُخيفًا.

فأجابَني: لا يَصلُحُ الشّيعة لِلحكمِ بل لِلمُعارضة فقط.

أي ربٍّ مأساويٍّ هذا؟ لا نَدري مِن أين جاؤوا بتلك الشّعائرِ والطّقوسِ؟ إنّهم يَرون قاتِلَ إمامِهم في كلّ الوُجوه المُبتسمة. إنّها فَظاظةُ التاريخ وعزلتُه؟ اللّعنة!

6

---

31 يوليو 2015

ستُّ شخصياتٍ تبحثُ عن امرأة

فيرناندو يقولُ هل مِن المعقولِ أنّكم تعرفون لويجي بيرانديلو ومسرحيتَه ستُّ شخصيّات تبحثُ عن مُؤلّفٍ أجل يا صديقَنا عَرفناه عندما كنّا طلبةً في أكاديمية الفُنونِ الجميلةِ ومَثّلنا مَسرحيتَه لكنّ الأوباشَ يُحاولون مَحوَ أيَّ أثرٍ للمَسرحِ أو لِنادٍ أو لِصالةِ سينما أو أو أو يا فيرناندو ما يَهُمُّنا الآن هو ستُّ شخصياتٍ تبحثُ عن امرأةٍ اكتملَ ما يُطلقُه علينا الآخرون حلقةُ المَجانين مع فيرناندو، ورُحنا نَبحثُ مثلَ شخصيّاتِ بيراندياللو عن مُؤلّفٍ لم نَخترعْ شيئًا المُصادفةُ وحدَها جمعَتْنا بفيرناندو ونحن نَتساءلُ لماذا نَجحتْ الخاتون في تسجيلِ سيرةِ الرّجالِ ولم يَتمكّنْ أيٌّ منّا مِن تسجيلِ سيرتِها هههههههه سؤالٌ خطيرٌ هل كانت عبقريتُها أكبرَ مِن أن يَسردَها رجلٌ واحدٌ إنّها وضعتْنا في مَتاهة إذًا لا أوّلَ لها ولا آخر مَن يُجيبُ على هذا السؤالِ أنتَ يُونس أنتَ نُعمان أنتَ هاشِم أنتَ أبو سُقراط أنتَ مَنصور أنا فيرناندو لا جدوى

نحن نتّكئُ على عَصا الأعمى في الظّلام أو نتشبّثُ بِبوصلةٍ في رمالِ الصَّحراء التاريخُ ليسَ روايةً والرِّوايةُ ليستْ خادمةً للتاريخ هل استسلمتْ مِسْ بيل لِخيالاتِنا أم نحنُ مَن استسلمَ لها هذه المرأةُ السّاحرةُ حاربتْ الألمانَ والفرنسيّين لأنّهم جاؤوا لِسرقةِ آثارِنا يا جماعةَ الخير حاولَ الرسّامون أن يَرسموا عينَيْها الزَّرقاوَيْن المائلتيْن إلى الخُضرة دُون جدوى وكذلك أحاسيسُ القلقِ والطّمأنينَة في قامتِها النّحيلة لورنسْ العَربْ هذا الخبيثُ قالَ عنها إنّها مزيجٌ مِن قامتَيْن لرجلٍ وامرأةٍ في آن واحد صدرُها مُنبسطٌ لا أثرَ للنّهدين تكسو عظامَ جسدِها أثوابٌ خفيفةٌ شَفتان رقيقَتان تَدُلاّن على الصّرامةِ ولا توحِيان بأيّ شَبَقٍ جنسيّ مثلَ الشِّفاه الغليظة أين هذه اللوحةُ في الواقعِ أم في الخَيال يُقال إنّ أحدَ الرسّامين أبدع في رسْمِ لوحَتِها أين هي اللوحة هل ضاعت وهناك من نحتَ لها تمثالاً أين هو التمثالُ هل ضاعَ هو الآخرُ يُقال إنّ تِمثالَها أُعيدَ إلى المُتحفِ الوطني ولأنه لا يَحملُ أيَّ بِطاقةِ إدخالٍ اختلطَ معَ آلافِ القِطعِ الأثريّة المَحفوظة في أقبيةِ المُتحف وخَزائِنِه من دون أن ينتبهَ إليه أحدٌ والبريطانيون وعدوا بِمكافأةٍ ماليةٍ مُجزيةٍ لمَنْ يَعثُرُ عليه ماذا نفعلُ باللّوحةِ والتِّمثالِ الآن لا شيء يا جماعة علينا أن نُراجعَ ما كتبَتْهُ في رسائلِها تَهاوتْ العُروشُ وتَوالتْ الانقلاباتُ مُنذُ رحيلِها ولا تزالُ هذه اللعنةُ تُلاحقُنا ماتَ الجميعُ وظلّتْ هي حيّةً لا تَموتُ ولا يزالُ قبرُها هنا في بَغداد وهي تسمعُ أجْراسَ كنيسةِ الأرْمنِ المُجاورةِ وتَرْنَراتِ حانةِ الرافديْن وصَخَبَ ساحةِ التحريرِ ونُصبِ الحُرية وجِدارية فائق حسن حيثُ يجتمعُ المُتظاهرون رافعين الرّاياتِ نفسَها فظاظةُ التاريخ كما يُعتقدُ فيرناندو ظلَّ مبهوتًا وفاغرَ الفَمِ عندما رأى التشابيهَ الحُسينيّةَ يا جماعة قُلتُ لكم مِرارًا هذا الرَّجُلُ يجبُ أن لا يرَى هذه المَسرحيةَ لماذا أخذتُموه إلى مُشاهدةِ التشابيهِ هذا الرَّجُلُ جاء إلى هنا لِيُحقِّقَ في احتراقِ الكتبِ في هذا البلدِ ولا علاقةَ له بهذه المناظرِ المُقزِّزةِ ماذا سَيُفكّرُ بنا هل نحن مُتوحِّشون إلى هذا الحدِّ هو لم يَفهمْ لماذا حُرقتْ الكُتبُ فكيفَ سَيفهمُ اللّطمَ على الوُجوه والصُّدور والتَّطبيرَ بالسّيوفِ على الرّؤوسِ لا نستطيعُ أن نُفسّرَ له كلَّ الظَّواهرِ أنتم تَضعونَنا في موقفٍ مُحرجٍ يا جماعة هل نحنُ مَجانين إنّهم يَتخيَّلوننا

هكذا يَقولون إن أبو سُقراط نقلَ لهم عدوى الفلسفةِ تصوَّروا عندَما تُصبحُ الفلسفةُ عدوى تُصيبُ يُونس ونُعمان وهاشِم ومَنصور وحتى المِسكينُ فيرناندو أصابتْهُ اللّوثةُ العقليةَ منذُ أن دخلَ إلى حانتِنا كان سعيدًا واليومَ حزينٌ بهُمومِنا ما ذنبُه وأنتَ يا أبو سُقراط مُضطَّرٌ لأن تُفسّرَ كلَّ شيءٍ لهُ لكي يفهمَ ما نحنُ عليه لا نُريدُ أحيانًا أن نَدخلَ في التَّفاسيرِ والقيلِ والقالِ والجَدَلِ البيزَنطي السُّكوتُ أحيانًا حلٌّ ذهبيّ نلجأُ إليه عندَما نَفتقدُ الأسلحةَ الأخرى يأتي أحدٌ ويقولُ لماذا لا يُصغي أحدُنا إلى الآخر نقولُ له إنّه صَخَبُ الحانةِ لا نسمعُ الجُمَلَ الكاملةَ بل تقاطيعَ الكلامِ وعباراتٍ غيرِ مُكتملةٍ أحيانًا ومِنْ ثَمَّ يَختفي كلامُنا ويتحوَّلُ إلى هَمسٍ أو تَمْتَمَةٍ أو برَبْرَةٍ أو كلامٍ فارغٍ نقولُ له نحن في حالةِ عَدوى الهَلوسَةِ هل جَرَّبتُم السَّيْرَ عكْسَ التيّارِ إنّها نشوةٌ ما بعدَها نشوة عندَما يَهيجُ الهواءُ يُقوّي مِن عزيمةِ الرّجالِ هذا ما سَمعناه منذُ طُفولتِنا كنّا نبتهجُ والآنَ النساءُ يَرتدينَ اللّباسَ الأسودَ اختفتْ الألوانُ وسادَ لونُ العَباءةِ السَّوداءِ الكالحةِ يا إلهي ما الذي يحدثُ هل تنبّأتْ الخاتونُ بما وصَلنا إليه قبلَ نحوِ مئةِ عامٍ التاريخُ يُعيدُ نفسَه بشكلٍ مُتوحِّشٍ هذه المُتَنبِّئةُ العَظيمةُ خافتْ أن تُصبحَ التّشابيهُ واقعًا يوميًا عندَنا يتوقَّفُ الناسُ عن التَّمثيلِ ويبدو كلُّ شيءٍ حقيقيًا أن يأتيَ اليومُ الذي يَحملُ الناسُ مُعتقداتِهم مرسومةً على قُمصانِهم بالقلمِ الأحمرِ والأسودِ حصَلَ أمامَ أعيُنِنا يا جماعة دَعُونا مِنْ هذا المَوضوعِ لا أعتقدُ أنَّ له نهايةً لم نَقلْ شيئًا إلا أنّنا نُريدُ أحدًا يُفسِّرُ ما يحدثُ عندَنا لِفيرناندو أنتَ على حقٍّ دعْنا نشربُ كأسًا بِهدوءٍ قبْلَ أن يَهجِموا علينا ويكسِروا قَنانيَ الخمرِ على رُؤوسِنا نشكرُ الرّبَّ أنّهم أبقوا لنا هذه الحانةَ مَفتوحةَ الأبوابِ حتى لو دَخلنا من بابٍ خلفيّةٍ صَغيرةٍ لأنّ جميعَ الحاناتِ أُغلِقتْ في ساحةِ التَّحريرِ وشارعِ السَّعدون وحيِّ كَمْب الأرْمَنِ وشارعِ الرّشيدِ وكرّادةِ مَريَم وهاجَرَ النُّدَّلُ والسُّقاةُ إلى الخارجِ حامِلين معهم أناجيلَهم الرثّةَ المَطبوعةَ مُنذُ سنواتٍ طويلةٍ واصفرَّتْ أوراقُها وبُليت ركِبُوا السّفُنَ وغَابوا في غَياهِبِ البحرِ مِنهم مَن وَصلَ ومِنهم مَن غَرِقَ يصرخُ العَلمانيُّون في آخرِ الطّابورِ الحاناتُ مَوجودةٌ منذُ جَلجامِش ويَصرخُ المُتطرِّفون الحاناتُ حَرامٌ يَعتصمُ الناسُ في ساحةِ الحُريّةِ وغدًا قد يَزحَفون إلى المِنطقةِ الخَضراءِ التاريخُ لا يَسيرُ وِفقَ مَشيئةِ الأشخاصِ مَنْ قالَ ذلك هل تتذكّرون ماركس لا أتذكّرُ بالضَّبط نحنُ نسكرُ تحتَ نُصبِ الحُرّيةِ إنّنا في ثَورةٍ يا جماعة أينَ أنتِ أيتُها الخاتونُ الحبيبةُ أينَ أنتِ مِسْ بيل أينَ أنتِ يا غيرترود يا مَلكةَ العِراقِ غيرَ المُتوَّجةِ يا مَلكةَ الصَّحراءِ أنتِ لستِ بعيدةً عن هذه الحانةِ تَنامينَ قَريرةَ العَينِ في مَقبرتِكِ الخالدةِ ونحنُ لا نمتلكُ إلاّ أن نَطرُقَ سيرتَكِ العَطرةَ بعدَ أن نسيَكِ الآخَرون وحتى المُؤرّخون نَسوكِ ولا أحدَ يَحتفلُ بِقُدومِكِ إلينا قبلَ مِئةِ عامٍ ألفٌ وتسعمائةٌ وسبعةُ عشرَ ونحنُ في الألفَين وسبعة عشرَ يا سَلام كمْ يمرُّ الزمنُ بسرعةٍ مرّتْ مئةٌ بلَمحِ البَصرِ مثلَ البرقِ والوَمضةِ والشُّعلةِ نتذكَّرُ كلماتِكِ التي ترجَمَها لنا عُشّاقُكِ نُريدُ أن نَخترقَ أَسرارَكِ من أجلِ أن نَفهَمَكِ وعندَما نُحقّقُ ذلك نفهمُ أعماقَكِ ونفهمُ أنفسَنا تذكّرناكِ هذا المَساءَ بين جُدرانِ حانَةِ الرافدَيْن أكثرَ مِن أيّ وقتٍ مضى إنّنا نُغامرُ الآن بالجُلوسِ في هذه الحانَةِ ونترقَّبُ كلَّ مَنْ يدخُلُ مِن البابِ ربَّما يكونُ هناكَ أحمقُ مَجنونٌ يَحملُ حِزامًا ناسفًا على جَسدِهِ ويُخطِّطُ لِتفجيرِنا في أيَّةِ لحظةٍ ألا تتذكَّرُ هُجومَ المُسلَّحين بِالبَنادقِ على اتّحادِ الأُدباءِ البائسِ في ساحةِ الفِردوسِ ونحنُ لا نفعلُ شيئًا سوى احتِساءِ كُؤوسِ البيرةِ والعَرَقِ والنّبيذِ ونتحدَّثُ صديقُنا يُونسُ مُولعٌ بِمِسْ بيل بِالخاتون بِغيرترود بهذه الأسماءِ الثلاثةِ تَتشابكُ خُيوطُ أسمائِها بِبعضِ البعض كلٌّ مِنّا يذهبُ باسْمٍ ويبحثُ عنه نُحاولُ أن نَفُكَّ ألغازَها أو نَتوهَّمَ ذلكَ نظريةُ الاحتِمالاتِ يا رجُل هل هُناك أحدٌ لا يَعرفُها أجلْ لكنّهم لا يَعرِفون جَوهرَها أشياءٌ كثيرةٌ مِن الصّعبِ أن نُغيّرَ صُورتَها جميعُ الناسِ يَقولون جاسوسَة

وانتهى الأمرُ هذا اختزالٌ لهذه المرأةِ العَظيمةِ نتصوّرُ أنّنا نَعرفُها لكنّنا لا نَعرفُ عنها شيئًا مُجرّدُ أوهامٍ وأفكارٍ عابرةٍ لا نفعَ لها يُونسُ مُولعٌ بِالخاتونِ حتّى الهَوَسِ يُمجِّدُها مثلَ أيقونةٍ خالدةٍ على مرِّ العُصورِ يتخيّلُها فنّانةً وأديبةً أكثرَ مِمّا هي سياسيةٌ أو آثاريةٌ أو السّكرتيرةُ الشّرقيةُ للمَندوبِ السّامي أحبّتْ مُوسيقى مُوزارتْ وشَذراتِ حياتِهِ امرأةٌ استنشقَتْ هواءَ الثقافةِ ومثّلَتْ في مَسرحيّةِ تاجر البَندقيّة لشِكسبير وأدَّتْ دورَ الضَّحيّةِ بورشْيا التي طافَ جسدُها في النهرِ بورشْيا ونيرسَا شخصيتّان رائِعتَان القصّةُ مُمتعةٌ أبدعَها عقلُ شِكسبير الخُطّابُ يَأتون إليها مِن كلِّ الأنْحاءِ وفي هذه اللُّعبةِ الجَهنَّميّةِ تَتلاقى فيها الحياةُ والموتُ مَنْ يختارُ الصُّندوقَ الصَّحيحَ بين الصَّناديقِ الثلاثةِ الذهبيّ أو الفضيّ أو النحاسيّ وفيه صورةُ بورشْيا هو مَنْ سَيُصبحُ زوجًا لهذه المرأةِ هذه أُصُولُ اللُّعبةِ التي أوصى بها والدُها وهي حزينةٌ لأنَّه مَنعَها مِن اختيارِ زوجِها ما يُهوّنُ عليها الأمرَ أنّ أباها اختارَ هذه الحبْكةَ لِيُدلِّلَ على حِكمةٍ ما وبعدَ حَديثِهما يأتي الخادمُ ليُعلنَ عن وُصولِ أميرٍ مرّاكشَ الذي جاءَ لخُطبتِها أخفقَ فى اختيارِ الصُّندوقِ الصَّحيحِ وهُناكَ أربعةُ أُمَراءٍ انصرَفُوا خوفًا مِن اللُّعبةِ الخَطرةِ الخاتون مَثّلتْ هذا الدَّورَ على غِرارِ حَياتِها لنَرفعْ كُؤوسِ العَرَقِ نَخْبَ بورشْيا ونيرسَا ومِسْ بيل ومُوزارتْ وتشرشِلْ ولورنسْ العَربْ ولويجي بيراندياللو هؤلاء وجدانُ البَشريّةِ والخاتونُ عُصارةُ هؤلاءِ قرأتْهم وأخذَتْ جزءًا مِن أرواحِهم على الأقلِّ الجزءُ المُضيءُ مِن حياةِ كلٍّ مِنهم استلَّتْ مِنه خيطًا رفيعًا لتُضيءَ به ظُلُماتِ نَفسِها ونُفوسِ الآخَرين هواءُ الحُريّةِ التي تَتنفّسُها تلك الشخصيّاتُ يا لَها مِن امرأةٍ رائعةٍ يتَساءلُ هؤلاءِ هل هي مِن صَلصالٍ أمْ مِن طينٍ أمْ مِن غُبارٍ أمْ مِن رِيحٍ لا أحدَ بإمكانِه الإجابةُ جاءتْ لِتَرى ما في داخلِ هذه الأرضِ مِن آثارٍ وكُنوزٍ لكنّها اكتشفَتْ رِجالاً وبَشرًا ومَصائرَ هي تأسُرُ مَنْ تُقابلُه بمُرونتِها وابتسامَتِها ولَباقتِها تَغوصُ في حياةِ العَشائرِ والقَبائلِ بدُونِها لَكانَ البريطانيّون يَغرَقون في رِمالٍ مُتحرّكةٍ انحنى لها كبارُ القادةِ والسّاسَةِ واعترَفُوا لها بعَظَمةِ تفكيرِها البريطانيّون أذكياءٌ لأنّهم سلَّموا السُّلطةَ إلى يدِ بورجوازيَّةِ بغدادَ أمّا الأمريكيّون فلا يُوجدُ أغبَى مِنهم على الإطلاقِ لأنّهم سَلَّموا السُّلطةَ إلى يدِ أصحابِ اللِّحى والعَمائمِ والخَواتمِ أسرارٌ وألغازٌ غالبٌ ومَغلوبٌ سيّدٌ وعبدٌ مُنتصرٌ ومَهزومٌ أفنديّةٌ وساسَةٌ بيروقراطيّون وأرستُقراطيّون أغنياءٌ وفُقراءٌ قُطّاعُ طُرقٍ ونُبلاءُ ومَلكةٌ غيرُ مُتوّجةٍ تُهيمُ على وَجهِها في الصَّحراءِ مَلاكٌ غامضٌ كما يَتصوّرُها الشّعراءُ يَقتفون أثرَها بالكَلماتِ والقَصائدِ العَلنيّةِ والسِّريّةِ الشُّجاعةِ والجَبانةِ مجنونُ السّينما صاحبُ الوَلَهِ الشيطانيّ والإلهيّ هاشِمُ يقولُ إنّنا مُنبهِرون بشَخصيّةِ الخاتون هي أحبَّتْ بلدَنا ونحنُ شارَكناها هذا الحُبَّ هناك مَن يَتّهمُنا بأنّنا نَدورُ في فَلكِها على مَرِّ سَنواتٍ طويلةٍ يَعتقدون أنّها جرّتْنا إلى أوهامِ المَملكةِ الفاضلةِ المَوجودةِ في المُدنِ الخياليّةِ التي يسودُ فيها العَدلُ والمُساواةُ والحَضارةُ كلماتٌ لا يعرفُها الناسُ ونحن صدّقناها لأنّها تَحملُ في نفسِها بِذرةَ الحياةِ صَنعَتْ لنا مَلكًا طيّبًا لكنّهُ آمنَ بالحاشِيةِ أكثرَ مِن اللُّزومِ المُلوُك يَظهرون مِن أعماقِ التاريخِ لكنّنا على مَدى خَمسةِ قرونٍ عِشنا بلا مَلِكٍ ولا طُقوسِ مَلَكيّة مثلَ حياتِها المُغامِرة تَتنزَّه حولَ العالمِ بصَحرائِهِ ووِديانِه وجِبالِه وكُنوزِه الأملُ وَحدَه أبقاها على قَيدِ الحياةِ ثمانيةً وخمسين عامًا ما أجمَلَها لم ترَ الشَّيخوخةَ بل رَأتْ الكُهولةَ ظلَّتْ مُتألِّقةَ في أذهانِ البَغداديّين صورتُها لم تتغيّرْ كُؤوسُ العَرقِ خاليةٌ هاشِمُ مُشَغِّلُ السّينما تَحوَّلَ إلى نادلٍ في الحانَةِ بعدَ إغلاقِ صَالةِ سينما غرناطة أيُّ مصيرٍ هذا إنّه في البارِ يبحثُ عن القَناني في السّردابِ آه يا تعاويذَ الخمْرةِ آه يا أيّتُها الحانةُ الرثَّةُ جَرجيس صاحبُ الحانَةِ يُطلُّ علينا برأسِهِ الأصلعِ هذا المَسيحيُّ المُلحدُ لا يَطلبُ منّا متى نغُادرُ الحانُةَ اختلطَ النهارُ واللّيلُ في ذهنِهِ وفي أذهانِنا وفي أذهانِ رُوّادِ الحانُةِ إلى أين نذهبُ إلى النّومِ لا

نُريدُ النّومَ سوفَ ننامُ قريبًا إلى الأبد ولا أحدَ منّا سوفَ يَستيقظُ اجتذبَتْ الحانَةُ أعداداً غَفيرةً مِن الزّبائِنِ والرُوّادِ نحن نُطِلُّ على حديقةِ الأمّةِ في البابِ الشَّرقي تحوّلَ الحيُّ الذهبيُّ إلى مِكَبٍّ لِلزّبالَة والنّفاياتُ البشريّةُ تَزكمُ أُنوفَ المارّةِ وتبعثُ على التقيُّؤِ والتقزّزِ يا إلهي هكذا يَفعلُون في نُصبِ الحرّيةِ هذه الأيقونَةُ التي تألّقَتْ ذاتَ يومٍ تَتهاوى ناسٌ لا يَحترمون أرفعَ الأيقوناتِ ولا الفُنونَ العَريقةَ ولا الجِداريّاتِ ولا الحاناتِ ولا صالاتِ السينما كلُّ الأماكنِ تحوّلَتْ إلى أسواقٍ تَعجُّ بتزييفِ الوثائقِ والشّهاداتِ سُوقُ مُريدي وما أدراكَ ما سُوقُ مُريدي هنا يَحصلُ بمُوجبِها الفاشِلون على مَناصبَ وزاريّةٍ وبعضُهم يُخفي وظائفَهُ الوَضيعةَ سَماسرةٌ وباعةُ مَسابحَ ومُروِّجو تَعاويذَ وعُقودِ زواجِ المُتعَة هذه المرأةُ الإنجليزيّةُ الإرستقراطيّةُ لا تزالُ ترسُمُ الخرائِطَ وتُنصِّبُ الملوكَ وتَبيعُ الأحلامَ وتَطرُدُ الباشَوَاتِ الأتراكَ حرَّرتْنا من الظَّلامِ وها نحنُ نَنتظرُها لكي تَطرُدَ الفاسِدين كما طردَتْهم مِن البلاطِ الذي احتلّوه أو احتلَّهُ الآخَرون الطّاولةُ قذرةٌ تَتراكمُ عليها قَناني الخَمرِ تنتظرُ النّادلَ الذي أصبحَ فيلسوفًا مِن كثرةِ مُشاهدةِ الأفلامِ بعضُهم يُحاولُ أن يَحفرَ اسمَه بالسّكّينِ على الطّاولةِ على غرارِ المَقاهي الأوروبيّةِ بحُروفٍ برونزيّةٍ بارزةٍ لكنَّه حزينٌ ويَتأوَّهُ على ضِياعِ سينما غرناطة كما لو أنّه يَتأوَّهُ على ضِياعِ غرناطة ضياعَ الفِردوسِ هذا الذي نظلُّ نحلمُ به إلى الأبد حقاً لا يزالُ نُعمان يحلمُ بتقديمِ سينما كَونيّة وشاشةٌ عريضةٌ تستقرُّ بين الغُيومِ فوقَ ساحةِ التحريرِ وراءَ نُصبِ الحُريّةِ تفوقُ صالةَ سينما غرناطة بعشراتِ المرّاتِ سيناريو يُونس لا يُمكنُ تنفيذُه إلا بقِدرةِ قادرٍ يحتاجُ إلى ميزانيّاتِ دُولٍ والدولةُ مُفلسةٌ بسَببِ الفَسادِ مَنصورٌ حارسُ المَقبرةِ الإنجليزيّة حزينٌ لأنّ راتبَه توقَّفَ مِن مَصلحةِ مَقابرِ الكومُنويلث بالبَاوند الإنجليزي حزينٌ لأنّه لم يَعُدْ يَستطيعُ أن يدفعَ كُؤوسَ الخمرِ التي يَتناولُها في الحانَةِ جَرجيس موجودٌ يُسجّلُ في دَفاترِ الدّيونِ إلى حينِ عُثورِه على العَملِ وهو لم يتعلّمْ مِهنةً أخرى سوى حِراسةِ قَبرِ الخاتون ولكنّه حافظَ عليه مِن الزّوالِ والنّبشِ والتّخريبِ وهو مَهمومٌ مَشغولُ البالِ ماذا حَصلَ هل تَخلّى الإنجليزُ عن الخاتون عن مِسْ بيل عن قَبرِ غيرترود مَصدرِ فَخرِهم مَنصورُ عاطلٌ عن العَملِ الآن ماذا يُمكنُ أن يفعلَ حارسُ مَقبرة يا إلهي ماذا أفعلُ هل أحرسُ أرواحَ الأحياءِ أم أحرسُ أرواحَ المَوتى ما هي وظيفتُه المُقبلةُ لا يَعرفُ ولا نَعرفُ نحنُ لا يَرغبُ بحِراسةِ أيّةِ مَقبرةٍ سوى هذه مَقبرةِ الخاتون مقبرةِ وادي السّلام الشعوذاتُ موجودةٌ في تلك المَقبرةِ ولكنّها غيرُ موجودةٍ في مَقبرةِ الخاتون إنهّا مَقبرةٌ أكبرُ وتحتاجُ إلى آلافِ الحرّاسِ يا إلهي المَقبرةُ مَدينةٌ تزحفُ في وادي الرافدَيْن ستَقضي على البَساتينِ والحَدائقِ والصَّحراءِ والبيوتِ والقُصورِ المَقبرةُ تأكلُ المَدينةَ ولا شيءَ يَبقى خارجَ المَقبرةِ حتى شِبرٌ واحدٌ ولا يزالُ منصورٌ يقولُ أنا أستقرُّ في كوخٍ صغيرٍ مع زوجَتي ليسَ بعيدًا عن قبرِ المِسْ بيل صَديقي هاشِمُ جاءَ لي بقَنّينةِ بيرةِ شهرزاد يومَ أمسِ لكي أسترخي قليلاً مَعِدتي أصابَها العَرَقُ بالتعفُّنِ آهٍ مِن التّمرِ المُخمّرِ هاشمُ مُشغّلُ آلةِ العَرضِ لا أستطيعُ أن أبقى عاطلاً أتيتُ إلى هنا جَرجيس صَديقي صَاحبُ الحانَة وجدَ لي هذا العملِ إنّني نادلٌ كيفَ بمَنصور الحانَةُ لا تحتَملُ أن يَعملَ نادلان فيها المُهمُّ أنّني سَعيدٌ بهذا العَملِ كنتُ معزولاً في غُرفتي أعرضُ الأفلامَ ولا أعرفُ ماذا يحدثُ في العالم كلُّ شيءٍ يحدثُ في صالةِ سينما غرناطة مَصائرُ البشرِ بِيدِ مُخرِجي الأفلامِ أنا في صَميمِ الأفلامِ وبَوّابةُ الحانَة مَفتوحةٌ على مِصراعَيها مثلَ المَقبرةِ الإنجليزيّة أو نُصبِ الحُرّية أو الجِدرايّة أو تمثالِ السّعدون لا تَحلمْ سينما غرناطة لنْ تَعودَ لِفتحِ أبوابِها مِثلما غرناطة لا تعودُ إلى الأندلس مَنْ يَدري كلُّ شيءٍ قابلٌ لِلحُدوثِ نُعمان يحلُم بفِيلمٍ عَظيمٍ مِن أين نأتي بالمالِ ننتظرُ مَن يُموّلُ فيلمَنا كلُّ مُنتجٍ يأتي إلى الحانَة يهُمُّ بالهُروبِ بعدَ لحظاتٍ مِن النِّقاشِ ماذا يُصيبُهم إنّهم يَخافون

على أموالِهم مِن الضّياعِ يا إلهي يا لَسُخريّة الأفلامِ صحيحٌ ما يقالُ إذا أردتَ أن تعرفَ الحقيقةَ تعالَ إلى هذه الحانَةِ وافتحْ أُذنَيْكَ واستمِعْ إلى ما يقولُه السُّكارى وما يَفضحونَه مِن أسرار في لَحظة النّشوةِ إنّها أصدقُ لحظاتِ حياتِهم بين ساحتَيْ التَّحريرِ والطّيرانِ لا أحدَ يستطيعُ استِئصالَ ذكرياتي حاولتُ حذفَ هذا المَكانَ مِن ذاكرَتي دُونَ جدوى القدرُ رَسمَ لي هذه الأمكِنةَ وأخشى أن لا أغادرَها إلاّ لكي أُدفنَ في المَقبرةِ التي أعيشُ فيها يا ليتَني أُدفنُ فيها كلّما أَغلقتْ الحانةُ أبوابَها وخرجتُ مِنها أشعرُ أنّ نُصبَ الحُرّيةِ يطرحُ عليّ الأسئلةَ مَعدنُ البرونز الذي صاغَ هذا النُصبَ يتعاركُ مع شَمسِ بغدادَ كائناتٌ في السِّجنِ وراءَ القُضبان تلكَ الأيقوناتُ البغداديةُ لم تعُدْ قادرةً على شحْذِ أحلامِ البُؤساءِ حديقةُ الملك غازي تَحوّلَتْ إلى حديقةِ الأمّة بعدَ الانقلابِ على النّظامِ المَلَكيّ أرواحٌ حزينةٌ تَهيمُ هنا والكلُّ يَتذكَّرُ يومَ سُقوطِ المَلَكيّة بِحُزنٍ إنّه يومُ سُقوطِ العِراقيّين في الفخِّ في الحُفرةِ في النِّسيانِ في الغِيابِ في القَتلِ والسَّحلِ وصَهرِ الجُثثِ في الأحواضِ الكيميائيّةِ والقَتلِ بالمُسدّسِ الكاتمِ والخَطفِ بين عشيّةٍ وضُحاها التاريخُ هو الآخرُ فخٌّ نُصِبَ في طريقِنا لا يُمكنُ تَفادي هذه الأفخاخَ التي انتشرَتْ على طُولِ التاريخِ وعرضِه هل تَعلمون لماذا سُمِّيتْ بِساحةِ الطيرانِ يا جماعة لأنّها شَهدَتْ إعدامَ أربعةِ طيّارين شاركوا في حركةِ رشيدْ عالي الكيلاني ضدَّ النّظامِ المَلَكيّ الجمهوريةُ أقامتْ لهم تَماثيلَ برونزيّة لكنّ اللُّصوصَ سَرقوا تلكَ النُصبَ صَهروا مَعدنَها وباعوه بالكيلوغرامات في ظُلمةِ اللّيلِ بعدَ دُخولِ الأمريكيّين إلى بغدادَ العِراقيّون بارِعون باللُّصوصيّة تصوّرْ مِن أين جاؤوا بهذه المُخيِّلةِ العظيمةِ صَهْرُ التّماثيلِ وبَيعُها كخُردةٍ تخيّلوا هناكَ مَنْ يَصهرُ التاريخَ يُكسِّرُ البرونزَ إلى قِطعٍ ويضعُه في المِحرقَة لكي يَعودَ إلى أصلِه يتحوَّلُ إلى مادّةٍ أوّليّةٍ بعدَ أن ظهَرَ على شكلِ رَسمٍ أو تَخطيطٍ أو مَلامحَ بشريةٍ أو ذِكرى أو رَسمةِ تاريخٍ أو بَصمةِ فنّانٍ هاهاها أليسَ هذا مُضحكًا أليسَ هذا مُبكيًا يا جماعة صَهَروا التّماثيلَ البرونزيّةَ صَهَروا لَمساتِ الفنّانين صَهَروا صُورَ المَاضي صَهَروا الأرواحَ يَسْعون إلى صَهْرِ نُصبِ الحُريّة وبيعِ أطْنانِ البرونز في المَزادِ السّريّ هذه أصنامٌ لا أكثرَ ولا أنّها حرامٌ في الشّرعِ لا قيمةَ لها رُغمَ أنّها تُصَوِّرُ كفاحَ الشّعبِ العِراقي يا إلهي لم أرَ ذلكَ في كلِّ ثوراتِ العالَمِ لا في رُوسيا ولا في فَرنسا ولا في جَزيرةِ هونولولو الحَمدُ للهِ لم يَصْهروا بعدُ نُصبَ الحُريّة ولكنّ الفِكرةَ الشرّيرةَ لا تزالُ تلعبُ في رُؤوسِهم يتظاهرُ العراقيّون تحتَ هذا النُصبِ الذي يَحمي ظُهورَهم يَخافون هذا النُصبَ لأنّه يَفضحُ خِططَهم وحِيَلَهم ولو استَطاعوا قلْعَ جِداريّةِ فائق حسن لَفَعلوا ذلكَ منذُ زمنٍ وعندَما فَشلوا تَركوه للزَّمنِ يتآكلُ ويتعفَّنُ ويتزبَّلُ ولو كان بأيديهم لَفَعلوا ذلك منذُ زمنٍ طويلٍ الأشياءُ تتداعى ولا أحدَ يستطيعُ إيقافَ تَدهُورِها حتى سينما غرناطة وقاعةُ الفنِّ الحديثِ والأيقوناتُ الأُخرى تَحوَّلَتْ إلى مَحلاّتٍ لِبيعِ البالاتِ والمَلابسِ القديمةِ ومَخازنِ الطّعامِ لا تَبكِ يا هاشم هذا مَصيرُ ياقوتةِ صالاتِ السينما والمَقبرةُ الإنجليزيّةُ تَتَداعى شواهدُ قُبورِها تتآكلُ ولا أحدَ يُرمِّمُها أنتَ مَجنونَ الأحياءِ بحَاجةٍ إلى تَرميمٍ فكيفَ تفكّرُ بالمَوتى وقبُورِهم هذا صَحيحٌ بدأتْ تُصبحُ أطلالاً مُخيفةً لا يعرفُ الأمريكيُّون أنّ ثلّةً مِن أسلافِهم مَدفونةٌ هنا بجِوارِ قَبرِ مِسْ بيل الخاتون إنّها تُضفي على المكانِ مَهابةً أرستقراطيَّة قَهْقَهاتٌ تنطلقُ من زوايا الحانَةِ وتَطغى على الكَلماتِ ما يُميّزُ البابَ الشرقيَّ يا جماعة عرباتُ النَّقلِ التي تجرُّها الخُيولُ البغداديّون يُطلقون عليها الرّبلَ بدُونِها يكونُ فيلمُنا فارغاً مِن نَفحةِ التاريخِ التّصويرُ قريباً كأسٌ آخرُ من الجِن لا تَخلطْ العَرقَ بالجِن وإذا فَعلتَها لن تَخرجَ مِن هذا المكانِ إلا على نقّالَةٍ إلى المُستشفى للشُّربِ أُصولٌ وأحكامٌ هههههه والخَمرةُ لا تمزحُ بعدَ مُنتصفِ اللّيلِ أنا مُعتادٌ على هذه الخَلطةِ لا أستطيعُ التفكيرَ بدُونِها يا رجلْ جَرجيس صاحبُ الحانَةِ خائفٌ استلمَ تهديداً مَكتوبًا ارتعدتْ

أوصالُه يفكّرُ الآن ببَيعِ حانتِه والهرَبِ إلى كَنَدا بجِلدِه سبقَهُ إلى هناك ابنُه لا تحزنْ يا مَنصور المَسيحيُّون يتبخّرون البَتاوينُ تصبحُ مَلجأً للمُتسكّعين واللُّصوصِ وباعةِ المُخدِّراتِ وعِصاباتِ القَتلِ المَأجورِ ولا نعرفُ ماذا سيكونُ مصيرُ الحانةِ رُبّما تَتَحوَّلُ إلى مَخزنٍ لِلأحذيةِ مثلما حدثَ مع صالةِ سينما غرناطة رُبّما لن يبقى مِن هذا المَكانِ سوى الاسمِ لا حانةَ الرافِدَيْن ولا نُصبَ الحُريّة ولا جِدرايّةَ فائق حسن ولا مَقبرةَ البريطانيّين ولا أيّةَ رائحةٍ أو نُكهةٍ لِلمَكان أشباحٌ تدورُ حولَ الحانَةِ يا جماعة لماذا لا نَشتري الحانَةَ هههههه نحنُ غيرُ قادِرين إلى إدارةِ حِمارٍ فكيفَ نُديرُ حانَةً ماذا تقولُ يا مَنصور لا رأيَ لي لماذا تُفكّرون أنّ كلَّ مَسيحيٍّ عبارةٌ عن بائعِ خَمرٍ هذه عُنصريّةٌ والله أنتَ على حقّ الكلامُ يَصقلُ أحلامنَا ورَغباتِنا وآمالَنا كما يشاءُ نعيشُ هنا وسطَ صُراخِ السّكارى ولَغطِهم رائحةُ التَّبغِ تملأُ المكانَ الدُّخانُ يهيمُ تحتَ السّقفِ مثلَ الغُيومِ القوانينُ تَحكمُ الحانةَ جَرجيس يفتخرُ بهذا الإرثِ جدُّهُ كان يَصنعُ الخمرَ في دِنانٍ مِن الخَشبِ في أَدْيرةِ الموصِلِ كان يزورُها قبلَ أن يَحتلّها الدواعشُ هاجرَ إلى بَغدادَ في أيّامِ شبابِه يتذكَّرُ مالكُ الحانةِ وساقيها الوحيدُ نقيعَ الزَّبيبِ في غُرفةٍ صغيرةٍ كانوا يَتناولونَه في الكَنائسِ والأدْيرةِ في الموصِلِ وأطرافِها قبلَ انتقالِها إلى بغدادَ يتذكّرُ النُدَّلَ القُدامى ميخائيل خاجيك بطليموس وإبراهام وبهنام إنّهم أسماءُ أنبياءٍ أيضًا وليسوا فقطْ خدمًا لِلخمرِ في الحاناتِ لكنْ كلّنا نفكّرُ بِخَدمِ الحاناتِ ولا نُفكّرُ بالأنبياءِ ولا بالأُمَراءِ الآشوريّين الذين بَنوا لنا هذه الحضارةَ وغادروا الإسلامُ لا يعترفُ بهذه الحضارةِ لكنّ أنصارَ الإسلامِ لا يَقولون ذلكَ إلا بطُرقٍ مُلتويةٍ لا يُريدون الاعترافَ بها لأنّ بابِلَ كانت غنيّةً وعندَما جاؤوا أفقَروها وجَعلوها مدينةً رثّةً الأبناءُ يَختلِطون بالآباءِ يُشاركونَهم مَوائدَ الشُّربِ عندَما يَشبُّونَ عن الطَّوقِ لا أحدَ يُحاسبُ الآخرَ الأخلاقُ موجودةٌ في الضّميرِ والضّميرُ موجودٌ في العقلِ وجَرجيس ارتقى مِن نادلٍ إلى مالكٍ ضربَ مثلاً في التفوُّقِ والجَدارةِ والاجتهادِ ولولا جدُّهُ لَبقيَ نادلاً لِحدِّ الآن سُلالتُه تنتمي إلى سُلالةِ مؤسِّسي الحاناتِ البابليّةِ درَّبَ نفسَه طوالَ رُبعِ قَرنٍ في الزّاويةِ توُضعُ طاولةٌ فوقَها الأقداحُ الفارغةُ وكاساتُ السَّلَطةِ انظرْ إلى تلك اللّوحةِ على الجِدارِ أحدُ تَلاميذِ المَسيحِ يتناولُ كأسًا مِن الخَمرِ المُعتَّقِ في أحدِ أدْيرةِ الموصِلِ هل سَتَختفي الحانَةُ ذاتَ يومٍ هل تُرمى صورةُ المَسيحِ في سَلّةِ المُهملاتِ ذاتَ يومٍ هل يُصبحُ المسيحيُّ عبدًا في هذه البلادِ هل يُصبحُ مُلوكُ بابلَ مُواطِنين مِن الدّرجةِ العاشرةِ يا جماعة لا تتحدَّثوا مِثلَ السّياسيّين نحن فنّانين لا أكثرَ ولا أقلَّ يبدُو أنّنا نَسينا السيناريو يا لَها مِن ليلةٍ مَشؤومةٍ أينَ تَبادُلُ الأنْخابِ انظُروا إلى بعضِكم قبلَ أن تَتشتَّتَ مَصائرُنا ارتَشِفوا أقداحَ النّبيذِ أفرِغوا الكُؤوسَ في جَوفِكم ها هو كلٌّ مِنّا يُفرغُ في جَوفِه النَّبيذَ بِجُرعةٍ واحدةٍ مُغمِضًا عَينيهِ رَفعَ يُونسُ كأسَ البيرةِ إلى شَفتيْهِ يَتقزَّزُ مِن الخَمرِ يُفضِّلُ الشَّعيرَ على التَّمرِ في قَرارةِ نَفسِهِ البردُ قارصٌ في فِبراير الحانَةُ على كفِّ عِفريتٍ أيامٌ سوداءُ سَتأتي بالمُفاجآت هل يُمكنُ التَّكهُّنُ بها أصبحَتْ الحانةُ حَياتَنا حتّى لو كانَ جَيبُكَ خاليًا مِن النُّقودِ فأنتَ تَسكرُ وتأكلُ وتَجدُ مَنْ يُقرِضُكَ أجرةَ التاكسي لكي تنامَ في بيتِكَ حتّى لا تُشغِلَ نفسَكَ بالدَّفنِ إذا أَتتْكَ المَنيَّةُ الدَّفنُ مجانًا هُناك مَنْ يأخذُ بغَسلِ جُثَّتِكَ وهناك مَن يقرأُ سُورةَ الفاتِحَةَ وهناك مَن يَنقلُكَ إلى المَقبرةِ وهناك مَنْ يَدفنُكَ ما أحلى المَوتَ إنَّه لا يُكلِّفُ شيئًا هههههه لا أحدَ يسألُ القارئَ على روحِكَ عن مَعنى الكلماتِ ولا يُفكِّرُ بفَكِّ ألغازِها الكلُّ يُردِّدُ كالبَبَّغاواتِ ما قالَه الأسلافُ قبلَ ألفٍ وأربعمائةِ عامٍ وما كان جاريًا آنذاك يَجبُ أن يُطبَّقَ الآن أشياءٌ مَجّانيّةٌ يُوفِّرُها لك بلدُ ما بينَ النَّهريْن بدُونِ مُقابلٍ رُبَّما لأنّكَ مِنْ سُلالتِهِ القديمةِ هناك سَبعةُ نادِلين آخَرين لا نَعرفُ حتّى أسماءَهم لأنّهم يَتبدّلون كلَّ يومٍ تَضيعُ مَلامحُ وُجوهِهم في الصَّخَبِ والفوضى أصبحَ لهم وجهٌ واحدٌ

ملامحُ واحدةٌ هل لديكُم مثلُ هذه الحانَةِ سبعُ نساءٍ مُهَجّراتٍ جِئْنَ مِنْ قُرى بعيدةٍ مِنْ الموصِلِ يَطلبْنَ عملاً كسَاقياتٍ أو نادلاتٍ أو عاملاتٍ لا يوجدُ مَثيلٌ لهنَّ يدُ المَرأةِ ليستْ مثلَ يَدِ الرَّجُلِ في تَقديمِ النّبيذِ تُصبحُ معها كُؤوسُ الخَمرِ أكثرَ رِقَّةً وأُنوثةً وحَميميّةَ لكنّ جَرجيس يَخافُ تَوظيفَهُنَّ رغمَ ما يُدِرُّ عليه ذلك مِن أموالٍ السّكارى يتزاحمون حولَ اليدِ الأُنثويّةِ التي تَسقي النّشوةَ جَرجيس عَبقريٌّ يَعرفُ كيفَ يَعملُ ولكن لو اكتشفوا أنّه يَستخدمُ النّادلاتِ بَدَلَ النُّدَّلِ لأحرقوا الحانةَ بِمَن فيها لكنّه لا يَجلبُهم إلاّ في اللّيلِ حينَ تُغلَقُ أبوابُ الحانَةِ الزّبائِنُ يتشوَّقون لأن تُصبحَ الحانَةُ أُنثويّةً مُنذُ السّاعةِ العاشرةِ ليلاً العجيبُ لا أحدَ يتحرّشُ بِتلك النّادلاتِ العراقيّون مُؤَدّبون ذاتَ مرةٍ زادَ جَرجيس مَدخولاتِه إلى الأضعافِ بالنّادلاتِ الإناثِ قبلَ أن يُصدُروا له أوامرَ مَنْعِ تَشغيلِ النّادلاتِ في حانتِه وهدّدوهُ بأوامرِ الغَلْقِ التَّهديداتُ التي تلقّاها جَرجيس أصابَتْه بالحُمّى وهو ينظرُ إلى لوحةِ العشاءِ الأخيرِ لِلمَسيحِ المُعلّقةِ على الجدارِ وراءَ البارِ مثلَ تَعويذةٍ تَحميهِ هههههههه جَرجيس كان كاهنًا في كَنيسةِ الموصِلِ طَرَدُوه مِن مَنصبِه بعدَ أن انتقدَ الكَنيسةَ الكاثوليكيّةَ حَسِبَ نفسَه بَطلاً مِن أبطالِ هذه اللّوحة وهي آخرُ مُمتلكاتِه قلّدَها أحدُ الرسّامين الإيطاليين المُحترِفين اللّوحةُ التعويذةُ كلّما ألمّتْ به مُصيبةٌ استدارَ ناظرًا إليها المُؤامرةُ تأتي مِن المُحيطين بك وليسَ البَعيدين أحيانًا يَشتركُ معنا في نقاشِ سيناريو المِسْ بيل أينَ خمرةُ الرّبِّ في إنقاذِ الأرواحِ البريئةِ يا جماعة تأمَّلوا الطّاولةُ تَعجُّ بالقَناني الفارغةِ والكُؤوسِ المُهمَلةِ وقُشورِ الباقلاء واللّيمون يَبدو أنّنا نَحتفلُ بِسَهرتِنا الأخيرةِ انظرْ إلى عيُونِهم تَبرُقُ مِن أثرِ السُّكْرِ والضَّحكِ لا يُمكنُ أنْ نَتخيَّلَ أنفسَنا بدُونِ هذه الحانةِ قُوَّةٌ غامضةٌ تدفعُنا إليها هل هو عقابُ السّماءِ أمْ عقابُ الأرضِ لنقرأ مقاطعَ مِن السيناريو رائحةُ العَرقِ تفوحُ مِن أفواهِهم أنقذتْهم مِن عَناصرِ الأمنِ والمليشياتِ ليسوا إرهابيّين قوّاتُ الأمنِ تُفضّلُ السُّكارى على المُصلّين لا يُمكنُ أن يُصبحَ السِّكّيرُ إرهابيًا أرواحُنا غارقةٌ في الظُّلمةِ الاحتلالُ لُطخةُ عارٍ في بلادِ الرافدَيْن ما بِك يا فيرناندو لماذا أنتَ صامتٌ وأبو سُقراط لماذا توقّفَتْ تنظيراتُك الفلسفيّةُ لماذا يَصمتُ المثقّفون هنا ويتبجَّحون هناك أين هم تَواروا وراءَ الحُدودِ وخفتَتْ أصواتُهم تَركونا لوحدِنا في الحربِ والحصارِ والموتِ والتّفجيراتِ غيَّروا جُلودَهم واكتَسبوا جِنسيّاتٍ أجنبيةً وانتهى الأمرُ لكنّهم لا يزالون يَحلمون بالعودةِ ذاتَ يومٍ يَتفاخرون أنّهم شَربوا مِن حليبِ وادي الرافدَيْن أهوَ الافتخارُ الفارغُ أمْ الكِبرياءُ المُزيّفُ كلُّ شيءٍ ذهبَ أدراجَ الرّياحِ مرّتْ السَّنواتُ بِرَمشةِ عينِ الستّينيّاتُ والسّبعينيّاتُ والثمانينيّاتُ والتسعينيّاتُ مع الأوراقِ الصَّفراءِ نحن مَقذوفون في زاويةٍ مُعتمةٍ مِن زوايا الحانَةِ مع أصدقاءَ مُحبَطون وحَزينون هل يَتمكّنُ كلُّ واحدٍ منّا أن ينتشلَ نفسَه مِن ذلك الحَضيضِ المُروِّعِ السيناريو اللّعينُ صَبَّ في حياةِ كلِّ واحدٍ منّا وهوليود جاحدةٌ على الدَّوامِ أهملتْ السيناريو الذي كتبَهُ يُونسُ خابتْ آمالُه تَركوا هذا السيناريو وأخذوا سيناريو كتبَهُ رجالٌ لا يَعرفون حياةَ مِسْ بيل في بغدادَ ما زالوا يَجهلون أنَّ نِصفَها عراقيٌّ ونصفَها الآخرَ إنجليزيّ عراقيّةٌ في سَنواتِها الأخيرةِ لوَّحتْ شمسُ بغدادَ وَجهَها وحَرقَتْ جزءًا مِنه وجعلتْ الجزءَ الآخرَ يبدو كرَغيفِ خبزٍ مُحمَّصٍ نجَتْ بأُعْجوبةٍ مِن ضَربةِ الشمسِ التي لا تَرحمُ البشرةَ البيضاءَ ومِن الكوليرا ماتَ بها فاتحُ بغدادَ الجِنرال ستانلي مودْ اللّعنة لم تجدْ لها مَوقعَ قدمٍ في هذا الشّرقِ الكَسولِ اسْتفاقَ مِن جَحيمِ العُثمانيّين حتى وجدَ نفسَه في جَحيمٍ آخرَ هوليود تجارةٌ في تجارة شوَّهوا مِسْ بيل شوَّهوا الخاتون نَزعوا مِنها الوَطنيّة مَنْ يُخرِجُ هذا السيناريو مُعجزةُ رُؤاه مُعقّدة العملُ على الورقِ شيءٌ وساحةُ التصويرِ شيءٌ آخر يا إلهي هذا المَشهدُ بالذات يحتاجُ إلى أيّامٍ طويلةٍ بل أشهرٍ لتَصويرِه جُيوشٌ خَيّالة مُشاةٌ عَرباتٌ بِغالٌ أستراليّة فِرقةٌ موسيقيّة عسكريّة هُنودٌ سيخٌ أفارقةٌ بانيانْ آثوريّون شُبانة

كومبارس ودبّاباتٌ أمريكةٌ تدخلُ وتمثالُ الدِّكتاتورِ يسقطُ في ساحةِ الفردوسِ والمُخرجُ يُعطي أوامرَه مِن فُندق ميرديان وعُمّالٌ وتِقنيّون اتّفقنا أن نُصوّرَ بالكاميرا الوَحيدةِ التي يُمكن أن نُصوّرَ بها الفيلمَ الكاميرا سُرقتْ وَقعتْ في أيدي اللُّصوصِ واختفى أثرُها هل تَقصدُ arri 535B المُوْدَعة في مُنتدى المَسرح نَعم

هل تَعلمون كم هو سِعرُها لا يا لَلْمُصيبَة 800 ألف دولار كان مِن المُؤَمّلِ أن يَتُمَّ بها تصويرُ رِوايةِ فؤاد التّكرلي الأوجاعُ والمَسرّاتُ يا إلهي كانتْ الكاميرا مَوجودةً بالكامِلِ في غُرفةٍ مُحكمةِ الإغلاقِ في صُندوقِها الاعتِيادي ولكنْ ماذا ستفعلُ الحُكومةُ لا أحدَ يدري يَعني تَبخّر حلمُنا اختفاءُ الكاميرا يا إلهي أصبَحْنا في قَلبِ فيلمٍ بوليسيّ مِن الطّرازِ الأوّلِ ولدى مُعاينَةِ البابِ لم يَجدوا أيَّةَ آثارٍ تَدُلُّ على كَسْرِ بابِ المَخزن الشركةُ المُصنّعةُ للكاميرا تَستطيعُ مَعرفةَ السّارقِ بفَضلِ كود خاصٍّ أقصُدُ شِيفرة تَصلُ إلى أجهزتَها في أيّ مكانٍ وأيّ دولةٍ عندَما سُرقت كاميرا مِن هذا النوعِ في إيرلندا بعدَ التّحقُّقِ عَثرَ عليها رجالُ الشّرطة في مَطارِ دُبَيْ وجَرى الاتّصالُ بالشّركة للتَّعرُّفِ على مالِكها الأصليّ يا إلهي إنّها الكاميرا الوحيدةُ التي استورَدْناها مِن اتّفاقية النّفطِ مُقابلَ الغذاء أيّامَ الحِصارِ لإنعاشِ السينما إبانَ التِّسعينيات لكنّها لم تصلْ العراق إلاّ بعدَ عشرِ سَنوات آهٍ من الحِصار ثلاثةُ عشرَ عامًا اشتريناها بدِماء شَعِبنا إذا كانتْ الأرواحُ تُسرقُ فما بالُك بالكاميرا فَقَدَ فيلمُ الخاتون أفضلَ كاميرا تصويرٍ مِن الطّرازِ الرَّفيعِ كنا نَتحدّى بها هوليود لا يزالُ يونس يحلمُ بتَصويرِ فيلمِه في هوليود صديقُه المُترجِمُ الذي يعملُ مع الأميركيّين وَعَدُه بأنْ يتوسَّطَ لإيصالِ السيناريو إلى هوليود لكنّ الجَيشَ الأمريكيّ خيَّبَ أملَ صديقِه وتَركوه كما تَركوا الآلافَ مِن أمثالِه هنا بلا حِماية إنّه مُهدّدٌ لأنّه كان دليلاً للأمريكيّين وها هو يَتخفّى في كلّ ليلةٍ في مكانٍ مجهولٍ تَقضُّ مَضجعَهُ تلك الرَّصاصةُ التي لفّوها في مَظروفٍ ورمُوها على عَتبةِ بيتِه اضّطرَّ إلى المُغادرةِ ونامَ عندَ أقاربِه ولم يعُدْ يَرتادُ المَقاهي والمَكتباتِ والحاناتِ صعلوكٌ رَثُّ المَلابسِ لا يَهتَمُ بِهندامِه يَقضي أوقاتَه هنا وهناك حتّى خطيبتُه تركَتْهُ وتَزوّجَتْ مِن رجلٍ آخرَ أجلْ يا صديقي الحياةُ صعبةٌ هناك مَن ينتظرُنا مَنصور نَسهرُ معًا ويقرأُ يُونسُ على مَسامِعها مَقاطعَ مِن السيناريو مُتخيّلاً أنّ صوتَ الخاتون يخرجُ مِن القبرِ لكي تُصحِّحَ له بعضَ فقراتِه هاشِمُ الذي عملَ مُشغِّلَ آلةِ العَرضِ في سينما غرناطة لِثلاثين عامًا قبلَ إغلاقِها تصوَّرا أنّ أولادي الثلاثة تخرَّجوا من الجامِعة بفَضلِ عَملي في هذه الصّالةِ راتِبي فيه بَرَكَة السينما كلّها ألا تُصدّقون مَنصور يقولُ لَنا ظهرتْ لي الخاتون مِن القبرِ هو يَقصدُ روحُها خرجتْ ذاتَ ليلةٍ وتنزَّهتْ بين أسوارِ المَقبرةِ وهي تُحاكيني تكلّمتُ لها عن السيناريو الذي كتبَه يونس عنها فَفرحتْ والتمستُ منها العذرَ إذا أخطأتُ في سَردِ بعضِ مَحطّاتِ حياتِها وخاصَّةً حبهُا لكلٍّ من هنري كادوغان وريتشارد دُوتي ويلي وسألتُها لماذا أقدَمتِ على الانتحارِ لم تُجبْني بل هزّتْ رأسَها ولم أفهمْ ما المَقصودُ ومَن لا يُصدّقُ مِنكم ليذهبْ معي إلى المَقبرةِ ويرَ ذلك بنَفسِه يجبُ أن نُنفّذَ تصويرَ هذا السيناريو بعيدًا عن هوليود في بغدادَ التي عَشقَتْها ولكن بأيّ كاميرا يا رجل سُرقتْ أكبرُ وأغلى كاميرا في العِراق ولكنّنا سنعثرُ عليها إذا ما قُمنا بالبَحثِ عنها ماذا تقولُ يا رجل هل نَهتمُّ بالإعدادِ للفيلمِ أمْ البَحثِ عن كاميرا مَسروقةٍ هذا يحتاجُ إلى فيلمٍ آخرَ لا بدَّ مِن العُثورِ عليها ذاتَ يومٍ نحن صابرُون منذُ سنوات إنّهم لا يَفهمون الخاتون كما نَفهمُها نحنُ أنتَ يا نُعمان أمضيتَ حياتَك في دِراسةِ النّظريّات السينمائيّة في موسكو وباريس ولم تُنجزْ أيَّ فيلمٍ عزيزي هاشِم أنتَ لا تعرفُ ظُروفي والسينما هي المالُ وليستْ الفنَّ

فقط أعظمُ ما فيكَ أنّ طَلَبتَكَ يَتذكّرون كيفَ بعثتَ التمرُّدَ فيهم أعلمُ أنّ الحُكومةَ أرسلتْكَ إلى موسكو للدِّراسةِ بعدَ نِهايةِ الحُكمِ المَلَكيّ ولم يَتُمّ الاعترافُ بشهاداتِهم بعدَ الانقلابِ لأنّكم كنتُم تَحمِلون بُذورَ الثورةِ البلشفيّة لكنّني بعيدٌ عن السّياسةِ أقولُ لكم أكرهُها كما أكرهُ دمَ أسناني يا صديقي كنتُ شابًا عندَما ذهبتُ إلى مَعهدِ موسكو للسينما وافقَ على مَنحي شهادةً لأوّلِ مرّةٍ مِن دونِ تَنفيذِ فيلمٍ تَطبيقي أنتم تَعرفون قصَّتي الطلبةُ وَجدوا فيه روحَ الحَداثةِ وسرعانَ ما اصطدمَ بالإدارةِ آه يا نُعمان أنتَ رجلٌ عِصاميٌّ كنتَ يتيمَ الأبَوَيْن وربَّتْكَ إحدى قريباتِك وكنتَ تُناديها الحَجّية نعمْ وكنتَ تسكنُ في فُندقٍ في شارعِ الرّشيد لا يوجدُ فيه سوى الكُتبِ القَديمةِ ومَلابس بائسةٍ وكنتَ تخرجُ مع طَلَبتِكَ إلى مَقاهي أبي نُواس وهم يَستمعون إلى آرائِك ويُبادلونَك النِّقاشَ في المَدارسِ السينمائيّة الحديثةِ لأوّلِ مرّةٍ يُتاحُ لِلطّلَبَة الجُلوسُ مع أُستاذٍ لهم خارجَ نِطاقِ الكُليّة وأغلبُهم مِنَ المُحافظاتِ ولم تَكُنْ تَبخلُ عليهِم بالمَشورةِ اليوميَّةِ أو في مُساعدتِهم ماديًا لأنّ نفقاتِك اقتصرَتْ على أُجورِ الفُندقِ والمَأكلِ وشِراءِ الكُتبِ هكذا عندما عُدتَ إلى الوطنِ كنّا نَذرعُ شارعَ الرّشيدِ مِن بابِ المُعظّم حيثُ دخلَ الإنجليزُ منه إلى البابِ الشرقيّ سَيرًا على الأقدامِ نُمضي الوقتَ في الحَديثِ عن السينما إلى أن نصلَ إلى حانَةِ الرافدَيْن يَستقبلُنا هاشمُ ومَنصورٌ وأبو سُقراط ونَستكملُ الأحاديثَّ حتى صارَتْ حياتُنا جزءًا مِن حياةِ سُكارى الحانَةِ هل هذا مصيرُ كاتبِ سيناريو ومُخرجٍ أتساءَلُ نلتقي ببَشرٍ لا يَفهمون شيئًا عن السيناريو ولكنّهم يَعرِفون الخاتون ويُضيفون مِن أفكارِهم البريئَةِ ما نعجزُ نحن عن إبداعِه حتّى في الفنِّ كم كنتُ أتوقُ إلى مُحاكاةِ بَراءَتِهم ونُبلِهم وشَهامَتِهم ولكنّني لا أستطيعُ ولم أكُن قد سافرتُ إلى الخارجِ أو قرأتُ الكُتبَ في حَياتي هل تَشوَّهنا يا تُرى هل أصبحَتْ حياتُنا نظريّاتٍ في نظريّات رماديّةً بينَما نرى الشجرةَ أمامَنا خضراءَ كانوا يُطلقون علينا مَجانينَ الستينيّات لَنا أماكنُنا ومَقاهينا وحاناتُنا ومَكتباتُنا ومَلابسُنا وسَهراتُنا واحتفالاتُنا وكُتبُنا ورُسوماتُنا وأفلامُنا وصالاتُنا ولوحاتُنا وكلُّ شيءٍ لَنا هل تَتذكّرُ كيفَ كنّا نرتدي المَلابسَ المُستعملةَ اللّنكاتِ والبالاتِ التي تُباعُ هنا على الأرصِفَة المَلابسُ الآتيةُ كمُساعداتٍ لنا هههه أبناءُ البِترولِ يَرتدون المَلابسَ المُستعملةَ المُتعفّنةَ برَائحةِ الخَنازيرِ الأجانبِ وعَرقِهم هههههه في النّهاية اكتشفنا أنّنا نحنُ الخنازيرُ وهُم البشرُ كنّا نَسهرُ حتّى مُغادرةِ آخر زبونٍ مِن الحانةِ وجَرجيس صاحبُ الحانةِ يتعاطفُ معنا حتى لو أفرَطنا في الشّرابِ لأنّنا لم نكُن نَعرفُ ما هي الزّوجةُ وما هي العائلةُ بعدَ إغلاقِ الحانَةِ كنّا نَجلسُ على المَصاطِبِ المَوضوعةِ في الشّارع تحتَ نُصبِ الحُرّية وليسَ بعيدًا عن جِداريةٍ فائق حسن ذاتَ ليلةٍ تمدَّدنا على إحدى المَصاطِبِ لِأخذِ قِسطٍ مِن الرّاحة نُمنا حتى الصّباح عمّالُ المسطر البَنّاؤون تَجَمهروا حولَنا واقِفين في انتظارِ مَن يَستأجرُهم للعملِ نَهضْنا مَذعورين كأنّنا في حلمٍ نُشاركُ في مُظاهرةٍ للعمّالِ كنّا نُساندُهم على الدّوامِ بلْ ونَستقي مِنهم نظريّاتِنا ضَحكَنا وتألّمَنا لأنّنا كنّا نَهيمُ في عالَمِ النظريّاتِ ولم نعملْ مثلَهم أبداً هؤلاء يُشيدون المَباني والبيوتَ كانوا يَنظرون إلى مَلابسِنا الأجنبيّةِ التي اشتريناها مِن الأرصِفةِ ويَكتُمون ضِحكاتِهم في أعماقِهم رُبّما كانوا يَشترون مثلَها لم يوقظْنا أحدٌ أو يَسرقْ حقيبتَنا ذخيرةَ أفكارِنا لكنّ يونسَ ذُعرَ فجأةً وراحَ يُفتّشُ في جُيوبِه بحثاً عن السيناريو الذي لم يَمتلكْ مِنه سوى نسخةٍ واحدةٍ كان قد نسيَها في الحانَةِ للمّرةِ العاشرةِ واحتفظَ بها جَرجيس كلّما وجدها على الطاولة ويسلّمُنا إيّاها في الليلةِ التاليةِ يا إلهي نحن جائِعون رائحةُ الباجَة تفوحُ مِن المَطاعمِ لا بدَّ أن نَختمَها بأكلةِ الباجَة في الصّباحِ بعدَ أن نَخَرَ العَرقُ مَعداتِنا يونسُ يُريدُ أن يُخرجَ الخاتون مِن ركامِ الرّسائلِ والمَقالاتِ والتّقاريرِ والكُتبِ وغبارِ الآثارِ ودَسائسِ الإدارة البريطانيّة كلٌّ منّا يَحلمُ بشَيءٍ لماذا لا نَفعلُ أقصى ما لدينا لماذا لا نُحوِّلُ

تاريخَنا إلى أفلامَ ورواياتٍ هههههه ألم أقُلْ أنّ لنا رؤيتَنا الخاّصَة في قراءةِ شكسبير ودوستويفسكي نُعمان الجميلُ أستاذَنا المَجنون أرادَ أن يُحوِّلَ دوستويفسكي إلى عِراقي يَتألّمُ في مسرحيّتِه "الأخوة كارامازوف" وأرادَ أن يُزيلَ الشّجرةَ الكبيرةَ مِن أمامِ أكاديميّةِ الفُنونِ لأنّها تَحجبُ مَنظرَ ديكوراتِ المَسرحيّة التي صَنعَها على شكلِ إنسانٍ مَصلوبٍ مُستلقٍ على الأرضِ لم يُوافقْ مديرُ بلديّة بغدادَ على ذلك بل قالَ ساخرًا هل نَقطعُ شجرةً عُمرُها مئةُ عامٍ مِن أجلِ عَرضٍ مَسرحيّ سَخيفٍ وأمرَ الجيشَ بإزالةِ تلكَ الدّيكوراتِ الخشبيّةِ الضّخمةِ مِن حَدائقِ الأكاديميّة خِشيةَ أن تَظُنَّه الطائراتُ الإيرانيّةُ مَوقعًا عسكريًا فتقصِفَهُ بالقَنابلِ والصّواريخ يا إلهي كم كانتْ أحلامُنا كبيرةً لا تتَّسعُ لها خريطةُ بلادِ الرافدَيْن تلكَ الحادثةُ أطلقتْ شُهرةَ نُعمان وأصبحَ مَوضوعًا للنّقاشِ بين المُحافظين والمُجدّدين ها هههه خليطٌ مِن النّرجسيّةِ والثّوريّةِ والأوهامِ كنّا مِن حيثُ لا نَدري في قفصٍ كبيرٍ مِن النّظريّاتِ بينما لا نَغرفُ مِن الحياةِ أمامَنا لم نكُن نَعرفُ أنّ عمّالَ البناءِ يَستيقظون في الفجرِ ويَعملون حتّى اللّيلِ ولا يَأكلون سوى صَحنٍ مِن شوربَةِ العدسِ أو الباقلاءِ يونسُ كَتبَ أعظمَ سيناريو عن مِسْ بيل يُضاهي به هوليودَ صرخَ نُعمان ومِنْ أين نَأتي بالبغالِ الأستراليّةِ في ظُروفِ العِراقِ الحاليّةِ بعدَ أن رفعَ كأسَهُ عاليًا نَخْبَ الخاتون ليستْ البغالُ الأستراليّةُ هي مُشكلةُ الفيلمِ يُمكنُ استبدالُها بالحَميرِ والعِراقيّون اليومَ لا يُفرّقون بينَ البغالِ والحَميرِ أليسَ كذلك هههه لكنّ البغالَ الأستراليّة لها مَعانٍ كثيرةٌ يُضربُ بها المثَلُ في القُوّةِ والصّبرِ كائناتٌ أسطوريّةٌ لا وجودَ لها كما يَظُنُّ الآخرون تَجرُّ عَرباتِ النّفاياتِ لصَلابةِ أبدانِها وقِصَرِها وتَحمُّلِها ولكنْ مِن أين أتى الإنجليزُ بهذه البغالِ إلى بغداد لخدمتِهم أثناءَ الحربِ لقيادةِ عَرباتِ مَدافعِهم لعبَتْ دورًا كبيرًا في الجيشِ الأمريكيّ أثناءَ الحربِ الأهليّة هههههه لذلك يَحفَظون لها الجميلَ بعضُها نالَ راتبًا شهريًا في الجيشِ مثلَ البَشَرِ لكنْ مع تَقدُّمِ الحياةِ العصريّةِ لم يَعُدْ الناسُ بحاجةٍ لها وهكذا انقرضَتْ مع ذلك الجيلِ والبَغلُ يولدُ مِن اختلاطِ حِمارٍ وحِصانٍ لا نسْلَ له ولا يولدُ سوى مرّةٍ واحدةٍ ليسَ له أخٌ أو أختٌ فإذا ماتَ انقطعَ نسْلُه لذا ظلّت البغالُ الأستراليّةُ كائناتٍ غامضةً ومَجهولةَ الأثرِ هههههه كثيرٌ مِن البشرِ لا نسْلَ لهم أي لا يَتركون أيَّ أثرٍ لا على هذه الأرضِ ولا في السّماءِ ولو تابعتَ الأفلامَ الأمريكيّةَ القديمةَ لاقتنعتَ أنّ البغالَ لها احترامُها بين الناسِ كان الجيشُ العراقيُّ يُحمِّلُ على ظُهورِها العتادَ والأسلحةَ لمُقاتلةِ البيشمِركَة في الجِبالِ لا يُمكنُ أن تُقاتلَ هؤلاء الرّجالَ الجَبليّين الأشدّاءَ بأيِّ سلاحٍ آخرَ قَهْقَهاتٌ انطلقضتْ لا يوجدُ سيناريو بدُونِ حِكايةٍ حزنتُ اليومَ عندما قرأتُ خبرَ إخراجِ فيلمٍ عن المِسْ بيل باسمِ ملكةِ الصّحراءِ فيلمُنا اسمُه خاتون بغداد لكنّه أكثرُ رواجًا هل يعَكسُ الفيلمُ حقيقةَ هذه السيّدةِ المُبجّلةِ التي كافحَتْ مِن أجلِنا ماذا لو نختارُ مُمثلةً عِراقيّةً لأداءِ دورِها رُبما المُمَثلة آزاد وهي صاموئيل لكنّها في السّبعين مِن عُمرِها هل هي على قيدِ الحياةِ أسْألوا جرجيس صاحبَ الحانَةِ فهو يعَرفُها أفضلَ منّا إنّه يَعتقدُ أنّها رَحلَتْ عن عالَمِنا ألا يوجدُ مَن يُشبهُها هِند كامل مثلاً يا لَغباءِ هوليود لم يَردّوا على رِسالتي هل تَدري لماذا عزفَتْ هوليود عن تصويرِ فيلمٍ عن مِسْ بيل لحدِّ الآن إنّهم يَعتقدون أنّ حياتَها خاليةٌ مِن قصَصِ الحُبِّ والغَرامِ هههههه أنّها أحبَّتْ رجلَيْن تَخيَّلْ هوليود تُنافسُنا وتُغرقُ أسواقَنا بأفلامِها التّافهةِ يا لَلمُفارَقة الأميركيّون يَضعونَنا على الدّوام في تَنافُسٍ معهم هل هذا هو قدرُنا ملكةُ الصّحراءِ في مُقابلِ خاتون بغداد الاحتلالُ في مُقابلِ الدّكتاتوريّة الدّيانةُ مُقابلَ العَلمانيّة وهكذا مُنازلتُهم لنا في الحربِ والدّكتاتور كما يَحلو للماكينة الدّعائيّة أن تُطلقَ عليه أرادَ أن يَدحرَهُم بشرفِ التّحدّي ألم ترَ كيفَ كان الأندلُسيّون يَخرجون بصُدورٍ عاريةٍ أمامَ الجُنودِ الإسبان وهم يَعرفون مَصيرَهم هههههه هل سَتنجحُ هوليود

المُتطرّفون يهُدِّدون حاناتِ بغداد بالتّفجيرِ أغلقوا كثيرًا منها بقوّةِ السلاحِ هل نَضعُ تاريخَ منطقةِ البابِ الشرقيّ في الفيلمِ مَشاهدُ إعدام الجَواسيسِ وتَعليقِهم على أعمدةِ الكهرباءِ وسطَ صَخبِ الأناشيدِ الوطنيّةِ ومُكبّراتِ الصَّوتِ الفيلمُ عالمٌ واسعٌ يَتَّسعُ لكلِّ ما في صُدورِنا مِن عَواطفَ ولكلِّ ما في عُقولِنا مِن أفكارَ كلّما وضَعنا فيه تاريخَنا يُصبحُ أقربَ إلينا أليسَتْ الحربُ العراقيةُ تَجاوزَتْ التراجيديا اليونانيّةَ قلْ لي كيفَ نَجدُ الشّخصيّات الملكُ المندوبُ السّامي بيرسي كوكسْ فاتحُ بغدادَ الجِنرال ستانلي مودْ ولورنسْ العَرَبِ والخاتون وغيرُهم هنا نجدُ كلَّ الأجناسِ بلادُ الرافدَيْن هي الكونُ يا صديقي أهالي المُوصلِ يُشبهون الإنجليز شُقرٌ وأهلُ البَصرةِ سُمرٌ مثلُ الأفارقة وأهلُ أربيل يُشبهون القوقازيّين ديكوراتُ بغدادَ في العشرينات أيّامَ زمانٍ لا تزالُ قائمةً رُوّادُ المقاهي كانوا يُحيّون الملكَ أثناءَ مُرورِ مَوكبِه في شارعِ الرّشيدِ وهو يَردُّ عليهم التّحيةَ مالكُ سينما غرناطة أعطاني جهازَ عَرضِ الأفلامِ مُقابلَ رَواتبي لستّةِ شهورٍ قائلاً أنتَ أفضلُ مَن يُحافظُ عليه أصبحَ جوهرَتي وأعزَّ ما أملكُ وضعتُه في غرفةِ النّوم وغطّيتُه بشراشِفَ بيضاءَ وأحيانًا أُعيدُ تشغيلَهُ كي لا يصدأ أُقسِمُ لكُم أنّني تَعلّمتُ مِن السينما ما لم أتعلَّمْهُ في الحياةِ أفلام لا أنساها خُذْ رقصاتِ أنطوني كوين على أنغامِ السانتوري وموسيقى ميكيس ثيودوراكيس وكلماتِ نيقوس كازندزاكي والأخوة كرامازوف مع المُمثلةِ اليونانيّةِ ايرين باباس الى جانبِ الأمريكيّ غريغوري بيك وأفلامًا مُستوحاةً من رواياتِ فيكتور هوجو وبلزاك وموباسان وأندريه مالرو مع المُمثّلين الفرنسيّين البارعين آلان ديلون ولي فنتورا وكاترين دينوف وسيمون سينوريه ومارلين جوبيت وإيف مونتان ولا أنسى أفلامًا أخرى نُقلَت عن رواياتِ تولستوي وبوشكين وغوغول وتورجينيف وغوركي ومایاكوفسكي وغيرِهم يا سَلامْ برافو عليك يا هاشم يا أعظم مُشغّلٍ لآلةِ عَرضٍ سينمائية في العالَم كلُّ هذه الأفلامِ اختفَتْ كان أصدقاؤنا يأتون مِن المُحافظاتِ ليُشاهدوا هذه الأفلامَ كنّا نرحلُ وراءَ الشاشةِ ونذهبُ بعيدًا بين الثلوجِ والضّبابِ والبحرِ والمطرِ والأشجارِ أرفعُ رأسي لأرى نُصبَ الحرّيةِ البرونزيَّ المُعلّقَ على الجِداريةِ مثلَ غيمةٍ مُتدليّةٍ مِن السّماءِ أرواحٌ زُهقَتْ تحتَ عَجلاتِ الانقلاباتِ لا أحدَ يُمكنُ أن يَمُرَّ مِن تحتِ ذلك النُصبِ دُون أن يرفعَ رأسَهُ إلى السماءِ صاغَ النحّاتُ دموعَهم مِن المَطرِ في ساحةِ الطّيرانِ أجناسٌ وأقوامٌ ومِلَلٌ ونِحَلٌ جاؤوا مِن زمنٍ غابرٍ قديمٍ كأنّ الزمنَ توقّفَ في صورةٍ جامدةٍ ديكوراتُ فيلمٍ بوليسي بالأسودِ والأبيضِ لم يَتغيّرْ شيءٌ لا شكلُ الحانةِ ولا رُوّادُها ولا كُؤوسُ البيرةِ وقَناني العَرقِ ولا المازةُ الباقلاءُ المغليّةُ واللّبنُ بالخيارِ والسَّلَطةُ وأكبادُ الدجاجِ المَطبوخةُ والحِمّصُ ندينُ لِهاشم برؤيةِ أجملِ الأفلامِ في سينما غرناطة كلُّنا نَعترفُ بذلك يونس ونُعمان ومنصور ماذا كانت تفعلُ خاتون بغداد إنّها تَعجنُ التاريخَ وتَمزجُهُ بالجغرافيا هل كانت تَصنعُ لنا وحشًا ونحن نائمون على فراشِنا الوثيرِ هل هي المسؤولةُ عن خرابِنا وقلقِنا وهي تَفرشُ جِناحيها على أرضِنا وتُشكّلُ شرقَنا وتُنصّبُ الملكَ على عرشِ العراق هذه المرأةُ لم تُحِبّ سايكس بيكو يومًا بل سَخرَتْ مِن الّذين كانوا خلفَ خُيوطِ اللّعبةِ في الكواليسِ المُظلمةِ كم نَعشقُكِ في هذه اللحظةِ لسنا سُكارى كنتِ تَبحثين عن شرقٍ مَحمومٍ لامَعقولٍ مَجنونٍ مثل مَصيرِكِ لا يُراودُكِ الخجلُ من نَظراتِ رجالِ السّياسةِ أنتِ تُحبّين هذه الأرضَ وفضّلتِ أن تَرقُدي فيها هادئةَ البالِ كنتِ تَعيشين على وهمِ المَلَكيّة التي تَبخّرَت في السماءِ كنتِ تُريدين أن تُضفي علينا الجلالَ المَلكيَّ ولكنّ ذلكَ كثيرٌ علينا نحن مِنَ السُّلالةِ الرثَّةِ التي لا تَصلُحُ لها المَلَكيّةُ إنّها عَطاءُ النُّبلاءِ ونحن لسنا كذلك لا تَصلُحُ لنا سوى جُمهوريّاتِ اللُّصوصِ أنتِ مَزهوَّةٌ بنفسِكِ بذاتِكِ بروحِكِ بجَسدِكِ بأوراقِكِ برسائِلِكِ بكُتُبِكِ بآثارِكِ بمُلكِكِ التاريخُ مليءٌ بالدّسائسِ والمُؤامراتِ والدّماءِ أنتِ تَقلبين أوراقَ هذا التاريخِ بأسفٍ كبيرٍ ونحن

نَقلبُهُ بتأنيبِ ضميرٍ ونَدمٍ جَعلوكِ مَلكةَ الصحراءِ استجابوا لنداءِ خيالِهم وأنتِ ملكةٌ غيرُ مُتوّجةٍ في مَمْلكةِ القبائلِ والفُقراءِ كنتِ تَبحثين عن عُزلتِك في الوجوهِ والآثارِ والأوهامِ والعزلةِ كانتْ ولا تزالُ كهفَ الإبداعِ والتّأمُّلِ والمونولوجِ وفي وقتٍ مُبكرٍ أدركتِ أنّ الذاتَ هي المِنجمُ الذي لا ينضُبُ مهما مرَّ الزمنُ إنّه العَتبةُ الأولى رغمَ أنّكِ كنتِ مُحاطةً بالشّياطين التي تَكرهُ عُطورَك الباريسيَّةَ هل وضَعَنا التاريخُ الروحيُّ لِمِسْ بيل في السيناريو وهل يُمكنُ لفيلمٍ أن يَفصُلَ بين الماضي والحاضرِ نعوشُ المَوتى الأميركيّين تَطيرُ إلى بُلدانِ الجِوارِ يُقالُ مُعظمُهم مُرتَزِقةٌ يَبحثون عن الكارثْ غرينْ والجِنسيّةِ أنتَ تقولُ الحقيقةَ ولكنْ مَن يَهتمُّ بها أنتَ مَجنونٌ السينما تُعشِّشُ في رأسِك السيناريوهات دَوِّنها قبلَ أن تَموتَ لا زلتُ شابًا أحملُ على كاهلي مِن الطُّموحاتِ بحجمِ الجِبالِ لماذا تُطلقُ فألَ الشرِّ في طريقي يا يُونس إذا لم نُصوِّرْ هذا السيناريو لن تقومَ لنا قائمةٌ كُلّنا يحلمُ أن يرى الفيلمُ النورَ الذي يُضيءُ حياتَنا مَنصور يسعى لِرُؤيةِ سيناريو يُصوّرُ هجرةَ المَسيحيّين إلى بُلدانِ العالَمِ لا مَكانَ لهم هنا نَتجوَّلُ بين شواهدِ القُبورِ لم يتبقَّ منها سوى ركامٍ مِن الأتربةِ البيضاءِ تَخُطُّ أَسماءَ المَدفونين الشّواهدُ صفحةٌ بيضاءُ بحُروفٍ مِن النَّملِ الأسودِ تكتبُ ما تشاءُ مِن الحُروفِ يا هاشم خَيالُك خَصْبٌ هل لأنّك شاهدتَ أفلامًا كثيرةً أثناءَ عَملِكَ كمُشغِّلِ أفلامٍ هَلْوساتِ المَوتى يومَ القيامةِ هل تَعلمُ أنّك تَفتحُ لنا آفاقًا خَياليّةً في الفيلمِ أنا أكرهُ الفيلمَ الواقعيّ إنّه يُحاولُ أن يُغلِّفَ الواقعَ بالسِّيلفون البَرّاقِ الذي لا يَحتوي أيّ معنى ألم تسمع بالحِكمةِ الفلسفيّةِ الرّوايةُ لا تفحصُ الواقعَ بل تفحصُ الوجودَ حتى لو اكتظَّ أمامَ صالةِ العَرضِ آلافُ الروّادِ تسألونَني عن القُبورِ الخَرِبَةِ والشّواهدِ المُبعثرةِ فأقولُ لكم إنّها لا تزالُ في صَناديقِها كما جاءَتْ مِن إنجلترا يَنتظرون اسْتبدالَها في وقتٍ لاحقٍ متى شاؤوا مِسْ بيل تَرتدي الفَساتينَ القطنيّةَ الطّويلةَ وتَعتمرُ قُبّعاتٍ مُزيّنةٍ بالزُّهورِ وتَمتطي الحِصانَ على ضِفافِ نهرِ دِجلة وتُشاركُ في حَفلاتِ الشايِ وسِباقاتِ الزَّوارقِ والسّباحةِ ومَآدبِ الغَداءِ على شُرفاتِ المَباني البريطانيّة بماذا تُوحي لك هذه الفكرةُ قولوا لي برَبِّكم أين ذهبَ ذلك الزّمنُ الجَميلُ عندما كانتْ بغدادُ أكثرَ رُقيًّا مِن الزّمنِ البَرْبَري وتَحوَّلت الآنَ إلى مِكَبٍّ للزّبالة والنّفاياتِ تقطعُ طُرقَها الأسوارُ الكونكريتيّة وأكياسُ الرّمالِ وتقطعُ شوارعَها الدبّاباتُ الأمريكيّة اللعنة كم تعشقُ هذه المدينةُ مُغتَصبيها هل يُخَلّدُ هذا البلدُ مُحتلّيه ويُسمّيهِ بالفاتحِ البَغداديُّون أقاموا تِمثالاً وسطَ عاصِمتِهم للجِنرال ستانلي مود الذي نالتْ مِنه الكوليرا قبلَ أن تَنالَ منه سُيوفُ العِراقيّين هل الكائنُ العراقيُّ مُنافقٌ مُخادعٌ مُتلوّنٌ يُجيدُ حِرفةَ العُهرِ أم إنّه قِدّيسٌ يَهيمُ على وجهِهِ في المَقابرِ ساحةُ الطيرانِ مَليئةٌ بالجُثثِ المُعلّقةِ على الأعمدةِ يقولون إنّهم جَواسيسُ وظلَّتْ رِقابُهم مُعَلّقةً على المَشانِقِ طوالَ النهارِ فرجةً تُثيرُ هذَياناتٍ وهَلوَساتٍ سُكّانُ المدينةِ هَرعوا إلى تلك الساحةِ التي لم يَروا لها مَثيلاً إلا ما قرؤوه عن المَغولِ يَجمعون الرُّؤوسَ في باقاتٍ مثلَ باقاتِ الشّعير ليُقدّموها قَرابينَ وأُضحيةً عُدتُ إلى المَقبرةِ حزينًا وعندما سألتْني زوجتي عن حزني أخبرتُها بما رأيتُ وراحَتْ هي الأخرى تنعزلُ في زاويتِها يَلفُّها الحزنُ مِثلي المَقبرةُ تُزيدُ مِن أحزانِنا حتى أصبَحنا لا نَستلذُّ إلا بالتنزُّهِ بين القُبورِ ونعلمُ أنّ مَثوانا الأخيرَ هنا تحتَ الترابِ هناك أيادٍ تُشيدُ لنا القبورَ وأيادٍ أخرى تخطُّ لنا الشّاهدةَ لماذا تركَ الإنجليُز مَوتاهُم على أرضِنا فيما سارعَ الأمريكيُّون إلى نقلِ موتاهُم إلى خارجِ البلادِ هل الإنجليزُ أكثرُ ثقةً مِن الأمريكيّين رُبّما كانوا يُفكّرون بالعَودةِ إلينا بحُجَّةِ زيارةِ قُبورِهم عادوا إلينا الآن بوَحشيّةٍ وقَساوةٍ تَضُمُّ المَقبرةُ رُفاتَ ضُبّاطٍ بريطانيّين ويَعتبرونَها مُتنزّهًا أو حديقةً لا يَخشون أرواحَ ساكنيها مَلاذٌ مُناسبٌ للعشّاقِ الذين يَختلون بحَبيباتِهم أجواءٌ قريبةٌ مِن الرومانسيّةِ المَيّتةِ فالأضرحةُ تَشهدُ كلَّ يومٍ جَلساتٍ لعُشّاقٍ يَتداولون كلماتِ الحَبِّ والزُّهورَ على

مَقابرِهم وأضرحَتِهم والطّلَبَةُ يَجدونَها مكانًا مُلائمًا لمُطالعةِ دُروسِهم وقتَ الامتحاناتِ أجواءٌ مِن الهُدوءِ والطُّمأنينةِ والأُلفةِ شكلُ قُبورِها مُنتظمٌ ومُرتبٌ بشَكلٍ لا يبعثُ على رَهبةِ المَقابرِ مَقبرةٌ وهميةٌ افتراضيّةٌ ولا يُصدّقُ بوجودِ جَثامينَ مَدفونةٍ فيها هناك مَن يَشكُّ في وُقوعِ الأحداثِ التاريخيةِ بل قِلّةٌ يَعرفون أنّها تَحوي جَثامين بريطانيّين قَضَوا على هذه الأرضِ أثناءَ الحَربِ الأولى ماتوا في عَظمةِ إمبراطوريّتِهم وفي أوْجِ انهيارِها لا يَخشى العُشّاقُ التنزُّهَ فيها نهارًا ويَلجأُ إليها اللُّصوصُ ليلاً تمَّ تَزهيرُها بالأشجارِ والوُرودِ رَوْضةٌ مِن رياضِ الأرضِ آنذاك لا يفعلُ حارسُ المَقبرةِ سوى مُراجعةِ قائمةِ المَدفونين ليُدرِّبَ نفسَهُ على الإجابةِ على أسئلةِ السُيّاحِ المُغامرين إن وُجدوا السّجلاّتُ تقولُ إنّ هناك نحوَ 2500 ضريحًا لجُنودٍ وضُبّاطٍ مِن الجَيشِ البريطاني والأسترالي والهُولندي والباكستاني والهُنودِ والسيخِ وبعضِ العرب المُصاحبين للجَيشِ كَمُترجمين أستنشقُ الهواءَ النقيَّ وأتمتّعُ بمَنظرِ الأشجارِ والزهورِ يتوسَّطُها صَليبُ التضحيةِ كشاهدٍ بارزٍ نقرأُ ما كُتبَ على شواهدِ القبورِ المَنحوتةِ من الحَجرِ صُلبانٌ شاخصةٌ وأشكالٌ آدميةٌ لكنّ الخاتونَ هي الوحيدةُ التي تخرجُ مِن قبرِها لكي تَتنزَّهَ على نهرِ دِجلة روحُها طاقةٌ جبّارةٌ يضحكُ العُشّاقُ أرضُنا مَجبولةٌ بالأساطيرِ وأرواحِ المَوتى انظروا إلى الصّليبِ التّذكاري في قلبِ المَقبرةِ فَنارٌ مُضيءٌ واليومَ مُجرّدُ خشبةٍ يابسةٍ مائلةٍ توكرُ عليها الطيورُ المُنهكةُ أضرارُ انفجارِ سيارةٍ مُفخَّخةٍ قربَ سِياجِ المَقبرةِ تناثرَتْ الحِجارةُ والأعشابُ والترابُ أعضاءُ الكومنويلث المَسؤولون عن رِعايةِ وإدامةِ المقبرةِ غاضبون لكنّهم وعَدونا بتَرميمِ ما تَهدّمَ أصبحَتْ مَقبرةُ الإمبراطوريّة مِكبّاً للنّفاياتِ ومَرمىً لِلأشياءِ التّالفةِ ومأوىً للُّصوصِ والشاذّين كانتْ المقابُر حدائقَ غنّاءَ يا صديقي العزيز مَقابُر بروتوكوليّة لا أحدَ يتحكّمُ بإزالتِها أو نقلِ رُفاتِ المَوتى مِنها إنّهم رعايا بريطانيا العُظمى حتى لو كانوا أمواتًا يا ستّار لم يَتركوا شيئًا للمُصادفةِ إنّهم يُفكّرون حتى بمَصيرِ مَوتاهم تعالوا وشُوفوا ماذا يحدثُ عندنا بعضُ المُتطرّفين يَعتبرونَها تُدنّسُ الترابَ الوطني ومِنهم مَن يعتبرُها امتدادًا للحَقبةِ المُظلمةِ إذا ضاقَتْ بكُم الصُّدورُ زُورا القُبورَ أكلَ الضجرُ نُفوسَنا يا سَلام ألَمْ أقُلْ لكَ إنّ في أرضِنا كلَّ شيءٍ أَلَسْنا نحنُ بلدَ الحاناتِ مُنذُ جَلجامشَ هذا صحيحٌ لكنْ دَعْني أقولُ لكَ إنّ بعضَ المارّةِ لا يَعرفون أنّ ثمّةَ مَقبرةَ وراءَ هذه الأسيجَةِ الشاهقةِ الإنجليزُ يروُون سِيَرَ قتلاهُم هل تعلمُ أنّ كاتبًا جاءَ إلى هنا وتحدّثَ إلينا عن مشروعِهِ في كِتابةِ مَوسوعةٍ عن سيَرِ هؤلاء الموتى مِن أجلِ التوثيقِ باعتبارِ أنّ أرواحَهم يجبُ أن تَستمرَّ في الوُجودِ بعدَ أن رحلَتْ أجسادُهم فكرةٌ خلاّقةٌ رغمَ أنّهم فارَقونا مُنذُ ما يُقاربُ مئةَ عام أعلامٌ دُفنوا في هذه المَقبرةِ مِن بين هؤلاء الألفيْنِ وخمسمئةٍ المَدفونين في باطنِ هذه الأرضِ الأميركيّون لا يَحفَلون بموتاهُم فيهم الكثيرُ مِن المُرتزقَةِ ولا يُشبهون مَوتى الإمبراطوريّةِ أغلبُ جُنودِهم جاؤوا للحَربِ بينما يُصرُّ البريطانيّون على تَشييدِ قبُورِ موتاهم مِن الرُّخامِ ورُبّما لا نَعرفُ بالذاتِ سببَ إهمالِ الأمريكيّين لقتلاهمُ رُبّما يعودُ إلى قوانينِ جُيوشِهم لماذا القُبورُ مُهدّمةٌ وشواهدُها مُبَعثرةٌ هل تَعتقدُ أنّ المقابرَ تكونُ بِمَنأى عن الحُروبِ أنتَ على حَقّ أهكذا يُفكّرون بكلِّ تلك التفاصيلِ إنّي لا أشربُ الخَمرَ إلا بجِوارِ قَبرِها لا أدري لماذا هل لي رغبةٌ في أن أُحوّلَ قبرَها إلى مائدة خمرٍ أشعر بالضّيقِ في كوخي أُفُقٌ مُغلقٌ بينما هنا أمتلِكُ كلَّ الآفاقِ عندَما أضجُر أذهبُ لإزالَةِ الأعْشابِ والأشواكِ التي تَنمو حولَ قبرِها وأجمعُ أوراقَ الخريفِ التي تكدسَّت هنا كأنّها تَحتفلُ بيومِ وفاتِها الخريفُ يَحتفلُ بها في كلِّ مَوسمٍ مِن أجلِ التّذكيرِ بالمَوتِ بعضُ الكَنائسِ تَتَبرّعُ بين الحينِ والآخرِ بكيسٍ مِن النّقُودِ إكرامًا لهذه المرأةِ الكَريمةِ الرّاقدةِ هنا بسلامٍ إنّهم يَتعاملون معها كأنّها قِدّيسةٌ نَذَرَتْ حَياتَها مِن أجلِ هذا الشّعبِ وكرّمَتهْم بالبَقاءِ بينهم لم تكُنْ أكياسُ الرّمالِ تَقطعُ الطّرُقَ والشّوارعَ وسطَ

المَركباتِ المُدرّعَةِ والدبّاباتِ وأنقاضِ المَباني الحُكوميّةِ والأسوارِ الشّاهِقةِ كما ترى الآن تُحبُّ المَساكينَ والضُّعَفاءَ بكلِّ تَواضُعِها البعضُ يعتبرُها مُجرّدَ جاسَوسةٍ هذا جهلٌ بتاريخِ هذه المرأةِ يا أصدقائي لا يُفكّرُ هكذا سوى الأوغادِ والرُّعاعِ ومِن أجلِ أن يتذكّرَها الناسُ عَمدَتْ إدارةُ قُبورِ الكومنولث إلى إصدارِ تَعليماتها بتَشييدِ قبرٍ رُخاميّ لها يُصارعُ الزّمن كأنّهم يَسعون إلى تَخليدِها دُون وَعيٍ في هذا المَكانِ بالذّات أما أنا فقدْ أدخلتُ موسيقى موزارتْ لتَصدحَ بين القُبورِ لإدخالِ السّرورِ إلى روحِها لأنّها كانتْ تَستمعُ إلى هذه الموسيقى في حياتِها بل وجعلَتنا نُحبُّ هذه الموسيقى أنا وزوجتي ينهرُني البعضُ ولا يتكرّمُ عليّ بل وبعضُهم يزجرُني ويقولُ لماذا لا تضعُ تَسجيلاتِ آياتِ القُرآنِ بدلَ تُرّهاتِ موزارت ماذا أقولُ لهم إنّهم يَجهلون مَنْ هي هذه الرّاحلةُ ولا يَعرفون تَفاصيلَ حياتِها ولا يعتبرونَنا نحنُ المَسيحيّين سوى باعةِ خمرٍ ومَخْصيّين ومُخنَّثين ولا نَصلُحُ إلاّ للعَملِ في الحانات لا أكثرَ ولا أقلّ ويرفضُنا الجيشُ في صُفوفِه وإذا وافقَ علينا يُحوّلُنا إلى مُراسِلين وخَدم وعبيدٍ أمّا موزارت فهو كافرٌ لَعينٌ في نَظرِهم لا يَجبُ الاستماعُ إلى مُوسيقاه لكنّني أُحبُّ ألحانَه التي أحَبَّتها الخاتون جَرى تَنظيفُ القبرِ وإعادةُ تَرميمِهِ مِن قِبَلِ أحدِ فاعِليّ الخيرِ قبلَ دُخولِ الأمريكان إلى بغداد لأنّ العراقيّين بدأوا يُبجّلون خاتون بغداد بعدَ أن رأوا فظائعَ الأميركيّين والمُفارقَةُ كما تَرى أنّها تَحملُ لَقبَ الإمبراطوريّة العُثمانيّة التي حاربَتها بكلِّ قوّةٍ وشَراسةٍ ولكنّها لم تكُن مُتعاليَةً علينا رغمَ أنّها نصَّبَت المَلكَ على عرشِ العِراق ولو كانت امرأةً أخرى لعاملَتنا مثلَ القَطيعِ كما فعلَ زَعيمُها السّير بيرسي كوكس إنّها تَرقدُ في قبرِها بهدوءٍ إلى أن أيقظَها الأمريكيّون بضَجيجِ دبّاباتِهم هشّموا أسوارَها وجَعلوها فناءً مَفتوحًا للكِلابِ الضّالةِ والقِططِ السّائبَةِ ولا تزالُ موسيقى موزارت تَرنُّ في أُذني وهي تَنطلقُ مِن آلةِ التّسجيلِ وثمَّةَ مَجنونٌ يرتدي أسمالاً باليةً يركضُ بين شواهدِ القُبورِ المَكسورَةِ ويُردِّدُ إنّها في السماء كيفَ يتجرّأُ هؤلاء الأوباشُ أن يُدمّروا البلدَ الذي علمّنا القراءةَ والكتابةَ أين نذهبُ في بغدادَ المُحترقَةِ هل ينفعُ البكاءُ كان العِراقيّون مُولَعون بمِسْ بيل لكنهّم سَرقوا تمثالاً نصفيًا لها كان مُودعًا في المُتحفِ الذي وضَعَت لَبِناتِهِ الأولى بيدِها ووَضعَت فيه الآثارَ التي نقّبَتْ عنها بنفسِها وأبعدَته عن أيدي السّراقِ واللُّصوصِ لكنّه سرعانَ ما اختفى قبلَ الاحتلالِ الأمريكي بقليلٍ ولا يزالُ الغُموضُ يدورُ حولَه مع لوحةٍ تشيدُ بذِكراها لا أحدَ يدري أينَ ذهبَ التّمثالُ واللّوحةُ هل كان اللُّصوصُ مِن أحبّائِها أم مِن أعدائِها عِراقيّين أم أجانبَ عربًا أم كوردًا شيعةً أم سُنّةً لماذا اختفى تمثالُها النِّصفي ولوحتُها قبلَ مَجيء الأمريكيّين إلى هنا وهم يَمرّون بجوارِ قبرِها بدبّاباتِهم التي صَدّعَت الطُّرقَ الإسفلتية المؤديّة إلى مَقبرتِها وأحالَتْها إلى حفُرٍ وأتربةٍ الأمريكيُّون لا يُعيرون القُبورَ اهتماماً فقد حَملوا معهم توابيتَهم في الطّائراتِ خشيةَ أن ينبشَها العِراقيّون انتقامًا عندَ رحيلِهم لماذا شواهدُ قُبورِ الجُنودِ والضبّاطِ المَدفونين مَمحوّةٌ ومُتصدّعةٌ حكايةٌ طويلةٌ هل احترقَت شواهدُ قُبورِهم مِن شظايا الحُروبِ مَنصور يُعبّرُ عن ذلك لأصدقائِه بعَينٍ دامعةٍ أخبرْنا لَجنةَ مَقابرِ الكومونويلث ماذا فعلوا وعَدُونا بتَرميمِ القُبورِ وإصلاحِها لكنّ الظروفَ التي نعيشُ فيها هكذا ظلّت المقبرةُ مُهمَلةً إنّهم لا يهتمّون بالأحياءِ فَكيفَ يهتمّون بالمَوتى مِن المُقرّرِ أن يَستبدلَ المُقاولون العِراقيّون خمسَمئةِ شاهدةِ قبرٍ لتصَدُّعِها ودَمارِها وبدلاً مِن ذلك تُركَتْ في حاوياتِها المَعدنيّةِ أمامَ المقبرةِ لسنواتٍ ولم تُفتحْ إلّا أخيرًا يا أخي أنت تُكرّرُ ذلك في كلِّ مرّةٍ أعزّائي يُوجدُ بالقُربِ مِن مَدفنِها قبرُ الجِنرالِ ستانلي مود قائدِ الحملةِ البريطانيّة وفاتحِ بغداد الذي قتلَتْهُ الكوليرا ولم يَمُتْ في المَعاركِ ومَساحةٌ خاصةٌ دُفنَ فيها الجُنودُ مِن مُختلفِ الجِنسيّاتِ الأوروبيّةِ الأخرى وهناك قبورٌ مُخصّصةٌ للجُنودِ الهُنودِ وأغلبُهم مِن طائفةِ السّيخِ مِن مُشاةٍ وآمري كتائبِ الجيشُ البريطانّي وفي كلِّ

مساحةٍ دُفنَ آمرُ كتيبةٍ مِن السّيخ في قبرٍ يتميّزُ ببناءٍ شاخصَة على شكلِ عمودٍ شِبهِ هَرميّ مَصنوعٍ مِن حجرِ الرّخامِ الأبيضِ يصلُ ارتفاعُه إلى ثلاثةِ أمتارٍ أو أكثر يتقدّمُ قبرُه ببضعَةِ أمتارٍ قُبورَ جنودِه مِن الهُنودِ وقد دُفنوا بشكلٍ منتظمٍ الهنودُ يَحترمون موتاهُم ويبدو للنّاظرِ كأنّهم جنودٌ أحياءُ في ساحةِ عَرضِ التّعدادِ العسكري إنّها مقبرةٌ كونيّةٌ ولا علاقةَ لها بالإنجليز فقط لأنّهم كانوا العالمَ كلَّهُ آنذاك لا أحدَ يريدُ أن ينسى لأنّ التاريخَ تحوّلَ إلى نوعٍ مِنَ الجُنونِ الذي عاشَتْهُ المِسْ بيل وأرادَت أن تُشرِكَ فيه الجميعَ ونجحتْ في جَرّنا إلى هذا القبرِ لنَنَامَ إلى جِوارِ جَسدِها الصَّامتِ غائِصين في أعماقِ هذه التُّربةِ حَاملين قلقَ الإمبراطوريّتَيْن بين رابحٍ وخاسرٍ لا يمكنُ أن نَنْسى صورتَها تلك وهي تقفُ بكلِّ شُموخٍ بين وِنستون تشرشِلْ ولورنسْ العَربِ وفي ذَيلِ الصورةِ كُتبَتْ عبارةُ مُؤتمرُ القاهِرة شاركَتْ في صِياغَتِه تاريخٌ بقلبِها وعقلِها وهَوسِها وأحلامِها ووضعَتْ شيئًا مِن رُوحِها فينا الآخرون شاركوا بألاعيبِهم وخِدعِهم ارتعشَتْ مِن فكرة أن تَتهاوى أركانُ الإمبرطوريّة التي شادَتْها رويدًا رويدًا على هذه الأرض وهكذا يقفُ هؤلاء على مَشارفِ تاريخٍ ينهضُ مِن جديد امرأةٌ مُتوَّجَة على سُلطةٍ في طريقِها إلى التَّخلّي عنها صنعَتْ إمبراطوريّةً انبهرَ بهاً ملكٌ يتنزَّهُ على نهرِ دِجلة في زوايا قصرِه المُظلمَة تعلّمَ أنّ هذه السُّلطةَ في مَهبِّ الرياحِ عاجلاً أم آجلاً ساورَها الشكُّ في صُمودِ هذه الإمبراطوريّة بوجهِ الزّمنِ يمكنُ أن يُكتبَ لها الخُلودُ إذا ما استمرَّ العهدُ الملكيُّ على حالِه مَهما صَعدَتْ الإمبراطوريّاتُ إلى أبراجِ السماءِ تبقى ضعيفةً وهشَّةً مثلَ قُصورٍ مِن الرّمالِ في مَهبِّ العواصفِ والرّياحِ أليسَ التاريخُ عجلَةً عرجاءَ لا تتقدمُ إلا بدفعِها مِن الخلفِ أين ذهبَ مُهندسو الاحتلالِ أين اختفوا قبورُهم لا تَحملُ الشّواهدَ ولا النّياشينَ هالةٌ مزيَّفَةٌ أين ذهبَتْ تلك الأسْيِجَةُ الحَجريّةُ العظيمةُ التي كانت تُحيطُ بها مِن كلِّ جانبٍ مَنصور المِسكينُ وزوجتُه المَريضةُ ها هههههه إنّهم يَسرقون طَوابيقَ الأسْيِجَةِ لكي يُشيدوا بها بُيوتَهم يا لَتعاسةِ العِراقيّين هَمجٌ هَمجُ هَمجٌ يَسرقون كلَّ شيءٍ حتّى أسلاكَ الكهرباءِ ويَقتلعون الهَواتفَ العامَّةَ ويُمزِّقون الأعلامَ ويَضحكون وهم يَقرؤون الكتاباتِ على الجُدرانِ التي تقولُ البولُ للحَميرِ الكومنويلث حزينٌ لانقطاعِ راتبِ مَنصور إدارةُ المَوتى أصعبُ مِن إدارةِ الأحياءِ هل حملْتَ ميتًا ذاتَ يومٍ بين يديْك الجُثّةُ ثقيلَةٌ بهُمومِها وليسَ بأحشائِها فقط ما الذي صنعتِهِ بيديكِ يا مِسْ بيل هكذا تخلَّيتِ عنّا وانزَويْتِ في بيتِكِ بانتظارِ الأيامِ الحَبلى بالأحداثِ حتى أيامُكِ هل هو إحساسٌ بأنّ التاريخَ لَن يُسامحَكِ لا يتجرَّأُ أحدٌ على إهانةِ مشاعرِكِ لأنّكِ لا تُريدين أن تَكوني ظلاً لأحَدٍ ها هو منصورٌ ذهبَ إلى قَبركِ المَصنوعِ مِن الحَجرِ الرَّمليّ ووضعَ على سطحِهِ نِصفَ قَنّينةِ عَرقٍ وصُحونَ اللّبنِ والحِمّصِ والباقلاءِ والجاجيكَ لِيَذهبَ بخيالِهِ في جولةٍ في حياتكِ ينظرُ إلى قَبركِ الأنيقِ على شكلِ مَستطيلٍ ومَشيدٍ مِن الطّابوقِ وله شاهدةٌ مَنحوتٌ عليها اسمُ غروترود بيل أحدُ الزّائرين صَرخَ يا إلهي أيُّها الحارسُ الرّثُّ هل تشربُ العَرقَ على قبرِ صانعَةِ المُلوكِ أُصيبَ بالخَرسِ ولم يَقدِرْ أن يُجيبَ عليهِ إنّه يُحبُّها ويُكرمُها ولا يعني احتقارَها جميعُ الوثائقِ والمَخطوطاتِ عن مِسْ بيل احترقَتْ لم يُصدّقْ أحدٌ ذلك دَسَّ الطالبُ الشابُّ رأسَهُ بين يديْهِ وأجهَشَ بالبُكاء وهو يقُدِّمُ له كأسًا مِن العَرقِ وأجابَهُ الإنجليزُ أمّنوا موتاهُم بين أيدينا هنا بينما لم يَفعلْ الأميركان سوى أنّهم طاروا بموتاهُم إلى مكانٍ بعيدٍ خِشيةَ أن يُمثَّلَ بهِم مثلَ شُخوصِ المَسرحيّاتِ التراجيديّة تخجلُ الفتاةُ الرّقيقةُ المُتواضعةُ والمُثقّفَةُ أن تَحملَ لَقبَ الإمبراطوريّة العثمانية التي حاربَتْها بكلِّ ما أُوتيَتْ مِنْ قوّة الإمبراطوريّةُ قادرةٌ على اختراعِ الألقابِ والأساطيرِ مثلما هي قادرةٌ على صِناعةِ الحَلوى المِسْ بيل تُردّدُ العواصفَ الرمليّةَ تصوغُ مَصائرَ البشرِ وتبعثُها مِنْ جديد تِمساحانِ كبيرانِ بريطانيٌّ وعُثمانيٌّ يَتعاركانِ على

ظُهورِ البُسطاءِ فكلاهُما اخترعَ أبطالاً مدّا ظلالَهُما على سُلوكِ البَشرِ وطِباعِهم لو كانتْ امرأةٌ أخرى مكانَ مِسْ بيل لَكانتْ تَسيرُ على الأرضِ كالطّاووسِ تَنفشُ ريشَها بخُيَلاءٍ وافتِخارٍ وهي تَحملُ لقبَ الخاتون تُمسكُ بِزِمامِ الحُكمِ وتَلعبُ بخيوطِهِ مِن وراءِ الكَواليسِ نحنُ لسْنا دُمىً يا أصدقاء حتى السّكارى لا يَقبلُون بذلك مَعبودةُ الناسِ بين الأحياءِ الشعبيَّةِ والقُصورِ الفَخمةِ يَكفي أنَّ رُوحَها تَتأرجَحُ بين لَقبيْن قاتِليْن الخاتون ومِسْ بيل هل تَتَذكَّرون المَلكَ عندما كان يَمُرُّ في مَوكبِهِ بسَيّارَتِه المَكشوفةِ في شارعِ الرّشيد وهو يُحَيِّي رُوّاد المَقاهي التّي تَتَصدَّرُ أرصِفَةَ شارعِ الرّشيد قَهْقَهَ يُونسُ لا يَهمُّكُم سوفَ أضَعُ هذه القُصاصةَ في السّيناريو ماذا تقولُ لو نَجعلُ أحدَ المُذيعين يَقرأُ هذه الرّسالةَ بصَوتٍ مُوازٍ لأحداثِ الفيلمِ نُعمان هذا يصلُحُ للفيلمِ الوثائقيّ أمّا في الفيلمِ الرِّوائيّ لا يُمكنُ ذلك أخشى أن يُؤثّرَ على تَدفُّقِ انسيابيّةِ الفيلم ويَجعلَ المُشاهدَ يَنفُرُ مِن الفيلم يجبُ أن تضعَ بعضَ اللّقطاتِ لسُقوطِ تِمثالِ الجِنرال ستانلي مود في صَبيحةِ ثَورةِ تَموز سُقوطُ التَّماثيلِ أصبحَ رمزاً للثوراتِ الإمبراطوريّاتُ تَفتكُ بالشّعوبِ الضَّعيفةِ تَماثيلُ الطُّغاةِ تتَساقَطُ التاريخُ أكبرُ فخٍّ للرّواية ليست الرّوايةُ خادمةً للتاريخِ بل فاضحةٌ له ما هي حكايةُ زُهور اللّيلَكِ والنّرجِسِ نَضعُها على قبرِها وفاءً لها وها أنتَ ترى بأمِّ عينِكَ أصبَحنا حُرّاسَ مَقابرَ وكَنّاسينَ وزبّالين وكلُّ ما تُريدُه نَهجرُ بلدَنا مِنْ كثرةِ حبّنا له أصبحَت المَقبرةُ ملجأً ومرتعًا لعِصاباتِ الخطْفِ والقتلِ والاغتِصابِ هذا المكانُ المُقدّسُ في نظرِ الأحياءِ والأمواتِ لم يَسلَمْ مِنْهم شيءٌ حتى هذه المِقبرةُ الدِّكتاتوُر حامِي المَسيحيّين شِئنا أم أبَينا كان يُرمّمُ أديرَتَنا وكنائِسَنا المَسيحيّون الشرفاءُ بكُوا عندَما اعتَلى مِنَصّةَ الإعدامِ بعدَه تشتّتْنا في كلِّ الأمكِنَةِ والأصْقاعِ نحن لا نَخشى أن يَنبُشَ أحدٌ قبرَ الخاتون كنوزُ آثارِنا مَدفونَةٌ مثلَ أُمَراءِ آشور ومُلوكِهم كيفَ تَجرَّأَ الرُّعاعُ على تَهديمِ التُّحفِ والآثارِ كان يكفي أن يَضعوا دبّابةً أمامَ المُتحفِ مثلَ فزّاعَةٍ لكي يَهربَ اللُّصوصُ أين اللوحةُ التي رسَمَتها فلورا روسّيل للخاتون ظلّت عذراءَ حتى آخرِ حبّةِ مُنوِّم ابتلعَتها قبلَ أن تُودِّعَ عالَمَنا الطبيبُ لم يتجرَّأ على تشريحِ جُثتِها بمِشرطِهِ يَهُمُّ العِراقيّون أن تَكونَ بجِوارِهم حتى لو أنّها جُثّةٌ هامدةٌ الضبّاطُ الكبارُ راحوا يُؤدّون لها التحيَّةَ كما لو أنّهم أمامَ قائدِ فرقةٍ أو فَيلقٍ تَحملُ نَياشينَ ورتبًا غيرَ مَرئيّةٍ خدعَتْ الأتراكَ بتَنكُّرِها وبراعَتِها وسِحرِها وعَلاقاتِها مع القبائلِ نحن نَضيعُ في مَتاهةٍ أخشى أن تَغلبَ قِصصُ حياتِنا على حياتِها البعضُ اقترحَ تحنيطَها ووضْعَها في المَتحفِ لتُصبحَ مثلَ الآلهةِ ذاتَ يومٍ غَضبَ المَندوبُ السَّامي مِن ذلك الناسُ يُحبُّونَها ويَتردَّدون على زيارةِ بيتِها لأنّها تتحدَّثُ معهم عن مُشكلاتِهم وأمراضِهم وأعمالِهم وحتى عن غراميّاتِهم وقِصصِهم العاطفيّةِ كانوا ينظرون إلى ثيابِها وموضَةِ أزيائِها بإعجابٍ مُنقَطعِ النّظيرِ مثلَ عارضَةِ أزياءٍ مُكلَّلَةٍ بالزُّهورِ فيما تفكّرُ هي بمِحنتِهم وإنقاذِهم بتأسيسِ دولةٍ لهم يَحتمون بها كَسَقفِ بيتٍ أو كوخٍ وهم يَتضاحَكون يا إلهي! كلّما اقترَبْنا مِن مِسْ بيل راحَتْ تَنأى عنّا وتَفلُتُ صورتُها مُتواريةً في مَتاهةِ وادي الرافديْن لم يَكتبْ أحدٌ عن أسرارِها وعَجائِبِها وألغازِها

يَجهلُها كثيرون لم يَفعلْ المُؤرِّخون سوى أنّهم اسْتَنسَخوا ما كَتَبَهُ أسلافُهم عنها يَجبُ أن نَعملَ سنواتٍ أخرى لكي نُزيلَ هالةَ التّقديسِ عنها هل كانت هي تسعى إلى الخُلودِ لاقى اقتراحُ تَحنيطِها ووَضعِها في المُتحفِ نوعًا مِن العَبَثِ اللّامُجدي كانوا يَخشون موتَها لأنّهم يَخشون موتَهُم تنبَّأتْ بما يَحصلُ في البلدِ وكانت تُصرُّ على تَصحيحِ أسماءِ الأمكنةِ بالقلمِ الأحمرِ حتى طلبَتْ مِنها الإدارةُ الإنجليزيةُ أن تضعَ خرائِطَ جديدةً تُعينُهم على أداءِ مَهامِّهم آمَنَتْ بالمَلَكيّة ولم تكُنْ تتخيّلُ أنّ هذا

العرشَ سَيَتدحرجُ مثلَ حَجَرةٍ تَتَهاوى مِنْ فوقِ جَبلٍ شاهق. وتَهاوَتْ المِسْ بيل ومعَها الأفنديّةُ، اللّقبَ اليونانيَّ ويَعني الَّشريفَ والعظيمَ المَلكُ فيصلُ استبدَلَ الطَّربوشَ العُثمانيَّ الأحمرَ بالسّدارَةِ السوداءِ أو الفَيْصلّية

7

---

25 يونيو 1926

فلورنس.. مُستودع رُوحي

لم أجدْ في نهايةِ المَطافِ سوى فلورنس، زوجةُ أبي لأُفضفضَ لها عمّا يجولُ في نفسي، وهي تُواسيني، قائلةً: عزيزتي غيرترود، تألَّمتُ كثيرًا لقلقكِ على مَصيرِ هذا البلدِ لأنّه أصبحَ على كفِّ عَفريت، ولم تَجدي العزاءَ إلا في تجلِّي العَجزِ الذي جابَهَهُ هاملتْ في حياتِه وانتقلَ إلى العَدميّةِ دُون إرادتَه. كلُّنا نشعُرُ في لحظةِ ما أنَّ هاملت جزءٌ منّا، يَخبو ويتألَّقُ، يظهرُ ويَختفي، يتراجعُ ويتقدَّمُ فينا، ولا يكُفُّ عن أن يكونَ الزّاويةَ المُنيرةَ مِن حياتِنا، هذا الغائبُ الحاضرُ، المَيتُ الحيّ، يقودُ سُلوكَنا إزاءَ أنفسِنا ويُنيرُ الطّريقَ أمامَ ظُلماتِ أعماقِنا، كما لو أنّه يُضيءُ المَصابيحَ التي أنطفأَتْ ونفدَ زيتُها، يدفعُنا إلى مَعرفةِ ذواتِنا التي تخدعُنا على الدَّوام، وكأنّنا تَوصَّلنا إلى مَعرفتِها، وهي لا تزالُ تلك الصحراءَ التي لم تَطأْها أقدامُنا، وما يَنقصُنا هو الفعلُ الذي يَحثُّنا على عملِهِ هذا الهاملتْ الذي يزورُنا في أوقاتِ ضعفِنا وقُوّتِنا، ليَهمسَ في آذانِنا بأنّ جوهرَ الإنسانِ هو الفعلُ، ونحن نَخشى هذا الفعلَ، بل وندورُ حولَه ونتساءَلُ: إلى متى نبقى أسْرى أرواحِنا التي لم تَنعتِقْ بعدُ مِن سِجنها الأبديّ وسطَ غيمةٍ كثيفةٍ مِن التردُّدِ والتَّراجُعِ والانكماشِ، وأنتِ تَعيشين على شَذَراتِ فلسفتِك التي تصلُنا بين الحينِ والآخرِ عبرَ رسائلِك الجميلةِ: إنّنا لا نزالُ نعيشُ على ما تبقَّى مِن رُوحٍ هاملتْ ونتجاهلُ قلقَهُ. هل حقًا تُريدين تَجاهُلَ قلقِهِ والخُنوعَ إلى الطّمأنينَةِ الزّائفةِ التي ابتُلينا بها جميعًا لكي نتصرَّفَ بمَظهرِ القَويّ المُطمئِنِّ لا الضّعيفِ القلقِ؟ أنتِ التي أوقدتِ في أرواحِنا هذا الفانوسَ وتخلَّيتِ عنه في الأوقاتِ الصَّعبةِ.

يا لكِ مِن ساحرةٍ تَعرفين كيفَ تأسُرين الآخرين بحكاياتِك وكلماتِك؟

ما زلتُ أفكّرُ فيكِ عزيزتي غيرترود، وأحتفي بعقلِك النيِّرِ، لا داعي للقلقِ على رسائلِكِ التي أرسلتِها لي، فهي عندي في الحفظِ والأمانِ، في خزانةٍ حديديّةٍ لا تَصدأ، ولتَعلَمي أنّنا هنا في لندن نُؤمنُ بمَهمَّتِكِ الخَطيرةِ وأهمِّيتِّها لنا وللتَّاجِ البريطانيّ الذي نفتخرُ به جميعًا، ومُستعدُّون لتقديمِ كلِّ العَونِ لك، ونُعلنُ لك مع أبيك أنَّنا أخطَأنا في حقِّكِ لأنّنا وقَفْنا عائقًا في وجهِ زَواجِك مِن رَجُلَيْن كانا يَعشقانَكِ، وانتهى بهما القدرُ إلى الموتِ والفَناءِ، ونحن نُقدّرُ رغبتَكِ، ولو متأخرًا، نتعايشُ مع عِقدةِ الذَّنبِ وتَأنيبِ الضَّمير، لكنّنا عاجِزون عن إعادةِ عَجلةِ الزمنِ إلى الوراءِ كما تَعلمين، ألا يكفي أنَّ القدرَ ذاتَهُ جعلَنا نحتفلُ بيومِ تعاستِنا؟

وها أنذا أسمعُ ما تُريدين قولَه لنا ليسَ عبرَ الرّسائلِ بل نرى ذلك في عينَيْكِ، لأنّ جميعَ الأشياءِ لا يُمكنُ أن تُقالَ عبرَ الكلماتِ فقط، لذلك نَسعى لفهمِ ما وراءَ نظراتِك، ونستمعُ إلى صوتِك الذي يقولُ: أقلّبُ اسمَ الخاتون الذي أطلَقَهُ عليَّ العِراقيُّون، وغيرَه مِن الألقابِ التي أضفَتْها عليّ الإمبراطوريّةُ، لكنَّ ذلكَ لم يُغنِ عن البحثِ عن ذاتي، وعن رُوحي، وعن نفْسي. مرّت السنواتُ بلَمحِ البصَرِ، وتناثرَت شذراتُ حياتي بين الصَّحراءِ والماءِ والأسفارِ والطُّرقاتِ المُخيفَةِ والرَّغباتِ النّاقصَةِ

والأحلامِ الغائبةِ والآلامِ الدَّفينةِ. وثمَّةَ صوتٌ يَسعى إلى إخراجي مِن هذه البئرِ الغارقَةِ ومِن حياتي المألوفَةِ، ويقذفُ بها في أَتُونِ عالمٍ قاسٍ لا يرحَم، أُفكّرُ كثيرًا بالأنا التي تُرافقُني منذُ سنواتٍ ولا تُريدُ الانفصامَ عنّي، الأنا التائهةُ بينَ الفراغِ والهَاويَةِ والخُواءِ والبَياضِ، وتَبحثُ عن مَخرجٍ ولا تَعثُرُ عليه. لعلَّ هذه الأنا انتهَتْ إلى الانكماشِ والانحسارِ، سَحقَتها الإمبراطوريّةُ بأحلامِها الكبيرةِ المُزدهرةِ على ضِفافِ شَيخُوختِنا. هكذا سجَّلَ القدرُ علامتَهُ على وجوهِنا مثلَ وشمٍ لا يُمَّحى، مَحفورٍ في جُلودِنا مثلَ فحمٍ مُتحجِّرٍ في المَناجِمِ، لاصقٍ بالأرضِ الصّلصالِ، لا تُحركُهُ مَعاولُ عمَّالِ المَناجِمِ رغمَ عملِهم اليَوميّ المُزري. الأنا صخرةٌ كبيرةٌ تقفُ حائلاً بين رغباتِنا وبُؤسِنا.

ألم أقلْ لكِ إنَّ هاملتْ زرعَ فيكِ نُطفتَه وغادَر؟ لكنَّكِ لا تُصدِّقين ما أقولُهُ لك. تُحاولين أن تُخفي هذا الهاملتْ في زاويَةٍ مُظلمةٍ مِن زوايا نفسِكِ، وتَتَظاهرين بأنَّكِ سَليلةُ الإمبراطوريّةِ العَتيدةِ التي لا تَغيبُ عنها الشمسُ، لكنّني أخشى أن تُغادرَكِ قبلَ أن تُغادرَها في الأرضِ اليَبابِ.

عزيزتي غيرترود، أنتِ استوحَيْتِ الحِكمةَ مِن رياحِ الصحراءِ ورِمالِها وجعلتِها في مُتناول أيدِينا. أقرأُ ما أرسلتِه إليّ بشغَفٍ وحُبٍّ ورُبَّما أجدُ في رسائلِكِ بعضَ عَزائي: أنتِ أديبةٌ أكثرُ مِن كونِكِ باحِثةً أكسفورديّة، لا غبارَ على مَوهبتِكِ الأدَبيَّةِ السَّاطعَةِ التي كُنّا نُعلِّقُ عليها آمالاً كبيرة، ونحن عازمون على الاحتفاظِ بها مثلَ كنزٍ عائليٍّ يجبُ تَخليدُه إلى الآخرين. سَيُقدِّرُ القادمون رسائلَكِ لأنَّها تُلقي الضوءَ على بلدَيْن شاءَت الأقدارُ أن يَكونا على طَرفَيْ الحُبِّ والكراهيَةِ. عندما أبدأُ بقراءةِ رسائلِكِ لا أُريدُ إنهاءَها بل أتمنّاها أن تَطولَ أكثرَ فأكثرَ، عملٌ عظيمٌ لا يُمكنُ لأيّ سَفيرٍ أن يقومَ به في ضَبطِ المَراسِمِ والطُّقوسِ الدِبلوماسيَّة، ويُهملَ الأرواحَ المُعذبَةَ. يجدُ كلُّ مَنْ يقرأُ رسائلَكِ وكُتبَكِ مُتحفًا كبيرًا للحُروفِ بدونِ حُدودٍ أو أسوار، عسى أن تبزُغَ حضارةُ هذا البلدِ مِن جديد. لم يُفكّر أحدٌ في إعلاءِ شأنِ هذا البلدِ سِواكِ، عشيقًا ومَحبوبًا وإلهًا، حيثُ تذوبُ أناكِ في تَضاريسِ الأرضِ التي تَحتضنُ رائِحتَكِ وأسرارَ العاشقِ والمَعشوقِ، النبتَةُ والتُّربةُ. تأكّدي، يا عزيزتي غيرترود، أنَّني رُوحُكِ الثانيةُ هنا، أعرفُ جيدًا أنَّكِ ناضلتِ كثيرًا، اطمئنّي إذًا، وانتبِهي لصحَّتِكِ ولا تُطيلي السَّهرَ والإكثارَ مِن اللِّقاءاتِ المُنهكَةِ، أترينَ الآن لماذا أُحبُّكِ؟

الكلُّ يقدِّرُكِ مِن السِّير بيرسي كوكسْ إلى هنري دوبسْ وإلى لورنسْ أو ولسون أو فيليبي، أولادُ الإمبراطوريّة. أنتِ خَلقتِ مَملكتَكِ بنفسكِ، بكلِّ كِبرياءٍ وافتخارٍ، طافَتْ شُهرتُكِ العالَمَ، دُون أن تَحنيَ قامتَكِ إلّا لتقبيلِ الأرضِ وكُنوزِها، ولم تنحَنِي أمامَ السَّلاطينِ والمُلوك. أنتِ في أكثرِ الأماكنِ سرّيَّةً وغُموضًا، وتَستحقِّين المَناصبَ الرَّفيعةَ التي نلتِها في حياتِكِ، ولقبُ الخاتون، كما أرى، مِنْ أجملِ ألقابِكِ، السيّدةُ المُبجَّلةُ في عُيونِ عُشّاقِكِ وأنصارِكِ. ورسائلُكِ مرآةُ حياتِكِ، وما في داخلَها آبارٌ عَميقةٌ لا تنضُبُ، نلتمسُ روحَكِ فيها. تَنتصِبين على سفحِ جبلٍ شاهقٍ وتَتحدِّين رياحًا هوجاءَ تَهُبُّ مِن كلِّ الأطرافِ. لا يَفهمُكِ المرءُ إلّا بعدَ أن يَتغلغَلَ إلى أعماقِكِ. إنَّني ما زلتُ أمَّكِ التي لم تَلدْكِ، ولو لم أتزوَّجْ مِن أبيكِ، رُبَّما لم أكُنْ المرأةَ التي أنا عليها، وهذا كلُّه بفضلِكِ. لسنا نحن مَنْ نرسمُ مَصائرَنا، بل القدرُ، ذلك الكائنُ الأكثرُ شهرةً على الألسُنِ، يقودُ مَصائرَنا كما يَشاءُ. نامي جيدًا، ولا تأخُذي الأقراصَ المُنوّمة، واترُكي الهواجِسَ جانبًا، فالقلقُ يُقصِّرُ الأعمارَ، ويُؤدِّي إلى الشَّيخوخَةِ. ولعلَّ مَوهبتَكِ في التكيُّفِ مع الظروفِ مَبعثُ إعجابٍ عندَ الجميعِ كما هو الحالُ عندَ جَلالةِ المَلكِ

وبيرسي كوكس وزوجاتِ القادةِ والزُّعماءِ والسَّاسةِ ورُؤساءِ الشِّيوخِ والقبائلِ.

عزيزتي غيرترود.

وَصلَتني رسائلُكِ الأخيرةُ المَليئةُ برائحةِ الخيْبةِ والإحباطِ، أنتِ لستِ كقَصبَةٍ مَكسورةٍ، كما تَقولين في إحدى رسائلِكِ بل أكثرُ صلابةً وقُوَّةً مِمَّا تَعتقدين، لكنَّ المرءَ لا يرى قُوَّتَه إلّا في المِحَنِ والصِّعابِ. أنتِ بيننا برسائلِكِ، وكُتبِكِ وُصورِكِ ورُوحِكِ. سَعى البعضُ لإيجادِ ثغرةٍ في عملِكِ أو في شخصيّتِكِ، وارتابَ مِن تقاريرِك الاستثنائيّةِ التي لها أكبرُ الصَّدى لدى الإدارةِ البريطانيَةِ. أنتِ نبيلةٌ لا بطَبقتِكِ بل برُوحِكِ، فالنُّبلُ لا يَعني المُمتلَكاتِ أو الجَاهَ أو السُّلطةَ أبدًا، بل يَعني الرُّوحَ النَّابضةَ، وأنتِ هذه الرُّوحُ، يشهدُ لكِ كلٌّ مِن تشرشل وشيرول وويلسون وكوكس، العمالقةُ الَّذين يَرَون فيكِ رُوحَ بريطانيا النَّابضَة. أُمورُنا رُبَّما لا تُسرُّكِ لأنَّ والدَكِ بدّدَ ثروةَ العائلةِ في أسهمِ البُورصَةِ ومُضارباتِها، وأجبرَنا الكَسادُ على التَّخلِّي عن منزلِ العائلةِ في حيِّ راونتون غرانيغ الذي رأيتِ فيه النورَ واستقبلتِ فيه كبارَ الشَّخصيّاتِ، والانتقالِ إلى أحدِ مَنازلِ العائلةِ الصّغيرةِ، ماونت جريس المُجاورِ أيّامَ كان جدُّكِ سيِّدَ صناعةِ الفُولاذِ والمَوادِّ الكيمياويَّةِ. تَتذكَّرين السجَّادةَ الإيرانيَّةَ التي جلبتِها لنا كهديَّةٍ مِن بلادِ فارس؟ هذه البلادُ التي تُثيرُ في نفسِك مِن الذِّكرياتِ الأليمَةِ.

الخاتون تَروي قِصَّتَها كما تَشتهي

أمِّي العزيزة، أتذكُّرك جيدًا وأنا أجلسُ في حديقةِ مَنزلي، وأشعَّةُ الشمسِ تَفيضُ عليّ مِن كلِّ الجِهاتِ، ونهرُ دِجلةَ يَجري أمامي بهدوءٍ كأنَّ مَوجاتِهِ الصغيرةَ تَعزفُ لي لحنًا خالدًا، ووجهُكِ لا يَغيبُ عنّي ويظهرُ جليّا في ضَبابِ لندن، وأنتِ مُعلَّقةٌ في خَيالي مثلَ قاربٍ مُزركشٍ بالزُّهورِ يَعبُرُ خَيالي بين آونةٍ وأُخرى، ويَنأى عنّي بعيدًا في بئرِ النِّسيانِ. عندما كنتُ طفلةً اتَّكَأَ أبي على المَوقدِ، ماسكًا رأسَهُ بين يديْهِ، وهو يُذرفُ الدُّموعَ على رحيلِكِ ولا يزالُ طيفُكِ لا يُفارقُني أبداً. المَوتى خالدون، وشَبحُ أبي يدورُ في رأسي، وأنا في الحاديةِ والعشرين مِن عُمري، وكلماتُكِ لها رنينٌ خاصٌّ. إنَّني هنا كما لو أنَّني أتبعُ مَرصدًا يجذبُني بأنوارِهِ السَّاطعةِ وسطَ بحرِ الظُّلماتِ رغمَ أنَّهُ بعيدٌ عنّي، والعربُ أطلَقوا على المُحيطِ الأطلسي بحرَ الظُّلماتِ لأنَّهم يَخشون الخوضَ في أمواجِهِ العاتيَةِ، ولو قاموا بذلِك لكانوا هم مَكتشفي العالمَ الجديدَ وليسَ نحن، ولأصبَحُوا سادةَ العالمِ الحديثِ مرَّةً أُخرى رغمَ أنَّ حكمةَ التاريخِ لا تسمحُ للإمبراطوريّاتِ أن تتكرَّرَ. هل يريدُ القدرُ أن يمتحِنَ الأمَّةَ بإعطائِها قيادةَ العالمِ؟ وفي هذه اللحظةِ أجدُ نفسي أتكلَّمُ عن مَفاتيحِ جَسدي التي ضاعَتْ منّي، وانتهى إلى غيرِ رَجعة. لم أكُن تلكَ المرأةَ التي تُؤمنُ بالغَيبيَّاتِ والخُرافاتِ والتَّعاويذِ رغمَ أنَّها شَحذَت خيالي بمئاتِ القِصصِ والحِكاياتِ والرُّموزِ وأثَّرَت على حياتي، بل وأصبَحَت جزءًا منّي.

ماتَتْ أمِّي! ماتَتْ أمِّي! ماتَتْ أمِّي!

هكذا كنتُ أصرخُ، كما يقولُ جدِّي، وهو يداعبُ خُصلاتِ شَعري الطويلِ، تلكَ البنتُ الصغيرةُ التي تركضُ في أروقَةِ القصرِ الفكتوري، المُزيَّنِ بالأعمدةِ والتماثيلِ والرُّخامِ والطابوقِ الأحمرِ والنُّقوشِ القديمةِ، وأخي موريس، طفلٌ رضيعٌ، وأنا في الثالثةِ مِن عُمري كما يقولُ أبي، خَيالي طيفٌ بعيدٌ. أتذكرُ أنني ضمُمتُه إلى صدري، وقبّلتُه كَابني. انتبهَ أبي إلى قُوَّةِ صَبري وإرادتي وتَصميمي، وشعَر بالافتخارِ بابنتِه، رغم انجرافي في بُكاءٍ عارمٍ لأنَّ الدموعَ كانت أقوى منّي. ولَم يَقلَّ افتخارُهُ عن افتخارِ جدِّي لوثيان بيل بحفيدَتِه، هذا الرجلُ الذي يَحملُ قِلادةَ رجالِ صناعةِ الحديدِ في بريطانيا كما تَعلمين: يا لَها مِن صلابةٍ أُنثويَةٍ لم أرَ مثلَها في حياتي!

ضمَّني إلى صدرِهِ، ومسحَ دُموعي بالمِنديلِ المُعلَّقِ على صدري، ثم التفتَ إلى أبي، قائلاً: أنتَ الآن أمامَ رِهانِ المُحافظةِ على عائلتِكَ، فهل تَستطيع؟

ثم أضافَ، وهو يُركِّزُ نظرَهُ في عينيْ ابنِهِ:

هل ترى هذه البنتَ الصَّغيرةَ؟ فهي قد تُخلِّدُ اسمَ عائلتِنا أكثرَ مِمَّا تُخلِّدُهُ مَصانعُنا وثروتُنا.

أرتعشُ عندما أتذكَّرُ كلامَهُ. هكذا هو مَجرى التاريخِ الذي لاُ يمكنُ أن يصنعَهُ فردٌ لوحدِهِ،

حتى لو حرَفَ مَجراهُ لفترةٍ مِن الزَّمنِ. ذهبَتْ مصانعُنا وثرواتُنا في مهبِّ الكَسادِ، وبقيتُ أنا أجوبُ الأرضَ حاملةً حلمَ بريطانيا باكتشافِ العالَمِ، وعندما يسألُني الناسُ: مَنْ أنتِ؟ أقولُ لهم على الفورِ أنا حفيدةُ لوثيان بيل. أراهُ في خَيالي يضحكُ، ويلمسُ لحيتَهُ في ضَبابِ لندن غيرَ آسفٍ على فُقدانِ إمبراطوريتِّهِ، وهو ينظرُ في عينَيْ ابنِهِ اللّتين زالَ عنهما البريقُ: انظرْ يا بني، ألم أقلْ لكَ إنَّها تحملُ اسمَ عائلتِنا أينما ذهبَتْ حتى في صَحراءِ العربِ.

وبعدَ أن صمَتَ برهةً، كرّرَ في وجهِهِ:

هل كنتَ تَتخيَّلُ أن تُصبحَ ابنتُك ملكةَ الصَّحراء؟

يقفُ أبي صاغرًا أمامَ هيبتِه، ولا يُجيبُ كأنَّ لسانَهُ انعقدَ مِن هَولِ الجُرأة.

ثم يُطمئنُهُ جدِّي:

لا تقلَقْ إنَّها ملكةُ الصَّحراءِ وأنتَ لا ترى تاجَها على رأسِها، ولا توجدُ ملكةٌ غيرَها، بل هي التي تختارُ المُلوكَ للشّعوبِ، هل تَعي ذلك أيُّها الأحمق.

هكذا كان يُداعبُه. صحوتُ مِن حُلمي. لقد ماتَ جدِّي منذُ زمنٍ طويلٍ، وهو يرقدُ بطمأنينةٍ في قبرِهِ لكنَّ كلماتِه ظلَّت راسخةً في عَقلي. وكلَّما تذكّرتُها فرحتُ بها، بل رُبَّما هي التي دفعَت بي إلى ما أنا عليه الآن، لا أرفعُ رأسي عن القراءةِ والتأمُّلِ والبحثِ كأنّني أحملُ رسالةً للبشريَّةِ، وبدون ذلك لما كان لي مِن حياةٍ رُوحيَّةٍ دائمةٍ، ولَأصبحَ البشرُ مُتوحشين، يتقاتلون ويَتصارعون بدون عُصارةِ الأُممِ الحيَّةِ التي لا يراها الجميعُ: الثقافة.

توفيَتْ أمِّي بعدَ مُرورِ أحدَ عشرَ يومًا على ولادةِ أخي موريس بعدَ أن داهمَها مرضُ ذاتِ الرئة المُفاجئ، ونشرَ رحيلُها خيمةَ الحزنِ على أركانِ مَنزلِنا الواسعِ الأرجاء، وأصبحَ خاليًا مِن الروحِ، بعد أن كان ينبضُ بالأملِ والتفاؤلِ بين الجدران الصمّاء. ومنذُ تلكَ اللحظة، جمعَت تلك البنتُ، التي كنتُها، ألعابَها وأخفَتْها في صُندوقٍ خشَبي، وأسدلتْ عليها السّتارَ، كما لو أنّ مَسرحَ الألعابِ أقفلَ أبوابَه، وفقدتُ مُتعةَ اللّعبِ، وتساءلتُ: ماذا يحدثُ لو توقّفَ الأطفالُ عن اللّعبِ، هل يُصابُ العالمُ بالشيخُوخةِ المُبكّرة ويَهوي في الجديَّةِ المَريرة؟

وهنا كان صوتُ أمّي يتلاشى بعدَ أن كان يُناديني عاليًا حين أختفي في إحدى زوايا المنزلِ وأنا أمارسُ لعبةَ الاختفاء في زوايا بيتِنا الكبير:

غيرترود.. غيرترود.. أينَ أنتِ؟

كنتُ أختفي في الزّوايا المُظلمة كأنّني أريدُ دخولَ عالَمٍ مُغلقٍ يؤدي إلى جِنانٍ مُختلقَة وغاباتٍ وهميّة كما لو أنّني أكرّرُ حكايةَ "أليس في بلاد العجائب"، الكتابُ الذي لم أمَلَّ مِن قراءةِ صَفحاتِه بنهَمٍ كلَّ يوم، وأسألُ أمّي عن مُفرداتِه الصّعبةِ، وأعودُ في غيابِها إلى القَواميسِ الضّخمةِ المَركونةِ في مكتبةِ جدِّي القديمةِ. ولأوَّلِ مرَةٍ، أكتشفُ أنّ مَعاني الكلماتِ يُصيبُها الصدأُ عندما تركنُ

في القَواميسِ الجامدةِ لأنَّها تمتلكُ مزاجًا وطراوةً وفرحًا وغضبًا، وهي تطاوعُ رغباتِنا وهيجانَنا، ورحتُ أغورُ في عالمِ الكلماتِ كما لو أسبحُ في بحرٍ مُتلاطمِ من تاريخِ بريطانيا ولغتِها الإمبراطوريّة التي تشبهُ القلاعَ والحُصونَ والسُّجونَ الصامدةَ على مَرِّ العُصور، لَم يَتمكَّن مِن هدمِها سوى شكسبير بمَعاولِ رُوحِه، ومضى إلى أعماقِ هذا البحرِ وأخرجَ لنا الدُّرَرَ الثمينةَ، فاستحقَّ الخلودَ على مسرحِ الألفاظِ ومَعانيها المُتباينَةِ، ولم يتوقَّف عن إنتاجِ المَعاني الواحدُ تلوَ الآخر حتى يومِ رَحيلِه. وبعدَ اللَّعبِ بالقواميسِ والمَعاني، رحتُ أعتَني بأخي الرَّضيعِ ولا شيءَ آخرَ كان يهمُّني سواه، وأنا أُردِّدُ في أُذنِه كما لو أهمسُ له بسِرٍّ خَطيرٍ:

لا تهتَمْ يا موريس.. ماما لم تَمُتْ، بل ذهبَتْ إلى الغابةِ لتجلبَ لنا التفاحَ الأخضر.

تنهّدَ أبي، وهو يُراقبُ مُداعباتي لمُوريس الصَّغير، ويُغمضُ عينيْه ليرحلَ بعيدًا عنّي إلى اليومِ الذي كان في الثالثةِ والعشرين، والتقى بفتاةٍ شابّةٍ اسمُها ماريا تنحدرُ مِن طبقةِ النُّبلاءِ، واسمُ والدِها جون شيلدْ، مِن أشهرِ تُجّارِ مدينةِ نيو كاسِلْ، وولدَتْ ابنتُه الأولى التي كنتُ أنا، مِن ثمرةِ زواجِه بأمّي، ثم دارَ الجدلُ بينَهما حولَ اسمِها، وغاصا في عُلبة الأسماء بحثًا عن اسمٍ يُلائمُ المَولودةَ الجديدةَ، فكان اتفاقُهما يقولُ: لا اسمَ غير غيرترود يَسِمُ اليومَ الذي رأيتُ فيه النورَ في مدينةِ دِرم، شمالَ بريطانيا، وسجَّلَ هو وأمّي هذا اليومَ الخالدَ في حياتِهما في دائرةِ سِجلاتِ النفوسِ: 14 يوليو 1868. وكان عليّ أن أتذكّرَ هذا التاريخَ كلَّ عامٍ، وأُحضِّرَ الشّموعَ والحَلوى وأُضيفَ كلَّ عامٍ شَمعة، وأُطفئُها بنفسي، وأحتفلَ مع صديقاتي، وهُنَّ يَنظرْنَ إلى الاسمِ الذي حملَتْه جدَّتي، دامي مارغريت، والذي وضعَهُ جدّي على إحدى قاعاتِ القصرِ الفِكتوري الذي نَسكنُه، تخليدًا لذِكرى حبِّها. وشهدَ على ذلك ثلاثةُ أجيالٍ عاشوا في حَدائقِه المُزيّنةِ بالزُّهورِ التي تعلّقتُ بها منذُ طُفولتي الأولى، وتعلّمتُ في ساحاتِه رُكوبَ الخيلِ على وقْعِ الموسيقى. كنتُ تلكَ الطفلةَ الجميلةَ، ذاتَ الوجهِ البيضاوي، والشَّعرِ المُتناثرِ على الكَتفيْن، كما لو تفصلُني عنها قُرونٌ وليستْ سنواتٍ، وأُكرِّرُ في نفسي: هل يوجدُ فنانٌ يلتقطُ تلكَ التّعاسةَ في عينَيْ تلك الطفلةِ؟

ما زلتُ أتذكَّرُ والدي، بمَنظرِه الجميلِ، وذكائِه الحادِّ، وسُلوكِه اللّطيفِ، وشَعرِه الأشقرِ، ولِحيتِه المُشذّبةِ، وهو يشيدُ بصورِ أجدادي الذين عملوا في مَناجمِ الألماسِ "منجم بيل"، وتقفزُ إلى ذاكرتي قِطّتي "موبسا" التي تُصرُّ على الجُلوسِ في حِضني. هكذا ظلَّ أبي وفيًّا لذِكرى زوجتِه الرّاحلةِ، يتذكّرُ أيامَه الجَميلةَ معها.

ولكن ماذا يفعلُ الآنَ مع غيرترود وهي في الثالثةِ مِن عمرِها، وموريس الرّضيع؟

فلورنسْ إيفيلين إلينو أوليفي، الفنّانةُ الرّقيقةُ التي تَقاطعَ طريقُها مع طريقِ أبي في بيتِ آل ستانلي، وهما يَستمعانِ إلى أوبرا كتبَتْها ولحَّنَتْها، وبعدَ الأداءِ رافقَكِ أبي إلى مَنزلِكم في عربةٍ أنيقةٍ وصلتُما كعَريسَيْن مَخطوبَيْن ثم تزوّجتُما في كَنيسة ترينتي في شارعِ سالوني. تتذكّرين ذلك بالتأكيد، يا فلورنس.

كان حُلمي أن يجدَ أبي امرأةً مثلَكِ، لكي لا أنسى أن أُنادي أحدًا: أمّي.

كادَ أبي يطيرُ فَرحًا كأنّكِ هديّةٌ هبطَت عليه مِن السماء. عشتُ والدّمعةُ في عينيّ، أمّي الحَنون، أحتمي بكِ. لم أكُنْ أذهبُ إلى المدرسةِ آنذاك، فالبنتُ الأرسقراطيّةُ تتعلَّمُ داخلَ المَنازلِ، والمُربِّياتُ كنَّ يَقُمنَ بعملِ المُعلِّمات، ومُربِّيتي الآنسة كلوغْ لا تتذمَّرُ مِن مُشاكساتي ومُغامراتي، بل تقفُ مَذهولةً أمامَ ذكائي. هكذا قالَ أبي، رُبَّما قالَها افتخارًا بابنتِه. ورحتِ تريْن فيّ ذلك العُنفوانِ المُتعطّشِ للمعرفةِ، وأنتِ تُراقبيني ألتهمُ الكتبَ المَوجودةَ في رُفوفِ المَكتبةِ والمَخزنِ وغُرفِ النّومِ والصَّالونِ والأدراجِ، أمَّهاتُ الكُتبِ ورُموزُها في الثّقافةِ والتاريخ: أدوارد غرين، وليم بروس، وماكولي وسيرتُه، وكتابُ "تاريخ انجلترا". وأنا أستمعُ إلى موسيقى موزارت، وأقلّبُ بشغفٍ سيرةَ حياتِه، التي بدأ فيها العزفَ في سِنِّ السادسة، وأردتُ تقليدَه. وعندَما كبرتُ قليلاً، اكتشفَ أبي أنَّ قُدراتِ ابنتِه أكبرُ مِن عُمرها. كان أُستاذي، بعدَ المُربية، ينظرُ إليّ بعَينِ الإعجابِ بذَكائي، كيفَ لفتاةٍ صغيرةٍ تختارُ دراسَةَ التاريخ. ثُمَّ توجَّهَ إليّ، قائلاً:

يا غيرترود.. التاريخُ هو علمُ العُلوم.

ثم أضافَ:

بحثتُكِ عن أوليفر كروميل. برافو.. برافو.. بحثٌ مُشرّفٌ، يُؤهلُكِ الدُّخولَ إلى كليَّة اللّيدي مارغريت بأكسفورد.

في تلك اللّحظة، برقَ في ذِهني ما يكنُّهُ أبي مِن تَقديرٍ لهِمَّتي العاليةِ وإرادتي القويَّةِ وثقتي بنَفسي: هل يثيرُ التمثيلُ خيالَك؟

أجل يا أبي. أرغبُ في تَمثيلِ دورِ بورشيا في مَسرحيّة "تاجر البندقية" في الفرقةِ الجامعيّة.

رائعٌ يا غيرترود..، شِكسبير فخرُ لُغتِنا الجَميلة.

حصلتِ على درجة الامتياز في الجامعة ولكِ الحقُّ في مُمارسةِ التّمثيل.

تلكَ الصبيّةُ التي كنتُها، لاحظَ المُمثّلون وصانِعو الديكورات وفنّانو المَكياج والمُوسيقيّون والخَيّاطون والمُلقّنون والمُهرِّجون ملامحَ وجهِها التي تُخفي خُيوطَ كآبةٍ وحُزنٍ، ولِسانَها الذي يُفصحُ عن البَلاغة، كلماتٌ ظلَّت راسخةً في أذهانِ المُتفرّجين بعدَ مُغادرتِهم المَسرح. قالَ أحدُهم: ما هذه الفراشةُ التي تُغطّي المسرحَ بِجَناحيْن مُزركشيْن؟

ليلُ بَغدادَ الطّويل

لا أريدُ أن أخاطبَكِ كأُمّي، يا عزيزتي فلورنس، بل كامرأةٍ بكلِّ ما يَغلي في أعماقِها مِن عواطفَ وغَرائزَ، أَتَعرفين ليلَ بَغدادَ الطّويلَ الذي بدُونه سَأكونُ أكثرَ تعاسةً وبُؤسًا؟ هواءُ دِجلة، ألا تعلَمين، هو جزءٌ مِن عِطرِ الجنَّة يفوحُ مِن حديقةِ مَنزلي؟ لماذا أتشبَّثُ بهذه المدينةِ وأُصِرُّ على البَقاءِ فيها؟ عندَما أفكّرُ بمُغادرةِ هذه المَدينةِ الإمبراطوريّة، أتراجعُ ولا أريدُ مُغادرتَها وأنا أقرأُ عن رُوحِها الخَالدة، كطائرِ الفِينيقِ الذي ينهضُ في كلِّ مرَّة، عابقةً الأنوفَ بعِطرِها، بشرٌ بأثوابٍ حريريَّةٍ قادوا عَجلةَ الحَضارةِ ذاتَ يومٍ، مدينةٌ حَفرَت قوانينَ التّسامُحِ على بوّاباتِها وجُدرانِها لتُذكّرَ الغُزاةَ بأنَّها مَدينةُ السَّلام. وكلُّ ما أخشاهُ أن يأتيَ يومٌ تتعرَّضُ فيه هذه الآثارُ والكُنوزُ والتُّحفُ إلى الضّياعِ، الآن يُحاصِرُها الألمانُ والفرنسيّون، يُريدون سَرقةَ ألغازِ التاريخِ، ولكنَّ البشرَ الآتين لا يَختلفون عن هؤلاء اللُّصوصِ لأنَّهم مَجبولون مِن طينةِ الشّرِّ، ولا أحدَ يَدري متى يظهرُ ومتى يَختفي؟ لستُ بالمُتنبِّئة لكنَّني أشكُّ في التّاريخِ لأنَّه لم يكُن سوى مَخدعٍ للتّزويرِ والإجرام، ثوّارٌ انقلبوا إلى جَلّادين، ونُبلاءٌ إلى حُقراء، وعمالقةٌ إلى أقزام. ها هو فلكُ التاريخِ أخشى أن تُصبحَ بغدادُ ذاتَ يومٍ مدينةَ أشباحٍ تتصارعُ فيها الطّوائِفُ؟ ويُفكّرُ أهلُها بحفْرِ الخَنادقِ حولَ حدودِها لصَدِّ البرابرة، ليستْ مثلَ تلكَ الخَنادقِ التي حفرَها أبو جعفر المَنصور في رُؤيةِ جمالِ المدينةِ بل لصَدِّ البرابرة، داخلَ قلاعِ بغداد وخارجَها. البرابرةُ على أبوابِ بغداد منذُ الأزل.

كنتِ ولا تَزالين حافظةً أسراري، أُفضي إليكِ بهُمومي. أُفكِّرُ بِكُما أنتِ وأبي في كلِّ لَحظة. امرأةٌ مِثلي مُحاطةٌ بكلِّ هؤلاءِ الرِّجالِ الأغنياءِ والأقوياءِ لا يُمكنُ أن تتراجَعَ إلى الوراء، وتَختفي وراءَ الكَواليسِ، بل تُفضِّلُ أن تكونَ في الواجِهة. لا يهمُّني أن يُقالَ عنّي أنَّني المرأةُ الأكثرُ تأثيرًا على الآخرين، لكنَّ الأهمَّ أن أكونَ الأكثرَ تأثيرًا على نفسي. ألقابٌ كثيرةٌ لا أهتَمُّ بها أبدًا: الملكةُ غيرُ المُتوَّجَة، خاتون بَغداد، عقلُ لورنس، ومَندوبةُ تشرشِلْ، راسمةُ الحُدودِ، ومَلكةُ الصَّحراءِ وغيرُها التي تصلُحُ عَناوينَ لأفلامِ هوليود وللرِّوايات الرُّومانسيّة.

لا يتردَّدُ الآخرون في اتِّهامي، كما تَعلمين، بالغُرورِ والتسلُّطِ والطُّموح، لكنّني بأمَسِّ الحاجةِ لأن أكونَ ذاتي، وها أنذا خاليةُ الوِفاضِ إلا مِن ذكرياتي، أهملتُ نَزواتي رَدحًا مِن الزّمن. وأنتِ تَعرفين قِصَّتي، ورسائِلي مُودعةٌ لديكِ، أطيافُ هنري وريتشارد تمرُّ مِن أمامي، ثقيلةَ الوطْأةِ على رُوحي، مَراراتٌ لاذعةٌ وشائعاتٌ هوجَاء. سِرُّ المَودَّةِ بيني وبين المَلكِ فَيصل، رغمَ اختلافاتِنا، لا يَرى في هذا البلدِ نسيجَ شعبٍ واحدٍ بل تَكتُّلاتِ بَشريّةً خاليةً مِن أيَّة فكرةٍ وطنيّة، لأنَّهم مُتشبِّعون بتَقاليدَ وأباطيلَ دينيَّةٍ، لاتجمعُ بينهم جامعة، سَمَّاعون للسّوء، مَيَّالون للفَوضى، مُستعدُّون للانقضاضِ على أي حُكومة، ومع هذه الحالة، فإنَّنا نريدُ أن نَكون شعبًا مُهذبًا وعالِمًا. عملٌ جبَّار. إنَّني مَهزومةٌ في أعماقي وأنتم تَعتقدون بأنَّني مُنتصرةٌ. والبعضُ يَعتبرُني مُجرَّدَ مّوظَّفةٍ تحتَ العَرشِ الإمبراطوري تمكَّنَتْ مِن اختراقِ خُطوطِ الأعداءِ العُثمانيّين مِن أجلِ تَوفيرِ المَعلوماتِ للبريطانيّين. فيتا ساكفيل ـ ويست،

مِن بين القَليلاتِ الَّلاتي اقتربنَ مِن رُوحي، لأنَّها مُلتهبةٌ بحُروفِ الأدبِ وأسرارِ الرُّوح، لامسَتْ هشاشةَ ذاتي. كنتُ قد التقيْتُ بها في القِسطنطينيَّة وباريس ولندن، وزارَتْني في بيتي في بَغداد، ورفعتْ مِن مَعنوياتي، وكنتُ حينَها أبحثُ عن اختيارِ مَبنى ليكونَ فيه المُتحفُ على غِرارِ المُتحفِ البريطاني وبدرجةٍ أقلّ طبعًا. ومِن بين أسئلتِها: هل تُعانين مِن الطّقسِ الحارّ هنا؟

في تلك الأثناءِ طلبَتْ منِّي كلبًا سَلوقيًا، فاتَّصلتُ لإحضارِ مَجموعةٍ مِن كِلابِ الصَّيدِ، ذاتِ الشَّعرِ الحَريري النَّاعمِ، وطلبَتْ منِّي أن أشرحَ لها أوضاعَ التَّنقيباتِ في أُور. وبدَوري سألتُها عن كُتبِها التي نُشرَتْ في إنجلترا. سألَتْني فيما لو أوَدُّ العودةَ إلى لندن. فقلتُ لها: طلبَ الأطبَّاءُ منِّي أن لا أبقى صَيفًا آخرَ في بغداد. ولا أدري ماذا أفعل؟

في مُنتجعِ المَلك

كلَّما ظهرَتْ على وجهِ الملكِ علاماتُ الحُزنِ والكآبةِ، أقولُ له: يا جَلالةَ الملكِ العِراقيُّون يُحبُّونَك. فيُطأطئُ رأسَه، ويُمسكُ بحافَّةِ الكُرسي الذي يجلسُ عليه، كما لو أنَّه يَستجمعُ قواهُ، ولا يقولُ شيئًا رغمَ ما يَغلي في أعماقِه مِن أفكار كالمِرجَل. فيما أفكِّرُ بمَصيرِه، ومَصيرِنا جميعًا لأنَّنا في سَفينةٍ واحدةٍ شِئنا ذلك أم أبَينا، هذا الرجلُ صلبٌ وصابرٌ وهادئٌ في آن، لا يُحبُّ التَّكبُّرَالمُزيَّف، ولا الفُروسيَّةَ الفارغة. في عينَيْه ومضةٌ ساخرةٌ مِن الذين يَقفزون على التاريخِ، دُون أن يُخفي خيبةَ أمَلِه بالفرنسيّين، لذا تسلَّحَ باليَقظةِ والاحتراسِ. اختلفَ مع الإمبراطوريَّةِ واتّفقَ معي، لا يفهمُ كثيرًا في مُتطلَّباتِ بلدٍ يعجُّ بالأعراقِ والدِّياناتِ والأجناسِ: لا أريدُ أن أُدخِلَ مَعاركَ الله إلى النُّفوسِ، لكنَّني أشكُّ بهذا النّسيجِ الفُسيفُسائِيّ الغريبِ رغمَ إعجابي بهِ، ما رأيُكِ بالذّهابِ إلى المَسرح؟

كان يريدُ أن ينتشِلَ نفسَهُ مِن رُوتين البلاطِ، طالبًا مِنّي مُرافقتَهُ، ثم قَفلْنا عائدَيْن بعدَ أن أُسدِلَ الستارُ على المَسرح، وفي الطريقِ كان يضحكُ ويُقَهْقِهُ، ومَدَّ يدَه الناعمةَ حولَ خَصري، باعثًا القَشعريرَةَ في جَسدِي، لمسةُ حَنانٍ ليسَ إلّا، تعبيرٌ عن لياقَةِ المُلوكِ إزاءَ المرأةِ لا أكثرَ ولا أقلَّ: أشعرُ أنَّني أُمضي ليلةً في لندن.

أجلْ يا صاحبَ الجلالَة، أتمنَّى أن تمشي بَغدادُ على خُطى لندن في المَسارح.

في تلك الليلةِ، دَعاني إلى مُنتجَعِه، ولم أرفُضْ دعوتَه. استقلَّيتُ القطارَ المُتوجِّهَ إلى مُنتجعِه في خانقِينْ، وكانتْ إدارةُ البلاطِ تحجُزُ لي مَقصورةً تتكوَّنُ مِن صالونٍ خاصٍّ كالبيتِ المُتَنَقِّلِ والمُؤثَّثِ تأثيثًا فاخرًا، جزءٌ مِنه مُخصَّصٌ للجُلوسِ والجزءُ الآخرُ لغُرفةِ الطّعامِ، وتضُمُّ غرفةُ المَنامةِ أربعةَ أسِرَّةٍ، مُركَّبَةٍ على بَعضِها البعض في الأعلى والأسفلِ كما في مَقصُوراتِ السُّفنِ التجاريَّةِ، وهي مُخصَّصةٌ لكبارِ المَسؤولين وعوائلِهم لكنَّ الملكَ حرصَ على حجزِها لي بمُفردي، رغمَ ارتفاعِ تَكاليفِها البالغةِ عشرةَ دنانير، وهي ثروةٌ بالنِّسبةِ لي آنذاك. وقبلَ الالتحاقِ بالملكِ في مُنتجعِه، كنتُ أُلبِّي دعوةَ النقيبِ كلايتون، وقد أمضيتُ يومَ الجُمعةِ في قراغانْ التي لا تبعُدُ سوى بأميالٍ عديدةٍ مِن خانقينْ، حيثُ انطلقتُ صباحًا في جَولةٍ على ظهرِ الحِصانِ الذي خُصِّصَ لي، وخرجتُ بعدَ الظُّهرِ في نُزهةٍ سيرًا على الأقدامِ، بصُحبةِ كلبي الصّغير، مُتمتِّعَةً بالمَناظرِ الخلّابةِ: تلالٌ مُزدانةٌ بالزُّهورِ، ومُنحدَراتٌ مُغطّاةٌ بطبقةٍ قُرمزيّةٍ مِن شَقائقِ النُّعمان، ومُروجٌ مَليئةٌ بزُهورٍ أرجُوانيَّةٍ، وخُزامى برّية، وسَوسنٍ أزرقَ، ولوفٍ أسودَ، وزنبقٍ أصفرَ، جعلَتْ عالَمي يَبدُو أشْبَهَ بقطعةٍ ساحرةٍ. كنَّا في المُنتجعِ نخرجُ للصَّيدِ في البراري المُجاورةِ، وفي الظَّهيرةِ، عندَ ارتفاعِ درجاتِ الحرارةِ، نخلدُ إلى قَيلولةِ الظَّهيرةِ اللّذيذة في إحدى الخِيام. وأُمضي الوقتَ البطيءَ في قراءةِ رِوايةِ ثاكري، بعيدًا عن أجواءِ لندن وحياتِها الأدبيَّةِ بسَنواتٍ ضوئيَّة. وبعدَ أن نَفيقَ مِن القيلولةِ، نتناولُ أستكاناتِ الشاي مع الكعك، ثم يقترحُ عليّ الملكُ أن نقطعَ كيلومتراتٍ في الصحراءِ على الخُيولِ حيثُ ترتسمُ في الأفقِ التّلالُ الفارسيّةُ المُجاورةُ. كنتُ أُصغِي

إليهِ يتحدَّثُ عن أحلامِهِ المُستقبليَّةَ، فأشعرُ بأنَّني في عالَمٍ استثنائِيٍّ وخُرافيّ. وفي اللّيل نتاولُ العشاءَ معًا، جالسَيْن تحتَ النُّجومِ، أرقبُ وجهَهُ، فتبدُو الكآبةُ في عينَيْه، مُعبّرًا عن عدمِ رِضاه. بَغدادُ لا تُعوِّضُ دمشقَ، يا خاتون.

وكنتُ أجيبُه لأُطيِّبَ خاطرَهُ: أجلْ، يا صاحبَ الجَلالَة، دمشقُ عاصمةٌ مُزدهرةٌ وسطَ الصَّحراء.

حرصَ على تَفادي الحديثِ عن ذلك أمامَ حاشيَتِه ورِجالِه، مُحاولاً اللُّجوءَ إلى عُزلتِه ووَحدتِه. لم يكُنْ تواجُدُه هنا سوى هربٍ مِن مَشاكلِ البلاطِ، وروتينِه القاتلِ إلى النُّجوم. كنَّا نفهمُ بعضَنا بعضًا دُون أن نتكلَّمَ، إيماءةٌ سريعةٌ تُعوِّضُ عن أحاديثَ طويلةٍ. يَفَضْفضُ كلٌّ منَّا عمّا يجولُ في دَواخلِه، ولا يجدُ أحدًا غيري ليَكشفَ لهُ عن اعترافاتِه كأنَّ أرواحَنا تَلتقي هنا في عُزلةٍ كاملةٍ. وفي اليومِ التَّالي، احتفَلْنا بوُصولِ ابنِه الوحيدِ، ابن الاثني عشرَ عامًا، الأميرُ غازي الذي جاءَ إلى بَغداد، واستقبلَهُ الناسُ بحَفاوةٍ فاقَتْ حَفاوةَ استقبالِهم لأبيه، فهو نسخةٌ منهُ، صغيرُ القامَةِ، طويلُ الوجهِ، وخَجولٌ، تَبدو عليهِ مَلامحُ النُّبلِ والافتخارِ، يَبدو عليهِ أنَّهُ تربَّى في الصَّحراءِ ولا يتمتَّعُ بثقافةٍ كافيةٍ رغمَ ذكائِه، وكنتُ أتمنَّى لو أتولَّى تَثقيفَهُ وتَعليمَهُ النُّطقَ الصَّحيحَ بالإنجليزيَّة، لذا طلبتُ مِن مِسْ فيرلين تَدريسَهُ اللّغةَ وتَدريبَهُ على لُعبةِ التِّنس. وحالَ عودتِنا، أسرعتُ إلى القصرِ لاختيارِ مَلابسِهِ، فاصطحبتُه إلى خَيَّاطٍ إنجليزي قادمٍ مِن بُومباي، وكان يتصرَّفُ معَنا كأحدِ شخصيَّاتِ روايةِ ثاكري، يَحومُ حولَنا ويَقفزُ، نِصفُه خجولٌ ونِصفُه مُنتشٍ، ويعرضُ عليهِ أنواعًا مِن قطعِ القماشِ بحَركاتٍ بهلوانيَّة.

وسرعانَ ما وجدْتُ نفسي أُفكّرُ بالعائلةِ المَلَكيَّة بُرمَّتِها، بزوجتِه حَزيمة، هذه المرأةُ الرّيفيَّةُ الساحرةُ التي أعطَتْ الكثيرَ مِن مَلامحِها لأبنائِها، تُجالسُ نُخبةً مِن أصدقاءِ البلاطِ وتَتناولُ معهم أستكاناتِ الشاي. وكان مِن واجبِي أن أُعدَّ قائمةَ المَدعُوّاتِ مِن النّساءِ العَربيَّاتِ والإنجليزيَّات. ثم أعتنِي بتَنظيمِ الطَّاوِلاتِ مع المَلكِ، حيثُ قرَّرَت العائلةُ المالكةُ الاجتماعَ لأوَّلِ مرَّةٍ. كان الملك يُريدُني طوالَ الوقتِ، حاضرةً في البلاطِ، ورغمَ كلِّ مَشاغِلي. كان يَشتكِي للمَندوب السَّامي هنري دوبس، خليفةِ السِّير بيرسي كوكس، بأنَّني لم أكُنْ حاضرةً كثيرًا، رغمَ أنَّني كنتُ أخرجُ معهُ لصَيدِ البطِّ والتنزُّه ولَعبِ البريديج. لكنَّني في تلك الفترةِ لم أتمكَّنْ مِن الرُّقادِ إلّا بتناوُلِ الحُبوبِ المُنوِّمةِ التي وصفَها لي الطبيبُ. وعَقلِي كان يذهبُ إلى همِّي الشاغلِ تأسيسُ المُتحفِ العراقي الذي سأضعُ فيه قِطعي الأثريّة الثلاثَة آلافٍ التي عثرتُ عليها في تنقيباتي. وقد أفرحَنِي أن قامَ المَلكُ بافتتاحِه، وجالَتْ نظراتُه في قاعة المُتحف، مبتهجًا بما رآه، ودعاني إلى العشاءِ، مُقدِّمًا امتنانَه العميقَ للحُكومةِ البريطانيَّة، ومُمَثليها: إنَّها روائعُ يفتخرُ بها العِراقُ، نشكرُكِ يا خاتون لأنَّك أنقذتِها مِن أيادي اللُّصوص. ضحكْنا معًا، رغمَ أنَّ صلاحيّاتي كانتْ قد بدأتْ تتقهقَرُ في البلاط المَلَكّي آنذاك، ويبدو أنَّ مَهماتِّي قد أشرفَتْ على الانتهاء، وعَزائِي الوحيدُ أنَّ هناك مَنْ يتذكَّرُ ما قُمتُ به.

حجرُ الفلاسِفة

كان البلاطُ المَلَكّي يجهلُ أنَّ للتَّاريخِ مَجرىً لا علاقةَ له بأهوائِنا، وهو يتطوَّرُ خارجَ إرادتِنا، شِئنا أم أبَينا، ونحنُ بشرٌ ندورُ في حلقاتِه كَالدَّواليبِ مِن دُون تَوَقُّفٍ، قد تنتهي الإمبراطوريَّةُ التي صَنعناها ولكنَّها لا تنتهي في رُؤوسِ الأباطرةِ والمُلوكِ والسَّلاطين. وكثيرٌ منّا يَتساءلُ: ما هو مصيرُنا لو تَفكَّكَتْ الإمبراطوريّة؟ تلك التي جلبَتْ في حملتِها مُؤرِّخين اجتهدوا وسوَّدوا الصَّفحاتِ وسَهروا الليالي لكي يَجمعوا خُيوطَ حكايتِنا في بلادِ الرافدَيْن، ثم توصَّلوا إلى فِكرةِ أنّ التاريخ لا يُكتبُ مِنْ وراءِ مَكاتبِهم بل مِنْ أَتُونِ المَعاركِ وغُبارِها، لا تنتصرُ المَمْلكةُ إلّا عندما يَرفعُ المِعماريُّون كُؤوسَهم، ويشربون الأنخابَ تحتَ قِبابِ المدينةِ الذَّهبيَّة، لكن هناك على الدَّوامِ مَنْ ينسى أنَّ الطوفانَ مرَّ مِنْ هنا.

ابتسمَ كينيهان كورواليس، مُستشارُ الملكِ، والذي كنتُ أختصرُ اسمَهُ إلى كين، مَحبَّةً ومَوَدَّةً، لأنَّه رُبَّما الوحيدُ الذي جذبَ انتباهي مِن بين الرّجالِ، شابٌّ له طُموحاتُه، ولا ينفعُ معه افتِتانُ قلبِ امرأةٍ مِثلي، فقلتُ في نفسي: أيُّ عَبَثٍ أقومُ به، هذا الرّجلُ لا يبحثُ لا عن أمٍّ ولا عن شقيقةٍ، وأنا في عُمرٍ لا يُمكنُ أن أكونَ عشيقتَهُ، وهو في الأربعين، وأنا أكبرُه بثمانيةِ عشر عامًا، وخلافُه مع زوجتِه لا يَفرشُ أمامي الطريقَ بالزُّهور. يا إلهي! أيُّ خَجلٍ؟ يَبدو أنَّ الملكَ لاحظَ نظراتِنا المُتبادلةِ، وحركاتِه الرومانسيَّة على طاولةِ العشاءِ، فشعرتُ بالخَجلِ مِن أخِ الملك زَيْد، وكانَ تصرُّفُهُ غريبًا، مزيجٌ من الإعجابِ واللَّطافَةِ والمَحَبَّةِ. وتَرَدَّدَتْ الدَّعوَاتُ بينَنا حتى أنَّ هاشمَ ابن النقيب، دَعانِي ذاتَ مرَّةٍ مع كين إلى العَشاءِ على سَطحِ مَنزِلِه تحتَ ظِلالِ أشجارِ اليوكاليبتوس، وكَنَّا نَتكلَّمُ بكُلِّ حريَّةٍ، تُحيطُ بنا شَخصيَّاتٌ عظيمة: لورنس، والسِّير بيرسي كوكس، والملكُ فيصلُ ونوري السّعيد وغيرُهم. كانوا يتكلّمون معي بحَذَرٍ، وخاصَّةً الضُبَّاطُ البريطانيُّون مُستَشارُو الوِزارَاتِ، ومِنْ بينِهم كين يَمتلِكُ مِنَ الكِياسَةِ واللَّطافَةِ ما جَعلَهُ أكثرَ قُربًا الى قلبِي ومُصافَحتُهُ لم تَكُنْ بريئةً، لَمَعانُ عَينيْهِ جَعلَنِي أخرجُ مِنْ زاويَتِي المَنسيَّةِ إلى عالَمٍ آخرَ، لكنّني لا أُريدُ أن أكونَ ظِلًّا لأحدٍ حتى لِلملِكِ نفسِه، وقد آنَ الأوانُ لكَي أَعيشَ لنَفسِي، دُونَ أن أتَأثَّرَ لهذا الشابِّ الوَسيمِ الذي هَزَّ مَشاعِري في افتِتَانٍ مَيئوسٍ مِنهُ، يُراوِدُني شَبَحُ امرأتِهِ مِنْ بعيدٍ، كَما لو أنَّهُ شَبحُ جُوديت، زوجةُ ريتشارد... ولم أجِدْ كالعَادَةِ سوى الرَّسائِلِ مَلجَئِي الأوَّلَ والأخيرَ في التَّعبيرِ عَمّا يَختلِجُ في أعمَاقِي، وأتَساءَلُ مع نَفْسي: هل أصبح الحُبُّ كوكبًا حارقًا كلَّما اقتَرْبُت منهُ؟

أُريدُ أن أنسَى تلكَ الأيَّامَ التي كان لي فيها قَلْبٌ، فالحُبُّ مَثلَ الصُّعُود إلى بُرجِ بابِلَ والقَفزِ في الهَواءِ الطَّلْقِ. جَعلَتْني الكَآبَةُ أُولِجُ رأسِي كالسُّلحُفاةِ إلى جَسَدِها، وأحتَمِي بالظَّلامِ عَسى أن يَمضِي الضَّوءُ، ويَتركَنِي لِحالِي في قَوْقَعَتي. لم أكُنْ في عُمرٍ يُؤَهِّلُني لِغُنْجِ العِشْقِ، أبدُو مِثلَ أرْملَةٍ عَانِس تَبحثُ عن الحُبِّ الدَّافِئ، ولا تَجدُهُ أبدًا، وكين يَبدُو مِثلَ طَيْفٍ أو شَبحٍ، يَطيرُ مِنْ بَين أصابعي. هل يُحالِفُني الحَظُّ معهُ؟ هل هو الحُبُّ الأخيرُ الذي أرجُوهُ قبلَ رَحيلِي عَنْ هذه الدُّنيا. كم كنتُ أَتمنَّى أن

يَكونَ هُناك حُبٌّ في الحَياةِ الأُخرَى رغمَ عدمِ إيمانِي. لا يُمكنُ أن تَعشَقَ المَلائِكَةُ إذا أصبَحْنا كلَّنا في الجَنَّةِ. فلو خُرِّبَتْ حَياتِي على هذه الأرضِ، لا تُفيدُني السَّماءُ. ها أنذا أَهِيمُ على وَجهِي، باحثةً عن ذلك المَلاكِ الأبيضِ وسطَ هذا الظَّلامِ، في تلكَ الأبَديَّةِ التي يَتحدَّثُ عنها الناسُ في المَقاهي والشَّوارِعِ والسَّاحاتِ في هذا البلَدِ. رأيتُ نفْسِي فجأةً شَجَرةً واهِنَةً تَعصِفُ بها الرِّياحُ العاتِيَةُ.

جلستُ في البيتِ أُخاطبُ نفْسِي في عُزلَتِي:

أيَّتُها المَمْلكَةُ التي شَيَّدتُ أركانَها بِرُوحي، أنتِ سَفينةٌ تَلعبُ بها أمواجُ البحرِ أو مَوكبُ جِمالٍ تَعصِفُ بهِ رِياحُ الصَّحراءِ. والفُرسانُ الّذين قرَأنا عنهُم في كُتُبِ الأطفالِ اختَفُوا الآنَ مِنْ المَسرَحِ، ولم يَبْقَ مِنهُم سوى أشباحِهِم. والمَمْلكَةُ بَدأتْ تَنغلِقُ في قَبضَةِ يَدٍ واحدةٍ. ثَمَّةَ شيءٌ ينهارُ مِثلَ قَوالِبِ السُكَّرِ التي لو سَقطَتْ قِطعَةٌ واحدةٌ مِنْها انهارَتْ القِطَعُ الأُخرى. غابَ الفرنسيُّون والألْمانُ، وتَركُوا الشَّرقَ لنا، أيَّةُ مَهَمَّةٍ تَركُوها على عاتِقِنا؟

كان البعضُ يُردِّدُ بِخُبْثٍ وفِطنَةٍ:

كيفَ نَضعُ مَصيرَنا بيدِ امرأةٍ عانِسٍ مِثلَ مِسْ بيل؟

ضَحِكتُ مع نفْسِي، وقُلتُ:

إمبراطوريَّةٌ تُعانِي مِنَ العُنوسَةِ هي الأُخرى ولا أحدَ يَتحدَّثُ عنها. تصالَحْتُ أخيرًا مع جَسدِي الواهِنِ كما فَعَلَتْ هي. انهزَمَ مَرضُ المَلارْيا الذي عَلِقَ بي ذاتَ يومٍ لأنَّني قاوَمتُهُ برُوحي، وبحِيَلِي ومَهارَتِي. وبرَّرَ الآخرُون وضعِي قائِلين: أثقَلَ القدرُ كاهِلَها وأرْغمَها على الانحِناءِ، رفعَتْ قامتَها عاليًا لكَي تُغطِّي على وَهَنِ الجَسدِ المُتَهالِك. ثُلَّةٌ صَغيرةٌ مِنَ الضُبَّاطِ الأذْكِياءِ عَرفُوا حالَتِي، لكنَّهم لم يكونوا يَقدّرُون أهَميَّةَ مَشرُوعي: سِينت جون فيليبي، وهيربرت يونغ، ودي آل آر لوريمار، وقبلَهُم الكابتن إيه. تي. ويلسون، وثُلَّةٌ غيرُهم، ساندُوني بقُوَّةٍ، وأعْطُوني سِرَّ الوُقوفِ على قَدميَّ بكُلِّ فَخرٍ، رغمَ تَداعِي أرْكانِ مَمْلكَتِي، هؤلاءِ نُخبَةٌ مِنَ العَباقِرَةِ الماهِرين، والإداريّين المُمتازين، "المُخلِصُون في بلادِ ما بَينَ النَّهرَيْن" كما أُطلقَ عليهِم ويلسُون بجَدارَة. كنتُ أمزحُ مع السيِّدةِ لوريمار حَوْلَ هؤلاءِ الرِّجالِ فضَحِكنا معًا، اقترحْتُ أنْ أُشاركَها في إلقاءِ بعضِ المُحاضَراتِ، وأصابَتْنا الحَيْرةُ في التَّعامُلِ معَهُم، كمُعلِّماتٍ أو أمَّهاتٍ؟ بمَنْ يثِقُ هؤلاءِ الرِّجالُ أكثرَ يا تُرى بالمُعلِّمة أم بالأمِّ؟

قالتْ السيّدَةُ لوريمار:

ثِقتُهُم بأمِّهاتِهم أكثر.

كنتُ أُداعِبُهُم كأبنائِي حتى لو لم أكُنْ أعرِفُ مَعنى الأُمُومَةِ هناك مَنْ يتجسَّسُ عليَّ، ويُريدُ إبعادِي، ويُروِّجُ الشَّائِعات عنِّي، إنَّني أمامَ شعبٍ مُرهَفِ الأحاسيسِ، يَعيشُ على بَقايا كَوابيسِ هولاكو وجنكيزخان، قالُوا لهُم إنَّ الإمبراطوريَّة لا تُهزَمُ أبدًا، ولا تَغيبُ عنها الشّمسُ، فآمنُوا بها.

ونحن قُلْنا: آمين. آمين.

كنّا جزءًا مِنْ ذلكَ الطُّموحِ الجامِحِ الذي يُسابِقُ آلةَ الحربِ الكبيرَةِ على أرضِ الرّافديْن، وأبواقٌ تُطلقُ عِبارات: النَّصرُ لنا. وفي غَمْرةِ انتِشائِي، كانوا يُطلِقون عليَّ الفَرسَ أو المُهرَةَ لإشباعِ غُرورِي، لكنْ هُناك ما هو أصدقُ، ذلك الإعصارُ الذي يَخرجُ مِنَ النُّفوسِ المَغلوبَةِ على شكلِ حِكاياتٍ يَرويها الكِبارُ للصِّغارِ، أوهامٌ عَسكَريَّةٌ وافتِتانٌ بالشَّرقِ. بينَما الكلُّ يَحومُ حَوْلَ مَنصِبِي، وما زالُوا يَتَسألون بِخُبْثٍ: كيفَ أَصبحَتْ هذه المرأةُ سِكرتيرةً شرقيَّةً للمَندوبِ السَّامي؟

الّذين يَعرِفون الأسبابَ لا زالُوا يُشكِّكون بكلِّ شيءٍ كأنَّ الشكَّ أصبحَ في حَلْبَةِ صراعٍ لا تَنتهي جَولاتُها أبدًا وسطَ اختفاءِ نُبلاءِ المُحارِبين والمُقاتِلين، المُشبَعين برُوحِ الفُروسيَّةِ. لا تَختَالُوا بالنَّصرِ، ولا تَتفاخَرُوا بالأوْهامِ، فهُناك شيءٌ مُرعبٌ في بلادِ الرَّافديْن: علاقةُ البِذرةِ بالشَّجرةِ، والزُّهورِ بالرَّحيقِ، والمَعادِنِ بالشَّمسِ، والشُّموخِ بالخُنوعِ، والرُّخامِ بالتُّرابِ، والنُّبلِ بالخَساسَةِ، واللّيلِ بالنَّهارِ. لا أحدَ يَعلمُ لماذا انهارَتْ تلكَ العَناصِرُ وأصبَحَتْ رُكامًا في رَحِمِ التاريخِ، هل هو عَبَثُ الأقدارِ، يا تُرى، أن يَقعَ الاختِيارُ عليَّ لأُفكِّرَ بدلاً مِن هؤلاءِ القادةِ المُتَبجِّحين بصَوْلَجاناتِهم؟ كان هُوغَارث يَنتظِرُ تَقاريري، وكذلك مَجلَّتِي "التقريرُ العربيّ" و"النَّشرةُ العربيَّةُ". لَعَلَّني أخيرًا أنزَوِي مع قلَمِي في زاويَةِ غُرفتِي، وأَقولُ في نفْسِي: الحمدُ للهِ هُناك ج. ف. كلايتون، والكماندر د. ج. هوغارت، والمِيجر كينهان كورنوالس، والكابتن ت. أ. لورنس، والكابتن صاحبُ الفَخامةِ و. أز أورمسبي واللوتينانتْ ويلسون، والسيّد رونالد ستورز، واللوتينانت كولونيل باركر، والسيّد فورد... الوجهُ النَّاصعُ للإمبراطوريَّة... هؤلاء لَطالَما أمدُّونِي بأملٍ جديدٍ وفَتحُوا أمامَ حُلمِي طريقَ الأملِ واسعًا. مِنْ شُرفَتي، أشُمُّ هواءَ دِجلةَ الطَّلْقَ، تَتصارعُنِي لُغَتانِ سَماويَّةٌ وأرضِيَّةٌ، لأيٍّ مِنْهما أُخلِصُ؟ كنتُ أخْشى أن أنْحازَ لِلُغةِ السَّماءِ لأنَّها لا تَنفَعُهم بشيءٍ بل تُزيدُهُم عَماءً وظُلمةً، ولم تكُنْ أمامِي سِوى لُغَةِ الأرضِ. أكتبُ التَّقاريرَ إلى الإمبراطوريَّةِ عنْ حاجةِ هذا الشَّعبِ إلى الحياةِ الكريمةِ، وأتضرَّعُ إلى السَّماءِ تارةً وإلى الأرضِ تارةً أُخرى.

وفي الطَّرفِ الآخرِ، كان لي أعِزَّاءُ مِن أبناءِ بَغداد، أفكِّرُ بِهم، وأنصحُهُم على الدَّوامِ: لنْ تَربَحُوا شيئًا مِنْ أحقادِكُم وانقِساماتِكُم، كفاكُم لطمًا بأكُفِّكُم على صُدورِكُم، وضربًا بالسُّيوفِ على رُؤوسِكُم، تأمَّلُوا تاريخَكُم قليلاً. أنتُم مَحظُوظُون أن تَعيشُوا وسطَ الأساطيرِ والحِكَمِ، حافِظُوا على مَلِكِكُم حتى لو جاءَ مِن أرضٍ بَعيدةٍ، فالمُلوكُ أغرابٌ أينما ذَهبُوا، والمَلكُ فيصلُ مِنْ أغرَبِ الغُرَباءِ، لا أنْسى وعدِي لكُم بإعادةِ أمجادِ حَضارتِكُم، لكنَّني لا أستطيعُ لوَحدِي ذلك ما لم تَمُدُّوا قُلوبَكُم لي قبلَ أيادِيكُم.

مُعجزةٌ أم حلمٌ أم رَغبةٌ

لم أكُنْ كما يتَخيَّلُون مُرسَلةً مِنَ الرّبِّ ولا قِدّيسةً مُغفلَةً ولا مَطرًا بعثَتْني السّماءُ إلى الأرضِ الجافَّةِ، لكنَّني رُبَّما كنتُ الربَّ الذي يُصغِي إلى مُعاناتِهم ويَسعى إلى إخراجِهم من الحَضيضِ العُثماني. لم يُدهِشْني افتِتانُ أفنديَّةُ بغدادَ بِي، والشَّبابُ مِنهم بالذَّات، ببذْلِاتِهم الأنيقَةِ وسُداراتِهم السَّوداءِ وكذلك البَدُو الّذين يَحتفلُون بِي أثناءَ زِياراتِي لهُم ويُقدِّمون لِي أعَزَّ ما عندَهُم، ولا يَتردَّدُون في ذَبْحِ الخِرافِ، واقامَةِ المَوائِدِ، مُتأمِّلين أنْ أَوصِلَ أصواتَهُم إلى القَشْلة، مَركزِ الحِكْمِ في بغداد، وهُم يُردِّدُون: هل يُعقَلُ أنْ تُفكِّرَ بنا هذه الإنجليزيَّةُ القادمةُ مِنْ وراءِ البحارِ ولا يُفكِّرُ بنا أبناءُ بلدِنا؟ نحنُ نختارُكِ مَلِكَةً علينا، يا خاتون.

إنَّهم يَنظُرون إليَّ كما يَنظُرون إلى بَطلٍ جاءَ مِن سفرٍ مُتعبٍ. تَحمرُّ وُجوهُهُم مِنَ الخَجلِ وهم يُصافِحونَني أو يَنظُرون إلى عَينَيَّ، لم أرَ مِثلَ بريقِ عُيونِهم المُتألِّقةِ بالذَّكاءِ والرِقَّةِ، كأنَّها قَناديلُ مُضاءَةٌ، تَأمُّلٌ رهيبٌ يَمرُّون بِه، هائِمون على وُجوهِهِم في الصَّحراءِ، لا مَتاعَ لهُم سوى زادِهم وخِيَمِهم، أرى فيهم الصَّحراءَ، والبَراري، والطَّبيعةَ، والكُثْبانَ الرَّمليَّةَ، والعَراءَ والخِيامَ، والصُّوفَ، والشَّعرَ، وفَناجينَ القهْوةِ، وأستِكاناتِ الشّاي، وحَليبَ النُّوقِ، وتَبْغَ السَّجائِرِ المَلفُوفَةِ، والأمطارَ الخَفيفةَ، والرِّياحَ العابِرةَ. أفكِّرُ بأنَّ حياةَ البَداوَةِ ما هيَ إلّا هُروبٌ نحوَ الأبَديَّةِ التّي تَملأُ السَّماءَ. وفي تلكَ الأثناءِ، كنتُ أُريدُ أن أَعلِّمَ نُخبَتَهُم مِنْ أفنديَّةِ بغدادَ كيفَ يَقرؤُون التّاريخَ لا تاريخَ الغَزواتِ والمَعارِكِ والخُصوماتِ، بلْ التّاريخَ السِرّيَّ لحَضارتِهِم العَظيمةِ التي أهمَلُوها وراحُوا يَعتنِقُون أفكارَ الجَاهلِيَّةِ، يَرتدُون الأقنِعةَ لتَجميلِ وُجوهِهِم، أتَصفَحُها وأنا أُقلِّبُ الصُّورَ التي أَلتقِطُها لهُم، فأَرى في وُجوهِهِم لَمَعانَ الشمسِ، ودَوْرَةَ الزَّمَنِ، ورَسائِلَ شفَّافَةً، مِنْ دونِ مَظاريفَ وطَوابِعَ وسَاعي بَريدٍ، يَتدافَعُون أَمامِي لِلإعْلانِ عَن أسمائِهم، بِلَكْنَةٍ إنجليزيَّةٍ، يَرفَعون أيدِيهِم إلى السَّماءِ ويَتَضَرَّعُون لأَجْلِ الحياةِ المَديدَةِ لي، إيمانًا مِنْهم بأنَّني مُنقِذَتُهم ومُخَلِّصتُهُم. ولأوَّلِ مرَّةٍ سَمِعُوا مِنّي كلمةَ: المُستقبَل. لم يَعتادُوا على سَماعِ ذلك مِنْ العُثمانيِّين الأتراكِ الّذين لا يَتكلَّمُون إلّا عن الماضي، بأوْهامِهِ وخُرافاتِهِ كما لو أنَّهُم يَربِطُونَهُم إلى صَخرةٍ ثقيلةٍ لا تَتَزحزَحُ. قُلتُ مرارًا في وَجوهِهِم: انظُروا جيِّدًا يا أفنديَّةَ بَغدادَ الطَّمُوحِين: هؤلاءِ حوَّلُوا بلدَكُم إلى رُقعةٍ مِن لُعبةِ الشِّطرَنْجِ، لا نَعرِفُ مَتى يَمُوتُ الملكُ، ولا مَتى يُنقذُه الجُنودُ؟

لم أكُنْ سوى باحثَةٍ عن المَعلُوماتِ التَّائِهةِ بين الرِّمالِ، لا أكثرَ ولا أقلَّ، ولا أدْرِي بماذا يُمكنُ أن يَتَّهِمَني أعدائِي. لم أكُنْ أتَوَقَّعُ أن تَركبَ هذه الفتاةُ الرِّياحَ والرِّمالَ وتُغامرَ بقَطْعِ آلافِ الكيلومتراتِ بَحثًا عن أخبارٍ تَفيدُ الإمبراطوريَّةَ. فِيما يَردِّدُ البَدْوُ: لا تُوجدُ امرأةٌ مِثلُكِ يا خاتون، نحن مُقْذوفُون في هذه الصَّحراءِ، ولا أحدَ يَسألُ عنَّا سِواكِ، لا أوراقَ ثُبوتِيَّةَ لَنا ولا هويَّاتٍ ولا سجِّلاتٍ حتّى الجيشُ لا يَقبلُنا في صُفوفِهِ. نَبقَى في الصَّحراءِ، وإذا طَردَتْنا مِنْها الرِّمالُ، لا نَعرفُ إلى أيْنَ نَذهبُ، لا يُوجدُ أمامَنا سوى السَّماءِ الوحيدةِ التي تَفتحُ لنا ذِراعيْها حِين يَتخلَّى عنَّا الآخرُون، ومِنْها يَتَقاطَرُ الأنبياءُ والمَبْعوثُون، يُهمِلُنا الجميعُ، يا خاتون، الأتراكُ والعِراقيُّون والإنجليزُ، نحن في نَظرِ الجَميعِ، لقطاءٌ لا

آباءَ لنا، نحن أبناءُ الرِّياحِ لا أكثرَ، متى ولَّتْ وُجهتَها ولَّيْنا وُجوهَنَا، تَعبَثُ بنا الرِّياحُ أينَما ذَهبْنا، حتى لو تَوجَّهْنا نحوَ الله حَرفَتْنَا الرِّياحُ عنهُ، فأينَ نُوَلِّي وُجوهَنَا يا خاتون، وأنتِ أُعرفُ بظُروفِ حياتِنا مِنَ التَّاجِ البريطانِيّ، ومِن والسِّير بيرسي كوكس... ولورنس العرب وغيرِهِما مِن قادَةِ الإمبراطوريَّةِ.

كَلماتٌ مُحزِنةٌ حقًا. كنتُ أَرَى المُعجِزاتِ تَنْبعثُ مِنْ أرواحِهِم، والرَّغباتِ تَزدَحِمُ في خَيالاتِهِم، والأحلامَ تُداعِبُ رُؤوسَهُم، والوَمِيضَ يخرجُ مِنْ عُيُونِهِم، هؤلاءِ أبطالُ رِواياتٍ، قادُوا خَطواتِنا إلى واحةِ الصَّحراءِ، وراحُوا يُناجُون النُّجومَ، نحن نَصنعُ تاريخَهُم وهم يَصنَعُون تاريخَنَا، وفي لُقاحِ التَّاريخَيْن يَخرجُ تاريخٌ آخرُ لا تَعرفُهُ سوى أجيالٍ لم تُولَدْ بعدُ. مِنْ هُنا عَرفْتُ حُدودَ مَمْلكتِي، المُلوَّنةَ بِخُطوطٍ حمراءَ وخضراءَ بين قَوافِلِهِم المُنارةِ بضَوءِ القمرِ، شِعْرٌ يَنطلقُ مِنْ أفواهِهْم كَيُنبوعٍ لا يَتوقَّفُ، وحِكَمُ وأقوالٌ تَصلُحُ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ، مَنْ يَقولُ: إنَّ قوافِلَ الجِمالِ تَقطعُ الصَّحراءَ بِلاَ هَدفٍ، تَسيرُ في الظُّلمةِ وتَقتفِي آثارَ جِمالٍ هَلكَتْ في الطَّريقِ، وغُرسَتْ أقدامُها في الرِّمالِ، ولم تَخرُجْ مِنْها سوى السّنامِ المحدّبَةِ، وسُروجِها الصوفيَّةِ الزَّاهِيةِ مع تألُّقِ أشعَّةِ الشَّمسِ. قالُوا لي: إنَّها تَسيرُ في صَمتِ الكَواكِبِ التي تُزيِّنُ السَّماءَ بالمَصابيحِ التي تَشتَعِلُ وتَنطَفِئُ بالمَشيئَةِ الرَّبانيَّةِ العُليَا المُتدليَّةِ مِثلَ الثُّريَّا في صفحةِ السَّماءِ. هُم وُلِدُوا بمَحْضِ المُصادفَةِ، وأصبَحُوا بالضَرُورةِ جزءًا مِنَ الصَّحراءِ. ولا يُمكنُ أن أنسَى ذلك البَدوِيَّ الشابَّ الذي اسْتوقفَنِي، مُثيرًا فُضولِي، ليَسألُني: كيفَ هي لندن، يا خاتون، هل عِندَكُم صحراءٌ مِثلَنا؟

لم أكُنْ أعرِفُ بماذا أُجيبُه، ولا كيفَ أُقرِّب الصُّورةَ إلى ذِهنِهِ، لأنَّ الصَّحراءَ مَوجُودةٌ في أرواحِنا قبلَ أنْ توجَدَ في الطَّبيعةِ. تَردَّدْتُ خِشيَةَ أنْ تَتَعقَّدَ الأُمورُ في ذِهنِه.

ثم أضافَ:

أنتِ مِرآةُ حياتِنا. نحن نَفتخِرُ بكِ.

تَبدُو لِي المِرآةُ، مِثلَ أرضٍ لا حُدودَ لَها، لَمَّاعةً، ومُتقّدةً، ومُخيفَةً ومُغريَةً. كم واسِعَةٌ النَّفسُ البشريَّةُ في اسْتيعابِها لكلِّ هذا الفراغِ الهائِلِ الذي تُولِّدُه الصَّحراءُ؟ نحن نَتحوَّلُ كلَّ يومٍ، كلَّ ساعةٍ، وكلَّ دقيقةٍ وكلَّ لحظةٍ بلْ وكلَّ ثانيةٍ إلى كائِنٍ آخرَ لا نَعرفُهُ، نَتغيَّرُ مِثلَ جلدِ الثُّعبانِ الذي لا يَتعرَّفُ حتى على ألوانِه.

آخرُ ما قالَهُ الشابُّ الصَّحراوِي:

شكرًا لوُجودِكِ هُنا بينَ أهلِي وقَبيلتِي.

لكنَّني قُلتُ لهُ: إنَّني هنا بإرادتِي وبإرادَةِ الآخَرين في آنٍ، تَجذبُنِي هذه الأرضُ بكلِّ ما فيها مِن آثارٍ وكُنوزٍ مِنْ بابلَ وسُومر ولاغاش وأُوْر المُقدَّسَةِ. وأتَساءَلُ: كيفَ لتِلكَ الأُبَّهةِ الفَخمةِ أن تَزولَ وتَختَفِي وقدْ عاشَ في كَنَفِها بشرٌ مِثلُنا؟

هؤلاء ضاعُوا بين الخَرائِبِ. وأنتَ لا تَتَعلَّمُ إلّا مِنْ المَهَرةِ الّذين يَختفُون في مكانٍ ما مِنْ فَرْطِ

خَجلِهِم. كلماتُ بعضِ الخُطباءِ تُبشِّرُ بالتَّمرُّدِ علَينا إثرَ الآلامِ التي تَراكمَتْ في دَواخِلِهِم مِثلَ مِياهٍ مَحبُوسةٍ وراءَ السُّدودِ فيما كان السِّير برسي كوكس يُردِّدُ علَى مَسامِعِي:

لم نكُنْ مَلائِكةً ولا أشْرارًا في هذه الصَّحراءِ.

إنَّكَ تَعلمُ إنَّنا لم نَعمَلْ لأجْلِ أنفسِنَا بلْ لأجلِ الإمبراطوريَّة.

عندما غادرَ المَندوبُ السَّامي إلى لندن، تَكفّلْتُ بالببَّغاءِ الذي كان يُربِّيه ويَعشقُهُ، ورُبَّما لذلِك أحبَبْتُهُ، لأنَّ حُبَّ الحَيواناتِ يعكسُ ما في دَوَاخِلهِ مِن إنسانيَّةٍ مَغمُورةٍ لأنَّها كَجبلِ الثَّلجِ الظاهِرِ.

كان الفجرُ يبزُغُ، ويُخفي معهُ بعضَ الآلامِ التي لا نَراها، بعضُ النُّعاسِ في عينيَّ، والمكانُ يأخذُ شكلاً آخرَ مع الضِّياءِ، أعجزُ عن تفسيرِ ألوانِهِ وسَأكتفِي بتَدوِينِ بعض الكلماتِ التي تَقتحِمُ ذِهنِي، وأترُكُ البقيَّةَ لوَضحِ النهَّارِ. لم أصفَحْ عن الّذين قَتلُوا الجِنرالَ لِجمان لأنَّهُم أطلَقُوا عليهِ النارَ مِنَ الظَّهرِ، وهذه ليستْ مِنْ شِيَمِ فُروسيَّةِ العربِ، بلْ وإنَّ وَحشيَّتَهُم وصلَتْ إلى أنَّهم دَفنُوهُ بأيدِيهِم عَشوائيًّا في المَكانِ ذاتِهِ، مِنْ أيْن أخرَجُوا هذا التَّوحُّشَ. ومِنْ أجلِ أن نُعيدَ لإمبراطوريَّتِنا هَيبَتَها المَهدُورةَ على أيدِي هؤلاءِ القَتَلَةِ، قُمنَا بإجراءِ طُقوسِ مَراسِمِ الدَّفنِ العَسكريَّةِ والتَّشريفيَّةِ في مَقبرةِ نُورث جيت، رغمَ عِلمنا بأنَّ ذلكَ لن يَسترِدَّ شرفَنَّا الضائعَ. وفي الوقتِ نفسِهِ، إنَّني أَلومُ الرَّاحِلَ لأنَّني حَذَّرتُ مِنْ أُسلُوبِه الفَظِّ في التَّعامُلِ مع البَدْوِ، لكنَّه لم يَنتبِهْ، ونَجحَ في غرسِ العَداوةِ والبَغْضاءِ في نفْسِ الشّيْخ ضَاري، وألهبَهُ كلَّ هذا الغضبِ المُقدَّسِ الذي تراكَمَ في نُفوسِ العِراقيّين دُهورًا، فَجاءتْ على شكلِ طَعناتِ خِنجرٍ في جَسدِ المُحْتلِّ. لكنَّ تقاليدَ الإمبراطوريَّةِ العَظيمَةِ تَجعلُنا نَحترمُ العَدوَّ الباسِلَ والشُّجاعَ؟

رُوبِنْ هُود... العِراقِي

ما هذا الفارسُ الشُّجاعُ والمُهذَّبُ والطَّائِشُ والخارجُ على القَانُون، هلْ هو رُوبِنْ هُود العِراقِي؟ ما أشْبهَ تاريخنا بتاريخِ هذا البلدِ. يا إلَهي! كنتُ أرتعشُ في مَحطَّةِ القطارِ ورأيتُ رجلاً يخرجُ مِنْ بينِ الجُموعِ ويُدافعُ عنِّي ويُوصِلُني إلى بغدادَ آمِنةً، سالمَةً. كثيرُون نَسوا هذا الرَّجلَ، واعتبَرُوه مِنْ شَقاواتِ بغداد، لكنَّهُ طبعَ صُورتَهُ في ذِهنِي، ولم يغُادرْهُ أبدًا. تَساءلْتُ: كيفَ نَسيَ العِراقيُّون بطلَهُم ونحن نَعمَلُ لبَطلِنا رُوبِنْ هُود مَراسِمَ مَلكيَّة؟

هاجمَ رجالُ بِنْ عَبْدكَة القِطارَ المارَّ بشَهربانَ، وهو مُتَّجِهٌ نحوَ خانْقين المدينةَ ودَخلَ المُهاجِمون القطارَ واستَولُوا على بنادقِ الجَنْدرمَة العُثمانيَّة وعَتادِهِم، وكانتْ مِسْ بيل على مَتنِ ذلك القطارِ، كان المُهاجِمون يُكنُّون الاحترامَ لشخصٍ بينَهُم، فَظنَّتْ أنَّهُ رئيسُهُم أو قائدُهُم، فاحتمَتْ به، فقامَ بِتكريمِ السيِّدة الإنجليزيّة وحَماها وأوْصَى رفاقَهُ بإيصالِها سالِمةً إلى بغداد. وحالَ وُصولِها طلبَتْ عُنوانَ واسمَ هذا الرّجُلِ لتُجازِيهِ على عملِهِ لكنَّه كان طَريدَ الحُكومةِ. ثمَّ سَمعَتْ بأخبارِهِ وهي تقرأُ التقريرَ الذي وردَ عَنه: أثناءَ الثَّورةِ العِراقيَّةِ وقفَ هذا الرّجُلُ ضدَّ الإنجليزِ في لِواءِ دِيالَى، وعندما أَخلَوْا بَعْقُوبَةَ، دخلَها ابنُ عَبدكَة ونصَّبَ نفسَهُ مُديرًا للأمنِ فيها وبطشَ بالجَواسِيس، فَقتلَ بعضَهُم وأحرقَ دُورَهُم ممَّا أثارَ حِقدَ الإنجليزِ ونَقمتَهُم عَليهِ.. ولمَّا عَلمَ ابنُ عَبدكَة أمرَ الثَّورةِ واشتِعالَ أُوَارِها في الجَنوبِ تقدَّمَ مع أخيهِ وابنِ أختِهِ ومجموعةٍ مِنْ أعوانِهِ مِنْ جَهةِ بَعقُوبَة الشّماليَّة قَنطرَةِ خَليل باشا تِجاهَ سَرايْ بَعقُوبَة وأمْطرَ مَقرَّ الحُكومَةِ بوابِلٍ مِنَ الرَّصاصِ ممَّا اضطرَّ الحاكِمَ المَدنِيَّ إلى الهربِ مِنْ السَّرايْ بعدَ أن قُتلَ عددٌ مِنْ جُنودِهِ باتِّجاهِ الحامِيَةِ البريطانيَّة. وسقطَتْ بَعقُوبَة على يدِ هذا الرّجُلِ الشُّجاعِ ولم يدخُلْها أحدٌ غيرَهُ. حكمَتْ عليهِ مَحكمةُ جِناياتِ بَغدادَ بالشَّنقِ حتى الموتِ لِكثرةِ جرائِمِهِ وقَتلِهِ العديدَ مِنْ رِجالاتِ الدَّولةِ العُثمانيَّة والجَندِرمَة والشَّرطة. وعِندما سَمعَتْ الخَاتون بقرارِ حُكمِ الإعدامِ على الرّجُلِ الذي أَنقذَها، سارَعَتْ إلى المَحكمةِ لِترَى مَنْ هو هذا الرّجُلُ الذي أخافَ الإنجليزَ أيضًا. وبعدَ أن تَمعّنتْ في عَينيْهِ ونَظراتِهِ الجريئَةِ عَرفَتْهُ على الفَورِ، وقالتْ: كيفَ تَحكمُون على هذا الرّجُلِ الذي أنقذَنِي وحَمانِي وكرَّمَنِي وأوْصَلَنِي سالِمةً بالقطارِ إلى بغداد؟

دُهِشتْ المحكمةُ مِنْ أقوالِ الخاتون. كيفَ يُمكنُ لِقاتِلٍ مِثلَ بِنْ عَبدكَة أن يَحمِي امرأةً ويُكرِّمَها ويُعيدَ إليها حاجاتِها بِكلِّ أدبٍ؟ قرّرَتْ المَحكمةُ بعدَ أن توسَّطَتْ الخاتون استِئْنافَ وتَمييزَ ونَقضَ القرارِ، وتمَّ تحويلُهُ إلى الحَبْسِ عشرين عامًا.

رُوبِنْ هُود العِراقِي وُلدَ في رَحمِ الثّورةِ، كما أطلَقَتْ عليهْ الخاتون.

شاءَ القدرُ أن أنقَذْتُه الخاتون مِنْ حَبلِ المِشنَقَة.

كان يومًا يتمشَّى في أحدِ شوارعِ الحِلَّة بعدَ الإفراجِ عنهُ، مُرتدِيًا عَباءةً سوداءَ، مُطرَّزةً

بالحريرِ الأسودِ وخُيوطِ الذّهبِ، وُمتحزِّمًا بِحِزامٍ أحمرَ اللَّونِ، ومُرتدِيًا الصَّايَة والزّبونَ ومُتمنْطِقًا مُسَدَّسَهُ، انطلقَتْ رصاصَتانِ مِن زِقاقٍ ضَيِّقٍ لتَستقِرَّا في صَدرِهِ، وتُنهِيا بذلك أسطورةَ رُوبِنْ هُود العِراقِي... ورُبّما إلى الأبَد.

ماري... الأرمنيَّة

أُطلُّ مِنْ نافذةِ غرفتِّي، وأتأمَّلُ أشجارَ حديقَتِي التي تمتدُّ مع نَخيلِ بغدادَ التي لا يُضاهيها سوى نخيلِ البَصرة، والنارُ مُشتعلةٌ مِنْ حولِ مَملكتِي، وبلدُ الجَنائِنِ المعلَّقَةِ قد يَسقطُ في الفوضَى بأيَّةِ لحظةٍ. أحزنَني أن أُوَدِّعَ الرّجُلَ الذي عملتُ معهُ سنواتٍ طويلةً. قلتُ لِماري التي كانتْ تنتَظِرُنِي في البيتِ: سَيُغادرُنا السِّير بيرسي كوكس، يا ماري.

رجلٌ طيِّبٌ.

لكنَّهُ محكومٌ مِنْ امرأتِهِ.

حتى تشِرشِلْ.

وانفجرْنَا بقَهقَهاتٍ صاخِبَةٍ هزَّتْ أركانَ البيتِ. ، ثم قلتُ لها:

إنَّني خائفةٌ يا ماري.

مِنْ ماذا يا خاتون؟

لأنَّنا وَعدْنَا العِراقيّين بأشياءَ لم نُطبِّقْ مِنها شيئًا، حتى فكَّرتُ أنّ مِنَ الأفضَلِ لنا لو تَركْنا المِنطقَةَ للأتراك.

لا يا خاتون. الأتراكُ قَتَلة.

وانطلقَتْ ماري في البُكاءِ.

أفهمُكِ يا ماري، لا أحدَ يَغفرُ جرائمَ التاريخ.

هؤلاء سَفَلَة، يا خاتون، تخيَّلِي، كانوا يَكرهُون العربَ ويَحكُمونَهُم ويقولُون عنهُم "بيس نفر" أي أفرادٌ قَذرُون، هَربُوا وتَركُوا كلَّ ما كانوا يَعتزُّون به مِن جارياتٍ وأملاكٍ وذهبٍ...

لا تبكِي يا ماري، لا أريدُ أن أُثيرَ جُروحَك.

نحلمُ أن يُنصفَنا الإنجليزُ يا خاتون.

ما رآه شعبُكُم مِن عذاباتٍ وآلامٍ لم يرَهُ شعبٌ آخرُ.

دقّاتٌ على البابِ.

خاتون، خاتون، شُيوخُ العشائِرِ بَعثُوا لكْ هديَّةً.

ما هي؟

زهورٌ بريَّةٌ.

يا سلام....إنَّهُم يتذكَّرُون كيفَ كنتُ أَقطفُ تلك الزُّهورَ أثناءَ زيارَتِي لهم.

ثم ذهبَتْ ماري لتَرتيبِ ملابِسِي في الحقائِبِ.

فقلتُ لها:

لا أعتقدُ أنَّني سأُسافرُ إلى لندن ثانيةً، يا ماري.

سأنشرُها في الشّمسِ كي تَتَطهَّرَ وتذهبَ مِنْها رائحةُ الشّتاءِ.

اللهُ خلقَ هذه البلادَ في لحظةِ جُنون

بعدَ مُغادرةِ السِّير بيرسي كوكس بغدادَ، أصبحَتْ الخاتون خاليةَ الوِفاضِ ولم يكُنْ ذهابُها إلى البِلاطِ سوى روتينٍ يوميّ اعتادَتْ عليه. كان البلاطُ مكانًا مُريحًا لها، مُزينًا بثُرَيَّاتِ الكريستالِ وسطَ أكاليلَ مِنْ زهورِ الياسَمينِ، يُصاحبُهُ عزفٌ مُوسيقِيّ لِلفرقَةِ الإنجليزيَّةِ، باعثًا الفرحَ بين الصِّغارِ الإنجليزِ والشّركسِ واليهودِ والمَسيحيّين والمُسلمين الذين جاؤوا لإلقاءِ التَّحيّةِ على المَلكِ. وتَساءَلَتُ: ألا يستحْقُّ هؤلاء الصغارُ أن يُؤسِّسَ آباؤُهم وطنًا لهم؟

كان الملكُ مُنزعجًا في ذلك اليومِ، رُبَّما لأنَّه لا يُحبِّذُ لقاءَ زوجاتِ الرَّسميّين الحُكوميّين ومُوظَّفِي اللِّجانِ العُليَا في البلاطِ، مُفضّلاً أن يتوارَيْن في الكواليسِ وينشغِلْن بالشّائِعاتِ والأقاويلِ. كنتُ أكثرَ المُقرَّبين إليهِ حتى أكثرَ مِنْ زوجتِهِ وأخَواتِهِ، ممَّا أثارَ الغَيرةَ والحَسدَ، لذا بدأتُ أتجنَّبُ لقاءَهُنَّ. السَّلاطينُ العربُ كانوا يَفصلُون حَريمَهُم عن شؤونِ الحكمِ، بِبذلِ العَطايا والهَدايا مِنْ أجلِ إبعادِهِنَّ عن السياسَةِ. ولَطالَما عبَّرَ لِي الملكُ عن تَخوُّفِهِ مِن النّساءِ:

إنَّهنَّ اللّعنةُ!

كنتُ أُمازحُهُ:

حتى أنا يا صاحبَ الجَلالَة؟

وينفجرُ ضاحكًا، دونَ تعليقٍ. رُبَّما هُنَّ يَخرقْنَ المَراسمَ والإتِكيت، ولم يكُنْ يَروقُ لرِجالِ البلاطِ الذين يُقدِّسون المرأةَ ويَحتقرونَها في آن، تدخُّلِي في شؤونِ السّياسةِ. يا إلَهِي! لماذا يتصرَّفُ العِراقيّون هكذا، هل تعلَّموا النِّفاقَ مِنَ العُثمانيّين؟ يالَهُ مِن بلدٍ غريبِ الأطوارِ، رغمَ حُبّي لهُ، ولم أكُنْ الوحيدةَ التي تُفكِّرُ هكذا، حتى تشِرشِلْ قالَ لي ذاتَ مرَّة:

إنَّ اللهَ خلقَ هذه البلادَ في لَحظةِ جُنونٍ.

فأجبتُهُ: إنَّني أعشقُ الجُنونَ يا مَعالي الوزير.

فضحكَ السَّاحرُ بغَليونِهِ ودعابَتِهِ.

لقد رفعَنِي هذا الرّجُلُ بإشاداتِهِ بي إلى صُفوفِ كبارِ الضبَّاطِ والقادةِ العسكريّين، مُردِّدًا على مَسامِعِهم: اقرؤوا تقاريرَ المِسْ بيل لِكي تَروا الواقعَ بصورةٍ أوضحَ.

ومنذُ تلكَ اللّحظةِ، انهالوا على قِراءةِ تقاريري ومُناقشَتِي. فيما يَعتقدُ بعضُ رجالِ البلاطِ أنَّني مع تشرشِلْ ولورَنس العرب، ثُلاثيٌّ جَهنَّميٌّ، نُخطِّطُ في الكَواليسِ المُظلمَةِ لتنفيذِ وصايَا الإمبراطوريَّةِ.

هؤلاء تتبَّؤوا بكلِّ شيءٍ إلّا بمصائِرِهم، ولم يكُنْ العالَمُ بين أيْديهِم سوى شبكةِ خيوطٍ مُبعثرَةٍ، تتلاعبُ فيها شخصيَّاتٌ تقفُ وراءَ رجالِ البلاطِ، يُتوِّجُون مُلوكًا وأُمراءَ كما يَشاؤون، انزوى حينَها السّير بيرسي كوكس حزينًا، يُدردِشُ مع تشرشِلْ، هامسًا في أُذنِه: عندما تَوَّجنا الملكَ، حدَدَنا مِن صلاحيَّاتِه، لكنَّ هيبتَهُ غلبَتْنا، وفي شخصيَّتِه مِنَ السِّحرِ ما يُغري الجَماهيرَ، هل خَلقْنا رجلًا مُتسلِّطًا وأصبَحْنا أسرى له؟ ثم التفتَ إليَّ، قائلاً:

طردَ الملكُ خمسةً مِنْ وُزرائِه، لولاكِ يا مِسْ بيل، لَما عادُوا إلى وزاراتِهِم.

وبعد أن صمتَ بُرهةً، أضافَ: هل يُريدُ أن يُلَقِّنَنا درسًا؟

أعتقدُ أنَّ الملكَ مُتّفقٌ مع غريمِه طالبْ النقيب على إنهاءِ الانتِدابِ، ولِعَصْبةِ الأُممِ قولُها الحاسمُ، الشّيعةُ ثائرُون لأنَّهم لم يُمَثَّلوا في الحكومةِ، والكُوردُ غيرُ راضِين بالعَيشِ مع العربِ والأرْمنِ والأتراكِ.

هزَّ المَندوبُ السَّامي رأسَه: تقصُدين إنَّ البلدَ قنبلةٌ مَوقوتةٌ.

يا سعادةَ المَندوبِ السَّامي، نحن صَنعْنا بلدًا مِن ثلاثِ وِلاياتٍ، وفرضْنا عليه ملكًا غريبًا عنهُم.

لكنَّ الملكَ يريدُ أن يُضعفَ سُلطتَنا وهو يظهرُ في جَمعِ القطنِ والجرَّاراتِ وحِراثةِ الأرضِ في الفِيلم.

أستعيدُ ذلك الزَّمنَ مع الملكِ في حفلةِ الشّاي، قربَ النَّافورةِ، بثيابِه العربيَّةِ المُوشَّاةِ بالذَّهبِ مِثلَ أُمراءِ مَكَّةَ، ثم ذهبْنا لزيارةِ طاقْ كسرى، فقلتُ له: يا جَلالةَ الملكِ، نحن نَسعى إلى تَحويلِ العراقِ إلى دولةٍ عظيمةٍ كما كان أيَّامَ زمانٍ.

انفرجَتْ أساريرُه، وهو يَهزُّ رأسَهُ.

8

في 17 يوليو 1925

لا أعتقدُ أنَّكم ترونَني في البَرلمان

كان الشتاءُ الأخيرُ في بَغدادَ أكثرَ برودةً مِن أيِّ عامٍ آخرَ، والخاتونِ ليستْ مِنَ النّوعِ الذي يُحبُّ البردَ، وتتلاءَمُ أكثرَ مع الحَرِّ، لكنَّها قرّرَتْ زيارةَ لندن بإجازةٍ للّراحَةِ والتّخلُّصِ مِنْ مشاعرِ الخَيبةِ واليأسِ التي تُلاحقُها في الأيّامِ الأخيرةِ. نَصحَها الأطبَّاءُ بعَدمِ العَودةِ إلى بَغداد، ولكنَّها أرادَتْ أن تَحتفلَ بعيدِ ميلادِها الثّامنِ والخمسين الذي لم يبقَ له سوى ثلاثةِ أيّامٍ، بمُرورِ هذه الأيّام سيبلغُ عُمرُها الستّين. جلسَتْ بجَسدِها الصَّغيرِ وشَعرِها الرَّماديّ وسطَ بيتِها الصَّغيرِ، بسَقفِهِ العَالي، ونوافذِه الطّويلَةِ، وطِرازِه الفرنسي، المُكتظِّ بالكَراسِي والكَنباتِ والطّاولاتِ والخَرائِطِ والمُستَنداتِ والكَراريسِ باللُّغاتِ العَربيَّةِ والإنجليزيَّةِ والفَرنسيَّةِ، بين أَكوامِ الأوْراقِ المُتناثِرَةِ، أوراقٌ على السجَّادةِ الأرضيَّةِ، تَستعيدُ أيَّامَ عَظَمتِها وجَبَروتِها. هنري دوبس لا يُشبهُ السِّير بيرسي كوكس في لَطافتِه وحَميميَّتِه، وتفاهُمُها مع هذا الإيرلَندِي البربَرِي كان صعبًا، وهو لا يَقتنعُ بما تقولُه، مُحاولاً الابتعادَ عن مَشوراتِها. فقد ولَّى ذلك الزمانُ الذي كان فيه المندوبُ السَّامي لا يَخطُو خطوةً واحدةً بدُونِها. وعندما طلبَتْ مِنهُ زيارةَ لندن، وافقَ على الفَوْرِ وكأنَّه يريدُ التخلُّصَ مِنْها، مِمَّا جعلَها تفكِّرُ بأنَّها لم تعُدْ ذاتَ قيمةٍ بالنّسبةِ للحكمِ في العراق. لكنَّ كلَّ شيءٍ يَحثُّني على عدمِ الرَّحيلِ، الربيعُ يَحُلُّ الآنَ في بَغداد، مَنظرُ الأُقحُوانِ الأحمرِ والأعشابِ البريَّةِ والوُرودِ الأُرجُوانيَّةِ وزُهورِ المَرغَريتْ الصَّفراءُ والزَّنابقُ الزَّرقاءُ المائِلةُ إلى البَنفسَجِي. ماذا أفعلُ في كآبةِ لندن وألوانِها الشَّاحبَة؟ يا إلَهي كم أنا ضَعيفةً أمامَ هذا المَنظرِ؟

النَّحاتُ غلايشِنْ أهدى إليَّ تِمثالاً برونزيًا، ضمَمْتُه إلى المُتحفِ، هو تمثالٌ نصفيٌّ صنعَتْه يدٌ ماهرةٌ، جعلَني بخُطوطِ الطّينِ والبرونزِ أنظرُ في الفَراغِ والعُزلةِ. وتذكّرتُ أنّ الملكَ قبلَ مُغادرته لِلعلاجِ في يَنابيعِ فيشي الشّهيرةِ طلبَ مِنّي الاعتناءَ بالمُتحفِ وتطويرَهُ. ضَحكْتُ مع نفسِي: أنا نفسِي أصبحْتُ مُتحفًا، بِجَسدي الضّئِيلِ المُترَهِلِ، دون بصمةِ رجلٍ أو عِطرٍ ذَكرِيّ، لا شيءَ سوى صدأِ الأيَّامِ الخَوالي، وذكرياتٍ عن قصائِدِ حافظ الشيرازي وعُمر الخيّام أقرأُها بفرحٍ طُفوليّ. هل وُلدتُ في الزَّمن الخطأِ أم قابلْتُ الرَّجلَ الخطأَ؟

على تلك الورقةِ البيضاءِ الصَّقيلةِ التي قدَّمتْها إلى تشرشِلْ في مُؤتمرِ القاهرة، رسمَتْ عليها خُطوطَ مملكتِها، إيذانًا بدُخولِها إلى بوَّابةِ التاريخِ، ملكةً غيرَ مُتوَّجةً، ودُون أن تدري تحوُّلَ التاريخِ الذي قرأَتْهُ في أكسفورد إلى رُقعةِ شطرَنجٍ تُحرّكُ عليها بَيادقَها، صناعةُ التاريخِ ليستْ مثلَ قراءتِه، بكلِّ ألغازِه وأسرارِه، جُغرافيّاتٌ تذوبُ وأُخرى تُولد بين الجِبالِ والوِديانِ والسُّهولِ والبحارِ. لا قلاعَ ولا حصونَ تقفُ في وجهِهَا، تَمتطِي صَهوةَ حِصانِها، وتقطعُ الطريقَ نحوَ قلاعِ الإمبراطويَّةِ، وفي قلبِ خَرائِطِها قنابلُ مَوقوتَةٌ وخلايا نائِمَةٌ، فكانتْ مثلَ السّاحِرةِ التي أطلقَتْ ألعابَها وغادَرْت المَسرحَ.

قرَّرتْ العودةَ إلى بغدادَ لِتَضرِبَ موعدًا مع الشَّمسِ وتُباركَ خُيوطَها الذهبيَّةَ، مع وَمضاتِ

الزّمنِ المُتسارِعةِ، وهي تَرى في المِرآةِ مزيدًا مِن الشَّعَرِ الأبيضِ يَغزُو رأسَها. بُولين تريفيليان، ابنةُ أُختِها كَبرَتْ بسرعةٍ خارقةٍ، ظهرَ نهداها، قطعَتْ تسعةَ عشرَ عامًا بِلَمْحِ البَصرِ، نَضارةٌ تُذكِّرُها بأيَّامِها الخَوالِي، كانتْ تُرافقُها إلى المُتحفِ البريطانِي، وتشرحُ ما فيهِ مِنْ كُنوزٍ آشُوريَّةٍ خالدةٍ، وبُولين تنظرُ إليها بإعجابٍ وانبهارٍ كأميرةٍ قادمةٍ مِنَ الشَّرقِ، بقامَتِها الطّويلَةِ، وشَعرِها الأشْيَبِ، ونظراتِها الشَّاردةِ، وفُستانِها الأسودِ، وتَتَحَّدُث عن العائِلَةِ والماضِي والرَّسائِلِ والفنِّ والعُمرانِ ورحلاتِها إلى بلادِ الرافديْن. خالتُها تَرتدِي مِعطفًا مِن فَروِ الثّعلبِ، بأكمامٍ طويلةٍ، مُتناسِقَةٍ مع لونِ شَعرِها لِكي لا تظهرَ نحيلةَ القَوامِ رغمَ حرارةِ لندن. يا لَلْعجبْ!

لم يكُنْ أمامَ مِسْ بيل سوى التَّوغُّلِ أكثرَ فأكثرَ في ذاتِها مثلَ مُقاتلةٍ أضاعَتْ سِلاحَها الأخيرَ، وهي تزورُ لندن، لكنَّ سِحرَ الصَّحراءِ يَجذبُها بقُوَّةٍ وهي تَسيرُ على أرضٍ سارَ عليْها أنبياءٌ خذلَتْهُم شُعوبُهم، فَلاذُوا بالرِّمالِ، وقَطعُوا الفَيافِي مِنْ أجلِ مُعتقداتِهم. لا يجدُ المُقاتِلُ في المِرآةِ سوى ذاتِه العظيمةِ، يُقبّلُ الأرضَ التي يَسيرُ عليْها، ولا يُفكّرُ بالتَّخلّي عن سلاحِهِ. ولَطالَما فكَّرتُ بأنَّ المُؤمِنَ يَجبُ أن يَتوقَّفَ عن صَلاتِه يومًا، ويتساءلَ ما هي الطَّاقةُ التي حصلَ عليها مِنَ الصَّلاةِ؟ إذا لم تأخذْهُ إلى التأمُّلِ فهي صلاةٌ عابثةٌ، وكم مليوناً يعيشون في هذه الصَّلاةِ العابثةِ ويَستمرئون كسلَ التفكيرِ والجُمودِ.

أدارَتْ ظهرَها إلى نارِ المَوقدِ المُلتهبَةِ، سيجارةٌ تركيَّةٌ، بمِشرَبٍ طويلٍ، نفثتْ دُخانَها بعيدًا إلى وادِي النُّجومِ، كما لو أنَّها تَسيرُ على خُطى بُوصلتِها في طريقِ اللّيلِ الأزرقِ، باحثَةً عن كُنوزِ الكوْنِ المَهجورَةِ. لا بدَّ مِنَ العودةِ إلى بغدادَ رغمَ إلحاحِ الأصدقاءِ بالبَقاءِ في لندن، هذه المدينةُ التي بدأتْ تَخافُ الخَيالَ. لم يُصدمْ بمثلِ إجابتِها: لا أعتقدُ أنَّكم ترَونني في البَرلمانِ الذي تَدورُون فيهِ. كانتْ ضربةً لِعُقولِهم. وعادتْ أدراجَها إلى بغدادَ، حاملةً قدرَها بِعزيمةٍ وابتهاجٍ، ولِسانُ حالِها يقولُ: مَمكلتِي تسكنُ أعماقِي، لا تقتلعُ جذورَها العواصفُ ولا الرِّياحُ. إنَّني أعودُ إلى اللّاشيء، لا مِلفَّاتٍ ساخنةً تنتظرُني ولا استقبالاتٍ رسميَّةً ولا اجتماعاتٍ عاجلةً، ولا لقاءَ أعيانٍ أو رُؤساءِ العشائِرِ والقبائِلِ، سأعيشُ لنَفْسي هذه المرّة، الم يَحُنْ الوقتُ لذلك؟ الزَّمنُ هنا ينخُرُ كلَّ شيءٍ إلّا الكِبريَاء، وارتقاءُ الجبلِ غيرُ مُتاحٍ للجَميعِ، مثلُ الطعمِ الذي يتذوَّقُه الرَّاهبُ في أكلِ الأشواكِ، لا يشعرُ به أصحابُ الموائِدِ العامِرةِ. إذًا ما اسيقظَ المَلاكُ في الأعماقِ، وحثَّني على السَّيرِ لقطعِ الصَّحراءِ، أحملُ حبّاتِ الرَّملِ في راحةِ يدِي مثلَ عاشقٍ ولْهانَ، لا يَرى مِن الأرضِ سوى بُذورِها، هل أشرقَتْ شمسُ بغدادَ مع هزيمةِ إمبراطوريَّتِنا؟ أنهتْ الإمبراطوريَّةُ مَهامَّها، وباتَتْ حروبُها عبثيَّة، هي تَتصابَى وأنا أَشيخُ، هي تتألَّقُ وأنا أنهارُ، هي تبتهِجُ وأنا أحزنُ، أهي اللَّعنةُ الإلَهيَّةُ، يا تُرى؟ لا أحدَ يسألُ عني سوى خادمتي ماري.

نعم يا خاتون، نسيتِ عِطرَكِ.

ما نفعُ العِطرِ إذا كان العفَنُ في كلِّ مكان؟

لا أتزيَّنُ بالعطرِ إلّا في دعوةِ الملكِ.

أنتِ على صَواب. هل أُحضِّرُ لكِ ثوبَ السَّهرةِ، يا خاتون؟

كنتُ كالبَشرِ الّذين لا يَبحثُون عن مَعنى حَياتِهم إلّا في اللّحظاتِ الأخيرةِ، كنتُ أنتظرُ. إنَّهم صِغاري، يا ماري، هؤلاء البَشرُ تَعلَّقُوا بِي، أضُمُّهُم إلى مُتحَفِي كالتَّماثيلِ، وهم يَسألُون برَهبَةٍ: كيفَ تهاوَتْ مَنْ كانَ لها أكبرُ قُوَّةٍ في إغراءِ المُلوكِ والكِبارِ؟ هؤلاء يَفهمُونَني لو حرَّكتُ رأسِي، أو غَمزْتُ بِعينِي أو أَشرْتُ بإصبَعِي، يَدخلُون إلى مَملكَتِي بدونِ تَصاريحَ، بعد أن صَقلُوا رُوحِي بآلاتِهم المُوسيقيَّةِ وألحانِهم، وضَبطُوا خُطواتِي مع دقَّات قُلوبِهم، فكيفَ لي أن أَخونَهُم؟ صَديقي الحاجّ ناجي قالَ: إنَّهم يَعشقُونَكِ مِن صُعلُوكِهِم إلى مَلكِهِم.

إنَّهُم يُقاسِمونَكِ حُبَّ الوطنِ.

أجلْ يا ماري، هلْ لكِ أن تَضعِي لنا أُسطُوانةَ صَديقةْ الملَّايَة.

أَتقصُدينَ: ياصيَّادْ السَّمج صِدْلِي بْنَيَّهْ/ واريدْنَهْ نْقيَّهْ وميَّهْ بِالْمِيَّهْ/ وْماريدِنْ سِمَجْ مِنْ نَهرْ دِجْلَهْ تْجيبْ/ نَهرْ دِجْلَهْ انْتَرَسْ شُبَّانْ شِيعِيَّهْ/ وكُلّْ جِثَّهْ بْنَيَّهْ وْشَابْ ياصيّادْ/ إذا مُومِلْكْ صالِحْ يَعنِي حُوريَّهْ/ وياصَيَّاد انْصَحَكْ أنْتَهْ والْوَياكْ/ نَصِيحَهْ بكُلْ اذانْ تِحُطّهْ تِرْجيَّهْ/ لازِمْ بالْبَلِمْ ما بِمْشي كلْ صَيَّادْ/ لانْ بِسْحَكْ الرُّوسْ بْرِجِلْ مِرْديَّهْ/.

أجلْ رغمَ أنَّني لا أفهمُ جميعَ كلماتِها لكنَّني أطرَبُ لها.

النساءُ العِراقيَّاتُ يَحتَفِين بكِ.

كيفَ يتجرَّأْنَ على امْتطاءِ ظُهورِ الخُيُولِ والجِمالِ ولا يَتجرَّأْنَ على المَشي بالكعبِ العالِي؟

الكعبُ العالِي لحذائِكِ هو سِرُّ جمالِكِ.

قَهْقهْنا معًا ثم اسْترخَيْتُ في تِلكَ الظَّهيرَة.

الإمبراطوريَّةُ على ايقاعِ امرأَة

بدأتْ صَباحاتُ بغدادَ تفقدُ ألقَها في عينَيْ الخاتون، وتندثرُ الرَّغباتُ في الجَسدِ المُتهالِكِ. ولم يعُدْ أحدٌ يفهَمُها، كلٌّ ذاهبٌ إلى عالَمِهِ، مِنْ دُون أن يسألَ عمّا أصبحَتْ عليه. هكذا فكَّرتْ ماري كأنَّها تُتَرجمُ نَظراتِ سيِّدتِها الخاويةَ إلى كلماتٍ وأحاسيسَ، وتبعثُ الحياةَ فيها. لا أحدَ يُريدُ أن يُصدِّقَ الخاتِمَةَ، أدواتُ قَتلٍ لا مرئيَّة، تَستخدمُها الإمبراطوريَّة، لا يَهمُّها سوى ألّا تَغيبَ عنْها الشمسُ. لم يعُدْ أيُّ شيءٍ يُغري الخاتون: الفِراءُ، والمَلابسُ، والأزياءُ، والكعبُ العالِي، والماكياجُ، والعُطورُ الباريسيَّةُ والسَّهراتُ والزِّياراتُ كأنَّها تُودِّعُ الدُّنيا وتدخُلُ مَعبدًا، قلايةُ راهبٍ، قفصُ طائرٍ، جِحرٌ سرِّي. لَطالَما ارتعشَتْ مِنَ التاريخِ، وها هو يَعبثُ بمَصيرِها كما عَبثَ بمَصائِرِ الآخَرين. كلُّ شيءٍ مُؤقَّتٌ وكلُّ شيءٍ زائِلٌ. هكذا بَدا لها الأمرُ. هنري دوبس أَحكَمَ سيطرَتَهُ على الأُمورِ، لا يُريدُ أيَّ وُجودٍ لِقبضَةِ المَرْأَةِ الحَديديَّةِ النَّاعمَةِ. لِلإمبراطوريَّة حدْسُها ولِلخاتونِ ومضتُها، ما بين الحَدْسِ والومْضَةِ وادٍ سحيقٌ، لا يُمكنُ عُبورُهُ بسهُولةٍ. وكِلاهُما على طَرَفَيْ نقيضٍ الآن، كلٌّ واحدٍ مِنْهما ذاهبٌ في طريقِهِ، مَصيرُ

الخاتونِ يَهربُ مِنْ بينِ أصابِعِها. كم سيدةً مُبجلَّةً تَحومُ مِثلَ كَوكبٍ مُضيءٍ في فلكِ الإمبراطوريَّة؟ لا يُوجدُ سوى امرأةٍ واحدةً. تَرى غريمَتَها تَجري سريعًا أمامَها، ساعيةً للِّحاقِ بها دونَ جدوَى. وفي ذلك الأفُقِ، كان الجَسدُ مِثلَ ماكينةٍ تُولِّدُ صريرًا، وآلَةٍ تفتقرُ إلى الزّيتِ للدَّوران. لم يعدْ أحدٌ يُصغِي إليْها، ولا إلى صَخبِها الدَّاخلِي سوى ماري، المُكبلَّةِ بذِكرياتِ نَكبةِ الأرْمنِ، وجُروحِها الطَّويلَةِ التي لا تَندملُ، وهي تَرى الخاتون تَنصهرُ بمَصيرِ البلادِ مِثلما انصهرَتْ أجسادُ الأرْمنِ بمَصيرِ القَرَابين. يَسألُ عُشّاقُ الخاتون عن مَصيرِها، ويَبحثُون عن علاماتِ القُوَّةِ والجَبَروتِ في وجهِهَا المُتغضِّنِ، الشّاحبِ في خِضَمِّ الأحداثِ التي تَدكُّ قِلاعَ الإمبراطوريَّة.

أليسَ حَماقةً أن نَربطَ جَسدَ امرأةٍ بمصيرِ إمبراطوريَّة؟ رُبَّما تلكَ خُرافةٌ تُضافُ إلى الخُرافاتِ الرَّاسِخةِ في الرُّؤوسِ. فقدْ تَعالجَتْ مِنْ مَرضِ المَلاريَا بعدَ أن انتصرَتْ عليْه، وقاومَتْهُ ومِنْ ثَمَّ طردَتْهُ، فاغتسلَتْ رُوحُها بآلِهَةِ البلدِ وأساطيرِه في عِلاجِ الأمراضِ المُستعصِيَة. استيقظَتْ ذلكَ الصَّباح، وقد زالَ عن جَسدِها وهَنُ المَرضِ، ومع أوَّلِ شعاعٍ للفَجرِ استيقظَتْ، مُشتهيَةً أستكانةَ شاي مِنْ يدِ ماري الحبيبَة، تتأمَّلُ جَريانَ نَهرِ دِجلَة وذكرياتِها في لقاءِ المُلوكِ والقادةِ والكِبارِ في مُؤتمراتِ فيرساي والقاهرة ولندن. بينما كانتْ الحقيقةُ تُعلنُ عن وُصولِ مُغامرتِها إلى نَفقٍ مِنَ الغُبارِ وليسَ مِنَ الضّبابِ. يتَّسعُ الفراغُ مِنْ حولِهَا، وتَكبرُ الهاويَةُ. دَقَّ ناقوسُ الخَطرِ، تَركَتْ الأبوابَ نصفَ مَفتوحَةٍ، وهي تُراقبُ حديقتَها الخلفيَّةَ بأشجارِ الخَريفِ وهي تتساقطُ، ومِياهُ دِجلَةَ تَتقلَّصُ بعدَ أن رأتْ فَيضانَهُ الكبيرَ. يا لَهُ مِنْ مَنظرٍ مُروِّعٍ! مَنظرُ الفَيضانِ أفضلُ مِنْ انحسارِ مياهِهِ الهادرة. تبادلَتْ النّظراتِ مع الفراغِ، مع اللَّاشيء، مع العَدَمِ، مع الكَسلِ والخُمولِ والاسترخَاء. تقرأُ مَخطوطاتٍ كتبَتْها تحتَ الأشجارِ فيما تُحضِّرُ لَها ماري أستكانةَ شايٍ عِراقِيٍّ قاتِمٍ. أهو سِحرُ الشّرقِ الذي طالَما كان علاجًا وبَلسمًا لخَيالِها المُتعبِ؟ جَذوةٌ تَنفذُ إلى باطنِ العقلِ، وتتركُ الجَسدَ هالكًا مثلَ حَجرٍ أسودَ مُلتهِبٍ. كما لو أنَّها دفنَتْ أنوثتَها بيدِها في حُفرةٍ مُظلمةٍ، وبقيَتْ روحُها تَنتظرُ. لا تنفعُها سِلسلةُ النُّعوتِ التي ألصقَهَا بها الآخرُون: المرأةُ الأُعجوبَةُ، المرأةُ الحديديَّةُ، المِسْ بيل، قاهرةُ العُثمانيّين، صانِعةُ المُلوكِ، لا شيءَ مِنْ ذلك ينفعُ الآن. نظرَتْ إلى أدوارِها التي أتقنَتْها بمَهارةٍ واحترافِ نظرةَ حنينٍ، لكنَّ سِحرَها ظلَّ عالقًا في النُّفوسِ، مُستشارُ الملكِ قالَ بثقَةٍ: لو قُدِّرَ لها أن تأتِي في عصرٍ آخرَ لَملأتْ صُورُها مُلصقاتِ الشَّوارعِ والسَّاحاتِ والمَيادِين.

هل كانتْ تبحثُ عن الخُلودِ الزَّائفِ أمْ عن التَّجلِّي الإلَهي؟

هكذا اكتشفَتْ ماري بذكائِها البَرِيء أنَّ عاداتِ سيِّدتِها قد تَغيّرْت. لم تعُدْ ترغبُ بالخُروجِ من البيتِ، بلْ تَدورُ بين أركانِه مثلَ الطَّاحُونةِ، لا مِلفَّاتٍ ولا أضابيرَ ولا مَهمَّاتٍ رسميَّةً أو غيرَ رسميَّة، ولا زِياراتٍ ولا عَشاءاتٍ. وفوقَ ذلكَ كلِّه، لا حَماسَ لأيَّةِ قضيَّةٍ، ثلاثةُ آلافِ تُحفةٍ جمعَتْها مِنْ تَنقيباتِ أُوُر أطلقَتْ فيها وَمضَةً باهتضةً، وهي تُطلقُ نظراتِها في كلِّ الاتِّجاهَاتِ، يُخيّلُ إليها أنَّ اللُّصوصَ يُداهِمُون منزلَهَا، لذا كانتْ تَحرسُها مثلَ كلْبَةٍ تَحمِي جراءَها مِنَ اللُّصوصِ.

ردَّدَتْ ماري مع نفسِها: هل مِنَ المَعقُولِ أن يَهجُرَ الجميعُ الخاتون؟ أينَ كبارُ الضُبَّاطِ ورُؤساءُ العشائِرِ والأعيانِ والوُجَهاءِ الّذين كانُوا يَقفُون أمامَ مَنزلِنا في طوابيرَ لتَحيَّتِها والتَّشاوُرِ معها؟

اللَّعنةُ على الزَّمنِ الذي لا يَرحمُ، مَلكةُ العِراقِ غيرُ المَتوَّجةِ تَنتهِي بينَ هذه الجُدرانِ العاريَةِ. كلُّ شيءٍ تَبخّرَ مِنْ حولِها وكأن لا أحدَ يَعرفُها، باستثناءِ قلَّةٍ يَحملُون لها مشاعرَ الأسى والمُواسَاة.

ماري تردِّدُ: لم تَعدْ تُخبرُني أن أُوقظَها عندَ الفَجرِ كما كانتْ تَفعلُ، ولسانُ حالِها يَقولُ: إنَّني أنجزْتُ كلَّ المَهمّاتِ المَطلُوبةِ مِنّي، يا ماري.

وبعدَ أن صمتَتْ بُرهةً، قالتْ وهي تُشبِك يديْها وتَزُمُّ شفتيْها:

لم يعدْ هناك شيءٌ أفعلُه.

لا تَقولِي ذلك، يا خاتون، أنتِ السيِّدةُ المُبجّلةُ.... دائمًا.

لا يا ماري، إنَّني قَصبةٌ مَكسُورةٌ لا أصلُحُ لشيءٍ حتى لنَفخِ الرِّيحِ، فكيفَ أعزفُ الألحَان؟

إنَّها فقدتْ حتى لذَّةَ كتابَةِ الرَّسائِلِ واليَوميَّاتِ، وفاتَها كثيرٌ مِن الأحداثِ دُون تَدوينٍ، لم يعدْ هذا السِّجلُّ يَهمُّها، تَكوَّرتْ في زاويَةِ غُرفتِها، لا تفعلُ شيئًا، وتركَتْ خزائِنَ أثوابِها الحريريَّةِ، وعلاماتِها الفاخَرة دونَ لمسِها.

ماري، يُمكنُكِ أن تُعطي هذه الأثوابَ لأحدٍ يَحتاجُها.

إنَّها جديدةٌ، يا خاتون.

لكنَّني لستُ بحاجَةٍ إليها.

لا توجدُ امرأةٌ تَرتدي ثيابَكِ.

أثوابِي ليستْ مُقدَّسة، يا ماري؟

كانَ كبارُ الضبَّاطِ والقادةِ يَترقَّبون حَركاتِها كالخلايا النائِمةِ أو كالدِّيدانِ المَكرُوهَةِ، لكنَّها تَتَحدَّاهُم: مَنْ خلقَنِي يضعُ نِهايتِي.

أصرَّتْ على الوُقوفِ على قَدمَيْها بكلِّ صَلابةٍ في مُواجَهةِ الضّربةِ القاضيَةِ، لكنَّها تَساءلَتْ في قَرارةِ نفسِها: هل عَزلُوها مِنْ مُفاوَضاتِ النَّفطِ بصَرفِها إلى الآثارِ القديمةِ وزيارةِ البُيوتِ البغداديَّةِ، وإقامَةِ الولائِمِ وحَفلاتِ الشاي في بلاطِ المَلكِ؟هذه المرأةُ التي سَحرتْ الجميعَ، ماذا كانتْ تنتظُر، أن يَمُدَّها المَندوبُ السَّامي بجناحَيْنِ جديديْنِ لتطيرَ في سماءِ بغدادَ مِنْ جَديد؟ وتساءلَ الجميعُ: كيفَ يُمكنُ للإمبراطوريَّةِ أن تَتخلَّى عن المرأةِ الحديديَّةِ؟

وعندما ذهبتْ لكي تَجمعَ أوراقَها وملفَّاتِها مِن مَكتبِها، لم تعثُرْ على شيءٍ، حتى أبسطَها لأنَّها لم تعُد مُلكَها بل أصبحَتْ مُلكَ الإمبراطوريَّة. انتهى كلُّ شيء. خرجَتْ تَمشِي في شوارعِ بغدادَ بِلا تَوقُّفٍ، كما لو أنّها تائِهةٌ في غاباتٍ مُظلمةٍ، وهي تبحثُ في ذاكرتِها عن ذلك الضَّوءِ الذي رأتْهُ

ذاتَ يومٍ. لم تَتغيَّرِ الشوارعُ بلْ هي التي تغيّرَتْ. وراحَتْ تَسرحُ بفكرِها إلى بِداياتِ عملِها في هذه المِهنةِ الشَّاقَّةِ، وهي تَتمتَّعُ بمَذاقِ الأشياءِ، الأوسمةُ النَّياشينُ والشّاراتُ لم تعدْ تنفعُ في شيء، زخارفُ مُزيَّفةٌ لا تصمدُ أمامَ مَجرى التاريخِ الذي لا يرحمُ حتى عُشَّاقَه. زُهورُ الحديقةِ تذبُلُ، وهي لم تعُدْ تسألُ البُستانِيَّ عن مَصيرِها، حزينةٌ هي الخاتون، تبخَّرَ الجميعُ مِن حولِها، ولم يبقَ لها سوى أطيافِ حفلاتِ البلاطِ المَلكيّ العامرةِ، وأشباحِ المَدعوُّين إليْها مِن كبارِ الضُبَّاطِ والسَّاسَةِ.

خيّمَ الصمتُ على بيتِها، ولم يعدْ يُعكِّرُهُ سوى عُواءِ كِلابٍ ضالَّةٍ أو صراعِ قِطَطٍ مَكبُوتةٍ، خُواءٌ في خُواء، هُنا أو هُناك، في بغدادَ أو لندن. يَتراءى القدرُ في نظرِها مِثلَ طيْفٍ أو شبَحٍ. الشَّقراءُ الغريبَةُ، ذاتُ العُيونِ الزُّرقِ، والقُبَّعةِ الواسعَةِ والحِذاءِ ذي الكعبِ العَالي. تتَساءلُ ماري: ما الذي اقترفَتْهُ هذه المسكينَةُ لِكي تُلاقِي هذا المَصيرَ؟ لا أحدَ قادرٌ على الإجابَةِ.

لقد ذهبَ طعمُ الشاي العِراقي، يا ماري.

أفهمُكِ يا خاتون.

أين وضعْتِ مِنضدةَ البِلياردو القديمةَ التي تَبرَّعَ بها المَلكُ جورج الخامسُ إلى العراق؟

ما تزالُ في المَخزن.

أُوصِي بوَضعِها في المُتحفِ.

بأمرِكِ يا خاتون.

الشتاءُ الأخيرُ في بَغداد

لم تعدْ أشعَّةُ الشَّمسِ تُلوِّحُ وجهَهَا كما كانتْ أيَّامَ زمانٍ، تَضاءلَ نورُها في عينيْها، فقدَتْ رُؤيةَ ذلك الهَيَجانِ المُلتهِبِ. ومع قُدومِ البردِ ورَذاذِ المَطرِ وزيادةِ الأوحالِ، اقتربَ مَوعدُ أعيادِ الميلادِ التي يَحتفلُ بها الإنجليزُ المُقيمُون والمَسيحيُّون. لم تَعبأْ بذلك كما كانتْ في الأعوامِ الخَوالي. انزوَتْ في عُزلتِها تُفكِّرُ: الاحتفالُ مَيّزَ هذا البلدَ منذُ الأزلِ بالأساطيرِ وطُقوسِ احتفالاتِه، لماذا يَهجرُهُ أبناءُه، فيَمرُّ العامُ تلوَ العامِ مرورًا بائسًا وحزينًا، هذا البلدُ هو الذي اخترعَ مَعنى الاحتفالِ. يا للأسفِ! حاولَتْ أن تَخرجَ مِن عُزلتِها، ارتدَتْ أجملَ أثوابِها وقصَدَتْ القَشْلة حيثُ حضرَ المَندوبُ السَّامي والقادةُ والضُبَّاطُ والسِّياسِيّون وشيوخُ العَشائرِ والقَبائلِ والأعيانُ والأفنديَّةُ. كانتْ فرصَةً رائعةً لتُحَيِّي الجميعَ، وربَّما لتُوَدِّعَهم، مَنْ يَدري؟ في تلكَ اللّحظةِ، أدركتْ أنَّها لم تعُدْ تُمسكُ بخُيوطِ اللُّعبةِ مِنْ وراءِ الكَواليسِ، هربَ شيءٌ مِنْ بين أصابعِهَا وتَوارَى عن الوُجودِ، لا ضوءَ أخضرَ للمِلفَّاتِ ولا حديثَ في الكَواليسِ. لكنَّ الفُرصةَ الذَّهبيةَ حانتْ لمُفاتحَةِ المَلكِ بمَوضوعِ سَنِّ قانونِ الآثارِ لكَي لا تذهبُ كُنوزُ بلادِ الرافديْن إلى يدِ اللُّصوصِ والسُرَّاقِ المُتربِّصين وراءَ الحُدودِ. اقتربَ مِنْها الملكُ يقولُ، وبيدِهِ أستكانةُ الشاي: نحن نَسعى لجَمعِ المَسيحيّين بكلِّ طوائِفِهم في احتفالٍ واحدٍ: عيدُ الميلادِ. نظرتْ إلى عينَيْه. ثمَّةَ ما يُخفِيهِ الملكُ وراءَ هذا الكلامِ. اعتادَ أن يقولَ لها كلماتٍ خاصَّةً. هزَّتْ رأسَها. ثم قالَ

وهمسَ في أذنِها بارتباكٍ وحيرَةٍ: كيفَ يُمكنُ لي أن أحكُمَ بلدًا يَعُجُّ باليَعاقبَةِ والنَّساطِرةِ والكَلدانِ والسِّريانِ الكاثُوليكِ والرُّومِ الأرثدوكسِ والبروتستانتيّين واليَهودِ والصَّابِئَةِ واليَزيديَّةِ والبارسِيّين والهندوسِ والبَهائِيّين...

ضحكتْ الخاتون: أفهمُكَ يا صاحبَ الجَلالَة.. العِراقُ ثَريدةُ العالَم.

ضحكَ الملكُ. وأضافتْ: العِراقيّون، يا جَلالَةَ الملكِ، صعابُ المِراسِ، أناسٌ مُتطلِّبُون، لا يَرتَضُون بالقليلِ، ولا يَكتفُون بالكثيرِ، يَثورُون، لكنَّهم يَخضعُون بسُرعةٍ، عجينةٌ مَرنَةٌ تَصوغُها اتِّجاهاتُ الرِّيحِ وجِماحُ العواطفِ كما تَشاءُ، أرضُهُ شهدَتْ بُزوغَ أنواعِ الآلِهةِ، صغيرَها وكبيرَها، أصيلَها ومُزيَّفَها، لا يتردَّدُ أحدُهم أن يَعبُدَها في النهارِ ويلعنَهَا في اللّيل. ثَمَّةَ لغزٌ في نفسِ كلِّ عراقي، والفردُ مِنْهم يُمكنُ أن يخسرَ كلَّ مُلكيَّتِه في لُعبةِ نردٍ عابرةٍ، ويَحلمَ بالاستيلاءِ على عرشِ المَملكةِ في لحظةِ سُكْرٍ، تأخذُه الحَماسةُ أن يَهدي كلَّ ثروتِه إلى شحّاذٍ ويعيشُ فقيرًا مُتسكِّعًا في شوارعِ بَغدادَ وأَزِقَّتِها.

ضحكَ الملكُ مِنْ أعماقِهِ، وهَزَّ رأسَهُ مُوافقًا على رأيِها:

ما يُؤرِّقُني يا صاحبَ الجَلالَة، هو ضَمانُ اسْتمراريَّةِ المَلَكيَّةِ في أرضِ الرافدَيْن.

ابتسمَ الملكُ: لا شيءَ يَستمِرُّ إلى الأبدِ يا خاتون.

أنتَ على حَقّ.

كيفَ لي أن أحكُمَ شعبًا يُؤمنُ بتَعدُّدِ الآلِهة؟

هذه حضارةُ بلادِ الرافدَيْن، يا جَلالةَ المَلكِ، إذا لم نَفهمْ آلِهتَهُم لا يُمكنُ أن نفهَمَ ذواتَهُم.

نعم.

وما بين الآلِهةِ وذواتِهِم بَوْنٌ شاسعٌ، زُهدُهُم يجعلُهُم يُصِرّون على العيشِ ما بينَ الماءِ والصَّحراءِ.

ثم أطلقَ الاثنانِ ضِحكاتٍ عاليَةٍ وسطَ دهْشَةِ الحاضِرين الّذين لم يَفهمُوا ما دارَ بينَهُما مِنْ كلامٍ.

عندَ خُروجِها مِنَ القصْرِ، تَملَّكَها الخوفُ، واسْتنْفرَتْ الزُّهورُ في حديقةِ الملكِ حاسَّةَ شَمِّها، وراحتْ تُفكِّرُ بنَوعيَّةِ الزُّهورِ التي تبعثُ ذلكَ العِطرَ، لكنَّها غابتْ عن بالِها، وأخذتْ تُرَدِّدُ مع نفْسِها: يُؤلمُني أن يَدورَ الذكيُّ والغبيُّ، الطيّبُ والخبيثُ، النبيلُ والخَسيسُ، الوطنِيُّ والمُتآمرُ، الجريءُ والجبانُ.... في مَمرَّاتِ دارِ القَشْلَةِ... ثم قالتْ كَمَنْ تُخاطبُ الملكَ: هؤلاءِ لم يَخبرُوا مَسالكَ الصَّحراءِ ولم يَروا لَمعانَ النُّجومِ ولم يَنتبهُوا إلى ضوءِ القمرِ.... الذي راحَ يُناجيني وأُناجيهِ.

ألغازُ الصَّحراءِ

تَصفُر الرِّياحُ مِنْ وراءِ ظَهري في الصَّحراءِ، هدفٌ بعيدُ المَنالِ: ذاتِي التي انصَهرتْ في الإمبراطوريَّةِ تُناديني الآن وتُريدُ أن أنفصلَ عنْها. عليّ أن أُجابِهَ الرِّياحَ العاتيَةَ والعواصِفَ الهَوجاءَ، ورِجالَ القبائِلِ المُتنكِّرين بأقنعَةِ المُكرِ والمُراوغةِ والطِّيبةِ أيضًا. اعتادُوا على الكَرِّ والفَرِّ. يا إلهي! إنَّهم مُملِّون لدَرجةٍ يتخبَّطون معها تائِهين في البَحثِ عن رُبّانٍ يقودُهُم في أرضِ الإغواءِ والخَطيئةِ. عبيدٌ في قبضةِ الرّبِّ. ذلك هو الفزعُ الكبيرُ، المُوسيقى التي تُنظِّمُ حياةَ البشرِ. وبدُونِ تلك الموسيقى يُصبحُ العالَمُ صاخبًا وفوضويًا. أستمعُ لأنغامِها وأحافظُ على ايقاعاتِها في التوازُنِ بينِي وبين الأرضِ التي أذرعُها. أيُّ خرابٍ أراهُ؟ العِراقيّون يُقدِّسونَني في الظَّاهرِ، ويَلعنونَني في الباطِنِ. لا أدري؟ وأفدحُ ما يؤلمُني أنَّهم مُعلَّقون إلى ماضٍ يشبهُ البئرَ المَهجورةَ، التي نسجتْ عليها العناكبُ بيوتَها. المَوتى أصرُّوا على الصُّعودِ إلى الآلِهةِ، بعدَ حياةِ الجَدْبِ التي عاشُوها دُون آمالٍ كبيرةٍ. ولَطالَما تعلَّقوا بالثِّمارِ الفاسدةِ وتركوا الثمارَ الصّالحَةَ كأنَّهم مثلُ أسيادِهم القُدامَى كَسالَى في الوادي الخَصيبِ.

يا إلَهي! هل يَنبغِي أن أقودَ خطواتِكُم في هذه المَتاهةِ وهم يَرفضُون بوصلَتِي؟

يُطلقون عليَّ تلكَ الأُنثى التي تدُبُّ على الأرضِ. جئتُ إلى هنا لكَي أحملَهُم بين أضلُعي، وأجلبَ لهم النّورَ، حرقتْ قدمَيَّ رمالُ الصَّحراءِ، يُفزعُنِي الحُبُّ بين كائناتٍ تختبئُ في صَمتِ الآلَهةِ، وفي سَعيِهم إلى الارتقاءِ إلى آلِهتِهم، لا يُجدون أنفسَهُم إلّا في مَعارِكِهم التَّافهَةِ. أصابَنِي التَّعبُ ولم يعُدْ جَمَلي يُطيعُني ولا يُريدُ مُشاركَتِي مُغامراتِي، رغمَ أنَّه الكائنُ الأقربُ إلى رُوحِي، ودليلِي في الصَّحراءِ، أتلَمَّسُ رقبتَه المليئَةَ بالزُّغبِ، فيَغرقُ في صَمتٍ ونشوةٍ، ولَطالَما حَذَّرَني مِنَ الغرقِ في بُحيراتِ الملحِ، وأنا أسيرُ وراءَ رَكبِ الإمبراطوريَّةِ ومَخاطرِها، وأحرصُ على الكشفِ عن المُتربِّصين بمَملكَتِي. رُبَّما الصَّحراءُ وحدَها قادرةٌ على الإجابةِ على سُؤالِي. إنَّني بحاجةٍ إلى المُهندسِين والمِعمَاريّين والمُصَمِّمين أكثرَ مِنَ الجِنرالاتِ والضبَّاطِ، لأنَّهم نسجُوا مَملكَتي مِنْ خُيوطِ الأرقامِ، وابتدعُوها مِنَ الصِّفرِ. أرقامٌ اكتشفُوها في سَراديبِ الأقبيَة، ارتبطتْ بالموتِ والرَّقصِ. هذا الذي نتعلّمُه مِنْ جُنوحِ الإمبراطوريَّةِ؟ تُؤرِّقُني الأسئلةُ، الإمبراطوريَّةُ لا تُعيرُ اهتمامًا بضَحاياها التي تفرشُ ظلالَها على أرضِ الرافدَيْن منذُ قرونٍ. احذَروا مِنْ غضبِ آلِهتكُم لأنَّها سَتكونُ عنيفةً، وحشٌ قفزَ مِنْ قفصِهِ الزُّجاجي بعدَ أن أخذَ قِسطًا مِنَ الرَّاحةِ. يتعايشُ المُؤرِّخون والعسكرُ في ظلِّ الإمبراطوريَّةِ، ومُستشرِقون يَزيِّنون واجهاتِ الجُيوشِ بأفكارِهم، مُتوهِّمين تخليدَ تاريخِها الذي سيكتبُه المُنهزِمون ذاتَ يومٍ. ماذا كان يفعلُ سانْت جون فيلبي، وهيربرت يونغ، ودي آل لوريمار، وايه. تي. ويلسون هنا؟ لم يُصدِّقوا دعمَ السِّير بيرسي كوكس لي وبعثَ روحِ الحَماسةِ في قلبِي، ولسانُ حالِه يقولُ: مِسْ بيل تعادلُ عندِي كتيبةً عسكريةً. أغاظَ ذلك بعضَ العَسكريّين الّذين كانُوا يَجهلُون أنَّني أنزلقُ إلى هُوَّةِ التَّعاسةِ والشَّقاءِ، وصوتٌ يردِّدُ في داخلي: لا داعي لِلقلقِ.. هؤلاء يبتسمُون في وجهِكِ ويُضمِرون تكشيرةً بين أسنانِهم. كان عليَّ أن أُخفِي ضَعفِي وكُهولَتِي وشُحوبَ وَجهي واصْفرارَهُ: احذَري مِنْهُم قدرَ المُستطاعِ لأنَّهم

يَنسِجُون المُؤامراتِ ضِدَّكِ في الكَواليسِ: يا فتاةُ، يا خاتون، يا مِسْ بيل، يا مَحبوبَةَ البَدُو، يتساءلُ الآخَرون: مِنْ أين تَأتي الخاتون بهذه القُوَّةِ والسِّحرِ؟ وضَعُوني في مَصافِّ التَّاجِ البريطاني، بينما كانتْ الإمبراطوريَّةُ تَتهاوَى، حكمةٌ استَهوتْنِي كثيرًا، وردَّدْتُ مع نفْسي: لا بدَّ مِنْ تعلُّمِ دروسِ المَهزُومين وليسَ دروسَ المُنتصرِين.

قصرُ الملكِ يغرقُ

يا إلَهي! لم أرَ غضبَ نهرِ دِجلة بهذا الشَّكلِ أبدًا، طالَما خشيتُ عنفَ الأنهارِ. فيضانُ عامِ ألفٍ وثمانمائةٍ وواحدٍ وثلاثين نشرَ الطّاعُونَ الأسودَ في بغداد، واستمرَّتْ آثارُه اثنيْ عشرَ عامًا. قرأتُ ذلك في أحدِ الكتُبِ المَوجودةِ في رُفوفِ مَكتبةِ السَّلامِ. يا إلَهي! لم تتوقَّفِ الأمطارُ طوالَ اليومِ، وفاضَ نهرا دِجلةَ والفراتَ غاضبَيْن، انكسرتْ السُّدودُ، وغمرتْ المياهُ البيوتَ والمَبانِي ومَعاملَ الطَّابوقِ والبَساتينِ المُحيطةَ بها، فتعطَّلتْ الطُّرقُ وانقطعتْ السُّبلُ حتى أنَّني تخوَّفتُ مِنْ شُرفةِ منزلي. هل هي لعنةُ بغداد؟ هل هي غضبُ الآلهةِ وراءَ الجِبالِ والوُديانِ والسُّهولِ في سَعيِها لتوحيدِ العراقيّينَ في مَعبدٍ واحِد، ليتَجنَّبُوا العقابَ الجماعِيَّ الأبديَّ بيْن تماثيلِهم المُكسَّرةِ وبقايا سَفينةِ نُوحٍ مِنْ حبالٍ وألواحٍ وَمَساميرَ ومَجاذيفَ ودفَّاتٍ ومَخطوطاتٍ حجريَّةٍ، ونساءٍ يلطُمْنَ صدُورهُنَّ، ورجالٍ يَجلدُون ظهورَهُم بالسَّلاسِلِ والسُّيوفِ. البنَّاؤون والمِعماريُّون والصَّاغةُ تائِهون مع النُّجومِ في ليالِي بغدادَ الكئيبةِ. أواصلُ تصفُّحَ الكتبِ وأعثُرُ على عَكسِ ما أفكِّرُ به: هذا هو حاكمُ بغدادَ، حُسين ناظم باشا، قامَ ببناءِ سُدَةٍ ترابيَّة باسْمِه، مُخلّدًا أضخمَ إنجازٍ هندسِيٍّ، بلا آلاتٍ ولا مُعدَّاتٍ، بمَهارةِ البَغداديّين. الملكُ يتفقدُ رعيَّتَهُ. وصدَى الأمواجِ يتسلَّلُ إلى أعماقِي. لا بدَّ لي مِن الاحتفاظِ بمَظهرِي الهادئِ والرَّصين.

برافُو مِسْ بيل. ، يقولُ المَندوبُ السَّامي: أنتِ مثالُ الفارسَةِ الإنجليزيَّةِ الشُّجاعةِ. صرخَ البعضُ: البلاطُ المَلَكيُّ يَغرَقْ!

سارعَ البنَّاؤون والمِعماريُّون والصَّاغةُ والحَرسُ لإنقاذِ المَمْلكةِ، وعكفَ المُؤرِّخُون على تَدوينِ الوقائعِ في سجلّاتِهم، يَكتبُون الانتصاراتِ، ويلعَنُون المَهزُومين. هكذا هُم المُؤرِّخون منذُ أن فتحُوا عُيونَهم على فَحصِ الرُّقُمِ وزَخارفِ الجُدرانِ وألواحِ الصّلصالِ. الحُكومةُ اضطُرّتْ إلى نقلِ العائلَةِ المَلَكيَّةِ الى دارِ التّاجرِ اليَهودي مَناحِيم دانيل، مالِكِ سوقِ الأقمشةِ الشَّهيرِ، بعدَ أن غرقَ الأثاثُ، ونَفَقَتْ المَواشي والأبقارُ المَلَكيَّةُ، وفاضَ الماءُ بقصرِ شاؤول شَعشوع الذي استأجرَهُ الملكُ، واندفعتْ قطعاتُ الجيشِ والشّرطةِ والكشّافةِ لدرْءِ الخطرِ عن قلبِ العاصمةِ، وأُعلِنتْ حالةُ الطَّوارئِ، وأُلغيَتْ مَراسمُ المُعايدةِ في عيدِ الفِطرِ، ولجأ الناسُ إلى استخدامِ القوارِبِ بدلاً مِنَ العرَباتِ. بينما يتساءلَ المُحيطُون بالملكِ مِنَ الحاشيَةِ: لماذا وقعَ الفيضانُ؟ وبعدَ البحثِ والاستِقراءِ تبيّنَ أنَّ مُديرَ المَزرعةِ المَلَكيَّةِ توفيق المفتي، السُّوري الجِنسيَّة، وشقيقُ زوجةِ رئيسِ الوُزراءِ علي جودت كانا وراءَ الفيضَان. أرادَ بكلِّ بساطةٍ أن يَسقِي الأقطانَ المَلَكيَّةَ، ففتحَ بوَّابةَ النهرِ في الجانبِ الأيسرِ مِنْ دِجلَة، بجوارِ البلاطِ المَلَكِي، فتدفقتْ المياهُ وغرقتْ بغدادُ. إنَّها ليستْ مُؤامرةً مِنَ الآلِهة!

تتكوَّرُ على نفسِها في شِتاءاتِ بغدادَ القارصَةِ، وتلتحفُ ببطَّانيَّةٍ صوفيَّةٍ، تُغطِّي ساقَيْها المُتجمِّدتَيْن. يا إلهي! ما أقسَى هذا البردَ الجافّ الذي يخترقُ العظامَ كوخزاتِ الألمِ. ثم تُلقي بنظراتِها إلى نهرِ دِجلةَ قبلَ أن تغفوَ على المُقتَنياتِ والكُنوزِ والتُّحفِ التي عثرتْ عليْها في قصرِ الأُخيْضِر

وجبالِ حَمرِين وسُهولِ أوُرْ. كلَّمتْ نفسَها وكأنَّها تعيشُ مع قرينِها الذي تتكلَّمُ عنه بضميرِ الغائِبِ:

استيقظتُ ليلاً لأطمئِنَّ على وُجودِ كُنوزِي المُقدَّسةِ التي لا يعبأُ بِها سوى اللُّصوصِ الألْمانِ والفرنسيّين الذين حَطُّوا في المنطقةِ مثلَ خفافيشِ اللّيلِ، بحثًا عن تجارةٍ رابحةٍ، لكنَّهم تَراجعُوا أمامَ إصرارِي على تحدِّيهِم، جَشِعُون إلى درجةِ أنَّ الواحدَ مِنْهم لو عثرَ على الكتبِ المُقَّدسةِ، لوضَعَها على قائمةِ مَبيعاتِه في عواصمِ العالَمِ، دُون أن يهتمُّوا بها كمُستودعاتِ الحِكمةِ في أرواحِ الشُّعوبِ، بل كبُورصةٍ رابحةٍ. عندَما يغطُّ حُرَّاسُ الكُنوزِ في نومٍ عميقٍ، تُصبحُ مُلكيَّةُ المدينةِ في أيديهم. لم أطلبْ منكُم سوى أن تكونُوا مُخلصين لأنفسِكُم. يقولُ الحارسُ: أنا لا أعرفُ حدودَ مَمْلكتِكِ، يا خاتون.

هل ما تزالُ لي مَمْلكةٌ، أتَمزَحُون مَعي؟

ذهبَ حرَّاسُ المدينةِ إلى النَّومِ بعدَ أن انحسرَ الفَيضانُ، لكنَّني بقيتُ النَّهارَ كلَّه بين الاسترخاءِ في الفراشِ والتنزُّهِ في حديقتِي.

ما هي الأخبارُ؟

لا جديدَ يا خاتون.. سوى الشّائعاتِ.

أعرفُ ما يقولُه عنِّي الحَمقَى: امرأةٌ جوفاءُ، كالرَّجلِ لا صدْرَ لِي، ولا أُنوثَةَ، ولا جاذبيَّة، أليسَ كذلك؟

إنَّهم لا يَعرفُون المرأةَ يا خاتون.

الأحمقُ سايكِس يَكرهُ النساءَ النَّحيفاتِ، ويقولُ عنِّي: إنَّها لا تدوِّرُ عجيزتَها أثناءَ المَشي لأنَّها تعشقُ القراءةَ والكتابةَ.

أهالِي بغدادَ يعشقُونَكِ، يا خاتون.

إنَّهُم يحترمُونَني ولكنَّهم لا يُحبُّونَني.

مَمْلكتان وروحٌ واحدةٌ

لَطالَما أرادَ الملكُ أن يَراني في مُنتجعِه الرِّيفي في خانْقين، ورغمَ وَعْكتِي الصِّحيَّةِ لبَّيتُ رغبتَهُ، لكنْ قبلَ ذلكَ دَعانِي لقَضاءِ ليْلةٍ في مَسرحِ بغداد، وأثناءَ خُروجِنا طوَّقَ خَصرِي، ضاحكًا: أمضَيْنا ليلةٍ جميلةٍ وكأنَّنا في لندن. ثُمَّ بدأتُ بتَحضيراتِ السَّفرِ لأنَّني أعلمُ جيدًا أنَّه بحاجةٍ لي. وفي اليومِ التَّالي، استقلَّيتُ القطارَ يومَ الجُمعة ليلاً لكَي أصلَ إلى الرِّيفِ صباحَ السَّبتِ لمُشاركتِهِ في الصَّيدِ. كان الجوُّ ساخنًا في الظَّهيرةِ، ولا يوجدُ أمامِي سوى القيلولَةِ. انسحبتُ إلى إحدى الخِيامِ، إذ لم يكُنْ بناءُ المُنتجَعِ الذي حدَّثَني عنْه الملكُ قد انتهى بعدُ، فسارعتُ إلى تَغييرِ ثيابِي بطريقةٍ محُتشمَةٍ، واسْترخيْتُ على السَّريرِ، وقلَّبتُ صَفحاتِ روايةِ "بيندنيس" لِوليَمْ ميكبيس ثاكري، وتذكَّرْتُ سنواتِ النُّورِ والأدَبِ في لندن. وبعدَ قَضاءِ القَيلُولةِ، تناوَلْتُ أستكانةَ شاي مع الملكِ، وبدأْنا بالجَري على الحِصان، نقطعُ كيلومتراتٍ مِنَ الأرضِ الصَّحراويَّةِ العاريةِ وتظهرُ أمامَنا التلالُ الفارسيَّةُ كالغُيومِ المُعلَّقةِ، فاستغرقتُ في ذاكرةِ ذلكَ المكانِ الحَميمِي البعيدِ الذي لا يُمكنُ أن أنسَاه. كنتُ أُصغِي لأحاديثِه وأحلامِه، وهو يُبدي لي العرفانَ بالجميلِ لإسهامِي بتَشييدِ أركانِ مَمْلكتِه، الفردوسُ الذي طالَما حَلمْنا بالعثورِ عليهِ معًا، مَمْلكتُه مَمْلكتِي، كلانا في قاربٍ واحدٍ وسط أمواجٍ صاخبةٍ لكنَّها غيرُ مَرئيَّةٍ. فهذا البلدُ الذي حملَ على ظَهرِ سفينةِ نُوحٍ مِنْ كلِّ زوجَيْن اثنيْن ليُنقذَ البشريَّةَ هو ذاتُه لم يتغيَّرْ، وكأنَّه يُعيدُ التاريخَ مِرارًا دُون كلَلٍ أو ملَلٍ. والفردوسُ الضائعُ فيه كنَّا نبحثُ عنْه نحن الاثنيْن في رِمالِ الصَّحراء.

في اللّيلِ، دعانِي الملكُ لتناوُلِ العشاءِ معَهُ، فارتديْتُ ثيابِي الأنيقةَ كالعادةِ كما في حفلاتِ العشاءِ سواءٌ كانتْ في البلاطِ أم في العَراءِ الخالِي كما هو الحالُ في هذا الرِّيفِ. بينَما كنَّا جالسَيْن تحتَ النُّجومِ، كانتْ نظراتُهُ تُعبِّرُ عن كآبةٍ حزينةٍ. أردتُ أن أسألَهُ لكنَّني تردَّدْتُ إلى أن قالَ لي:

هل تَعلمِين أنَّني غيرُ راضٍ؟

عن ماذا يا جَلالَةَ المَلكِ؟

عن بَغدادَ...

نعم...

لأنَّها لا يُمكنُ أن تُعوِّضَ دمشقَ كعاصمةٍ ازدهرتْ في الصَّحراء.

أتمنَّى أن تُعوِّضَ بغدادُ عن دِمشقَ، يا صاحبَ الجَلالَة.

كنتُ أعلمُ جيدًا أنَّه لم يأتِ إلى هُنا إلّا هربًا مِنْ رُوتين البلاطِ في بغداد، وهو يُردّدُ على

مَسمَعي: كم سأكُون وحيدًا بدُونكِ، يا خاتون.

إنَّني سعيدةٌ بمُرافقتِكُم الكريمَةِ يا صاحبَ الجَلالَة.

كنتُ أُشاركُهُ أحاسيسَهُ لأنَّني سجينةٌ مثلُه أيضًا كأنَّ مَصيرَيْنا نُسِجا في قماشٍ واحدٍ، وإنْ اختلَفْنا، فكانَ هو القائدُ وأنا الرُبَّانُ، وما بين الاثنَيْن خيطٌ رفيعٌ لا يَراهُ الجميعُ، فهو الرَّجلُ الوحيدُ الذي يُمكنُني أن أبقى بجوارِهِ صامتةً، دُون أن يُشيرَ إليَّ بالكَلامِ وهذه نعمةٌ ربَّانيةٌ، لأنَّ غالبيَّةَ الذين أجلسُ بجوارِهِم يُحتِّمُون عليَّ الكلامَ حتى لو لم أكُنْ راغبةً فيه، بينما كانَ الملكُ وأنا نُعيشُ في مَملكَتَيْن مُنفصِلتَيْن، إحداهُما على الأرضِ وأُخرَى في السَّماءِ. فكمْ كُنتُ أحلُمُ بِتأسِيسِ هذه المَمْلكةِ بمُوافقَةِ البَغداديّين جَميعَهُم، هل هم مِنْ طينةٍ واحدةٍ يا تُرى؟

صقَلَ المَطْهرُ الرِّيفيُّ بهوائِه النَّقي رُوحَيْنا بعيدًا عن صَخبِ البلاطِ ومُؤامرَاتِه الخَفيَّةِ، ظهرَ لي هُنا على حقيقتِهِ بعيدًا عن البلاطِ، فهو لا يَتأثَّرُ برَأيِ الجُمهورِ، ولا بالأقَاويلِ والدَّسائسِ والشَّائِعاتِ. بدَا لي حزينًا، ووَجْنَتاهُ ضامِرتان، وبريقُ ذكاءٍ يتدفَّقُ مِنْ عينَيْه كنُورِ الشَّمعةِ. يا إلَهي! كم يَتغيَّرُ الإنسانُ بين مكانٍ وآخرَ؟ ثَمَّةَ سحرٌ خَفيٌّ تَحمِلُه الأمكنةُ هُنا ولا يُوجدُ أتْعسَ مِن العوْدةِ إلى البلاطِ وكآبتِهِ. هكذا كنتُ أهمسُ مع نفْسي فيما يبتهجُ الملكُ مثلَ طفلٍ عندَما تُمازحُهُ، وتظهرُ عليه علاماتُ الصَّانعِ الماهرِ دُون غُرورٍ، ولا تُزعْزعُهُ المَدائحُ والإشاداتُ، فهو شُجاعٌ لا يأبَهُ لِما يحملُهُ لهُ القدرُ، وكبرياؤُهُ عاليةٌ لدرجةٍ لا تُصدَّقُ، كلُّ ذلك ينعكسُ في نُفوسِ مَنْ يَلتقِيهم، وتدفعُهُم إلى تَبجيلِهِ أكثرَ. نحن هُنا أحرارٌ، ولكنَّ البلاطَ نفسَه يفرضُ علينا تصرُّفاتٍ أُخرى تحتَ أنظارِ الحاشيَةِ والحرسِ والأعْوانِ. كمْ أنا حزينةٌ لسَماعِ بعضِ الشَّائعاتِ. لا أحدَ يريدُ أن يفهمَ علاقتَنا، والبعضُ يتصوَّرُ أنَّني مَحظيَّتُهُ أو شيءٌ مِنْ هذا القَبيلِ. لا يُمكنُ أن أُصحِّحَ آراءَ الجميعِ وأشرحَ لهُم. أرَى فيه صورةَ المَلكِ المُنقذِ لكلِّ ما يُحيطُ بهذا البلدِ مِنْ مُؤامراتٍ في الكواليسِ المُظلمةِ، بريقُ الأملِ في عينَيْهِ. كانَ أكثرَ مِنْ صديقٍ، أثناءَ تناوُلِنا الشَّاي، يُفضي إليَّ بكلِّ ما يدورُ في خلَدِهِ، وهو يأسرُني في أبَّهتِهِ، مُرتديًا لباسَهُ النَّاصعَ البَياضِ مع كُوفيَّةٍ كتَّانٍ بديعةٍ تُغطِّي رأسَهُ، تَجذبُ وسامَتُهُ وطلَّتُه أيَّةَ امرأةٍ تُصادفُه، رغمَ صُعوبةِ نفسيَّتِه العصيَّةِ على الوصْفِ، لكنَّه نوعٌ مِنَ البشرِ، صارمٌ ونزيهٌ، فارسٌ يَعتلِي صَهوةَ جوادِه ويقطعُ الصَّحراءَ ويَختفِي مع الغُيومِ. ثُمَّ يعودُ إليَّ، ويسألُني: هل تُحبِّين الصَّحراءَ يا خاتون؟

وهل تَشكُّ في ذلك، يا صحابَ الجَلالَة؟

الصَّحراءُ تُعلِّمُنا صبرَ الجَمَلْ.

رأيتُ طريقَ الصَّحراءِ، يا جَلالَة الملكِ، في الثَّانيةِ والثَّلاثين مليئًا بالسُيَّاحِ الأمريكيّين والأورُوبيِّين، ترافقُهم قوافلُ الجِمالِ والحَميرِ والخدمِ والمُرشدين والبدُو، يتعشَّقُون بالرِّمالِ بَرُومانسيَّةٍ لا نظيرَ لها. العربُ هم صحراؤُهم.

أنتِ على حقّ يا خاتون، الصَّحراءُ عالمٌ لا يَنتهي.

ثُمَّ سادتْ بينَنا فترةُ صمتٍ، فقالَ لي الملكُ:

هكذا إذًا ترينَ الصَّحراءَ؟

أجلْ، يا صاحبَ الجَلالَة، سفرٌ إلى ذاتِي ورُوحي. قمتُ بقيادةِ قافلَتي بمُفردي، دُون بوصلةٍ، ولكنْ بِعَونٍ مِن الخَدمِ والمُساعدين والمُرافقين وأنا أقرأُ في بَريقِ عيُونهم ذلك السُّؤالَ المُحيِّرَ: لحِسابِ مَنْ تعملُ هذه المَخلوقةُ؟ كنتُ أجيبُهم دُون أن أتكلَّمَ: إنَّني أعملُ لحِسابِ نَفسي، لم أفكِّرْ بأنْ أعملَ لحِسابِ أحدٍ. كنتُ أُعَوِّلُ على الزَّمنِ في فَكِّ هذا الالتِباسِ. وكنتُ أقولُ في نَفسي: إنَّ رِمالَ الصَّحراءِ كفيلةٌ بتَنظيفِ أدرانِ نفُوسِهم. شتَّانَ ما بين القراءةِ عن الصَّحراءِ والعيشِ على رمالِها، ولطالَما تساءلْتُ: هل يُمكنُ أنْ تُولدَ الحريَّةُ بدُون الصَّحراءِ؟ لا يُجيبُ على سُؤالِي سوى شفاهِ البدُو الظَّامئَةِ، والمُتشقِّقَة مِن الحَرِّ، وبيوتِ الشَّعْرِ والخِيامِ السوداءِ. لا معرفةَ بدُون الصَّحراءِ، ولا صَحراءَ بدُون مَعرفَة. ولَطالَما زوَّدتْنا بمَعرفةِ المُتناهي في الصِّغرِ والمُتناهي في الكِبر، لا سُلطانَ على الصَّحراءِ سوى الرِّمالِ، لا حواجزَ، ولا حدودَ، ولا نقاطَ تَفتيش.

قالَ لي الملكُ:

هذه فلسفةٌ عميقةٌ، يا خاتون.

ماذا يا صاحبَ الجَلالَة، هل تقرأُ أفكاري؟

هزّ الملكُ رأسَه، مُتنهّدًا.

قلتُ له: الصَّحراءُ سجَّادةٌ مَنقوشةٌ بأرواحِ النسَّاجين، هي الضفَّةُ الأُخرى مِنْ ذاتِي. لا أنسى ذلك البدَويَّ الذي قدَّمَ لي أستكانةَ شاي مُحلَّى بالعَسل، ثم أرادَ أنْ يُصلِّي، فتوضَّأَ بحَبَّاتِ الرِّمالِ، آنذاكَ فهمتُ لماذا كان الأنبياءُ طاهرين؟

أجلْ جميعُ الأنبياءِ وُلدوا في الصَّحراءِ، هل هي المُصادفة؟

جعلتْني نِقاشاتي مع الملكِ أنفردُ في خَيمتي، وأقولُ في نفْسي: يا عابرَ الصَّحراءِ، لا تَلتفتْ إلى الوراءِ، فليسَ أمامَكَ سوى الأفُقِ الذي يعيدُ كتابةَ الأرقامِ ويُحيلُها إلى الصِّفرِ، كالبدُو الَّذين لا يَملُّون مِنْ تَزيينِ أَعنَّةِ الجِمالِ بشرَّاباتٍ سوداءَ وبُرتقاليَّة، وإذا ما أطلقتْ تنهيدةً سارعُوا إلى مُوازَنةِ سُروجِها، وفحصِ بُطونِها، وفَكِّ حُمولاتِها، وتَغطيَتِها بالبطَّانيَّاتِ الدَّافئَةِ، وانْتقاءِ الأقذارِ مِنْ طَعامِها بقماشَةٍ تحتَها، وبين تَناغُمِ سِنامِ الجَملِ وحَركةِ جسدِ راكبِه، تَمَّحي قيودُ الزَّمنِ في صَلواتِ الفجرِ، مع خُيوطِه الأُولى التي تُلوِّنُ الكونَ بالألَقِ والقُدسيَّةِ. ثُمَّ تُفكِّكُ أشِعَّةُ الشَّمسِ ألوانَها الأوَّليَّةِ إلى أحمرَ، أصفرَ، أزرقَ، أبيضَ، فُسيفِساءٌ لا تتَصالَحُ. تَتزاحمُ خِيامُ الشَّعرِ السُّودُ كأنَّ البشرَ هَجروا المُدنَ وجاؤوا إلى هُنا بحثًا عن شيءٍ أضاعُوه، فأضرَموا النارَ في الحطبِ لكي تظهرَ رائحتُه العبِقةُ، وتتراقصَ مع طقطقةِ اشْتعالِه، وتُلقي بلَونِها اللَّيلَكيِّ على الخيمةِ. في ذلك سديمٌ، ضبابٌ، غُموضٌ، لغزٌ، رموزٌ، علاماتٌ، صورٌ، روائحُ. بدويَّاتٌ يصنَعنَ أقراصَ الخُبزِ السَّاخنةَ، يحملُها البدُو على راحاتِ أيديهم إلى الغَريبِ الجَائعِ العَابرِ في صَحرائِهم! أمضيتُ أيامًا صاخبةً في تُخومِ الصَّحراءِ أكثرَ مِمَّا أمضيتُها في البازاراتِ، مُتلفِّعةً بالكُوفيَّةِ البيضاءِ فوقَ قُبَّعتي، ذلك البرقُعُ الذي طالَما وقانِي مِنَ العواصفِ الرَّمليةِ

ومَنعَ اقتِلاعي مِنْ هذه الأرضِ، وكأنَّني أسيرُ في أرضٍ ما كانَ عليَّ السيرُ فيها، أرضُ الأنبياءِ والأولياءِ تحوَّلتْ بفعلِ الكلماتِ مِنْ أرضٍ مُجدِبةٍ إلى أرضٍ مُثمرةٍ، خيامٌ تُنصبُ، وخيولٌ تُربطُ، ومَصابيحُ تُعلَّقُ في السَّماءِ، ولا تبخلُ علينا، نحن التَّائهين والعابرين، بالعَطايا والهَدايا. وحين تخفُتُ أدعيةُ الصَّلواتِ، تتحوَّلُ إلى ما يشبهُ الهمسَ في تَمجيدِ الخالقِ بين المُعتقداتِ والأساطيرِ، بين الأحرارِ والعَبيدِ. وهنا لا يحتاجُ المَوتى إلى توابيتَ، ولا أكفانَ ولا مَراسمَ ولا طُقوس، بلْ إلى قَليلٍ مِنَ البَخورِ، وكَومةٍ مِنَ الرِّمالِ، تُحيلُها العواصفُ والرِّياحُ إلى أشكالٍ لا نهائيَّةَ مِن القُبورِ، هنا المكانُ الوحيدُ الذي لا تتعفَّنُ فيه الجُثثُ، لا حبلَ سِرِّي يربطُ الكائنَ بالصَّحراءِ إلّا تلكَ الأضرحَةُ والمَقابرُ والمَزاراتُ الرَّمليةُ. مَجانينُ الصَّحراءِ يجوبُون الفَيافِي بحثًا عن الكُنوزِ الذَّهبيةِ التي أضاعَها التُّجارُ والمُرشِدين، لا اتِّجاهاتٍ ولا دليلَ إلّا قُلوبُهم وأفئدتُهم، بوصلتُهم في راحةِ أيديهم، لا دليلَ لهُم سوى الشَّمسِ والقمرِ. يهتدُون إلى قائدِ أورْكِسترا في تناغمٍ وانسجامٍ. تمُرُّ بنا النُّسورُ والصُّقورُ، منْها الخَسيسُ والنَّبيلُ، آكلةُ الجِيَفِ وآكلةُ الطَّرائدِ الطَّازَجةِ. فيما حُراسُ الواحاتِ يُراقبُون أعاجيبَ الصَّحراءِ، مَلكوتٌ لا ينضَبُ مِنَ الوَميضِ والرَّقصِ والقدحِ، ولا أحدَ يخترقُ قانونَ الصَّحراءِ أو يُفسدُ مَملكةَ الرِّمالِ، ولا يَتقاتلُ عشَّاقُ الصَّحراءِ على المُؤنِ بلْ على الفضائلِ والماءِ. العراةُ وحدَهم ينجُون في فناءِ الصَّحراء.

حَزيمَة... هَزيمَة

شجَّعَني الملكُ أن أُقوّي علاقَتي بالمَلكةِ حَزيمة، زوجةِ الملك، بتشجيعٍ منْه، حتى أصبحتُ وصيفةَ شرفٍ لها، وبذلك فُتحتْ لي أبوابُ البلاطِ المَلكي واسعةَ، وفي غَمرةِ الغيرةِ التي أراها على شكلِ غيمةٍ قدْ تنفجرُ بالأمطارِ في أيَّةِ لحظةٍ، كنتُ أتصالحُ مع عالَمِها. هي تعلمُ حقًا أنَّني لم أكُنْ مَحظيَّتَه، ولا يُمكنُ أن أكونَ، لأنَّنا نرتبطُ بعقدٍ نبيلٍ اسمُه الصَّداقةُ وخدمةُ الإمبراطوريَّةِ، واحدُنا ينظرُ في مرآةِ الآخَرِ، مَحكومَيْن بالعُزلةِ في البلاطِ أو في مُنتجعٍ أو في صحراءَ أو في قافلةٍ، ولكنْ ليسَ كرجلٍ وامرأةٍ بل كإنسانَيْن يتكلَّمان عن المُستقبلِ. مأساةُ البَشرِ تأتي مِنْ جهلِ أرواحِهم، وما فيها مِنْ قوَّةٍ وضَعفٍ، وجُرأة وجُبنٍ، وصلابةٍ وتَردُّدٍ، وأملٍ واحباطٍ. كنَّا نُفضي ما في أعماقِنا، كلٌّ منّا إلى الآخرِ، ونُناجي دِجلة وأمواجَه الهادئةَ، كما لو كُنَّا نَسعَى لكتابةِ قصيدةٍ، نُطعِّمُ كلماتِها بالحلمِ والطُّمأنينةِ والتذوُّقِ. ولا يريدُ أيٌّ منَّا أن يُضيعَ تلكَ العزلةَ كما لو أنَّها مَحارةُ لُؤلُؤٍ في عرضِ البحرِ: مِنْ أين يأتي القلقُ، مِن الآخَرِ أمْ مِن ذواتِنا؟

وصلتْ الملكةُ والأسرةُ بكاملِها عدا الأميرِ عليّ في تلك الأثناءِ. اتَّصلتُ في اليومِ الثَّاني مراعاةً للواجبِ فسألتُ عنْهم، لكنَّ الملكَ كما يبدُو لي، كان مُكتئبًا بقُدومِهم، ولأنَّه كان في الخارجِ وسيبقَى هُناك أسبوعًا آخرَ، دقتْ ساعةُ النَّحسِ على الأبوابِ. الملكةُ التي أصبحتُ وصيفتَها، تلبسُ رداءً طويلاً، بُنيَّ اللّونِ، خاطتْه لها الرَّاهباتُ، دُون أيِّ توجيهٍ منِّي. لكنَّ ذلك لم يمنعْ مِنْ تبادلِ النّكاتِ الساخرةِ بيننا، لأنَّني أنطقُ اسمَها هَزيمة بدلَ حَزيمة، وهي تُلحُّ على تَصحيحِ نُطقي: إنَّني أكرهُ الهَزيمةَ، يا خاتون! ولكي تُمازحَني تُطلقُ عليَّ: البنتُ الإفرنجيَّةُ. وكنتُ أجيبُها: إنَّني بَغداديَّةٌ يا صاحبَةَ الجَلالَة.

كان الجوُّ يبدُو أحيانًا مَشحونًا بينها وبين الملكِ إذْ كان قد تزوَّجَ أيَّامَ زمانٍ مِنْ فلَّاحةٍ فُراتيَّةٍ بسيطةٍ، أيْ أنَّها لا زالتْ تُعيِّرُه بزيجتِه تلك بطريقةٍ مُواربةٍ لكنَّها لا تنْطلي على ذكاءِ الملكِ ودَهائِه. ولكي يتخلَّصَ مِن ذلك، كان يفتحُ بابَ بيتِه لتخرُجَ زوجتُه إلى العالَمِ الخارجِي، فطلبَ مِن جارِه ياسين الهاشِمي أن تقومَ زوجتُه بزيارةِ المَلكةِ وتتفقَّدَها وتعرِّفَها على خَيَّاطةِ الألبسةِ النِّسائيَّةِ التي تحتاجُها حياتُها الجديدة، مع الأميراتِ في بَغداد. وهكذا أخذتْ الملكةُ تستقبلُ بعضَ سيِّداتِ المجتمعِ العِراقي، ونساءِ المَشايخِ وزوجاتِ كبارِ ضُبَّاطِ الجَيشِ العِراقي والبريطانِي. وبدأ يتردَّدُ على البلاطِ الحاجُّ سليم، والدُ الرسَّامِ والنَّحاتِ جَواد سليم الذي أصبحَ فيما بعدُ مُدرِّسَ الرَّسمِ الخاصَّ للأمير غازي وللأميراتَ، قام بتعريفِهنَّ على قَريبٍ يُدعى مَحمود، الخيَّاطُ المشهورُ يومذاك في محلَّةِ الفَضل، اشتهرتْ زوجتُه وبناتُه مَديحة وصَبيحة بصُنعةِ الخِياطةِ الرَّاقية، وسرعانَ ما أصبحْنَ الخيَّاطاتِ المُفضّلاتِ لدى المَلكةِ حَزيمة.

لم تكَنْ الملكةُ حَزيمة سَهلةَ الطِّباعِ، بل عصبيّةُ المزاجِ، قويَّةُ الإرادةِ، مُتديِّنةٌ، لا تُبالي بما

يُعانيه الملكُ مِنْ أزماتٍ ومَتاعبَ تُنغِّصُ حياتَه اليوميَّةَ في البلاطِ، والآن أدركتُ لماذا كان الملكُ يُصرُّ على أن أرافقَه إلى مُنتجعِه في خانْقين.

9

----

30 أبريل 2016

زيارةُ قبرِ الخاتون

هكذا خطرَ على بالِ يُونسَ ونُعمانَ وهاشمَ أن يَزورُوا قبرَ الخاتون، أَهي نزوةٌ أم ضرورةٌ أم الحنينُ إلى الزَّمنِ الآخرِ، زمن الخاتون؟ وسرعانَ ما وَجدُوا أنفسَهم مُندمجين مع هذه الرغبةِ، وتذكَّرُوا رحيلَ صديقِهم حارسِ المقبرةِ مَنصور. حملُوا إكليلاً مِن الزُّهورِ ووَضعُوه على قبرِه وقبرِ زوجتِه التي فارقتْه بعدَ مُرورِ ثلاثةِ أسابيعَ على رحيلِه. كان الغُبارُ يتطايرُ مِن قبرِ الخاتون الذي طالَما كان مَنصورٌ يعتني به وينظّفُه كلَّ يوم. لا تزالُ صورتُها تُهَيمنُ على أذهانِهم، بحذائِها ذي الكعبِ العالي، وقُبَّعتِها الواسعةِ، وهي تشحذُ خيالَ البَغداديّين وتثيرُ فضولَهم، حتى بعدَ مُرورِ مئةِ عامٍ على دُخولِها مدينتهم بَغداد.

قالَ يونسُ:

ما الفرقُ بين الضَّريحِ والصَّرحِ والقبرِ والأدمِ والمنهلِ.

قهقهَ نُعمان: كم غنيَّةٌ لغتُنا التي تراجعتْ الآن؟

مَدَّ نعمانُ وهاشمُ ويونسُ أيديَهُم إلى سطحِ القبرِ ومَسحُوا الغبارَ عنه، وشعروا بأنَّهم تلمَّسُوا روحَها، الروحُ هي غبارٌ بشكلٍ مِن الأشكالْ. وهنا تكمُن عظمةُ الموتِ والتَّلاشي والانتهاءِ والخواءِ والعزلةِ والبياضِ. كلمتانِ مَنحوتَتان على قبرِها: خاتون بَغداد. عادُوا إلى الزَّمنِ الذي عاشتْه، وأصرَّ نعمان على إخراجِ سيناريو يونسَ بينما حلمَ هاشمُ بعَرضِه في افتتاحِ صالةِ سينما غرناطة مِن جَديد، وتمنَّى لو يعودُ إلى مِهنتِه الأولى: مُشغِّلُ آلةِ العرضِ السِّينمائيَّةِ العَظيمةِ أيامَ زمان، ولكنْ الآن لا ضيرَ في أن يرثَ ابنُه مِهنتَه، فهو لا يزالُ عاطلاً عن العملِ بعدَ إنهاءِ الجامعةِ، ثُمَّ ابتسمَ قائلاً: رُبَّما تكونُ غرفةُ مُشغِّلِ آلةِ العرضِ السينمائيَّةِ المكانَ الأكثرَ أمنًا في العاصمة.

ضحكَ يونسُ:

لا يوجدُ مكانٌ آمنٌ في بَغداد.

وقالَ نُعمان:

حتى المقبرةُ غيرُ آمنةٍ.

في إحدى زوايا المقبرةِ لَمحُوا فتىً وفتاةً يَتبادَلان القُبلَ. ضَحكُوا معًا، وهم يَتبادلُون النَّظراتِ: ما دامَ هذان العاشِقان يَتبادلان القُبلَ إذًا نحن بخير. وأدارُوا وُجوهَهم عنهما لكي لا يَشعُرا بالحَرجِ، ثمَّ راحُوا يُدقِّقون النَّظرَ في قبرِ الخاتون لدرجةٍ أصبحُوا جزءًا مِن الماضي، وتماهُوا مع عُشبةٍ خضراءَ

نابتةٍ بين ثنايَا قبرِ الخاتون. صرخَ يونسُ مُتحمِّسًا: أليستْ تلكَ نبتةَ الخُلود؟

قهقهَ الثَّلاثةُ.

هههههه... نبتةُ الخُلود.... هذه حكايةٌ أُخرى لم يبقَ منها شيءٌ الآن. لا أحدَ يعرفُ مَنْ هو الذي قَطفَ نبتةَ الخُلود أو يسألُ عنه، جَلجامِشْ المِسكينُ، لو يعودُ إلى حكمِ مَملكةِ أوُر لضَحكَ مِنْ مُغامرتِه الجميعُ.

تأوَّهَ نُعمانُ قائلاً: ملَلْنا مِن استخدامِ عُشبةِ الخُلودِ في العُروضِ المَسرحيَّةِ.

أجابَه يونسُ: نحن بحاجةٍ إلى أيقونةٍ أُخرى للكتابةِ، أليسَ كذلك؟

ضحكَ هاشمُ: لا أحدَ يهتمُّ بقبرِ الخاتون غيرُنا، والإنجليزُ يَفتخرُون بها كمَدفنِ العُظماءِ في رُوما.

مَنْ يمنحُ القيمةَ للعُظماءِ، رُوما أم أرواحُهم؟ الخاتون ارتدتْ الأسطورة هنا، وبعثتْ روحَ التاريخِ، فيما ظلَّتْ المقبرةُ تحافظُ على قوانينِها، ولم تتأثَّرْ بقَصفِ الطّائراتِ الأمريكيَّةِ، حتى لو تحطَّمتْ أجزاءٌ من أسوارِها. ومنذُ ذلك الحينِ، بدأَتْ الفَوضى، العِراقيّون اخترقُوا قوانينَ المَقبرةِ بدَفنِ مَوتاهم فيها مِنْ دُون تَرخيصٍ مِنْ الكُومُنويلث، بعدَ أن امتلأتْ مَقابرُهم بل أصبحتْ لبَغدادَ أكبرُ مَقبرةٍ، ورغمَ كآبتِها تَغازَلَ العشاقُ فيها بعيدًا عن أعينِ شرطةِ الآدابِ، والطلبةُ يُراجعون دروسَهم فيها أثناءَ الامتحاناتِ، ويَحتمي بها اللُّصوصُ هربًا مِنْ رجالِ الشّرطة.

قالَ يُونس: نحن نحترمُ الإنجليز لأنَّهم لم يتخلُّوا عن مَوتاهُم على عَكسِ الأمريكان الَّذين حرصُوا على تَهريبِ مَوتاهُم بالطّائراتِ إلى ألمانيا والكويت.... ورمي جُثثِ مُرتزَقتِهم في نهرِ دِيالى.

هَزَّ نُعمان رأسَه: العِراقيُّون اكتشفُوا سِرَّ الأرقامِ في سَراديبِ مَقابرِهم.

ضحكَ هاشم: وعلَّمُوها للغَرب.

هنري دوبسْ قالَ: لو كان الأمرُ بيدِي لشُدتُ لها مَدفنَ العُظماء.

أجابَه المُوظفٌ المُكلَّفُ بإجراءاتِ الوفاةِ، الكولونيل فرانك ستفورد:

أرضُ الرافدَيْن هي مَدفنُ العُظماء، كلُّ مَنْ يُدفنُ فيها عظيمٌ!

ثم انتقلَ للإصغاءِ إلى رَئيسِ الكَنيسةِ الشَّرقيةِ الذي جاءَ مع رهطٍ مِن القَساوِسَة والرُّهبانِ مِنْ أجلِ أداءِ صَلاةِ الميتِ، مشحونًا بألحانِ المُواساةِ والتَّعزيةِ: أهملتْ مِسْ بيل جسدَها وعذَّبتْ رُوحَها.

ذكرياتٌ أضحكتْ الأصدقاءَ الثَّلاثةَ يُونس ونُعمان وهُاشم مِمَّن بقُوا على قيدِ الحياةِ، رجالُ الدِّين يَقولُون أنصافَ الحَقيقةِ، يتحدَّثون عنْها وكأنَّها لم تكُنْ سوى جثَّةٍ في حَياتِها، ولا يبحثُون إلّا عن

هَدفٍ واحدٍ: الطّهارةُ التي تنقصُهُم. والعِراقيُّون لا يُبجِّلون سوى آلهتِهم التي تمُدُّهم بالأوهامِ والخُرافاتِ. خرجَ بعضُ أهالِي بَغدادَ لتَشييعها، والسَّيْرِ في مَوكبِ جَنازتِها، بينما مَكثَ البعضُ الآخرُ في جُحورِهم بعيدًا عن حرارةِ ذلك اليومِ القائظِ، وكلاهما يُفضْفِضُ ما في دَواخلِه. واصلَ العَجائزُ الثلاثةُ طُقوسَهم بعدَ غلقِ الحانةِ، وتَساءَلوا: هل كانتْ الخاتون تتنبَّأُ بما سيقعُ لنا؟ الوحشُ الذي ظلَّ سجينًا في قفصِه، كشَّرَ عن أنيابِه وأعادَ عهدَ القَرابين.

كانَ أفنديّةُ بغدادَ يلعبُون النِّردَ والطاولةَ في المَقاهي، وهُم يَتفاخرُون بأناقةِ بذْلاتِهم المنسُوجَةِ مِنْ قماشِ الصُّوفِ، مارْكة أبو العلَمين الإنجليزي، ويَعتمِرُون الطَّرابيشَ العُثمانيةَ الحمراءَ التي اسْتبدلُوها بالسّداراتِ السَّوداءِ أو الفيْصليةِ نسبةً إلى المَلكِ فيْصل، وهم يَتساءَلون: كيفَ سقطتْ المرأةُ الحديديَّةُ؟ فيما فكَّرَ النحَّاتُون بصبِّ قناعٍ لوَجهِها قبلَ مُواراتِها التَّرابَ، لكنَّ الأوَانَ قد فاتَ، وتجمَّدَ البرونز في قَوالبِه الجَاهزةِ ولم تَظهرْ فيه أيَّةُ كُتلةٍ على شكلِ وَجهِ الخاتون، بل تُركَ ذلك الأمرُ لخَيالِ النحَّاتين الصَّامتين. امتلأتْ مقبرةُ الخاتون بقُبورٍ إسلاميَّةٍ، آشوريَّةٍ، يَزيديَّةٍ، شَبكيَّةٍ، أرمَنيَّةٍ، يَهوديَّةٍ، كَلْدانيَّةٍ، مَسيحيَّةٍ، عَربيَّةٍ، كُرديَّةٍ، تُركُمانيَّةٍ.... الموتُ هو الوحيدُ الذي لا يعرفُ طائفةَ الجُثة. وكان ذَووهم يَتبادلُون النَّظراتِ بريبةٍ وشكٍّ وتوجُّسٍ. مَنْ قتلَ مَنْ؟ مَنْ يَخشَى على ضياعِ هويَّةِ المَقبرة؟ لا يُوحِّدُ تلكَ الأرضَ سوى الحكمةِ الضَّائِعةِ، حتى فاتحُ بَغدادَ دُفن هُنا، ولا يزالُ العِراقيُّون يتذكَّرون خطبتَه العصْماءَ قبلَ أن يَلقى مصيرَه الأسودَ بالكُوليرا العِراقيَّة، ألا ترون يا جماعَة أنْ لا كبيرَ أمامَ الموتِ!

صرخَ يونس: يا حارسَ الأرواحِ..هل أنتَ كائنٌ أصَمٌّ؟

وقالَ نُعمان: أين تعيشُ الخاتونُ في الكُوميديا أم في التَّراجيديا؟

إنَّها تركتْ أمرَها للربِّ أنْ يفعلَ بها ما يشاءُ تحتَ قمرِ بَغداد. لم تخسرْ الخاتونُ أيَّةَ قضيةٍ خاضتْها سوى قضيّتِها، وهي تُردِّدُ: يا أصدقائِي في كلِّ مكانٍ، لا تنظُروا إلى القمرِ كثيرًا، فهو قد يُزيدُ مِنْ آلامِكم، ويجعلُكم تدُورون في حلقةٍ مُفرغةٍ. تهجعُ بغدادُ في السُّكونِ والانتظارِ، ها أنَذا أتركُكم لأصعدَ إلى سطحِ مَنزلِي لأرى القمرَ، بينما ردَّدَتْ ماري: الحمدُ للهِ نامتْ الخاتونُ في داخلِ الغُرفة، وإلّا كيفَ كنَّا نُنزلُ جثتَها مِنْ هذا العُلُوّ؟ ماتتْ الخاتونُ بأظافرَ مُقلَّمةٍ، وأسنانَ ناصعةٍ، وشعرٍ مُصفّفٍ، ورائحةٍ زكيةٍ، وابتسامةٍ غامضةٍ: الموتُ يحبُّ الجَمالَ. قالَ يونس: أذهلتْني دموعُ ماري التي عاشتْ في خدمةِ الخاتون حتى يومِها الأخيرِ، ولا يبدُو أنَّ رحيلَ سيدتِها أضعفَ مِنْ عزمِ هذه المرأةِ، بل جعلَها تقفُ على نَعشِها شامخةً، لا تَتزعزعُ وكأنَّها وقفةُ مُمثِّلٍ واثقٍ مِنْ نفسِه على خشبةِ المسرحِ، ولا تمتلكُ سوى كلماتِ الربِّ الذي لا تملُّ مِن ترديدِها ليلَ نهارَ بإيقاعٍ مُنتظمٍ. هكذا أصبحتْ ماري نصفَيْن، نصفٌ للخاتون ونصفٌ لذاتِها، وهي تبدأُ رحلتَها في البحثِ عنْ مأوى ورِزق.

تخيّلَ أهالِي لندن أنَّها دُفنتْ مع الحلِي والمُجوهراتِ والكُنوزِ البابليَّةِ، مع فستانِها وقُبَّعتِها وحذائِها ذي الكعبِ العالِي، ووجهُها ملفوفٌ بمُخملٍ أزرقَ. كان فجرُ رحيلِها مُتأرجحًا بين البَريقِ والانْطفاءِ، وصورةُ جَسدِها علامةٌ طُهرانيَّةٌ في آخرِ سُلّمِ الشَّهوةِ. وتساءلتُ: هل يمكنُ المَزجُ بين الجَسدِ والرُوحِ دُون خَطيئَة؟ أرادتْ أن تكونَ حارسةَ الجَسدِ والرُّوحِ في آنٍ واحدٍ، مُعادلةٌ يَضعفُ البشرُ

أمامَها في كلِّ الأوقاتِ. بين الأبِ المُحافظِ الصَّارمِ وشَبحِ العاشقِ المُتردِّدِ، عاشتْ حياتَها بكلِّ ألوانِ الضِّياءِ المُتأرجِحةِ بين الرَّمادِي والأُرجُواني والبُرتُقالي والأحمرِ والأزرقِ المَمْزوجِ كصِراعِ الآلهةِ في فَكِّ عُزلتِها وكآبتِها وانزوائِها، فلم يكنْ أمامَها مِنْ مفَرٍّ سوى كتابةِ الرسائِلِ إلى زوجةِ أبيها فَلورنس لتُعوِّضَ تلكَ الأُخرى عن عزلتِها في ذلك البيتِ الفِكتوري الكبيرِ. ذهبَ عشَّاقُها إلى مَصائِرِهم وأقدارِهم، ولم ترثْ منهم سوى القلقِ والهَذيانِ والوُعودِ. مَنْ كان يقتربُ منها تلسعُه النِّيران، جسدٌ محاطٌ بأكوامِ الوثائقِ والسّجلاتِ وحزمِ الورقِ والرّسائِلِ ووَقائعِ التاريخِ والأحزانِ والهَذيانِ والرُّوحِ القلقةِ والإيماءاتِ والإشاراتِ والرُّموزِ. ظلَّتْ روحُ ماري يقِظةً، وهي آخرُ مَنْ تناولَ معها آخرَ أستكانةَ شاي قبلَ أن تَأوِي إلى سريرِها الأبدِي، مِنْ دُون أن تُلاحظَ اصْفرارَ وجهِها وشُحوبَه، آخرُ لونٍ تراهُ في ذلك الفجرِ.

تحتَ ظلالِ نُصبِ الحريَّة مرَّةً أخرى

لا أثرَ لاستعراضِ الجيشِ البريطانِي لأوَّلِ مرَّةٍ في ساحةِ التّحريرِ سوى الذِّكرى في أذهانِ يُونسَ ونُعمان وهاشم ومَنصور وأبو سُقراط. إنَّهم يَرتادون ما تبقَّى مِنْ حانةِ الرافدَيْن مِنْ مدخلٍ سِرِّي بعدَ أن أُغلقَ البابُ الخارجِي المُطلُّ على الشّارعِ العامّ. كانوا يَحصرُون أجسادَهم بين رُدفتَيْ البابِ الصَّغيرِ في الزِّقاقِ الخلفِي، ويَدلفُون إلى داخلِ الحانةِ التي يرتادُها المُتسكِّعون والشُّعراءُ واللُّصوصُ ومُزيِّفُو الشَّهاداتِ الجامعيةِ وبائِعو الملابسِ المُستعملةِ وخدمُ الكَنائسِ والبوَّابُون وعمَّالُ المَسطرِ والفنَّانون العاطِلُون عن العملِ والمُرابُون ودلّالو العِقاراتِ والباعةُ المُتجوِّلون والرُّهبانُ الشَّاذُّون ومُروِّجو زواجِ المُتعةِ والقوَّادون المُحترفُون والسَّماسرةُ والمُثقَّفون المُغتربون. لم تعدْ حانةُ الرافدَيْن كما عهدَها ذلكَ الرَّهطُ المَجنونُ في أيَّامِ الازدهارِ عندَما كانَ النُدَّلُ يرتدُون البدْلاتِ والبابيُونات السوداءَ والقُمصانَ النَّاصعةَ البَياضِ، والقفَّازاتِ البيضاءَ في أيدِيهم، ويُقدِّمون صُحونَ المازَة في آنيةِ الخزفِ الصِّينِي الرَّاقي.

قالَ يُونس: انْظروا ماذا فعلَ جَرجيس بالصُّحونِ المَعدنيَّة؟ فقد دقَّها بمساميرَ على المَوائِدِ الخشبيَّة لكَي لا يَسرُقَها روَّادُ حانتِه المُحترَمون.

وأجابَه نُعمان: أيْ نعمْ. راحَ زمنُ الخزَفِ الصِّينِي الرَّاقي.

وأضافَ أبو سُقراط: لهذا أتخلَّى عن الفلسفةِ. هههههه.

ضحكَ منصورٌ وهاشمُ ولم يُعلِّقا.

قالَ نُعمان ضاحكًا:

لكنَّكَ لا تزالُ تُحبُّ سارتر أكثرَ مِنْ ماركس.

هَزَّ رأسَه: بالتَّأكيد.

كانَ جَرجيس مالكُ الحانةِ يَودُّ أبا سُقراط كثيرًا، ولم يكُنْ يأخذُ منْه حسابَ مَشروباتِه، ويقولُ له: أنتَ صاحبُ عائِلة، مِن الأفضلِ أن تُنفقَ هذه الأموالَ على أولادِك. لكنَّه مُعجبٌ بقصَّتِه، ويُردِّدُها على مَسامعِ مَنْ يزورُه. أخذَ فيرناندو وشرحَ له: إذا أردتَ أن تَعرفَ أبا سقراط، فيجبُ أن تُصغي إليَّ. سَأروي لكَ قصَّتَه مجّانًا. انظرْ كلُّ قصَّةِ أبي سُقراط أنَّه حاولَ أن يَستنْجِدَ بشخصٍ لتَهريبِه خارجَ البلاد، ثُمَّ اكتشفَ أنَّ ذلكَ المُهرِّبَ عميلٌ مُزدَوَجٌ داخلَ تنظيمٍ سِرِّي قامتْ دائرةُ الأمنِ بتجنيدِه وقامَ باعتقالِ مجموعةِ شُبَّانٍ حالِمين بالهُروبِ، فصدرتْ بحقِّهم أحكامُ الإعدام، وكان أبو سَقراط مِنْ بينْهم.

ومع اقترابِ حبلِ المِشنَقة من رقبتِه، فكَّرَ أبو سقرط بالحلِّ، تراءى له الحلُّ في تمثيلِ دورِ المَجنونِ للإفلاتِ مِنْ عُقوبةِ الإعدام. هكذا خدعَ اللّجنةَ العَدْليةَ، وتعايشَ مع الجُنونِ المُزيَّفِ، وتحوَّلَ مِنْ سَجينٍ سِياسِيّ في أقبيةِ الأمنِ الى مَريضٍ نفسِيّ في "مَشفى الرَّشاد". صدِّقْني إنَّه اضطرَّ للاعترافِ بأفعالٍ لم يرتكبْها، ضاعفَ مِنْ جُنونِه، لكي يفلتَ مِن العِقابِ، اعترفَ بمُحاولةِ تفجيرِ جسرِ الجُمهوريَّة، وإلقاءِ القبضِ على نهرِ دجلة بالأسلاكِ الشائكة، والقيامِ بعمليَّةٍ انْتحاريَّةٍ في اسْتجوابِ الأسماكِ، ثُمَّ الإصغاءِ إلى الأشجارِ أثناءَ اللَّيل. ولم يكنْ أمامَ المَشفى سوى تقديمِ تقريرٍ يُؤكِّدُ على إصابتِه باضّطرابٍ ذِهنِي. وهكذا أمضى سنواتٍ في المَشفى بدلَ السِّجن. وروى قصصَ الجُنونِ التي لا تُصدَّقُ: استِبدالُ بعضِ المَحكومين بالإعدامِ بالمَجانين ومِنْ ثَمَّ تهريبُهم لقاءَ أموالٍ أو بيزنس بيعِ وشراءِ المُختبراتِ الطبّيةِ لأعضاءِ المَجانين، وغيرُها من القصصِ التي يشيبُ شَعرُ الرأسِ لها كما نقولُ. ولم يحرِّرْه مِن المَشفى سوى قصفِ الطائراتِ الأمريكيَّةِ الذي تسبَّبَ في قطعِ الكهرباءِ والماءِ والطَّعامِ، فاضّطرَّ مُديرُ السِّجنِ إلى إطلاقِ سراحِ المَجانين السُّجناءِ لكي يعثروا بأنفسِهم على ما يَقتاتون عليه. هكذا رأى أبو سُقراط النورَ، ولم يجدْ أمامَه سوى الاستمرارِ بالجُنون.

فيرناندو أُعجِبَ بهذه القصَّة كثيرًا.

يا له مِنْ بطلٍ.

أجلْ. إنَّه مثلُ سُقراط الذي فضَّلَ أن يجرعَ السُمَّ على أن يهجرَ بلدَه حتى أيَّامَ الحصارِ والحُروبِ، وواجَه الموتَ المُعبَّأَ في الصَّواريخ. تخيّلَ مستر فيرناندو أنَّ أبا سُقراط هو العِراقي الوحيدُ الذي يحملُ شهادةَ العاقلِ الرَّسميةَ مِن وزارةِ الصحَّة. لا أدري ما هو ذلك، أهو الافتتانُ بالعَقلِ أم بالجُنون؟ ونحن اعتدْنا أن نعيشَ مع جُنونِه، وإذا لم يكنْ هكذا، فلا توجدُ أيَّةُ مُتعةٍ في مُجالسَتِه أو الحديثِ معه، نحن نُريدُه مجنونًا أكثرَ مِمَّا نُريدُه عاقلاً.

هل ما قالَه جَرجيس صَحيحٌ؟

طبعًا.

قالَ هاشم: سواءٌ كان ذلك جُنونًا أم تَمثيلاً، نحن لا نُريدُه إلا هكذا.

يجلسُ الآن يونسُ ونُعمانُ وهاشمُ في الحانةِ ذاتها، ويَستعيدُون ذكرياتِهما في غيابِ مَنصور وأبي سُقراط وفيرناندو.. وجَرجيس.

إيه، قالَ يونس، فرطتْ شخصيَّاتُ بيراندِيللّو الستّ. وأجابَه نُعمان: لم يبقَ منَّا سوى ثلاثةِ عجائِز. ثم أشَّرَ إلى هاشم: انظُرْ أيُّها الصَّديق.. أنتَ المَحظوظُ الوحيدُ الذي حقَّقَ حلمَه في افتِتاحِ سينما غرناطة.

قالَ هاشم على الفوْر: ولكنَّني كنتُ أحلمُ أن أرى فيلمَكُما يا يُونس ونُعمان يُعرضُ على شاشةِ غرناطة وليسَ فيلمَ وارنَرْ هيزوغ، أقصدُ فيلم "مَلكةُ الصَّحراء".... هههههه. أيْ نعمْ، قالَ نُعمان،

لا نملكُ سوى استعادةِ الماضِي. هل تذكُرُ يا يونس إعدامَ خمسةٍ وثلاثين عِراقيًا، بينَهم ثلاثةُ عشر يهوديًا، وتعليقُ جُثثِهم بتُهمةِ التجسُّسِ في ساحةِ التَّحرير؟

كيف لا أذكرُ يا رجلْ؟ كنَّا على مَقاعدِ الجامِعة، وهرَعْنا إلى السَّاحةِ منذَ الصَّباحِ الباكرِ، ولم نشتَهِ تَناولَ الفُطورِ في تلكَ الصَّبيحَة. كانتْ الرُّؤوسُ المُعلَّقةُ تهزُّها الرِّياحُ أيَّامًا، ولم يتجرَّأْ ذَوُوهم على أخذِ جُثثِهم أو سحبِها مِنْ على أعمدةْ الكَهرباء.

ثم قالَ هاشم بصَوتٍ خافتٍ: لكنَّ مُصوِّرًا واحدًا تمكَّنَ مِنْ تَسجيلِ التاريخِ عندَما ضغطَ على زرِّ كامرَتِه بعيدًا عن عُيونِ رجالِ الأمنِ، وقامَ بتظهيرِ الصُّورِ الفوتوغرافيَّةِ بالأسودِ والأبيضِ، وانتشرتْ في الصَّحافةِ الأجنبيَّةِ، ثم اختفى في ليلةٍ مُظلمةٍ، ولم يسمعْ به أحدٌ، لكنَّ صورَه ظلَّتْ باقيةً.

ضحكَ يُونس: هربَ المُصوِّرُ إلى أمريكا وتركَ التَّصويرَ. كان مَخمورًا عندَما ضغطَ على زرِّ كامرَتِه في الخَفاء.

قالَ هاشم: لم يُعرضْ فيلم "زِدْ" لكُوستا غافراس سوى ليلةٍ واحدةٍ، ثم منعتْه الرَّقابَة، وقالوا إنَّه فيلمٌ يُروِّجُ للشّيُوعية.

أجابَ يُونس: لو كان بيدِهم لما كنَّا نسيرُ تحتَ نُصبِ الحريَّة.

قال نُعمان: الحمدُ لله، لا يزالُ في مكانِه حتى لو أصابَه الخَرابُ لأنَّ الحُكومةَ لا تهتَمُّ لهذا الرَّمزِ.. تخيَّلوا أنَّ بعضَهم دعَا إلى تَفكيكِ تَماثيلِه وصَهْرِ البرُونز الذي يتكوَّنُ منه وبيعِه بالكُيلُوغرامَات.

ثم أضافَ: لكنَّهم لم يتردَّدُوا في سرقةِ أسلاكِ الكَهرباءِ والمَصانعِ وأسَّرةِ المُستشفيَاتِ، صدِّقوني كلَّما مرَرْتُ مِنْ تحتْ هذا النُصبِ، أشعرُ برعشَةٍ في جسدِي ورُوحي، وأنا أتأمَّلُ روحَ النحَّاتِ وبَصماتِ أناملِه، تمرُّ في ذِهني كوكبةٌ مِن الأيْقوناتِ: أسدُ بابِل، نُصبُ الجُندي المَجهولِ، نُصبُ الأهوارِ ونُصبُ هيروشيما. كم مِنْ هؤلاء المارَّةِ يعرفون ما تَعنيه هذه الرُّموزُ؟ لو فَهموا مَعانيها لَما وصلُوا إلى هذا البؤسِ. تاريخُنا في هذا النُصبِ يا رجلْ، بدءًا بالحِصانِ الهائِجِ، والمُظاهراتِ ضدَّ تمثالِ الجنرال ستانلي مود، وإسقاطِه، والباكيةِ التي تندبُ وتصيحُ، والأمومةِ، والشهيدِ، والأملِ، والقُضبانِ، والسَّجينِ السِّياسي، والمِشعلِ الذي ترفعُه امرأةٌ عاليًا، والتماثيلِ الهادئَةِ لإمرأةٍ جالسةٍ تمدُّ يدَيْها بالخيرِ، تصلِّي، وتنبتُ من جسدِها أغصانُ الأشجارِ، وحمامتان تحُطّانِ على كتفيْها، يُظلِّلها النخيلُ تُمثّلُ دجلة، وأُخرى حبْلى، مُحملةٍ بالسَّنابلِ تُمثّلُ الفرات، وخيراتُ الأرضِ فوقَ رأسِ هذه الصبيّة، والرافدَيْن العظيمين لدجلة والفرات، ومِنْ ثَمَّ فلاحان يقفان متماسكَيْن يرمُزان للعربِ والكُوردِ، ورأساهُما على نمطِ الثَّورِ الآشوري الأسطوري، ثم تنتهي مَلحمةُ النَّحتِ بعاملٍ ممسكٍ مِطرقتَه. هل وصلتْكما الفِكرةُ، يا صديقيَّ؟ إنَّها سِمفونيةٌ مَتناسِقةٌ إذا ضاعَ سُلَّمٌ واحدٌ، انهارَ النُصبُ بكاملِه. يقولُون إنَّه غُورنيكا العِراق. قالَ يُونس: ما يؤلمُ، يا صديقي، أنَّ عمَّالَ المسطرِ يَمرّون كلَّ يومٍ مِنْ تحتِ هذا النُصُبِ مِنْ دُون أن ينتبهُوا إلى مَعانيه.

تُريدون الصَّراحةَ، قالَ يُونس، نحن نعيشُ بُؤسًا لا مثيلَ له، كيفَ يمكنُ العيشُ في مدينةٍ بلا حانَةٍ ولا مَلعبٍ ولا مَلهى ولا سهرٍ ولا أضواء؟ حتى هذه الحانةُ الرثَّةُ ندخلُها مثلَ الجُرذان، خشيةَ أن يُفجِّرَها المُتطرِّفون والانتِحاريُّون.

إيه، لا تذكِّروني بالماضي، يا جماعة، قالَ هاشم، مضى ذلك الزمنُ: حاناتٌ مُضاءةٌ تعجُّ بأنواعِ البيرةِ العِراقيَّة: فَريدَة، ولاكِر، وشهرزاد وأمِستِل على ضفافِ دجلة، ورائحةُ المِستكِّي والزَّحلاوي. هل يُعقلُ أنّ هناك مدينةً لا تخرجُ فيها القططُ المَكبوتةُ أو الكلابُ السائِبةُ، أو صُعلوكٌ ينامُ فيها على الرَّصيف. أصبحْنا كالهُنودِ الحُمرِ، إمَّا غادرُوا البلادَ وإمَّا قُتلوا أو لاذُوا بالعُزلةِ الصَّامتَة. حُشودٌ تتدفَّقُ في تَظاهراتٍ لا تُؤوِيهم لا حاناتٌ ولا صالاتُ سينما ولا مَقاهٍ ولا مَكتباتٌ. هكذا عراةٌ في الشوارع. ولا تعثرُ على سياسِيّ يُردِّدُ مُتألمًا: ما زلتُ أسمعُ أصواتَ الضَّحايا الذين رميناهُم في دجلة.... لكنَّ قَتَلةَ الوقتِ الحاضرِ لا يَجهشُون بالبُكاءِ ولا يَرون الكَوابيسَ ولا يَسمعُون أنينَ الضَّحايا. نحن ضائِعون في المَتاهة.

قالَ نُعمان: يا جماعَة، هل سمِعتُم بوُصولِ المِسْ مِيغان أوسوليفان إلى بغداد.

مَنْ هي مِسْ مِيغان أوسوليفان، يا تُرى؟

المذيعُ يقولُ: إنَّها مَبعوثةُ الرئيسِ الأمريكِيّ.

ماذا تفعلُ في بغداد؟

تلتقي بالمُثقَّفين العِراقيّين.

هههههه. عمِّي يا بيّاعْ الوَرد..كُلِّي الوَرد وِين.. كُلِّي.

حرامٌ أن يُطلقوا عليها لقبَ مِسْ..

لأنَّها تُذكرُنا بمِسْ بيل...

هههههه.. لا تصلُ إلى حذاءِ مِسْ بيل بكعبِه العالي...

تَحقيق

مُراسلُ صحيفةِ "التايمز" الذي حلَّ ببغدادَ، قاطعًا المسافةَ بين بغدادَ ولندن في سبعةِ أيامٍ، إثرَ رحيلِ المِسْ بيل، لم يعثرْ سوى على أقوالِ السِّياسيّين والضُبَّاطِ والقادةِ والأفنديَّة، وقلَّبَ ما تحملُه مِن أسماءَ: مِسْ بيل، غيرترُود، الخاتونْ... صانعةُ المُلوك، المَلِكةُ غيرُ المُتوَّجَة على العِراق وألقابٌ أخرى، لم تُضِفْ له سوى المزيدِ مِن الغُموضِ والالْتِباسِ. التَقى بخادمتِها الأرمنيَّة ماري التي ظلَّتْ معها حتى أخرِ لحظةٍ مِنْ حياتِها، وأرادَ أن يُسجِّلَ بدقّةِ الصَّحافِيّ تفاصيلَ تلك اللَّيلةِ التي استسلَمتْ فيها إلى الموتِ الهادِئ، على أنغامِ جَريانِ نهرِ دِجلة، لكنَّ حزنَها الشَّديدَ حالَ دُون ذلك. وقفتْ ماري، حزينةً، تتلفَّعُ بوشاحٍ أسودَ على رأسِها، وعيناها مُحمرَّتان مِنْ أثرِ البُكاءِ، لا تدري كيفَ تُجيبُ على سؤالِ المُراسِلِ الصَّحفِي: كيفَ ماتَتْ الخاتون؟ ثُمَّ استمعَ إلى آراءِ بعضِ المُشيِّعين وثرثراتِهم، دُون جدْوى. رئيسُ تحريرِ هذا الصَّحفي، كتبَ: هناك قُوةٌ في هذه المرأةِ ربطتْ حُبَّ الشَّرقِ بهدفٍ عمليّ أصبحَ هدفًا مُسيطرًا عليها بشكلٍ تحمّلتْ معه الكدَّ ولم تُثنِها خيباتُ الأملِ المُتعاقبَة، ولم تسمحْ أبدًا أن يتحوَّلَ إيمانُها إلى مَصدرِ حزنٍ وتعاسَة. وأبدَتْ قُوةً نادرةً في شخصيَّتِها، نافستْ كلَّ الرِّجالِ الإنجليزِ الذين أحبُّوا الشَّرقَ وأصبحتْ عندَهم هَوسًا، وتميَّزتْ بينَهم لأنَّ مَعدنَها مِنْ أنقى المَعادنِ الإنجليزيَّة.. لقد تركتْ المِسْ بيل ذكرى امرأةٍ إنجليزيَّةٍ عظيمَة.

ثمَّ قابلَ هنري دوبسْ، المَندوبَ السَّامِي الذي قالَ: أعجبَني مقالُ رئيسِ تحريرِ صحيفتِكَ عن مِسْ بيل، ويمكنُني أن أقولَ: إنَّ رحيلَها المُفاجئَ صباح يوم 12 يوليو خسارةٌ شخصيَّةٌ ورسميَّةٌ. وأضافَ: لا يمكنُ لأيّ سجِلٍّ أن يوثِّقَ بأمانةٍ وإخلاصٍ الأسى والحزنَ اللذين أصابَا هذه الأرضَ لسَماعِها نبأَ وفاتِها، ولا الامتنانَ الذي سيتذكّرُه أبناءُ العِراق عن الأعمالِ الجَليلةِ التي قامتْ بها مِنْ أجلِهم. لقد هجرتْ عائلتَها التي كانتْ تعبدُها، وتخلّتْ عن بيتٍ مُريحٍ وأصدقاءَ كثيرين يُكنُّون لها الوفاءَ والإخلاصَ، وحقلاً واسعًا مِن الرَّخاءِ والفنِّ والثقافَة، وكرّستْ حياتَها وروحَها لهذا البلد، لذا لا تُسعفُني الكلماتُ بإضافَةِ شيءٍ على شُهرةِ اسمِها ومجدِها. قرأ ما كتبَه الملكُ جورج الخامس في رسالةٍ إلى السِّير هوغ وللسّيدة فلورنس بيل: حزنتُ أنا والمَلكةُ لنبأِ وفاةِ ابنتِكم المُميَّزةِ المَوهوبةِ التي نُكنُّ لها كلَّ التَّقدير. سوفَ تفقدُ الأمَّةُ كما افتقدنا امرأةً أفادتْ البلدَ إفادةً بالغةً، وأنا واثقٌ أنَّ تلكَ الفائدةَ ستَدومُ طويلاً على البلدِ وعلى المَناطقِ التي عملتْ فيها بكلِّ تفانٍ وتضحيةٍ بالنَّفسِ مِن خلالِ مَلَكاتِها الرَّائِعة وقُوَّةِ شخصيَّتِها وشجاعتِها. أحدُ الشيوخِ الَّذين قابلتُهم، قال: أيُّها الأخوةُ سمعتُم ما قالتْه لنا هذه المرأةُ، إنَّها امرأةٌ ولكنْ يا الله، تتمتَّعُ بالجُرأةِ والصُّمود. نعلمُ أنَّ اللهَ قد خلقَ المرأةَ أقلَّ جُرأةً مِن الرَّجلِ، فإذا كانتْ نساءُ الإنجليزِ على هذه الشَّاكلَةِ، فلا بدَّ أن يكونَ رجالُهم كالأسُودِ قوةً وجُرأةً ومِن المُفضَّلِ لنا أن نُقيمَ سلامًا معهُم.

ضحكَ تشرشِلْ عندَما قرأَ ذلك، وهو يأخذُ نفسًا مِنْ غَليونِه.

وحرصَ الصّحفِي أن يأخذَ رأيَ لورنس الصَّديقَ اللّدودَ لها، الذي كان شابًا صغيرَ السِّنِّ آنذاك: كانتْ دائماً أسيرةً لقُوّةٍ لحظيَّة أو لمَنْ بيدِه السُّلطةُ حينَذاك، تتأرجحُ بين وِيلسون وهوغارث وكوكس، وتغيّرُ اتجاهَها في كلِّ حين مثلَ ـ ديكِ الرِّياحِ الحديديّ ـ الذي يُوضعُ في المَزارعِ لتحديدِ اتِّجاهِ الريح، لم يكنْ لديْها فكرٌ عَميق، بل لديْها عمقٌ كبيرٌ في اتِّجاهِ الرِّياح. كانتْ حياتُها ملأى بالأوقاتِ الصَّعبةِ والمُشكلةِ تلوَ الأُخرى.. إنَّها امرأةٌ عجيبَة.

لم تهدأْ صاحبةُ الطَّاقةِ الشَّيطانيَّة في تَجميعِ التَّقاريرِ الاستِخباراتيَّة وتلخيصِ المُعلومات... هكذا وصفَها سِينت جون فيلبي والمِيجَر ريدر بولارد. فيما قالَ ديفيد هوغارث، مِن الجمعيَّةِ الجُغرافيَّةِ الملكيَّة فيها: تتمتَّعُ مِسْ بيل بسِحرِ النّساءِ، ممزوجًا بكثيرٍ مِنْ مَزايا الرِّجال، تُربِّي الملوكَ على هَواها، وتُعدِّلُ ياقاتِ قُمصانِهم بأناملِها الرَّقيقَة، ولا تحرمُهم من عطفِها الأمُومي: لا أتخيَّلُها جُثَّةً هامدةً، بلا روحٍ لأنَّ روحَها ستظلُّ تحومُ بينَنا إلى أن نُوارى التُّرابَ جميعًا وتَنتهي القصَّة...

قرأَ ما قالَه خادمُها فتوح: أتذكَّرُ أسبوعًا مُروِّعًا مرَّ بِي أثناءَ رحلةٍ لي في شِمالِ سُوريا عندَما انهمرَ المطرُ لأيَّامٍ، ولم أتوقَّعْ أن تستمرَّ المِسْ بيل في السَّيرِ لكنَّها تابعتْ طريقَها في الوحلِ والماءِ اللذَيْن بلغَا خصرَها...

عادَ الصّحفي إلى لندن، واكتشفَ حقيقةً واحدةً: مِسْ بيل أخذتْ جميعَ الأسرارِ معها إلى القبرِ....

سيناريو

أصرَّ يونس على استعادةِ قصَّةِ الخاتون من خلالِ الصُّورِ التاريخيةِ التي التقطتْها بنفسِها، وتساءلَ: هل يحتاجُ السِّيناريو إلى مَؤرِّخٍ يضبطُ الأحداثَ التاريخيَّةَ أم إنَّ المؤلِّفَ حُرٌّ بخيالِه؟

لَقطة بانُوراميَّة، الشمسُ باهرةٌ في بغداد.

لا يوجدُ ظلٌّ إلّا تحتَ البِناياتِ والأشْجارِ، قالتْ مِسْ بيل: يا إلهي! شمسُ بغدادَ تفيضُ مِن السماءِ ولا تحجبُها أيَّةُ سُدودٍ مهما كانتْ عِملاقة. سينما رُويال، هل يُعقلُ أن يُدشِّنَ أهالِي بغدادَ أوَّلَ صالةِ سينما تحتَ ناظرِي؟ لو قالَ لي زُملائِي في الجامِعة عندَما كنَّا ندرسُ علمَ التاريخِ بأنَّني سأصبحُ جزءًا منه، لَسخرتُ مِنْ نفْسي، وها أنا أشهَدُ تَفاصيلَ التاريخِ بأمِّ عينِي تَتشكَّلُ أمامي. رُويال سينما تعرضُ فيلمًا عن دُخولِ جُيوشِنا إلى بغداد. شيءٌ مثيرٌ لكنَّ أجملَ ما في هذه الصَّالةِ مَقصُوراتُ العوائِلِ والنساءِ، وأسعارُ التذاكرِ مُخفضةٌ لجُنودِنا.

خارجِي. بعدَ الظُّهر.
نهرُ دِجلة. لقطةٌ بانوراميَّة:

تسترخِي الخاتونُ على كرسيِّها الخشبِيّ، تتناولُ أستكانةَ شاي أحضرَتْها لها خادمتُها ماري، وهي تستغرقُ في النَّظرِ إلى جَريانِ نهرِ دجلة، صخبٌ عارمٌ في رُوحِها، يمتزجُ بمُوسيقى مُوزارت. لقطةٌ كبيرةٌ على تَقاطيعِ وَجهِها وانفعالاتِها مع المُوسيقى التي أغرقَتْها في تأمُّلٍ طويل.

داخِلي. في المَساء.
البلاطُ المَلكي. لقطةٌ قريبة:

تتحسَّسُ الخاتونُ بيدِها الميداليَّةَ المَعدنيَّة التي وضعَها الملكُ حولَ رقبتِها الرَّقيقَة. لقطةٌ قريبةٌ لِتَبادُلِ الابتِسامات.

مُقرَّبون ومُستَشارُون يبتسِمُون بغُموضٍ وكأنَّهم يُشكِّكُون في علاقةِ الملكِ بالخاتونْ.

خارجِي. مَقبرةُ الخاتون، بَغداد: لقطةٌ عامَّة:

احتفظَ مَنصورُ بجهازِ الغرَامافُون القديمِ الذي أهداهُ لهُ الكُومُنويلث آنَذاك وهو قريبُ الشَّبَهِ بالجِهازِ الذي كانتْ الخاتون تمتلكُه. كان يضعُه على قبرِها عندَما تعودُ حلقةُ المَجانين إلى المَقبرةِ بعدَ أن تُقفلَ الحانةُ أبوابَها. تمتزجُ أحاديثُهم مع الليلِ وتصدحُ الأغانِي في الظَّلام. ومَنصورُ يشرحُ لأصدقائِه: لم أفهمْ لماذا أحبَّتْ الخاتون مُوسيقى مُوزارت هل لأنَّها مزيجٌ مِن الابتهاجِ والحُزن؟

خارجِي. عاهراتٌ يُنقِذنَ بغدادَ مِنَ الفَيَضان. لقطةٌ عامَّة.

دجلةُ فاضَ واجتاحَ سُدَّة ناظم باشا مِن ناحيةِ الوَزيريَّة، تدفَّقتْ المِياهُ في الشّوارعِ. رجالُ الشُّرطة أجبَرُوا الناسَ على عملِ السُّخرَة لدَرءِ الفَيضان وتَقويَةِ أسوارِ بغداد.

لَيْل. خارجِي. لقطةٌ عامَّة:

وعندَ مُنتصَفِ اللَّيل، آوَى الناسُ الى بُيوتِهم للنَّومِ، وخلتْ الشوارعُ مِن المارَّة.

في الصَّباحِ: كان عليْهم مُواصلةُ العملِ، فَمِنْ أين يأَتي رجالُ الشّرطةِ بعُمَّالِ السُّخرة لإنقاذِ بَغدادَ مِنَ الغَرقِ، هلَ تَعلمون ماذا فعلَ مُديرُ شرطةِ بغداد؟

خارجِي. حانةُ الر افدَيْن. لقطةٌ عامَّة:

لم يتغيَّرْ شيءٌ في حانَةِ الرافدَيْن. لوحةُ العُنوانِ سقطتْ بعدَ القَصْفِ الأمريكِيّ. صاحبُها جَرجيس لم يستبدلْها بلَوحةٍ جَديدة. الحانَةُ مِنْ دُون لوحةِ عُنوان. المُتطرِّفون والانتِحاريُّون يتحيَّنُون الفُرصةَ لتَفجيرِها. جَرجيس صاحبُ الحانةِ استلمَ مَظروفًا فيه رَصاصة. أغلقَ المَدخلَ الرئيسِيَّ المُطِلَّ على ساحةِ التَّحرير، وفتحَ بابًا في المَدخلِ الخَلفِي الصَّغيرِ، وبدأَ الزَّبائِنُ يَدلِفون إلى الحانةِ مِن البابِ الخلفِي.

خارجِيّ. محلَّةُ الكَلجيَّة. لقطةٌ عامَّة:

دخلَ مُديرُ شِرطةِ بغداد إلى مَحلَّةِ "الكَلجيَّة"، حيِّ العاهراتِ، وقامَ بجَمعِ القَوَّادين والزَّبائِنِ والعاهراتِ وحشَروهُم في سيَّارات الشّرطة وأخذوهُم الى مَحلَّةِ الكَسْرة، وطلبُوا منْهم حفرَ الأرضِ وملءَ أكياسِ "الجِنْفاص"* بالتُّرابِ لرَدمِ الكَسرة وإيقافِ تدفُّقِ مِياهِ الفَيَضان، وعملُوا بدأبٍ واعتزازٍ حتى سَماعِ آذان الفجرِ، ونَجحُوا في سدِّ الثَّغرةِ وأنقذُوا العاصمةَ مِنَ الغَرق. وبعدَ صَلاةِ الفجرِ، عادتْ بهم سيَّاراتُ الشّرطة الى مَحلِّ سُكناهُم، وما كانَ على أمينِ العاصِمةِ سوى أن بعثَ برسالةِ شكرٍ وتَقديرٍ لجَميعِ العاهراتِ والقوَّادين وزبائِنِهم مِمَّنْ ساهَموا في درْءِ الفَيضانِ على إنقاذِهم بغدادَ مِن الغَرق.

خارجِيّ. مَجلسُ النُوَّاب. لقطةٌ عامَّة:

يخرجُ أعضاءُ مَجلسِ النَّوابِ مِن المنطقةِ الخضراءَ. ويَتدافَعون في حَملِ الأكياسِ على ظُهورِهم يُعاونُهم في ذلك أُمَناءُ البلديَّةِ والحُكومَة مِنْ أجلِ إنقاذِ بغدادَ مِنَ الغَرق.

يضحكُ نُعمان:

هذا مشهدٌ سوريالِيّ لا أعرفُ كيفُ أُنفِّذُه على الشَّاشة؟

صالَةُ سينما غرناطة

سياراتُ رجالِ الأمنِ في الماضِي كانتْ تُموَّهُ بيافِطاتِ مُنتَجاتِ الأَلْبانِ العامَّة أو شركاتِ التَّأمينِ أو طاقمِ التِلفزيون، وتبعثُ الخوفَ في النُّفوسِ حتى أنَّ العُشاقَ كانوا يَتوقَّفون عن تَبادلِ القُبلِ في الحدائِقِ عندَما يُشاهدونَهم. أمَّا الآنَ فقد زالَ التَّمويهُ.. لا أحدَ بحاجةٍ إليه اليوم.

هكذا قالَ يونس متذمرًا.

أيامٌ مُرعبةٌ. كان طالبًا على مَقاعدِ الجامعَة، وهو يقرأُ ما كتبتْه مِسْ بيل عن تاريخِ بلدِه، دفعتْه الحَماسةُ إلى زيارةِ الأماكنِ التي عاشتْ فيها: القَشْلة، المُتحفُ العِراقي، ومَكتبةُ السَّلام، وانتهاءً بمقبرتِها في ساحةِ الطَّيران. يتلمَّسُ اسمَها المَحفورَ على الشَّاهدةِ الرّخاميَّة. كان يونس ونعمان وهاشم العجائزَ الوَحيدين في صُفوفِ المُتظاهِرين الشَّباب. مرُّوا بجوارِ الحانَة، افترقُوا عن المُتظاهرين، ودخلُوا الحانَةَ خلسةً من البابِ الخلفِيّ الصَّغير. لا تزالُ شاشةُ التِّلفزيون المُعلَّقةُ على جدارِ الحانةِ تنقلُ صورةَ المُتظاهرين، وهم يَقتحِمُون المِنطقةَ الخضراءَ. لم يتوقَّفوا عندَ البَّواباتِ، بل دخلُوا إلى مَجلسِ النوَّابِ وخرَّبوا أثاثَه، القنفةَ ــ الأريكَةَ، التي يجلسُ عليها رئيسَ مَجلسِ النُّوَّاب. أربعُ ضحَايا سقطُوا بالرَّصاصِ الطَّائِش... حاولَ الأصدقاءُ الثلاثةُ استعادةَ الماضِي في الحانَة ولكنَّ كلَّ شيءٍ تغيَّرَ. فقدتْ الحانةُ تلكَ النَّكهةَ، حتى طعمُ العَرقِ تغيَّر. صرخَ يونس: يا جماعَة، للأسفِ الشديدِ لن يحتفلَ معنا منصور أو أبو سقراط، غابَا عنَّا، وغادرَ فيرناندو... وأجابَهُ نعمان: وانفرطتْ ستُّ شخصيَّاتٍ تبحثَ عن امرأة. ابتسمَ هاشم: تقصدُ الذِّكرى المِئويَّة لدُخولِ الخاتون إلى بغداد.

ثم أضافَ: ما رأيُكم أن نذهبَ لمُشاهدةِ فيلم "مَلكةُ الصَّحراء"؟

فَكرَة. قالَها يونس. إنَّها أفضلُ مِنْ جوِّ الحانَةِ الخانِقِ. قالَ نعمان. استعادَ هاشمُ السَّنواتِ التي أمضاها هنا في غُرفةِ آلةِ العَرض: التقيتُ بشابَّةٍ نَحيلةٍ، ترتدي ثوبًا أصفرَ، اسمُها حياة، كانتْ تأتي لزيارتي، فأُعطيها قَنِّينَةً مِنْ مَشروبِ السِّينالكُو، مع حَفنةٍ من "الفريمات"، أو الصُّورِ المُقطَّعة من الشّريطِ السِّينمائي، كانت تفرحُ بتلكَ الهدايا، وتسرعُ إلى بيتِها لتتفرَّجَ على تلك الصُّور تحتَ نورِ المِصباح. وكلَّما كانتْ تتردَّدُ عليّ، أُعطيها مزيدًا من الصُّور. ثم بدأتُ بزيارتِها في البيت، استقبلتْني عائلتُها، واعتبرتْني مثلَ ابنِها، وكانوا يُطلقُون عليَّ: اليتيمُ القادمُ مِنْ دِيالى. لا بيتَ لي، ولا أصدقاءَ، ولا أموالَ، وكنتُ أنامُ في غُرفةِ آلةِ العَرض. وبعدَ أن توثَّقتْ علاقتي بعائلتِها، أعطوني غرفةً عُلويةً في بيتِهم، وخلالَ أشْهرٍ قليلة، تزوَّجتُ من حياة. وسارتْ حياتُنا بسَلام، إلى أن أعلنَ الرَّاديو الانقلابَ المَشؤومَ على الملكِ وقَتلِ عائلتِه، فأُغلقتْ صالةُ سينما غرناطة لأُسبوعٍ، وملأتْ المارشاتُ العسكريَّةُ آذانَنا بالضَّجيجِ والفوضى. في تلكَ الأيَّام أنجبتْ زوجتي ابنيَ البكرَ فيصل. كاتبُ النُّفوسِ حدَّقَ بي شزرًا، وسألَني فيما لو كنتُ مُتأكدًا مِن الاسم؟ لكنَّه انتهى إلى تسجيلِ اسمِه على مَضَضْ.

يا هاشِم، سَمعنا هذه القصَّةَ مِئة مرَّة، هههههههه..

لماذا حذفَ هيرزوغ أهمَّ سنواتِ حياةِ الخاتون في العِراق؟

تساءلَ يُونس.

وأجابَه نُعمان: هوليود شطبتْ عشرَ سنواتٍ مِنْ حياة الخاتون.

هَزَّ يونس رأسَه، أجلْ يا أصدقائِي، إنَّها مَهمَّةٌ عَسيرةٌ، الفنَّانُ يسيرُ بين النُّورِ والظَّلامِ، بين الأسْطورِي والحقيقِي، وبين الواقعِ والتاريخِ، وبين الأنا والآخَرين، "مَلكةُ الصَّحراء" عنوانٌ مُغرٍ، لكنَّ المُخرجَ الألْماني أهملَ نصفَها العِراقي ورُبَّما لا يعرفُ عنه شيئًا، بل أرادَ أن يجعلَها ترتدي رداءً مَلكيًّا بذيلٍ طويلٍ مِن المُخملِ الأزرقِ مع تيجانَ ذهبيَّةٍ مُغلقةٍ في حالةِ حِداد. كان ينقصُه أن يجعلَها تركبُ عربةً مذهَّبةً تجرُّها أحصِنةٌ بيضاءُ، مُجلَّلَةٌ بالسَّواد، وصَوْلجانٌ في يدِها.

اختارَ المُخرجُ أن يفتتِحَ فيلمَهُ في اجتماعٍ شهيرٍ حضرَهُ لورنسْ ومِسْ بيل وَونستون تشرشِلْ وزيرُ المُستعمراتِ لتقاسُمِ النُّفوذِ في مَناطقِ الإمبراطوريَّةِ العُثمانيَّة في القاهرة.

هل تَعلمان لماذا أهملتْ هوليود تصويرَ فيلمٍ عن حياتِها؟

لا نَدري.

تصَوَّرت أنَّ حياتَها كانتْ خاليةً مِن العلاقاتِ الغراميَّة.

هذا هراءٌ وجُهلٌ بالتاريخِ، كيفَ تجرَّأَ المُخرجُ أن يحذفَ أهمَّ سَنواتِ الخاتون في بغداد؟

لو كنتُ المُخرجَ الذي وقفَ أمامَ نِيكولْ كيدْمانْ لطلبتُ منْها أن تردِّدَ العبارةَ التالية: خُضْنا في دماءٍ ودُموعٍ ما كان يجبُ أن تُهرق. فكّري في الدِّماءِ والدُّموعِ وركِّزي على حركةِ شَفتيْ مِسْ بيل النَّاعمتَيْن الرقيقَتَيْن وهي تلفظُ كلماتِها، وابتعدِي عن الكلماتِ الشَّعبيَّةِ لأنَّها خِرّيجةُ الأُكسفُورد، والأميركيُّون اعتادُوا التِهامَ الحُروفِ وحرفَ أفواهِهم في لفظِ الكلمات.

وأنا لَكنتُ قلتُ لها: أريدُ منكِ أن تَبعثِي رُوحَ هذه المرأةِ مِنْ جديدٍ رغمَ رحيلِ عصْرِها.

وأنا لَكنتُ قلتُ لها: لا تَنسِي أنَّ هذه المرأةَ سَحرتْ المُلوكَ والأباطرةَ والسَّلاطينَ وأغرتْهم بتقلُّدِها أرفعَ المَناصب.

وأنا لَكنتُ قلتُ لها: هل يُمكنُ أن تَلمَسي على خدَّيْها دُموعَها الحارَّةَ التي ذرفتْها وهي تُقلِّبُ كلَّ قِطعةٍ أثَريَّةٍ جمَعتْها لتكوِّنَ بها مُتحفَ بَغداد؟

مِنَ الصَّعبِ تمثيلُ دورِ فتاةٍ أرستقراطيَّةٍ كَمِسْ بيل وتقمُّصُ شخصيَّتِها لأنَّها ببَساطَة مَكسوَّةٌ برُوحٍ عاليةٍ ومَهارةٍ أنيقةٍ ونُبوغٍ خارقٍ، لكنَّ المُفارقَةَ هنا كيفَ استطاعتْ هذه المرأةُ أن تجمعَ خُيوطَ

ثلاثِ ولاياتٍ وتخلقَ منْها العِراق فيما يَسعى أبناؤهُ الآنَ إلى تفكيكِهِ إلى ولايات؟

حلمُنا هو أن نُشاهدَ"خاتون بغداد" على هذه الشَّاشَة.

أنتَ تحلُم كثيرًا.

ألا يحقُّ لنا أن نحلُم؟

لمَ لا. الحلمُ.... واحةُ الجميع.

هناك مَشهدٌ لم يُفكِّرْ بهِ هيرزوغ: (حزمةٌ مِن الضَّوءِ تُسلَّطُ على وَجهِها، فتَكشف عن تَجاعيدِه العَميقةِ، والوهَنِ الذي لَفَّ جفنَيْها).

ماري، لماذا أنتِ حزينةٌ؟

لم تعُدْ لي أيَّةُ مُتعةٍ في الحياةِ بعدَ رحيلِك، هل تَحتاجين إلى أستكانةِ شاي؟

نعمْ يا عزيزتي، للشَّاي العِراقي مَذاقٌ خاصّ.

صرخَ يونسُ في الصَّالة:

مَشهدٌ رائِع.

هيرزوغ حذفَ ماري التي فقدتْ أهلَها في مَجزرةِ أرمِينيا مِنْ فيلمِه.

ركَّزَ على مَلكةِ الصَّحراء وليسَ على رفيقتِها وصُندوقِ أسرارِها.

ثم صرخَ الجُمهوُر.

لا نُريدُ ثرثرة أثناءَ عرضِ الفيلم، هل أنتُم مَجانين؟

خرجَ العجائزُ الثلاثةُ يونس ونعمان وهاشم مِنْ صالةِ السينما، ولم يتمكَّنوا مِنْ إكمالِ مُشاهدةِ الفيلم. في خَيالِهم مِسْ بيل أُخرى، تُلبِّي رغباتِهم، وعلى الشَّاشةِ مِسْ لا يَعرفونَها، هي ليستْ مُغامِرة في الصَّحراء. يرُنُّ في آذانِهم صَدى كلماتِها: أيُّها العِراقيُّون، يا مَنْ أطلقتُمْ عليَّ لقبَ الخاتونْ، إنَّني عملتُ مِنْ أجلِكم، وخلَّصتُكم مِنْ جُيوشِ العُثمانيّين، هم أعداؤكُم وأعداؤُنا، ألا يَكفي أن يكونَ لنَا عدوٌّ مُشتَرك؟ أُفكِّرُ بكلِّ بيتٍ مِنْ بُيوتِكم، وكلِّ قَبيلةٍ مِنْ قَبائِلِكم، وكلِّ نهرٍ مِنْ أنهارِكم، أُحبُّكم لأنَّني أتنفَّسُ هواءَكُم، وأشربُ مِنْ مائِكُم، وآكلُ مِنْ خُبزِكُم، وأَسيرُ على تُرابِكُم، وأَستخرجُ آثارَكُم، وأسعَى لإخراجِكُم مِن البُؤسِ. أنتُم سادةُ أنفسِكُم في بلدٍ يَعجُّ بالآلهةِ والأساطيرِ والكُتبِ والأنهارِ والجِبالِ والسُّهول. عليكُم أن تَكونُوا مِنْ أسْعدِ شُعوبِ الأرض.

مرّتْ مئةُ عامٍ بلَمحِ البَصرِ، ذهبتْ الإرستقراطيَّةُ التي كانتْ تذرعُ شوارعَ بغدادَ بحذائِها، ذي

الكعبِ العالِي، أهي ملاكُهم الحارسُ؟

هامَ يونسُ ونُعمانُ وهاشمُ في خيالاتِهم وأطيافِهم وهَواجسِهم عن الخاتون الحيَّةِ والخاتون الميتَةِ، بغدادِ الأرستقراطيَّةِ وبغدادِ الرّثَّةِ، يذرعون ساحةَ التحريرِ حتى الفجْر، ويُتمتِمون: ذلك الفجرُ الذي لم ترَهُ الخاتون أبدًا.

9

12 يوليو 1926

اللّيلةُ الأخيرةُ كما تَرويها ماري

عجزتْ ماري عن النَّوم في تلكَ اللّيلةِ، والفجرُ يشقُّ طريقَهُ عبرَ تَدرُّجاتٍ لونيَّةٍ تُغرقُ عينَيْها بفَيضٍ مِنَ الضِّياءِ. فتحتْ عينَيْها ببطءٍ وصُعوبةٍ، مع ثمالةِ كَوابيسَ أيقظتْها مراتٍ، فيما كانتْ مَوجاتُ الرِّياحِ تُغيِّرُ مِن صَفيرِها وأنغامِها، مُنذرةً بالرَّعدِ والبَرقِ والفَيضان. كان الوقتُ مزيجًا مِن خُيوطٍ بيضاءَ وسوداءَ، مَخاضٌ عسيرٌ لولادةِ صباحٍ جديد، زادَ مِن شُكوكِ ماري لكنَّها تذكَّرتْ أنَّ سيِّدتَها الخاتون قد أوصتْ بإيقاظِها عندَ الفجْر. ثمَّةَ خوفٌ انتابَها لا تعرفُ مَصدرَه، سارعتْ إلى الصَّلاةِ والدُّعاءِ والمُناجاةِ، تبادلتْ بعضَ الكلماتِ القصيرةِ معها قبلَ أن تَأوِي إلى سريرِها، لكنَّها تساءلَتْ مع نفسِها:

ما الخطْبُ يا إلهي؟! لماذا كلماتُ الخاتون مُتشائِمَة؟

حاولتْ ماري أن تُخمِدَ في نفسِها صورتَها الحزينةَ دُون جدوَى، صورةُ تِمثالٍ شَمعِي وسطَ فناءِ الغُرفةِ، رُبَّما بسببِ عدمِ وضْعِ المَساحيقِ والأصْباغِ، ومِمَّا زادَ في قلقِها ذلكَ الصَّمتُ الثَّقيلُ الذي خيَّمَ على المَنزِلِ، لا صوتَ يُسمعُ سوى خريرِ نهرِ دِجلة يتَناهى إلى سمعِها، قالتْ ماري، مُخاطبَةً نفسَها. هل مِن المَعقُولِ أن يحدثَ مَكروهٌ للخاتون، في تلك الليلة؟ أيَّامُها الأخيرةُ بدُونِ صَخبٍ، لا لقاءاتٍ على الشاي مع المَلك، ولا تقاريرَ سِياسيَّةً الى التَّاجِ البريطاني، ولا استدعاءاتِ المَندوبِ السَّامي هنري دوبس، ولا شُيوخُ العشائِرِ والقبائِلِ عندَ بابِ منزِلِها، ما الذي يحدثُ بحقِّ السماء؟ أغمضتْ الخاتونُ عينَيْها في فِراشِها، وغمرَها السُّكونُ والهُدوءُ، وعيناها تَبرُقان في الظَّلامِ كعيَنْي قطٍّ مُتردِّدْ.

الملائكَةُ تعُدُّ الزَّمنَ، ونحن مُجبَرون على انتِظارِه. هكذا خاطبَتْ صورةَ مَرْيمَ المُعلّقةَ على الجِدار.

يا إلهي! هل يُطلُّ ذلك الفجرُ ونتناولُ أستكاناتِ الشاي معًا؟

رُبَّما تَرى فجرًا آخرَ، لماذا آوتْ الخاتونُ إلى فِراشِها باكرًا، ولم تخرجْ إلى الشُّرفَة، ولم تطلبْ أستكانةَ الشاي المُعتادَة؟ لماذا ظلَّتْ نائِمةً لا تتحرَّكُ، ولم تستيقظْ لتَناولِ كأسَ ماءٍ باردٍ يُرطّبُ فمَها الجافَّ بحرارةِ الصَّيف. أسئلةٌ لا نفعَ مِنْ طرحِها، وتتذكَّرُ آخرَ كلماتِها: يا ماري، هل رأيتِ خُيوطَ الفجرِ البيضاءَ والرَّماديَّةَ والزرقاءَ تغوصُ في مياهِ دِجلة؟

نعم يا خاتون.

مَنْ يرَ هذا المنظرَ يحتضنْ العالَمَ بكِلتا يدَيْه.

سمعتِ هذا الكلامَ، يا خاتون؟

مَنْ قالَ ذلك؟

أحدُ مُلوكِ الأرْمن.

جميلٌ أن يتحدَّثَ المُلوكُ عن الفجْر.

تقاسمتْ العزلةَ ولُقمةَ العيشِ، والألمَ مع ماري.

يا ليتَكِ تَسهرين كي نرى الفجرَ معًا، وألوانَه مِن الأبيضِ إلى الرَّمادي إلى الأزرقِ، وما بينَهما مِنْ ألوان أعجزُ عن وصفِها، ولا تُسعفُني القواميسُ لمعرفتِها. لا طريقَ أمامِي سوى الغوصِ في تدرُّجاتِ ألوانِ بغداد اللامُتناهيَة: رمادي فاتحٌ، رمادي قاتمٌ، رمادي أزرقُ، رمادي أحمرُ. هل يوجدُ رسَّامٌ يصلُ إلى عبقريَّةِ الربِّ؟ أسألُ رُوحي مرَّةً أُخرى عن الألوانِ وأتابعُ تدُّرجاتِها يا أبِي. أنتُم لا تعرفُون هذه الألوانَ في ضبابِ لندن.

يخيِّمُ صمتٌ ثقيلٌ على بيتِها في تلك الليلة.

وأنتِ، يا ماري، تُمارسين واجباتِكِ ببراعةٍ وكفاءةٍ، أنتِ كنزٌ، تُبهجُكِ الأشياءُ الصَّغيرةُ، وتَجعلين البيتَ أكثرَ فَرحًا بحُضورِك، تَبعثين السِّحرَ في أرجائِه، في الشُّروقِ والغُروبِ، هل هو الذَّكاءُ الأرمَنِيّ الذي حاولَ الأتراكُ خنقَهُ؟

تنهدّتْ ماري بحُزن:

أتمنَّى أن تَكوني بأحسنِ حالٍ يا خاتون.

ثم أسندتْ ماري رأسَها إلى وسادتِها وبدأتْ تتذكَّر: لم تكُنْ الخاتونُ هكذا قبلَ سنواتٍ، فهي الآنَ حينَ تَستيقظُ في الصَّباح، تهرعُ إلى حديقتِها السّريّةِ في الهواءِ الطَّلقِ، تُصلِّي إلى شمسِ بغدادَ السَّاطعَة، ووجهُها مليءٌ بالأملِ، تنتصِبُ على الشُّرفةِ كأنَّها تخاطبُ جُمهورًا ينتظرُ كلماتِها، لا شيءَ سوى الكلماتِ، في بُرجِها هنا، ولا تُريدُ مُقابَلَة أحدٍ: العزلةُ جنّةُ الإنسان. إنَّهم يُقدّسونَني ولكنَّهم لا يُحبُّونني، دجلة رفيقي في الجَريانِ والتفكيرِ والتأمُّلِ. لَطالَما كرهتُ الدُّمى التي تدورُ مِنْ حولِي، بعُيونٍ زُجاجيَّةٍ مُقرفةٍ، يُفزعُني الحُبُّ والفجْر.

في تلك الليلةِ، خلدتْ إلى النَّومِ، وإلى جانبِها علبةُ أدويتِها، وتكلَّمتْ معِي بغَرابَة: ماري، حاوِلِي أن تَجدِي أحدًا يَعتنِي بكَلبِي.

عمرُك طويلٌ. ياخاتون.

لكنَّ النَّائِمَ كالميْتِ، يا ماري.

نومُ العَوافي.

أيقِظيني عندَ الفجرِ ولا تَنسِي أستكانةَ الشاي العِراقي.

تُصبحين على خيْر، خاتون. أيقِظيني عندَ الفجْر. كانتْ آخرَ كلماتِها. علّقتْ على جُدرانِ غُرفتِها صُورَ مُقتنيَاتٍ ثمينةٍ، وأصرَّتْ على تَدشِينِ المُتحفِ في الأيَّام المُقبلَة. وقفتْ أمامَ خزانَةِ ثيابِها وهي تتهيَّأُ لمُقابلَةِ المَلكِ كما لو أنَّها ستُقابلُه لآخرِ مرَّة.

ماري....

نعمْ خاتون.

ماذا أرتدِي اليومَ للقاءِ الملك؟

هذا الثوبُ الحَريريّ الذي أرسلَهُ لكِ والدُكِ؟

هل أنتِ مُتأكِّدة أنَّهُ جَميل.

نعم يا خاتون، جميلٌ ويَليقُ برشاقتِكِ، ولكنْ ألا يَبدُو الثوبُ الأحمرُ مُتنافرًا مع الجاكيتْ الأسود؟

كلّا يا ماري. الأسودُ يتزاوجُ مع الأحمر، هل تَعرفين أنَّ الأحمرَ والأسودَ عنوانُ رِواية سْتنْدال؟

رواية؟

نعم. قِصَّة..

لماذا لا تَضعين المَساحيقَ، يا خاتون؟

اللقاءُ رسْميٌّ يا ماري، والمَساحيقُ في نظرِكُم أنتُم العراقيّين تُنقصُ مِنْ وَقارِ المرأة.

ثم نظرتْ إلى الفَساتينِ الفارسيَّةِ، المُبهرَجَةِ مع الياقوتِ المَصقُول، المُخصَّصةِ للحفلاتِ التي هجرتْها في أيَّامِها الأخيرة.

ماري.

نعمْ خاتون.

هل يمكنُ أن تُشغِّلي أسطُوانَةَ موزارتْ على الغرامافون؟

موسيقى موزارتْ على إيقاعِ جَريانِ نهرِ دجلة في انهمارِ ضوءِ القمرِ وانعكاساتِه، تُرافقُه مرارةٌ، صدأٌ، وخيبةٌ، مرَّ طيفُ مُستَشارِ الملك، كُورنواليس مرورًا سريعًا في ذهنِها، رجلٌ ألقتْهُ

الإمبراطوريَّةُ في طريقِها كما هو الحالُ مع هنري وريتشارد، دارتْ في حلقةٍ من الرِّجالِ الرسميّين، ما بينَ الحربِ والدبلوماسيَّة، الأمرُ مُختلفٌ مع هذا الرَّجلِ، لكنَّ نُفوذَها يتراجعُ بخيبةِ أملٍ وإحباطٍ شديدَيْن. هنري دوبس، المَندوبُ السَّامي الجديد، لم يُبدِ حماسًا لأفكارِها، عدا بعضِ مُجاملاتِ دعواتِ العشاء. والحالةُ نفسها مع الملكِ الذي تخلَّى عن طلبِ مَشورتِها السِّياسيَّة، بل عبَّرَ عن ضيقِه من مُحاولاتِ دسِّ أنفِها في الأُمورِ العُليا، دُون أن يقطعَ معها تَناولَ الشاي أو لَعبَ البريدجْ من حينٍ لآخر. عزلةٌ تنخرُ رُوحَها شيئًا فشيئًا، أطبقتْ عليها كليًا. واختفتْ مِنْ حياتِها كتابةُ اليوميَّاتِ والرسائلِ. وفي هذا الأفقِ المُكلَّلِ بالسَّوادِ الحالكِ، برقَ آخرُ عملٍ لها في إنشاءِ مُتحفِ بغدادَ الذي افتتحَهُ الملكُ، لكنَّها لم تلبثْ أن عادتْ إلى حياةِ العُزلةِ والاكتئابِ، مع وُرودِ أخبارٍ عن تَدهوُرِ صحَّةِ والدِها، لم تذهبْ إلى بريطانيا: لديَّ انطباعٌ قويٌّ بأنَّ الأُمورَ تصلُ إلى نهايتِها، ولا شيءَ مُؤكَّدٌ عمَّا سأفعلُه بعدَ ذلك. لا أحدَ ينتظرُني في دارِ الاعتمادِ البريطاني ولا في دائرةِ المَندوبِ السَّامي، ولا في أيِّ مكانٍ آخر.

الكتابةُ مثلُ الرَّقص

داخَ المُؤرِّخون في أمرِ الرَّاحلةِ ردحًا مِن الزَّمن. تخوَّفَ البريطانيُّون مِنْ قرارِ الخاتون بتَنصيبِها مَلكًا غريبًا على العِراقيّين. هنري دوبس قالَ بخُبث: العِراقيّون أنبياءٌ ومُتسكِّعون، مُقيمون ومُهاجرون، مُنافقون وشُجعان، أشدَّاءُ ومُستَرْخون، فُحولٌ ومُخنَّثون، مُتنبِّئون وخُرافيّون، علماءُ ومُشعوِذون....

ضحكَ الأفنديَّة في مَقاهي بغداد على هذا الكلام، وهم يتساءلون: هل سيُلاقي هنري دوبس الطَّاعون العِراقي مثلَ الجِنرال ستانلي مود؟ بينما أقسمَ رجالٌ آخَرون أن يقصِمُوا ظهرَ هذا الوغدِ اللّعينِ الذي تجرَّأ على شتْمِهم. ولكي يحافظَ على قبرِ الخاتون، عيَّنَ حارسًا عليه، يستلمُ راتبَه بالجُنيه الإسترلينِي لا بالدّينارِ العِراقي، واعتبَرَ مقبرةَ الإنجليزِ جزءًا مِن الأراضِي البريطانيَّة. وهذا ما بعثَ الخوفَ في نُفوسِ العابثين ونابشي القبور، وخفَّفَ مِن حماستِهم في الانتقامِ مِن الموتى الإنجليزِ رغمَ إيمانِ العِراقيّين بتَقديسِ الموتى، ووضعِهم في مَنازلَ رفيعةٍ كما فعلتْ آلهتَهم.

لم ينتهِ الجدلُ الذي أثارتْه الخاتون في مَقاهي بغداد برَحيلِها: لا العُثمانيون المُنهزمون ولا الإنجليزُ المُنتصرون. كلاهُما لم ينجحوا في تهذيبِ أرواحِ العِراقيين، وتعاملوا مع الخاتون كَساحرَةٍ كلماتٍ في سردِ حياتِهم فيما توغَّلَ عُشّاقُها مِن المُؤرِّخين وكُتّابِ السيَرِ والشُّعراءِ في عمقِ حياتِها أكثرَ فأكثر، وحرصُوا على زيارةِ قبرِها، حاملين أكاليل الزُّهورِ، تتنازعُهم فكرةُ الغِيرَةِ والنِّفاقِ، الصَّمتُ والثرثرةُ، وهم يصبُّون جامَ غضبِهم على الإمبراطوريَّةِ التي لا تَغيبُ عنها الشمْس. كانوا يَقفون خَجلين مِنْ عباراتِها البليغةِ، وأدَبِها الرَّاقيَ، وكلماتِها الرّصينة، ودبلوماسيّتِها الشفَّافة. ظلَّ الرقصُ على إيقاعِ الإمبراطوريَّة يرّنُ في آذانِهم، وهم يُوارونَها التُّراب، مِنْ دُون أن يُدركوا أنَّهم يشيدون قبرًا خالدًا وسطَ الخرائبِ، حيثُ لا تتجرَّأ أيَّةُ حكومةٍ مهما أُوتيتْ مِن القوَّة أن تتصرَّفَ بأرضِ المقبرة. وحارسُها الأبدي ابنُ منصور، المسيحيّ الساخرُ مِنْ كلِّ شيءٍ، استلمَ وظيفتَه على أنغامِ النشيدِ الوطنِيّ البريطانيّ وترديدِ القسَمِ «ياربُّ احفظْ ملكتَنا»، وقالَ لهم ساخرًا: إنَّه يرفضُ الجنسيَّةَ البريطانيّة وليس بحاجةٍ إليها. جِنسيَّتي تمتدُّ إلى سبعةِ آلافِ سنة؟ أيُّها الأحمقُ، هل يوجدُ شخصٌ على الأرضِ يرفضُ الجنسيَّة البريطانيّة؟ هكذا كان مَنصور يفتخرُ بأبيه ويعتبرُه بطلاً كلَّما ذَكرُه الآخرون. وهو الذي قامَ بتَرميمِ قبرِ الخاتون، وحافظَ على شاهدتِه الأصليَّة، وهو يتذكَّرُ: أثناءَ مرورِ بيرسي لورين، سفير بريطانيا لدى إيران في بغداد، أقامَ المَندوبُ السَّامي على شرفِه حفلةَ عشاءٍ عامرةَ، وقدَّمتْ فيها الراقصاتُ الرُّوسيَّاتُ عروضًا ساحرةً مِنْ حركاتِ الجسدِ الرَّشيقةِ جعلتْ الحاضرين يرقصون في مَقاعدِهم: تفرَّجنا عليهنَّ، وهُنَّ يلوينَ خُصورَهنَّ ببراعةٍ ومَهارةٍ خلبتْ أرواحَ المُتفرِّجين، وحرَّرتْ أجسادَهم مِن الخُمولِ والكَسل، سحرتْهم الأشكالُ الهندسيَّةُ البارعةُ مِن الأجسادِ الأُنثويَّة، فيما انزوت العِراقيَّاتُ وراءَ العباءاتِ السَّوداء. انبهرتْ عيْنا الخاتون بذلك الألقِ الأُنثوي الرُّوسي، ورُبَّما كانت تلك

آخرَ مرَّة تشهدُ فيه حفلةً كهذه، ولم تُسعفْها خُطى الحياةِ إلى مثلِ تلك الحفلات. لم تكتبْ شيئًا في تلك الليلة، بل آوتْ إلى فراشِها بكل سَكينةٍ وطمأنينة، الكتابةُ مثلُ الرَّقصِ، كلاهما يَصهرُ الأعماقَ، ويُفجِّرُ الكُتلَ الجامدةَ في الجسدِ مثلَ يُنبوعٍ مُتفجِّرٍ أو فَيضانٍ هادرٍ، ولطالَما تساءلتْ الخاتون: ماذا تَعني الكتابة؟ أليست مُراقصةَ الكلماتِ وإزالةَ وَقارِها الكاذبِ ونفضَ الغُبارِ عن قواميسِها؟ لم تتركْ الخاتون أيَّةَ وصيَّةٍ سوى أقوالٍ مثلَ: احذروا لعنةَ التاريخ، المُنتصرُ فقيرٌ بخيالِه، والمَهزومُ غنيٌّ بأسرارِه. لكنَّ عزاءَها الأخيرَ، كما قالَ مُستشارُ الملكِ، أنَّها دُفنتْ في بَغداد، في مَدفنِ العُظماء، البانتيون الرُّوماني الذي يُخلِّدُ المَوتى ويمنحُهم الروحَ الأُسطوريَّة التي يبحثُ عنها الأحياءُ والأمواتُ. ولا تزالُ الخاتونُ تُبصرُ مِنْ قبرِها نُصبَ الحريَّة، جِداريَّةَ فائق حسن، نُصبَ الطَّيارين، وحانَةَ الرافدَيْن، وغيرَها، فيما يَنحني المارَّةُ عندَ أسوارِ المقبرةِ البريطانيَّة في ساحةِ الطَّيران، احترامًا لما أنجزتْهُ: اختيارُ الملكِ، تَأسيسُ المُتحفِ، إنشاءُ مكتبةِ السَّلام، كتابةُ الدُّستور، وغيرُها مِن المَهامِّ، نوعٌ مِنْ برجِ بابِل، زقُّورةٌ رُوحيَّةٌ يتسلَّقُ طوابقَها ومُدرَّجاتِها العراقيُّون بالعُكّازاتِ، يأمَلون الوُصولِ إلى مكانٍ ما ولكنْ عبثًا، يَدورون حولَ أنفسِهم في لعنةِ البلْبلَة التي شتَّتَتْهم في أصقاعِ الأرضِ، بحثًا عن طُمأنينةٍ زائفةٍ، وهم يبكون الآنَ على قبرِها الرُّخامي ويتضرَّعون إلى السيِّدةِ المُبجلَّة. في تلك اللحظةِ، أعلنتْ إذاعةُ بَغداد أنَّ الملكَ أصدرَ أمرًا مِنْ خارجِ البلادِ إلى نائبِه الأمير عليّ بتنظيمِ جنازةٍ عسكريةٍ للخاتون، ولَفِّ جُثمانها بالعلَمِ العِراقي، ونقلِها في سيارةٍ مَكشوفةٍ إلى المَقبرةِ البريطانيَّة، بمُرافقةِ أركانِ العائلةِ المَلكيَّة ومُمثليّ الحُكومةِ البريطانيَّة وأفنديَّةِ بغدادَ الَّذين راحُوا يتدافعون لحملِ نعشِها إلى مَثواها الأخير، ويقدِّمون اعتذارَهم الباطِنيّ لها: الخاتون احترمتْ آلهتَنا وكُنوزَنا، وكافحتْ لُصوصَ الآثارِ مِن الفرنسيّين والألْمان. هل هي المرأةُ الرَبُّ؟ نحن الوحيدين الذين نمتلكُ آلهةً إناثٍ فيما كلُّ آلهةِ الغَربِ مِن الذُّكور. مَنْ الذي يتذكَّرُ ذلك؟ الفلاسفةُ وحدهم. بينما استعادَ المُشيِّعُون تَفاصيلَ حياتِها بعدَ عودتِهم مِنَ مَراسمِ الدَّفنِ كما لو أنَّهم استيقظوا على صَحوةِ كتابةِ سيرتِها، ووَجدوا أنفسَهم عاجزين عن ذلك، التاريخُ المُوازي لحياتِها مليءٌ بالأسرارِ والألغازِ والطَّلاسِمِ، سيرةٌ لا تشبهُ سيرةَ النساء.

قبلَ ثلاثةِ أيَّامٍ فقط، كانتْ تتهيَّأُ للاحتفالِ بعيدِ ميلادِها الثامنِ والخمسين. بكتْ ماري، وهي ترتِّبُ أكاليلَ الزُّهورِ التي وفَدتْ إلى منزلِها مِنْ كلِّ مكان، وضعتْها في إحدى زوايا غرفتِها، وهي تتحسَّرُ وتتنهَّدُ وتردِّدُ في نفسِها: كان لَيكونُ يومًا استثنائيًا لا يُنسى في حديقةِ منزلِها، لم نكنْ ننتظرُ أكاليلَ الموتِ، والخاتونُ تنظرُ إليها مِنْ وراءِ قبرِها. وما بين النَّومِ واليقظةِ، تُبصرُ الخاتونُ البساتينَ الخضراءَ الكثيفةَ التي انتشرتْ على ضفافِ دِجلةَ، تخيَّلتْ أيامَها الماضيةَ بحنينِ جارفٍ، رغمَ تقلُّصِ حدودِ مَملكتِها، وتاقَ قلبُها إلى مُنتجعاتِ الآلهَة، والسَّراديبِ المُظلمة، بصُحبةِ أدواتِ زينتِها الطِّينيَّة، ومَساحيقِها الحَجَريَّة، وأمشاطِها العاجيَّة. وفي استرخائِها على سريرِها، هامتْ في رأسِها فكرةٌ تسمعُ أصداءَها الآن: نحن نصنعُ المُلوكَ لتلكَ الشُّعوبِ، وهي نائِمةٌ. جُرحٌ ظلَّ في ذاكرةِ العِراقيّين. ولكي تخفِّفَ مِن عبارتِها القاسية، أضافتْ: لا سُلطان بعدَ جَلجامِش وآشورَ بانيبال وهارون الرشيد... حكمُوهم أكثرَ مِنْ أن تحكمَهُم آلهتُهم. كان هناك مَنْ يراقبُها ويدوِّنُ: وقفتْ على شرفةِ بيتِها مَليئةً بالأوهامِ، مثلَ مُحاربٍ مَهزوم، تعدِّلُ قُبَّعتَها، وتسألُ خادمتَها ماري: هل يمكنُ أن أتناولَ أستكانةً مِن الشَّاي العِراقي في الشُّرفة؟

كانَ جسدُها الأُنثَوي الذي تخاطبُه في المرآةِ في تلك اللَّيلةِ يَذوي ويذبُلُ أمامَ عقلِها، ثم رفعتْ

حفنةً مِنْ تُرابِ حديقتِها، ونثرتْهُ في الهواءِ: هل سوفَ يكونُ مُستقبلُ البلدِ مثلَ هذا النُّثار؟ بدأتْ الشجرةُ في حديقةِ منزلِها بالانحناءِ، التوى جذعُها، وجفَّتْ أغصانُها، ولا تزالُ النُّجومُ تُزيِّنُ سماءَ بَغداد: لم أفقدْ بوصلَتي بعدُ، تجذبُني نزهةُ التجوُّلِ بين أرجاءِ المَملكة، وعَزائي أن تَمدَّني حكمةُ أساطيرِ البلدِ وآلهتِها بالأمَل، وتُنقذَني مِن اليأسِ والإحباط. هذا هو الشَّرقُ، التجلِّي، وسطَ اليَنابيعِ، بين روائحِ الجنَّة. مِنْ هُنا مرَّ البنَّاؤون الأُسطوريُّون، وتَركوا خرائطَهم، شيفرةَ اللُّغاتِ وألغازَ المَوتى. ولطالَما خدعتْني طُمأنينةُ لُغتي وتركتْني للمَتاهة، في صَحراءِ النحَّاتين المُغامرين، الذين يَصنعُون التَّماثيلَ مِن الرِّمال. لم أعدْ أهتَمُّ بالمُؤامراتِ التي تُحاكُ ضدِّي، فكلُّ شيءٍ انتهى الآن، وقريبًا سنُصبحُ لُعبةً في إغواءِ التاريخ، وتَبقى مَملكتِي بحاجةٍ إلى المُوسيقيّين والنحَّاتين والفَلَكيّين ليَسبرُوا أعماقَها ومَسالِكِها؟ أضحكُ في سرِّي لصُورتي التي يصفُّها أفنديَّةُ بغدادَ: شعرُها النُّحاسيُّ اللَون، وعيناها العَسليَّتان المَائِلتان إلى الزُّرقة، وبشرتُها البرَّاقةُ البيضاءُ، المَوشومةُ بنقاطِ النَّمشِ الصَّغيرةِ، وأنفُها المُدبَّبُ الطويلُ، وقامتُها المُتوسِّطةُ، وبَقايا أُنوثةٍ ذابلةٍ، ورغبةٌ مُلحَّةٌ في مُعاندةِ الحياة. المُعجزةُ التي ظلَّتْ تُحدِّقُ في شجرةِ الضِّياء، وتفترشُ ظلَّها على الأرض. تسألُني المرآةُ: لماذا هذا الشُّحوبُ والاصفرارُ؟ فيما تنظرُ إليَّ البَغداديَّاتُ بانبهار، وهُنَّ يُخفينَ أُنوثتَهنَّ تحتَ عَباءاتِهنَّ السَّود، ويَتظلَّلنَ في أزِقَّةِ بغدادَ الضَّيقةِ، ويُردِّدنَ: ماذا تفعلُ الخاتونُ عندَنا؟ ولحِسابِ مَنْ تَعملُ؟ إنَّني أعملُ لحِسابِي وليسَ لحِسابِ أحدٍ. قليلون يعرفون ذلك. لا أجدُ مَنْ يُصغي لإجابَتِي في هذا الصَّمتِ الرَّهيب. ولطالَما وجدتُه جذابًا ومُتألقًا، ومُنزويًا مِثلي في رُكنِه الهادئ. نحن مَوجودان معًا، الصَّمتُ وأنا، يتربَّصُ بنا القمرُ باحثًا عن أسرارِنا، وهو يردِّدُ: هذه المرأةُ الضَّالةُ التي تركتْ أهلَها واختارتْ أن تكونَ ابنةَ الصَّحراء، بحثًا عن القمرِ التَّائِهِ في السَّماء. قد أبدُو تلكَ التعيسةَ التي تُردِّدُ أغنيتَها الحزينةَ، ولا أحدَ يصدِّقُ حزنَها، قد يقرعُ ناقوسِي دقاتِّه الأخيرةَ. مَنْ يدري؟ وهُناك على الدَّوامِ مَنْ يفتَتِنُ بأحاديثي بعدَ حين، وفي ذلك عَزائي. ما من حُرٍّ يَستهوِي الرَّذيلةَ والخَطيئةَ إلا الوُضَعاء. قالتْ البَغداديَّاتُ: لم تلبسْ الخاتونُ العباءَةَ السَّوداءَ أبدًا. رُبَّما ستكونُ أكثر إغراءً وأُنوثةً، جمرةٌ مُشتعلةٌ تغلِّفُ أجسادَهنَّ باللهبِ. في أيِّ يومٍ نحن؟ لم يُسعفْ ذاكرتَها ذلك التقويمُ المُعلَّقُ على الجدار. فيما طلبَ مِنها عُشَّاقُها أن تُخبرَهم عن مُستقبلِ أولادِهم الحائرين في ظلِّ الإمبراطوريَّةِ الجديدةِ بعدَ أن ودَّعوا الإمبراطوريَّةَ القديمةَ. لا يَبخلُ العراقيُّون بطلبِ النصيحَةِ، ولا يجدُ الغربُ طريقَه إليهم إلّا عبرَ الآلامِ والآثامِ، يتكاثرُ الأعداءُ مِنْ حولي كما يتكاثرون حولَ المَلك، ويتجسَّسُون على حُصونِ قلعتي، تَجسَّسُوا عليَّ بما فيه الكفايةُ، رَشُوا حُراسَ بواباتِها مِنْ أجلِ الدُّخولِ إليها، والعبثِ بمقدراتِها، تمامًا كما عَبثوا بقلاعِ الملكِ وحُصونِه، واندسُّوا في حلكةِ الليلِ إلى مَخدعِه، وهدَّدُوه بالقتلِ إذا لم يرحلْ عن البلادِ، ويتركْ لهم العرشَ. ها أنا أتركُ لهم عرشِي، إلى هؤلاء الذين يرتدون الأقنعةَ، ويتماهون معها. وإذا ما عرفنا طبائعَ العُشَّاقِ، لن يكونَ صعبًا أن نفهمَ ضعفَهم، حتى لو كانوا مُزوَّدين ببوصلتِهم في الصَّحراء، فكيفَ لي إنقاذُ إمبراطوريَّتي مِن الهلاكِ والأعداءُ يَحومون حولَها؟ ورُحتُ أستغرقُ في العملِ ليلَ نهار، وأدفنُ نفسِي في خرائطِهم الخفيَّةِ، ومُجابهةِ ما يفكِّرون به. كنتُ أعثرُ على خرائطِهم في أعماقِ الأرواحِ ومَجاري الأنهارِ ومَغاراتِ الكلماتِ وحرارةِ الشَّمس. وفي هذا البحثِ اللامُجدي، كنتُ أسألُ المِعماريّين عن مَعنى وجودِنا على هذه الأرض بدون أبراجِ المَعرفة؟ لا أحدَ يمتلكُ الإجابةَ، حتى لو وجَّهتُ أسئلَتي إلى السَّحرةِ والمُشعوذين. لكنَّ عزائي أنَّني أعرفُ عظَمةَ الحُبِّ وسُموَّه في الأشجارِ التي تنبتُ في رُؤوسِ العُشَّاق، مثلَ عُشبةٍ تنبتُ بين حِجارتَيْن مُعلقتَيْن في قمَّةِ الجبلِ، تتغذَّى على قَطراتِ النَّدى الليلي

وتتنفسُ العواصفَ. وعندَما تنقضي الأزمنةُ، تسقطُ مِن المكانِ الشَّاهق، ويتحوَّلُ كلُّ شيءٍ إلى نُثارٍ وسَديم في أرواحِ الرَّاكبين عربةَ الحُبِّ المَجنونة، ويشمُّون أريجَ الجُوري والقُرُنفلِ واليَاسَمين، وينظرون بفرحٍ وابتهاجٍ إلى ألوانِها البرَّاقةِ، كلَّ ذلك في طريقِه إلى الاختفاء: لا تَمزُجي بين الحُبِّ والنَّشوة، رُبَّما العاشقُ هو الوحيدُ الذي يموتُ مِن أجلِ مَملكتِه. هكذا أُوهمُ نفسي بأنَّ الحُبَّ الحقيقي ما هو إلّا ذلك الضوءُ الذي يملأُ عينَيْ العاشقِ، فيضطَّرَ إلى إغماضِ عينيْه خجلاً. وأتساءلُ في سرِّي: مَنْ الذي انتصرَ في الصَّحراءِ الحُبُّ أم الإرادة؟ يتدفَّقُ نهرُ دجلةَ مِثلما كان في بدءِ التاريخ، وكم تمنَّيتُ أن أكونَ رسَّامةً في تلك اللحظةِ لأخلّدَ بريشتي تلكَ المناظرَ البغداديَّةَ في لوحاتٍ زيتيَّةٍ تصلحُ لتعليقِها في مُتحفِ لندن لكنَّ عبقريَّةَ الرَّسمِ لم تكنْ لتُسعفُني لتخليدِ ما تحلمُ به هذه المدينةُ. ما الذي يُحرِّكَ خيالَنا أهو الحُبُّ أم الجُنونُ أم الطَّيشُ أم الرَّغبةُ في انتزاعِ قبرٍ في الأرض؟

وجهُ قناعٍ مِن البرُونز

تنامُ وتَصحُو مِن إغفاءَتِها الحالمَة، وتَستسلمُ إلى نومٍ عميقٍ، فيما ينسابُ صوتُ ماري ناعمًا ورقيقًا في أُذنِها، تستيقظِ على بَقايا حلمٍ عالقٍ في رأسِها. في ليلَةِ الثاني عشرَ مِن يُوليو أخذتْ الخاتونُ حمَّامَها اللَيلي المُعتادَ، وقالتْ لخادمتِها ماري: أَيقظِيني عندَ الفجْر. وذهبتْ إلى النَّوم. رأتْ ماري حلمًا فيه مَلائكةٌ، ذاتُ أجنحةٍ مُلوَّنة، تزورُ الخاتون ليلاً وقتَ اعتادتْ سيّدتُها أن تسيقظَ عندَ الفجرِ وتَتنزَّهَ في الحديقة، سارعتْ إلى إيقاظِها، ولكنَّها ترَدَّدَتْ في اللحظةِ الأخيرة، ولم تُعرْ أهميَّةً لعُلبةِ الحُبوبِ المُنِّومة، المَركونَةِ بجوارِ سريرِها، جالتْ بنظراتِها حولَ الغرفةِ كأنَّها تريدُ أن تعرفَ تلكَ الجَلبةَ التي أحدثَها خروجُ شيءٍ ما مِنْ نافذةِ غرفةِ نومِها المَفتوحةِ مثلَ اصطدامِ جسمٍ بالسَّتائر، وتساءلتْ: هل كانتْ الملائكةُ تنتظرُها عندَ الفجر؟

في تلك الليلةِ، حلمتُ بأنَّ الخاتونَ عاجزةٌ عن الاستيقاظِ مِن النَّومِ، فصرختُ: خاتون.. خاتون، خاتون... وركضتُ إلى خارجِ الدَّارِ، أستنجدُ بالمارَّةِ في الطريقِ، لكنَّني سرعانَ ما هرعتُ إلى غُرفةِ الخاتون، فوجدتُها غارقةً في نومٍ عميقٍ، فعدتُ إلى فراشِي، مِنْ دُون أن أُوقظَها عندَ الفجْر، كما أوصتْني لأنَّ لا شيءَ يَنتظرُها في الخارجِ، ولا مَوعدَ لها إلّا اللّهُمَّ مع الفجرِ. كان وجهُها أكثرَ بَياضًا كأنَّه يرغبُ في التوحُّدِ مع لونِ الفجرِ، هذَا المزيجُ العجيبُ مِن الأبيضِ والرَّمادي والأزرقِ الذي طالما تحدثتْ إليَّ عنه ساعاتٍ طويلةَ أيَّامَ كان القمرُ يسطعُ فوقَ رُؤوسِنا، ويجعلُنا نَغوصُ في أحاديثَ لا تَنتهي إلّا مع بُزوغِ الفجر. ولم تكُفّ الخاتون عن أن تقولَ لي: ارقُصي يا ماري. لا تَخجلي مِن الرَّقص، فهو هبَةٌ ربَّانيّةٌ، قد تتعلَّمُ الأقدامُ الخطواتِ، لكنَّ الرُّوحَ هي التي ترقُص.

هل تَعلمين أنَّ الأرمَنيَّ أفضلُ مَنْ يُراقصُ المرأة؟

أليستْ جريمةً أن يُبيدَ العالمُ شعبًا يعبدُ الرَّقص؟

عندَما يسمعُ الأرمَنيُّ المُوسيقى، يبدأُ جسدُه بالتنمُّلِ، ثم يهُبُّ مِن مكانِه ليَرقُصَ.

أحيّيكِ يا ماري، هُناك على الدَّوامِ، مُهندسٌ كبيرٌ وراءَ كلِّ رقْصاتِنا، يحرِّكُ جذوةَ الشَّجرةِ التي تَجدينهَا واقفةً في الحديقةِ بأغصانِها في وجهِ الرِّياحِ بصبرٍ وعَناد. السَّعادةُ، يا ماري، ثمرةٌ يجبُ أن نَتذوَّقَها قبلَ أن تفسدَ، نحن يا ماري، في نهايةِ المَطَافِ مَخلوقاتٌ لا تستطيعُ تحدِّي الرَّغباتِ، لكنَّني تجرَّأتُ وفعلتُ ذلك والآنَ أدفعُ ثمنَ ذلك، ما نفعلُه الآنَ ندفعُ ثمنَه غدًا. أنا مُجرَّدُ امرأةٍ عابرةٍ في سَديمِ وادي الرافدَيْن.

السَّعادةُ هي الحُبُّ يا خاتون؟

ضحكتْ الخاتونُ بألمٍ.

كلٌّ منَّا يحملُ حبَّه في قدرِه.

تقودُنا الحكمةُ الأرمَنيَّةُ إلى الصَّبرِ أو إلى الانتحار.

الأرمَنُ شعبٌ حكيمٌ بالفِطرة.

ألا تَملِّين مِن القراءةِ والكتابةِ، يا خاتون؟

الكلماتُ ساحرةٌ، يا ماري.

أنا لا أقرأُ لكنَّني أنظرُ إلى النُّجوم.

النُّجومُ هي التي تَقرأ.

انبلجَ الفجرُ لكنَّ وجهَ الخاتون ظلَّ كما هو لم يتغيَّرْ مثلَ وجهِ قناعٍ مِن البرُونز، كأنَّها على مَوعدٍ مع آلِهةِ وادي الرافدَيْن، وهي تَهذي في الحُمَّى: لا أعودُ إلى لندن، بغدادُ تغمرُني بشيءٍ لا أعرفُه.

تساءلتْ ماري:

هل كانتْ الخاتونُ ترغبُ بالطَّيرانِ فوقَ الغُيومِ عندَ الفجر؟ الرُّوحُ لا تخرجُ مِن الجسدِ مِنْ دُون ضَجيج.

حضرَ الطبيبُ دَنلوب، وأنا أراقبُ مَصيرَ الخاتون في مَلامحِ وجهِه، وهو يخرجُ مِنْ غُرفتِها، وأنا أصرخُ: دُكتور، دُكتور، أرجوكَ طمئِنِّي... صمتَ ولم يتكلمْ، فانفجرتُ بالبُكاءِ. ثم سألَني:

هل كانتْ علبةُ الأقراصِ المُنوِّمة مليئةً؟

أجلْ. دُكتور.

رفضَ الطبيبُ تشريحَ جُثتِها، قائلاً: لا أريدُ أن أُشرِّطَ عذريَّةَ هذا الجسَد.

وخيَّمَ الوُجومُ على أزِقَّةِ بغداد ودرُوبِها في ذلك اليوم. بَرَقَ الموتُ بومضتِه المُفاجِئَة. العُظماءُ يُودِّعون الحياةَ عندَ الفجرِ على الدَّوام.

اكتظَّتْ ساحةُ الطَّيرانِ بالسيَّاراتِ والعرباتِ، تُرافقُها فرقةٌ عسكريَّةٌ مِن الحرسِ البريطانيّ، ونخبةٌ مِن الشَّخصيَّاتِ، بينَهم المَندوبُ السَّامي هنري دوبس، جاؤوا لمُرافقةِ الخاتون إلى مَثواها الأخيرِ. لم يبتهجْ أحدٌ برحيلِها لأنَّها أخذتْ جزءًا مِنْ أرواحِهم معها، حتى الذين كانوا يُناصبونها العداءَ. وقفوا يَنظرُون إلى رأسِها المَكشوفِ في النَّعشِ المُسجَّى، مِنْ بينِهم مُستشارُ الملكِ كينهان

كورنواليس، مُردِّدًا: ماتتْ شمعةُ البلاط. برحيلِها، ذهبَ طعمُ قِبابِ بغدادَ الذَّهبيَّة، استعرضَ جُنودُ الإمبراطوريَّة الموتَ بكلِّ بهاءٍ وخُشوع. والمُشيِّعون مِنْ كبارِ مُوظَّفي البلاطِ والمُستشارين والقادةِ أنزلُوا نعشَها بحِبالٍ إلى حُفرةِ القبر، يلفُّ وجوهَهُم الحزنُ. وأخذَ الضَّريحُ الصَّخريُّ وهو يتشكَّلُ طابوقةً إثرَ أخرى، يبعثُ القَشعريرَةَ في أَرواحِ يَتامى السيِّدةِ المُبجَّلة.

أينَ تعلَّمتْ هذه المرأةُ النَّحيلةُ مُحاكاةَ المُلوكِ والسَّلاطين والتحكُّمَ بالسُّلطة؟

هكذا تساءلَ المُشيِّعُون.

آه... طفلةُ الإمبراطوريَّةِ المُدلّلةُ تحملُ قِيمَها إلى قبرِها. فيما سخرَ البعضُ مُخترقًا رهبةَ الموت.

كانتْ تصلحُ أن تكونَ راقصةَ بَالِيهْ أكثرَ مِنْ أن تكونَ سِكرتيرةً شرقيَّةً للمَندوبِ السَّامي!

في اليومِ التَّالي للدَّفنِ، تبرَّعَ الأفندية بتَشييدِ قبرِها بالطَّابوقِ الذَّهبي الذي راحَ يتلألأُ كصفحةِ المَرايا المُتموِّجةِ مع شُعاعِ الشَّمس. طوى الجميعَ آلامَهم وعادُوا مِن المقبرةِ التي سرعانَ ما حملَتْ اسَمها في قلبِ بغداد. وعلى الضفَّةِ الأُخرى مِن المَقبرة، كانتْ الآلِهةُ تحتفلُ برحيلِها إلى العالمِ السُّفلي، بتماثيلِها وآثارِها وكُنوزِها، التي أزالتْ عنها غُبارَ الزمن، ووضعتْها في مُتحفِها الصَّغيرِ، أبراجٌ عاليةٌ ومَعابدُ مَأهولةٌ، مثلَ شبحٍ أو طيفٍ تتنزَّهُ بينها بجسدِها النَّحيلِ، وتَسريحةِ شَعرِها، وثيابِها الباريسيَّةِ، وكعبِ حذائِها العَالي، وسطَ ابتهالاتِ الرَّاهباتِ العِراقيَّاتِ... في تلكَ الأثناءِ، هرعَ الحاجْ ناجي باضّطرابٍ إلى المقبرةِ، ليُلقي النظرةَ الأخيرةَ على صديقتِه الوفيَّةِ. تبادَلَ الحديث مع المَندوبِ السَّامي.

كنَّا نفكِّرُ بنقلِ نعشِها إلى العاصمةِ البريطانيَّة.

لا يستطيعُ أحدٌ أن يقفَ ضدَّ وصيَّتِها.

أنْتَ على حقّ.

لتنَمْ قريرةَ العينِ وسطَ أيقوناتِ بَغداد.

دبي

30 / سبتمبر/ 2016
ملاحظات وهوامش:
* لوحة الغلاف:

مِسْ بيل/ أبريل 1917. زيْت على الكنفاس 142 130 X سم.

استغرقَ العملُ على هذه اللوحة سبعةَ أسابيعِ مُتواصلة بلا توقُّف، وهي بمُناسبة اقترابِ الذكرى المئوية الأولى لاحتلال بَغداد. يجسّدُ المشهدُ جِهةَ جامع الآصِفية على اليمين ومن الأمام جامعُ الوزير بقبابِه الثلاث قبل أن تُهدمَ قُبتان وتبقى واحدةٌ بعد إنشاءِ جسر الشهداء، والمَشهدُ يبيِّنُ جنودًا بريطانيين من قُوات هَمبشاير البريطانية الهِندية بعد مُرور أكثرَ مِن شهر على احتلال بغداد في صَبيحة 11 مارس 1917والتي قد وصلتْ إليها غرترود بيل مِن البَصْرة في 15 أبريل 1917. وهنا مُشهدٌ افتراضي للَحظةِ وُصولِها بالسفينة مِن البَصرة، تَحتسي الشاي العراقي الذي تحبُّه كما ذكرتْه كثيرًا في رسائلِها لأَبيها في لندن، وخلفَها يقعُ جُسر الكطْعة بالقَوارب الخَشبية، وهي القواربُ الحَربيةُ البريطانيَّةُ في نهر دجلة. وتبيّنُ الأيامَ الأولى لمَظاهرِ الاحتلال البريطاني لبَغداد التي مِن أبرزِها تحليقُ الطائراتِ البريطانية في حينها في سماء بغداد. عملَ الرسَّامُ على جَمع مَصادرَ منذُ سنتين أي منذُ ربيع عام 2014، منها توثيقُ بناياتِ بَغداد وأزيائِها في تلك الحقبة، أهمُّها مُقتنياتُها الشخصيَّة، حقيبةُ السَّفر مَاركة لوي فيتون، والكاميرا نَوع سنشوري، وقلمُ حبرٍ باركر، وعلبةُ حبرٍ باركر قديمةٌ أيضاً، وَأمامَ الطاولة نسخةٌ من مَجلَّة (أخبار لندن) المُصورة (Illustrated London News) التي زيَّنتْها بغِلاف الجِنرال فريدريك ستانلي مود، الصَّادرة في الاول من آذار 1917 وفيها أخبارٌ عن قُرب احتلالِ بَغداد والجنرال في طريقِه نحوَ بَغداد قريبًا بعدَ معركة المَدائن. وكانتْ المجلةُ تنشرُ أخبارَ الحربِ العالمية الأولى ومن ضمنِها حملةُ ميزوبوتوميا ضدَّ الإمبراطورية العُثمانية. اللوحة ستَكونُ أيضًا غلافَ رِواية (خاتون بغداد) للرِّوائي العِراقي المُغترب الدكتور شاكر نوري، كما كان يُسمّيها أهالي بغداد، والذي يتزامنُ نشرُها مع اكتمالِ اللوحة.

(الرسَّامُ العِراقي مَحمود فَهمي عَبُّود المُقيم في كندا).

مصادر:

اعتمدتْ روايةُ "خاتون بغداد" على مَصادر هامَّة سواءٌ تلك التي أَلَّفتْها المِسْ بيل مثلَ "صُور فارسية" 1893، و"قَصائد إلهية مِنْ حافظ الشيرازي" 1897، و"الصَّحراء والثَّلج" 1887، و"ألفُ ووَاحد كنيسة" 1807، و"قصرُ الأُخيْضر" 1910، و"مُراد إلى مُراد" 1911، و"عربُ بلادِ ما بين النَّهرَيْن" 1918، و"بريطانيا العُظمى والعِراق: تجربةٌ في العلاقاتِ الأنجلو آسيويَّة" 1914، و"حربُ العرب" 1940، و"مُراسلاتُ مِسْ بيل في جزئَيْن" 1927 وغيرِها، والكتبُ المُؤلفةُ حولَها أو حولَ أعمالِها مثل "العراق في رسائلِ مِسْ بيل" ترجمة جَعفر الخَيَّاط 2003، و"غيرترود بيل: مِنْ أوراقِها الشخصية" إليزابيث بيرغوين، ترجمة نُمير عبّاس مُظفَّر، و"غيرترود بيل: ملكةُ الصَّحراء غيرُ المُتوّجة" أنتش. في. ونستون، ترجمة دار برزان للنشر (بعضُ الرسائلِ اعتمدناها من هذا الكتاب)، وما كتبَه عبد الرَّحمن مُنيف عنها. وغيرِها مِن الكتبِ والمُؤلفات في اللُّغتَيْن الانجليزية والفرنسية، والقائمةُ تطول لا مَجالَ لذكرِها جميعَها وخاصة المَقالات العديدة حولَها.

الخاتون:

جاءَ لقبُ خاتون مِن تأنيثِ كلمة "خاقان – تون" والتي تَعني "المَلك" أو "السُّلطان"، أي "خاتون السيدة أو المُعظّمة أو السُّلطانة"، وهو اسمٌ تركي يُطلقُ على زوجة الخَليفة وكلِّ امرأةٍ شريفة. استُخِدمَ هذا الاسمُ أيَّامَ التُركُمان السَّلاجقة وأُطلقَ على "خاتون العُصمة" بنتْ مَلِكشاه السَّلجوقي وزوجة المُستظهِر بالله العَباسي، واستخدمتْها الطبقةُ العالية لدى التُّرك قديمًا، يقابلُ هذا اللقبَ بالعَربية "سيدةٌ مِن سيِّداتِ الطبقةِ الرَّاقية لزَوجاتِ وبناتِ المُلوك والسَّلاطين". وكان المُؤرّخون في أكثرِ الحالاتِ يَنسون ذكرَ الأسماءِ الحقيقيةِ لمِثلِ هؤلاء الزوجاتِ والبَنات، ولا يذكروا إلا لقبَ خاتون فقط كابنة "مُعين الدين أنر" صاحبُ دمشق زوجةِ السُّلطان نور الدين زَنكي وزوجةِ السُّلطان مَلِكشاه السَلجوقي وابنته ووالدةِ السُّلطان مُحمد خَوارزم شاه سُلطان الإمبراطورية الخَوارزمية وغيرهنَّ الكثيرات في التاريخ.

جسر الخرّ:

أنشئَ في العام 1897 كانَ أولَ جِسر معدني يُنصب في بغداد أيام العثمانيين، فُكِكَ بَعدَ بِناء الجسر الحديدي و نُقل إلى قضاء الخضر في الديوانية.

*جزيرة هنجام الهندية:

هي الآن جزيرة بني ياسْ في الإمارات العربية المُتحدة حيثُ كانت جزيرةً وقريةً تابعةً للحُكومةِ الإنجليزية ومَقرُّها في الهند.

مَدرسةُ الأليَانْس اليَهودية:

كان العهدُ العُثماني زاخرًا في تأسيسِ العديدِ مِنْ المَدارسِ اليَهوديّة في بغداد وغيرِها مِن المُحافظاتِ العِراقية، وأوَّلُ المَدارس هي مدرسةُ الأليانس التي أَسستْها جمعيةُ الاتِّحاد الإسرائيلي في بَغداد في عام 1864 حيث تُدِّرس باللُّغة الفرنسية، وعهدتْ رئاستَها الى المستر ماكس بمُشاركة اثنَيْن مِن الحِرفيّين اليَهود الأوروبيّين وهما لورين ساعاتي وهيرمان روزنفيلد خياط، إضافةً إلى التعليمِ باللُّغات الإنكليزية والعِبرية والعَربية والتركية، وتدرِّسُ التَّلمود ومبادئَ اللُّغة العِبرية.

* تينتسين

في أواخرِ حُزيران عام 1858 وصلتْ القواتُ البريطانيةُ والفرنسيةُ إلى تينتسين القريبة مِن بِكين، وأرغمتْ حكومةَ الصّين على توقيع مُعاهدةٍ جديدة كان مِن شُروطِها فتحُ مُفوضيَّاتٍ لعَددٍ مِن الدُّول الأجنبية في بِكين (بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة وروسيا)، وكذلك فتحُ أحدَ عشرَ مِيناءً صينيًّا للتجارة البحرية، والسماحُ للتُّجار والبعثاتِ التبشيرية بالتوغُّل في البلاد، وإقامةُ نظامٍ جُمركي بَحري يشرفُ عليه مُفتّشٌ أجنبي، وإجازةُ تجارةِ الأفيون، وفتحُ نهر يانغتسي للمِلاحة التجارية، ودفعُ تعويضاتٍ لبريطانيا وفرنسا.

مَعركةُ غاليبولي.. شْناقْ قَلعة

معركةُ غاليبُولي أو شْنَاقْ قَلعةْ أو الدَّردَنيل كانتْ تهدفُ إلى غَزو إسطنْبول عاصمةِ الدولة العُثمانية، وترجعُ فكرةُ اقتحامِ الدَّردنيل أصلاً لونستون تشِرشِل أيامَ كان وزيرًا للبَحرية البريطانية حيثُ فشلتْ الحملةُ البَحرية البريطانية (18 مارس 1915) حينَ اصطدَم الأُسطولُ البريطاني بحَقلٍ خَفي مِن الألغام في مِياه الدَّردنيل، وأُصيبَ بأضرارٍ بالغة، تنحَّى على إثرِه تشرشِل عن مَنصبِه في البَحرية البريطانية. وفي أبريل 1915 نزلتْ الجُيوشُ الإنجليزية والأسترالية والنيوزلَّندية بعدَّة جهاتٍ في شِبهِ جَزيرة غاليبولي، ونزلتْ قوةُ فرنسا على الشاطئِ الآسيوي.

القَشْلَة:

بنَى القَشْلة والي بغداد مُحمد نامِقْ باشا سنة 1850ميلادية وأكملَهُ الوالي مِدحتْ باشا. اتُّخذَ مِنْ مَبنى القَشْلة مَقرًا لبَعض الدَّوائِر والوِزارات في الدولةِ العِراقية، واعتُبرَ تاريخيًا وتُراثيًا، وهي واحدةٌ مِنْ أهمِّ البِنايات التاريخية على ضِفافِ نهرِ دِجلة حيثُ تُوِّجَ فيه الملكُ فَيصل الأوَّل.

الجِنْفاص:

هو الكنْفاس، نوعٌ مِن القِماشِ المَتين الذي يُصنعُ مِن القُطن أو الكُتَّان، ويُستخدمُ لصُنعِ الخِيَم وأشرِعَة السُّفن والأكياسِ المُخصَّصَة لحَملِ الأشياءِ الثقيلة.

غلافُ رِواية "خاتونْ بَغداد"

روايةٌ ذاتُ طَعمٍ خاصّ اعتمدتْ على الوثائِق ولكنَّها ليستْ وثائقيَّة، ولا تُؤرِّخُ بقدرِ ما ترصُدُ الصِّراعَ المَليء بالعَواطفِ والأحَاسيس لأُسطورةٍ حيّةٍ وامرأةٍ إشكاليَّةٍ هي مِسْ غيرترود بيل الّتي عاشتْ وماتتْ في بَغداد. وتعتمدُ الرّواية في تِقنيَّتِها على شخصيَّاتٍ مَهوُوسةٍ بهذه المرأة التي صنعتْ المُلوك في الشَّرق: الملكُ فَيصل الأوَّل والملكُ سُعود بنْ عَبد العزيز. ووَطدَتْ علاقتَها السياسيَّة مع كِبار القادةِ والسِّياسيّين أمثالَّ السير بيرسي كوكِسْ وهنري دوبسْ والمِستر جون فيلبي وتشِرشِل ولورَنسْ العَرب. نجحَ المُؤلِّفُ في الخُروجِ عن سكَّةِ السَّردِ التاريخي الرَّتيب، وقدَّمَ لنا حَبكةً مُتقنةً تَدورُ حولَ الاستعمارَيْن البريطانِي والأمريكِي للعِراق عبرَ شخصيَّةِ مِسْ بيل في "خاتونْ بَغداد" وستِّ شخصيَّاتٍ أُخرى افتُتِنوا بها وبَحثوا عنها كما بحثتْ شخصياتُ بيراندِيللو عن مُؤلِّف هُم: يُونس كاتبُ سيناريو، ونُعمان كاتبُ سيناريو، وهاشِم مُشغِّلُ آلةِ عَرْضٍ في سينما غرناطة، ومُنصور حارسُ مَقبرةِ الخاتون وأبو سُقراط فَيلسوفُ بَغداد وفيرناندو المُحقِّقُ الأُمَميُّ في احتراقِ مَكتبةِ بَغداد داروُا في فلكِها. أوَّلُ روايةٍ في العالَم، تُكتبُ عن مُؤسَّسةِ المَملكةِ العِراقيَّة والدُّستورِ العِراقي والمُتحفِ العِراقي والمَكتبة الوطنيَّة، إذْ لم يُكتبْ عنها سوى كتاباتٍ نقديَّة وتاريخيَّة، ولم تحظَ سابقًا برِوايةٍ أو عملٍ أدَبي أو فنّي حولَها عدا الفيلم الهوليودي "ملكةُ الصَّحراء" للمُخرج الألْماني وارنَر هيرزوغ. "خاتونْ بغداد" روايةٌ رائدةٌ تعيدُ الاعتبارَ لهذه الشخصيَّة الفذَّة التي ألَّفتْ عن العراق 16 كتابًا وأصبحَتْ جزءًا مِنْ تاريخِ العِراق المُعاصر، من خلالِ المَزجِ بين التاريخ والعاطفةِ والخَيال والسِّيرة، وكلَّ ذلك في بوتقةٍ واحدةٍ تتَجانسُ فيها عناصرُ السَّردِ والمَسرحُ والسينما والسيناريو والمُراسلاتُ بمَهارةٍ وخِفّة وجاذبيَّة قلَّ نظيرُها.

سِيرة
شاكر نوري

مِنْ مدينةِ مولدِه جَلّولاء– دِيالى، قصدَ شاكر نوري، مدينةَ أبيِه بَغداد ليَدرسَ في جامعتِها، وينالَ شهادةَ البَكالوريوسْ في الأدبِ الإنجليزيّ في 1972. بعد ذلك، عادَ إلى مدينتِه، ليَعملَ أستاذًا للُّغة الإنجليزية في الثانويَّة لمُدَّة أربعِ سَنوات، ثم قرَّرَ الهِجرةَ إلى باريس في 1977 التي مكثَ فيها حتى 2004 حيثُ حصلَ على درجةِ الماجستير في الإعلام مِن المَدرسةِ العُليا للدِّراسات وشهادة "بي. تي. أس. في التَّصوير السينمائي مِنْ مَعهد لوي لوميير في 1979 والدُّكتوراه في السينما والمسرح من جامعة السوربون في 1983. عملَ مُراسلاً ثقافيًا لعدَدٍ من الصُّحفِ والمَجّلاتِ العِراقية والعِربية وعملَ في إذاعةِ مونتِكارلو وجامعة السوربون. يعملُ حاليًا في الصَّحافةِ والإعلام والتدريس الجامعي في دُبيْ. نالَ جائزةَ ابن بطوطة لأدَبِ الرِّحلات عن كتابِه "بطاقةُ إقامةٍ في بُرجِ بابِل. يَوميَّات باريس" 2013.

صدرَ للمُّؤلف

* نافذة العنكبوت. رواية. المؤسسة العربية. بيروت 2000

* نزوة الموتى. رواية. دار الفارابي. بيروت 2004

*ديالاس بين يديه. رواية. دار الفارابي بيروت 2007

*كلاب جلجامش. رواية. الدار العربية للعلوم. بيروت 2008

* المنطقة الخضراء. رواية. دار ثقافة. أبوظبي ـ بيروت 2009

* شامان. رواية. دار كتّاب. دبي. الامارات. 2011

* مجانين بوكا. رواية. شركة المطبوعات للتوزيع والنشر. بيروت2012

*جحيم الراهب. رواية. شركة المطبوعات للتوزيع والنشر. بيروت2014

*إضافة إلى كتب فكرية وترجمات عديدة.